المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

ندوة الإمام مالك
إمام دار الهجرة

دورة القاضي عياض

الجزء الأول

مراكش
13-14-15 جمادى الأولى 1401
20-21-22 مـــارس 1981

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى ءاله وصحابته أجمعين ومن والاه إلى يوم الدين.

تصديـــر

(دورة القاضي عياض) هي : الموضوع الذي نتناوله بحول الله مع قوته بالإيضاح والتصدير في هذا الكتاب وهي مجموعة جديدة من الأبحاث والدراسات القيمة التي شاركت بها نخبة طيبة من علماء الإسلام ومن خيرة رجالات العلم والبحث والفكر داخل المغرب وخارجه متناولة فيها بعمق واصالة علما شهيرا من أعلام المذهب المالكي. ذالكم هو القاضي عياض اليحصبي السبتي رحمه الله ولقد كانت هذه الدورة المقامة بمراكش في إطار (ندوة الإمام مالك، بن أنس رحمه الله) إمام دار الهجرة، التي أمر أمير المومنين وحامي تراث المسلمين بهذا البلد الأمين جلالة الملك الحسن الثاني، المحروس بالسبع المثاني والقرآن العظيم ان تقام بقصر المحاضرات بفاس في 9 ـ 10 ـ 11 ـ 12 جمادى الثانية سنة 1400 هـ موافق 25 ـ 26 ـ 27 ـ 28 أبريل عام 1980م وأن تبقى مفتوحة أمام المشاركين كل ما كانت الظروف سانحة بذلك. فجاءت دورة القاضي عياض لتكون أولى دورة في هذه الندوة امتثالا للأمر السامي واعترافا بما لعياض من قدر مكين، ومكان رفيع وسط المغاربة وفي بلد كالمغرب ولقد أقيمت ندوة القاضي عياض بنزل سوفيتل بمدينة مراكش التي تضم رفاته الطاهر تكريما له واعترافا بفضله وإحياء لذكراه وكانت أيامها 13 ـ 14 ـ 15 جمادى الأولى سنة 1401 هـ موافق 20 ـ 21 ـ 22 مارس 1981م تلكم هي دورة القاضي عياض التي يشرف وزارة

الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية ان تقدمها مطبوعة إلى القراء الكرام في ثلاث مجلدات مقسمة كالتالي :

1) المجلد الأول : عياض : حياته وعصره.

2) المجلد الثاني : عياض : المحدث والفقيه.

3) المجلد الثالث : جوانب من شخصية عياض.

راجية من العلي القدير أن يجعلها نافعة للقارىء والطالب والباحث من أبناء المسلمين وأن يجزل الثواب والأجر لأمير المؤمنين وأن يحفظه في ولي عهده الأمير سيدي محمد وصنوه الأمير مولاي رشيد وأن يقر عينه بهما وكافة اخواتهما الأميرات آمين والحمد لله رب العالمين.

وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية

الهاشمي الفيلالي آمين

أثر القاضي عياض في فقه العمليات

الدكتور : عمر الجيدي

بسم الله الرحمن الرحيم

أثر عياض في فقه العمليات

لئن عرف عن القاضي عياض تضلعه في مختلف العلوم، ومشاركته الواسعة في كثير من فنون الثقافة والفكر، من حديث، وأدب، ولغة، وتاريخ، وسير.. فستظل السمة البارزة في شخصيته العلمية هي سمة الفقيه...

ذلك أن عياضا رغم هذه المشاركة الواسعة، وهذا التنوع في المعارف، فـإن الجانب الفقهي ظل طاغيا على سائر الجوانب الأخرى...

لقد قرأنا بعض ما وصلنا من أدب القاضي، فوجدناه في نثره الفني يتكلف القول، ويجهد الفكر في تخير الألفاظ. وقرأنا بعض شعره، فرأيناه دون الشعراء المطبوعين، فهو في خياله الشعري، ليس مفطورا على فن القريض، أو قل هو دون خيال الشعراء المبدعين، وفيه مع ذلك تكلف واضح على كل حال. فلنقل انه كان

أديبا متكلفا في نثره وشعره.. ولم يصلنا شيء من كتاباته التاريخية نستطيع معه الحكم على معرفة الرجل بتدوين الأخبار، وتسجيل الأحداث، وان وجدنا البعض ينوه بكتابته التاريخية... (●).

وفيما يتصل باللغة : فإن اللقطات التي نعثر عليها في كتاباته سواء في كتابه «التنبيهات» أو كتاب : «بغية الرائد»، تضع أيدينا على حقائق تفيد أن الرجل كان له ذوق لغوي جيد..

وهو في الحديث أجود منه في الأدب واللغة كليهما، ومع ذلك، فهو حتى في هذا الجانب، يقصر عن درجة المحدثين الكبار، فما وصلنا من كتبه في الحديث، لا يسمح لنا بالحكم على ثقافة القاضي في هذا الجانب، يؤهله لأن يصنف في طبقة الحفاظ، وكتابه «مشارق الأنوار» وهو أهم ما خلفه من تراث في هذا الجانب، لا يعطيه تلك المكانة، فما هو فيه إلا تابع لشيخه أبي علي الغساني فيما كتبه في هذا الموضوع، ويوم ينشر تراث هذا الأخير كتقييد المهمل (1) وغيره، سيفقد مشارق الأنوار قيمته، وربما ستنطفيء أنواره، إذ لا تكاد تبدو فيه ذاتية القاضي عياض، وإنما هو فيه سائر في ظلال شيخه.. مع ما عرف عن القاضي من عنايته الفائقة بالحديث، واهتمامه بجمعه وتقييده (2)...

أما في ميدان الفقه : فهو فيه بحر لاتكدره الدلاء، ينساب الفقه من قلمه انسياب نهر جارف، يحمل معه الثراء والعمق وحسن التعليل : قدرة على الترجيح، وقوة في الاستنباط، وبراعة في التشهير والتضعيف والاختيار، زاده تمرسه بالقضاء تضلعا فيه، يجوز معه القول : بأنه آخر من يعتد بثقافته الفقهية في الغرب الإسلامي، ولا أدل على ذلك، من أن المتأخرين من الفقهاء، كانوا يقبلون ترجيحه بدون تردد، يأخذون رأيه مسلما لا يناقش - غالبا - متى عورض بغيره، وهذا لا يدل إلا على قوة ترجيحه واستنباطه وتخريجه، ويدلك بالتالي على أن الرجل

●) نقصد الكتابة التاريخية المتخصصة وإلا فقد ذكر شيئا من هذا القبيل في موسوعته «المدارك».

1) توجد نسخة من هذا الكتاب مخطوطة بخزانة المسجد الأعظم بمكناس.

2) انظر الصلة ص : 453 ط : الدار المصرية للتأليف والترجمة.

كان يغذ السير في طلب الفقه أكثر مما كان يفعل بغيره من الفنون - خلا الحديث في الجملة - ..

وعلى الرغم من أنه لم يبلغ في الفقه درجة شيوخه أمثال : زعيم الفقهاء أبي الوليد ابن رشد. والحافظ أبي بكر ابن العربي. وأبي عبد الله ابن عتاب. وابن حمدين. وابن الحاج وغيرهم... إلا أنه كان يحوم حول مطارهم. وينطلق من منطلقهم. نقول هذا لأن القرافي عندما عدد آخر من يحتج بترجيحاتهم كابن العربي. وابن عتاب وابن رشد. وابن سهل. واللخمي. وابن زرب وأضرابهم... لم يعد عياضا من جملتهم (3) ومع ذلك يبقى بالنسبة لمن سيأتي بعده. فقيها يستنار بفكره. ويعول عليه في هذا الميدان. إذ قل أن تجد كتابا من كتب الفقه والنوازل ألف بعده خلا من ذكره وآرائه. انك لتجد اسمه يتردد وبكثرة في المصنفات الفقهية التي ألفت بعده...

لست أروم بقولي هذا : التنقيص من ثقافة عياض الأدبية والحديثية واللغوية والتاريخية. فالرجل أجل من أن يغمط في هذا المجال. وإنما القصد. أن نثبت أن حظه في هذه الفنون هو دون حظه في الميدان الفقهي. وهذا لا يضيره...

قد يخالفني في هذا الرأي غيري. إلا أن هذا لا يعدو أن يكون رأيا لي شخصيا..

وقبل أن نبرز أثر القاضي عياض في فقه العمليات. يجدر أن نعرف بالعمل أولا. لنرى كيف بدأ ؟ وكيف نشأ وتطور ؟ وما هي الحالة التي استقر عليها لدى متأخري الفقهاء ؟ ...

فالعمل في أبسط تعريف له هو : اختيار قول ضعيف والحكم والافتاء به. وتمالؤ الحكام والمفتين بعد اختياره على العمل به لسبب اقتضى ذلك. أو هو : العدول عن القول الراجح او المشهور في بعض المسائل الى القول الضعيف فيها رعيا للمصلحة ...

---

3) مع أننا نرى هذا الرأي من القرافي غير كاف في الدليل إلا أنه يمكن الاستئناس به في هذا الموضوع.

ولا بد من توضيح هذا التعريف بيسير من القول لتتضح سماته، وتبرز ملامحه لدى القارىء، ذلك أن بعض المسائل يكون فيها خلاف بين فقهاء المذهب، فيعمد بعض القضاة إلى الحكم بقول يخالف المشهور لسبب من الأسباب، كدرء مفسدة، أو خوف فتنة، أو جريان عرف في الاحكام التي مستندها العرف، أو تحقيق مصلحة، أو نحو ذلك، فيأتي من بعده ويقتدي به، مادام المسوغ الذي لأجله خولف المشهور قائما، وليس في هذا مخالفة للاصول كما يظن، لأن العمل بالضعيف إذا كان لدرء مفسدة، فهو على أصل مذهب مالك في سد الذرائع، وإذا كان لجلب مصلحة، فهو على أصله في اعتبار المصلحة المرسلة، ونفس الأمر بالنسبة للعرف، إذ هو من جملة القواعد التي بنى العرف عليها كما بسطنا القول فيه في غير هذه العجالة (4) وكل هذا إذا لم يخالف نصا، أو يصادم مصلحة أقوى، بحيث لو زال ذلك المسوغ الذي كان سببا لقيام العمل، عاد الحكم للمشهور حتما.

وأصل ابتداء العمل بالشاذ وترك المشهور، الاستناد إلى اختيارات شيوخ المذهب المتأخرين، وتصحيحهم لبعض الروايات والأقوال الموجبة لذلك (5).

المستند في ذلك :

ومستندهم في ذلك قول عمر بن عبد العزيز... «تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور»، وما روي عن القاضي شريح أنه أحدث في القضاء ما لم يكن مألوفا، فقد روى ابن سعد أن أبا البحتري جاء شريحا فقال له : ما الذي أحدثت في القضاء ؟ فأجاب : ان الناس أحدثوا فأحدثت . وشبيه بهذا قول زياد بن أبيه في خطبته الشهيرة.. «وقد أحدثتم أحداثا لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة».

ويعزي بعض الفقهاء السبب في قيام العمل : إلى التقهقر الذي حصل في سلوك المجتمع في علمه ودينه، والضعف والهوان اللذان أصابه، لما للأحكام من

---

4) انظر ذلك مفصلا في كتابنا العرف والعمل في المذهب المالكي مطبوع على «ستانسيل» بمكتبة دار الحديث الحسنية.

5) انظر نور البصر ص 164 للهلالي (طبعة حجرية).

الارتباط بالسياسة والدولة. فتضعف الأفكار في الاجتهاد والاستنباط تبعا لذلك. ففي عهد قوة الدولة وعظمتها، لا تلجأ لمثل هذا. لكن عندما تضعف وتتقهقر لا تستطيع السير مع القول المشهور والالتزام به. لذلك رجح بعض الأئمة الذهاب مع بعض الأقوال الضعيفة كلما اقتضى الحال ذلك. فسار هذا اللون من التشريع تدريجيا.

وقد وصف بعض الفقهاء هذه المرحلة : بمرحلة تقهقر الفقه (6). وعدها القاضي ابن العربي بقاصمة العلم إذ قال : «ثم حدثت حوادث لم يلقوها في نصوص المالكية، فنظروا فيها بغير علم فتاهوا. وجعل الخلف منهم يتبع في ذلك السلف حتى آلت الحال ألا ينظر إلى قول مالك وكبراء أصحابه. ويقال : قد قال في هذه المسألة أهل قرطبة وأهل طلمنكة وأهل طليطلة وأهل طلبيرة، فانتقلوا من المدينة وفقهائها إلى طلبيرة وطريقها. وحدثت قاصمة أخرى تعلم العلم فيرجع القهقرى أبدا إلى وراء على أمه الهاوية (7). وهي المرحلة التي نعتها الفقيه الحجوي بمرحلة «هرم الفقه».. (8).

والمعروف تاريخيا أن ابتداء العمل بهذه الأقوال الضعيفة بدأ بالأندلس لأن علماءها كانوا أقدر من غيرهم على تطوير الأحكام وتوجيهها تبعا للمصلحة (9). ولا يعرف بالضبط التاريخ الذي بدأ فيه هذا العمل. والذي يستنتج من بعض الوقائع التاريخية، أن ذلك كان حوالي القرن الرابع الهجري. يدل على ذلك أمور منها :

1) ان الدولة الإسلامية في الأندلس عندما كانت في أوج عظمتها وعزتها كانت أحرص على متابعة المشهور والراجح، مشددة على قضاتها في عدم الخروج عنهما، فلم يقلد الفقهاء الأقوال الضعيفة أو الشاذة. لكن عندما دب الضعف إلى

---

6) انظر في هذا ملحق جريدة المغرب عدد : 1 سنة 1938.

7) العواصم من القواصم 2 / 492 تحقيق د : عمار طالبي.

8) الفكر السامي : 4 / 226 ط : 1.

9) انظر ملحق جريدة المغرب السالف ذكرها.

الدولة. سرى ذلك الضعف إلى علمائها. ومن المعلوم أن الفقه مادة اجتماعية يتأثر بتأثر المجتمع. إذ يرتبط به ارتباط العلة بالمعلول. وكان هذا الضعف قد أصاب المجتمع الأندلسي في القرن 4 هـ.

2) ثبت أن الإمام ابن الهندي (10) أحد أصحاب الشورى في الأحكام نص على جريان العمل بالقول بإعطاء الخصم نسخة خصمه كيفما كانت تلك الحجج مشكلة كانت أم لا. وقد كان الحكم قبله يجري في هذه المسألة بالمشهور. وهو أن لا تعطى النسخ إلا إذا كانت مشكلة. والمعروف أن هذا العالم كان يعيش في القرن 4 هـ.

3) ثبت أيضا أن الإمام ابن لبابة (11) كان يأخذ بما جرى به العمل في مسألة الخلطة (12) وغيرها... ابن لبابة هذا كان يعيش في القرن 4 هـ كذلك.

4) ما ورد في أزهار الرياض (13) من أن القاضي منذر بن سعيد البلوطي (14) كان يؤثر مذهبه الظاهري. ويجمع كتبه. ويحتج بمقابلته. ويأخذ به في نفسه وذويه. فإذا جلس للحكم. قضى بمذهب مالك وأصحابه بالذي استقر عليه العمل في بلدهم. وحمل عليه السلطان أهل مملكته. ومعلوم أن ولاية هذا القاضي بقرطبة كانت سنة 339 هـ (15).

5) ما نقله المحقق السجلماسي في «العمل المطلق» أن ابن حارث قال : «وأخبرني من أثق به أنه جرى العمل عند الشيوخ بإيجاب الشفعة. فقضى منذر بذلك وابن حارث هذا كان يعيش في القرن 4 هـ.

---

10) أبو عمر أحمد بن سعيد بن إبراهيم الهمداني المعروف بابن الهندي ولد سنة 320 وتوفي سنة 399 هـ.

11) أبو عبد الله محمد بن عمر بن لبابة القرطبي فقيه حافظ مفتي مشاور توفي في شعبان سنة 314 هـ.

12) انظر في معنى الخلطة : حاشية الهواري على شرح التاودي للامية الزقاق ص : 290 ط. ح.

13) أزهار الرياض : 2 / 295 تحقيق السقا والأبياري.

14) القاضي منذر بن سعيد البلوطي إمام محدث أديب له مؤلفات عدة. ولد سنة 273 وتوفي عام 355 هـ (886 - 966م).

15) انظر المرقبة العليا ص : 74.

ثم لا يزال هذا العمل يحدث بتلك الأقوال ويتجدد في بعض المسائل كلما اقتضى الحال والمصلحة ذلك. بحيث لم يكد يمضي من هذا القرن نصفه الأول حتى كانت لفظة «ما جرى به العمل» جارية على ألسنة الفقهاء ومبثوثة في كتبهم ومؤلفاتهم. ولا نمضي، في الزمن إلا قليلا ونصل إلى القرن الخامس الهجري حتى نرى هذا «العمل» صار له من الذيوع والانتشار ما غطى مجموع تآليف الفقهاء. بل أن بعضهم خص بالتأليف كتابا كل ما ذكر فيه من مسائل نص على أن العمل بها جرى. كما هو الشأن بالنسبة لأبي الوليد الباجي (16) ثم يكثر في مؤلفات ابن عتاب (17) وابن سهل (18) وغيرها من كتب الأحكام. كتحفة ابن عاصم (19) التي أكثر فيها من ذكر العمل.. ويحدثنا أبو الوليد ابن هشام صاحب كتاب «المفيد» والمتوفى عام 530 هـ أن العمل في عهده جرى في اثنتين وعشرين مسألة خالف فيها أهل الأندلس مذهب الإمام مالك وابن القاسم. منها أربعة خالفوا فيها الإمام مالكا (20). ثم تتابع العمل بالمغرب، وصارفيه تدريجيا إلى أن ضخمت مسائله. ودخل في غالب أبواب الفقه. وعقد له المؤلفون فصولا في تآليفهم. كالشيخ الزقاق (21) الذي عقد في لاميته فصلا بما جرى به العمل. ثم جاء بعده أبو العباس أحمد بن القاضي (22) فألف كتاب «نيل الأمل فيما به بين المالكية جرى العمل» (23) وتلاه العربي الفاسي (24) فألف كتابا صغير الحجم خصصه لدراسة شهادة اللفيف (25) وجاء بعد هؤلاء الشيخ ميارة (26) فألف في مسألة بيع

---

16) هذا الكتاب هو بعنوان «مناهج الأحكام» والجدير بالذكر أن الكتاب ينسب أيضا للقاضي عبد الوهاب.

17) أبو محمد عبد الله بن محمد بن عتاب المولود عام 433 هـ والمتوفى عام 528 هـ.

18) أبو الأصبغ عيسى بن سهل القرطبي الفقيه النوازلي الشهير 413 ـ 486 هـ.

19) أبو بكر محمد بن محمد بن عاصم الغرناطي فقيه أصولي محدث 770 ـ 829 هـ.

20) انظر تفصيل ذلك في كتاب «العرف والعمل في المذهب المالكي» لصاحب البحث 330/2.

21) أبو الحسن علي بن قاسم الزقاق التجيبي الفاسي إمام جليل توفي عام 912 هـ.

22) أبو العباس أحمد بن عمر بن أبي العافية شهر بابن القاضي فقيه مؤرخ 960 ـ 1025 هـ.

23) يذكر المقري في روضة الآس ص 299 ط : الملكية أن عهده بالكتاب كان على وشك النهاية لما أطلع عليه.

24) أبو عبد الله محمد العربي بن يوسف الفاسي فقيه أديب 960 ـ 1025 هـ.

25) يوجد هذا التأليف مخطوطا بالمكتبة العامة بتطوان رقم 580.

26) أبو عبد الله محمد بن أحمد ميارة الفاسي 999 ـ 1072 هـ.

الصفقة (27) ثم أفرد له علماء آخرون أتوا بعدهم كتبا وتآليف ومنظومات بوبوها على أبواب الفقه. اعتنى بها الفقهاء وتصدوا لشرحها وتوضيحها (28) كما فعل الشيخ عبد الرحمن الفاسي (29) الذي نظم فيه منظومة ضمنها حوالي ثلاثمائة مسألة مما جرى به العمل بفاس. وتصدى لشرحها بنفسه إلا أنه لم يكملها (30) كما شرحها غيره أمثال : القاضي العميري (31) والسجلماسي (32) والمهدي الوزاني (33). ثم جاء أبو القاسم السجلماسي فألف في العمل المطلق دون أن يتقيد بعمل بلد معين وشرحه بنفسه (34) كما أن بعض علماء سوس ألف في العمل السوسي منظومة مرتبة على أبواب الفقه (35) ولم يعد هذا المصدر معمولا به في فقه المعاملات يأخذ به القضاة والمفتون فحسب بل انهم أجروه حتى في العبادات . وفي فنون أخرى كعلم القراءات مثلا إذ اعتمدوه وبنوا عليه أحكاما جرى بها عمل المهتمين بعلم الرسم.

يذكر ابن القاضي أنه جرى العمل لدى القراء بأشياء مخالفة للمشهور لما كان عليه القراء قديما. فأخذوا به كما أخذوا بالعمل في الأحكام. وتركوا المشهور والراجح. إذ جرى عملهم مثلا بضبط فواتح السور ونقطها. وجرى العمل في حروف «ينفق» إذا تطرفت النقط. والعمل في الياء المهموزة والممالة والزائدة عدم النقط وهو خلاف الأولى والنص (36).

---

27) سماه «تحفة الأصحاب والرفقة»... يوجد مخطوطا بالخزانة العامة بالرباط رقم 889 د.

28) انظر تفصيل ذلك في كتاب «العرف والعمل في المذهب المالكي 2 / 331.

29) أبو زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي فقيه مؤلف مكثر 1040 ـ 1096 هـ.

30) توجد نسخة من هذا الشرح في خزانة الرباط العامة تحت رقم 1447 د.

31) سماه الامليات الفاشية من شرح العمليات الفاسية توجد منه نسخ متعددة مخطوطة بالخزانة الملكية احداها تحت رقم 2736.

32) أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الفلالي السجلماسي المتوفى 1214 هـ.

33) له عليه شرحان : كبير لم يطبع يوجد مخطوطا بالخزانة العامة بالرباط 1679 د وطبع الصغير.

34) طبع على الحجر بفاس.

35) هو الفقيه أبو زيد عبد الرحمن الجشتيمي والمنظومة قيد التحقيق .

36) بيان الخلاف والتشهير ص : 4 مخطوط استاذنا الجليل المحقق سعيد أعراب.

وجرى العمل في المغرب بوقف القرآن وهو شيء استحدث في النصف الأول من القرن العاشر الهجري على يد عبد الله الهبطي السوماتي (37).

ارتباط العمل المغربي بالعمل الأندلسي :

ثم ان المغرب لما كان مرتبطا بالأندلس بحكم الجوار والمسافة والحكم - في بعض الأحيان - فقد تأثر العمل المغربي بالعمل الأندلسي، وصار يجري فيه - في بعض المسائل - الحكم والفتوى بالأقوال الضعيفة، إذ انتقلت عدوى العمل من الأندلس إلى المغرب، غير أن البداية تبقى في مجاهيل التاريخ، إذ لا يعلم بالضبط تاريخ ابتداء العمل بالمغرب، وكل ما نعلمه أنه كان قطعا قبل القرن 10 هـ على أن بعض القرائن والوقائع تفيد أنه بدأ في القرن الثامن هـ، ومن هذه القرائن شهادة اللفيف التي جرى بها العمل، فإنها لم تكن معمولا بها في القرن 7 هـ، ولا أوائل القرن 8 هـ، فقد سئل أبو الحسن الصغير (38) الذي كان يعيش في القرن السابع وأوائل الثامن عن رسم شهد فيه أحد وثلاثون رجلا هل يكتفي فيه بهذا العدد أو لابد من عدلين ؟ أجاب : «لابد من عدلين أو ينتهي العدد إلى حد التواتر (39)، كما أن الشيخ أبا حفص الفاسي (40) في شرح الزقاقية يذكر أن شهادة اللفيف جرى العمل بها قبل الالف (41) فيستفاد من هذين النقلين أن جريان العمل بشهادة اللفيف في المغرب كان من بين القرنين الثامن والعاشر.

ونحن لا نستبعد أن يكون العمل المغربي بدأ في القرن الثامن الهجري، إذ هذه الفترة هي التاريخ الذي استقل فيه المغاربة بالتشريع بعد ما ضعف حاله في الأندلس بالقضاء على دولة الإسلام هناك وانتقال علمائها إلى المغرب وازدهار الحضارة والثقافة في هذا الأخير، وإنما الذي نستبعده هو ما صرح به الحجوي من

---

37) أبو محمد عبد الله بن أبي جمعة الهبطي السوماتي المقرىء الشهير واضع وقف القرآن توفي سنة 932 هـ.

38) أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الحق الزرويلي الغماري الخمسي عرف بالصغير المتوفى 719 هـ.

39) انظر الدر النثير ص : 7 ملزمة 50.

40) أبو حفص عمر بن عبد الله بن يوسف بن العربي الفاسي المتوفى في رجب سنة 1188 هـ.

41) شرح الزقاقية ص : 7 ملزمة 12.

أن المغاربة صار لهم عمل مخصوص بهم زمن الملثمين ثم الموحدين ثم بني مرين (42) لأن العمل في هذه العصور كان موحدا شأن كل المظاهر الثقافية والسياسية والإجتماعية.

وهكذا سنرى المغاربة يستقلون بعمل بلدهم. لأن استقلالهم السياسي منعهم من الاستمرار في تقليد متأخرى فقهاء غرناطة. ومن ثم أخذ يظهر نوعان من العمل في المغرب : نوع منه يسمى بالعمل المطلق. أي ما يجري به العمل مطلقا في مذهب مالك غير مقيد بقطر معين. ولا بمكان مخصوص. ونوع آخر يسمى العمل المحلي المنسوب لبلدة معينة يخصها ويقصر عليها. وهكذا أخذ هذا العمل الخاص ينمو شيئا فشيئا. تغذيه الحوادث باستمرار. على خلاف النوع الأول الذي بقي جامدا لا يتجدد. وإنما يقتصر فيه على ما نقل منه قديما.

وهنا نتساءل : لماذا كان عمل المغاربة جاريا على عمل أهل الأندلس ومرتبطا به - قبل أن يستقل العمل المغربي بنفسه - دون عمل غيره كعمل القيروان مثلا. والجواب عن هذا التساؤل من ثلاثة أوجه :

أ - أن الأندلس حوت من العلماء أكثر مما حوته إفريقية (تونس) وأن تأثير قرطبة في المغرب كان أقوى من تأثير القيروان...

ب - أن أمراء الأندلس كانوا يتصفون بالعدل والاعتدال في نظمهم ومذهبهم السني بخلاف العبيديين (الشيعة) بالقيروان. فمال المغاربة إلى أولئك ونفروا من هؤلاء.

ج - قرب المغاربة من الأندلس وتوحيدها في الحكم غالبا أكثر مما كان عليه الوضع بالنسبة للقيروان..

لهذه الأسباب كانوا يأخذون بعمل الأندلس غالبا. ويقدمونه على عمل القيروان.

---

42) انظر الفكر السامي : 4 / 227.

يقول القاضي اليزناسني (43) : الذي أخذناه عن الأشياخ من أهل الأحكام والموثقين أن عمل بلدنا (تلمسان) وما بعدها من مدن المغرب كفاس ومراكش إنما هو على عمل الأندلس لا على عمل تونس ومصر.. (44) ونقل التوزري عن بعض العلماء أن «عمل تونس ومصر واحد. وعمل المغرب والأندلس واحد (45).

ثبوت العمل :

اتفق الفقهاء على أنه لكي يصبح للعمل قوة النفوذ والاعتبار. وتعطاه الصبغة القانونية. لا بد فيه من توافر الأركان الآتية :

أ ـ أن يكون العمل المذكور صدر ممن يقتدى به في الأحكام.

ب ـ أن يثبت بشهادة العدول المتثبتين في المسائل الفقهية.

جـ ـ أن يكون جاريا على قواعد الشرع.

واختلفوا في الكيفية التي يثبت بها. ذهب بعضهم إلى أن جريان العمل يثبت بقول عالم واحد موثوق به. لأنه من باب الخبر الذي يكفي فيه خبر الواحد. بينما يذهب البعض الآخر إلى أنه لا بد لإثباته من موافقة عالمين.

والرأي الأول ذهب إليه أبو العباس الهلالي (46) إذ ورد في كلامه أن العمل يثبت بنص عالم موثوق به (47). وتبعه في ذلك المهدي الوزاني (48) والشريف العلمي (49).

أما الرأي الثاني فقد ذهب إليه المحقق السجلماسي الذي يرى أن العمل لكي يثبت لا بد فيه من اتفاق ثلاثة من العلماء أو القضاة. وهو رأي الشيخ

---

43) أبو العباس أحمد بن عبد الله اليزناسني العبد لوادي التلمساني شارح التحفة هكذا عرف به الشيخ ميارة في شرحه لها انظر : ج 1 / 3.

44) وشي المعاصم ورقة 40 مخطوط خاص.

45) توضيح الأحكام : 1 / 22.

46) أبو العباس أحمد بن عبد العزيز الهلالي السجلماسي انظر شجرة النور ص : 355.

47) انظر نور البصر ص : 134.

48) انظر حاشيته على شرح التاودي لتحفة ابن عاصم 1 / 241 ط : ح.

49) انظر تحفة الأكياس : 1 / 5 ط. ح.

الرهوني في أحد قوليه (50) وتبعهما الشيخ التسولي على ذلك (51).

والمفروض أن الأحكام ينبغي أن تسير على وفق المشهور والراجح، لأن الحكم بهما واجب إذ هو من الأصول الشرعية العقلية (52). والعمل بالضعيف في الفتوى حرام إلا لمجتهد ظهر له رجحانه، وبذلك لا يبقى ضعيفا عنده، ولا عند من قلده، أو لضرورة دعت المقلد للعمل به في نفسه يوما ما. ويشترط في القاضي الذي حكم به أن يكون فقيها عدلا لا جائرا، ولا جاهلا. وأن يكون من الأئمة المقتدى بهم في الترجيح (53) بحيث يتبين له رجحان القول الذي عمل به بأدلته التي منها المرجحات المذكورة لدى العلماء. وإلا فلا يجوز ترك المشهور والأخذ بالشاذ أو الضعيف بغير مرجح، إذ الفتوى بغير المشهور توجب عقوبة المفتي (54). وعليه، فالعمل لا يعتمد إلا إذا جرى بقول راجح، أو من قاضي مجتهد الفتوى بين وجه ترجيح ما عمل به، لأن المجتهد هو الذي يقدر على تمييز ما هو مصلحة، وما هو مفسدة أو ذريعة إليها، ويميز ما هو في رتبة الضروريات أو الحاجيات، وما هو في رتبة التحسينات. فما ألجأت إليه المحافظة على النفس أو الدين أو النسل أو المال أو العرض فهو في رتبة الضروريات. ويلحق بهذا ما كان في رتبة الحاجيات ومعلوم أن المذهب المالكي مبني على اعتبار الحاجيات وإلحاقها بالضروريات. أما ما كان في رتبة التحسينات فلا يعتبر مرخصا في الخروج عن المشهور (55).

وقد أكثر المتأخرون من الفقهاء بالأخذ بالضعيف. ويعزي «الولاتي» السبب في ذلك إلى أن فتاوي المتأخرين أكثر مبناها على المصالح المرسلة والعوائد وسد

---

(50) اضطرب رأي الشيخ الرهوني في العدد الذي يثبت به العمل، فمرة قال : يثبت بقول عالمين، ومرة قال لابد من ثلاثة ـ انظر حاشية المهدي الوزاني على التحفة 1 / 241.

(51) البهجة : 1 / 22.

(52) انظر حاشية البناني على شرح المحلى لجمع الجوامع : 2 / 361.

(53) نور البصر ص 131.

(54) البهجة : 1 / 22.

(55) انظر شرح المواق لمختصر خليل 5 / 390 على هامش شرح الحطاب.

الذرائع، وإزالة الضرر، وارتكاب أخف الضررين إذا تعارضا (56).

شروط العمل :

ليس كل ما جرى به العمل يكون محترما حتى يقدم على المشهور أو الراجح. فقد يكون القول جرى به العمل وهو صادر عن أشخاص ليست لهم أهلية ترجيح الأحكام. اما لجهلهم أو جورهم أو جريهم مع هواهم. ومن أجل ذلك اشترط الفقهاء في العمل لكي يقدم على المشهور أو الراجح شروطا لا بد من توافرها وهي :

أ ـ ثبوت جريان العمل بذلك.

ب ـ معرفة محلية جريانه عاما أو خاصا بناحية من النواحي المكانية.

ج ـ معرفة الزمان.

د ـ معرفة كون من أجرى ذلك العمل من الأئمة المقتدى بهم في الترجيح.

هـ ـ معرفة السبب الذي لأجله عدلوا عن المشهور إلى مقابله (57).

وإن كان الشيخ ميارة لم يشترط إلا شروطا ثلاثة وهي : كون العمل المذكور صدر ممن يقتدى به، وثبوته بشهادة العدول المتثبتين في المسائل وجريانه على قواعد الشرع وإن كان شاذا (58).

موقف الفقهاء من العمل :

لكي نعرف موقف الفقهاء من العمل ننقل فيما يلي بعض النصوص الصادرة عن بعضهم لنرى من خلالها موقفهم من هذا المصدر الذي جروا عليه، والاتجاه الذي سلكوه في هذا الشأن ومن ذلك قول ابن عبد البر : «إذا رأيت الرجل يعمل بالعمل الذي اختلف فيه وأنت ترى غيره فلا تنهه (59). وقال المازري : «إذا كان القاضي على مذهب مشهور عليه عمل أهل بلده نهي عن الخروج عن ذلك

---

56) (حسام العدل والإنصاف) مخطوطتي الخاصة...

57) نور البصر ص : 164.

58) حاشية الوزاني على شرح التاودي للامية الزقاق ص : 263.

59) سنن المهتدين ص 5 ملزمة 2.

المذهب.وإن كان مجتهداأداه إليه اجتهاده إلىالخروج عنه.لتهمة أن يكون خروجه هوى أو ضعفا»، (60) وقال ابن لبابة :«إذا كان عمل الناس على قول لبعض العلماء فلا ينبغي إنكاره.لاسيما ان كان الخلاف في كراهته» (61). ويقرر ابن فرحون أن نصوص المتأخرين متواطئة على أن ما جرى به العمل مما يرجح به القول الضعيف (62). وذكر الإمام النظار أبو إسحاق الشاطبي : أن الناس يتركون على عملهم وان خالف أهل المذهب (63). ويرى الحطاب أن الحاكم إذا حكم بقول لزم العمل به (64). واعتبر الأجهوري أن العمل متى كان راجحا لم يجز للقاضي ولا للمفتي العدول عنه إلى غيره وإن كان مشهورا (65)... إلى غير ذلك من الأقوال المشابهة (66)....

ولكي نعرف مدى ما كان للعمل من حاكمية في نفوس الفقهاء، أن القاضي كان يعزل إذا لم يحكم بما جرى به العمل. كما حدث للحافظ القوري(67)عندما أفتى بعدم لزوم بيع المضغوط فكان ذلك سببا في تأخيره عن مجلس الشورى (68) وكما حدث للفقيه السراج (69) عندما عارض شهادة الابن مع أبيه على خلاف ما أفتى به القاضي الحميدي (70) فأخر عن الافتاء (71). فكل من الإمامين القوري والسراج أفتيا بالقول المشهور. ومع ذلك أخرا عن الفتوى لأنهما لم يذهبا مع القول الذي جرى به العمل. مما يدل على قوة هذا الأخير. إلا أن هذه النظرة

---

60) شرح التحفة لولد الناظم مخطوط الخزانة الملكية رقم 9856.

61) سنن المهتدين ص، 3م 2.

62) التبصرة 1 / 58 على هامش فتاوي عليش.

63) شرح السجلماسي لعمل فاس، 1 / 333.

64) الالتزامات ص : 223 مخطوط خاص.

65) حاشية الوزاني على لامية الزقاق ص 262.

66) انظر بقيتها مفصلة في كتاب العرف والعمل في المذهب المالكي 2 / 348.

67) القوري هو : أبو عبد الله محمد بن قاسم بن محمد اللخمي فقيه شهير (شجرة النور 261).

68) انظر المسألة الشهية للجلالي مخطوط خ.ع. بالرباط رقم 7423.

69) هو أبو زكرياء يحيى بن محمد السراج المتوفي سنة 1007 هـ.

70) أبو محمد عبد الواحد الحميدي فقيه جليل (930 ـ 1003 هـ).

71) نور البصر ص : 169.

لم تكن سائدة لدى الجميع. ففيهم من كان ينتقد العمل. ويرى أن الأخذ به في الأحكام من قبيل تحريف النصوص. وهذا الموقف عبر عنه بعض الفقهاء كالطرطوشي (72) والمقري (73) وابن الصديق الغماري الذي وصف العمل بأوصاف بذيئة في كتابه «البحر العميق» (74).

تنوع العمل بالمغرب :

مما تقدم يتبين لك أن العمل أصبح مصدرا رسميا للتشريع. لذلك رأينا المغاربة أكثروا منه. وأقبلوا عليه. وتنافسوا في الأخذ به. حتى كان ذلك سبب انتشاره وتنوعه. وحتى صار لكل قطر عمله. بل ان كل حاضرة علمية اتخذت لها عملا تسير عليه.ولعل الذي دفعهم إلى ذلك. إظهار رغبتهم في التخريج والاستنباط لملاحقة التطور الزمني من جهة. وتنوع أعراف الناس وتقاليدهم من جهة ثانية. لأن العمل بني على العرف. فكان من الطبيعي أن يتغير بتغيره. ولذلك رأينا هذا العمل متنوعا فى بلدان المغرب العربي والأندلس. وكل عمل له مميزات تختلف عن مميزات الآخر وكثيرا ما يباين بعضه بعضا. بل أصبح - مع مرور الزمن - يتنوع حتى في البلد الواحد. بتنوع مدنه وأقاليمه. وشهرة علمائه وفقهائه. وكان قويا في بعض الحواضر العلمية. ضعيفا في غيرها.

فعمل قرطبة كان له من النفوذ والذيوع أكثر من غيره. حتى انه كان يغطي في بداية الأمر كل حواضر الأندلس. بل ويتعداها إلى بقية أقطار المغرب العربي في بداية نهضتها العلمية. وهذا طبيعي نظرا لشهرة علماء قرطبة وتفوقهم في العلم. وإطلاعهم على أسرار الفقه المالكي. فكان لهم قدرة على الترجيح والتخريج أكثر من غيرهم بالإضافة إلى أن أمراء الأندلس كانوا يشترطون على القضاة عند توليتهم أن يأخذوا «بشرط قرطبة» كما يحكى عنهم المقري (75).

---

(72) أبو بكر محمد بن الوليد القرشي الفهري المعروف بالطرطوشي (451 - 520 هـ).

(73) قاضي الجماعة بفاس أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد القرشي التلمساني شهر بالمقري (تـ 756).

(74) يوجد الكتاب مخطوطا بالمكتبة العامة بتطوان لم يعطاه رقم بعد.

(75) النفح : 1 / 556 تحقيق د : إحسان عباس.

وأيضا فإنها جمعت من العلماء ما لم يجتمع لغيرها من مدن الغرب الإسلامي، وبذلك كانت في عهودها الزاهرة قبلة الفقه والفقهاء. **يقول السجلماسي** : «من الأشياء التي انفردت به قرطبة ما استحسنه فقهاؤها» (76).

ونظرا لهذا النفوذ الذي حظيت به، وما كان لفقهائها من اطلاع وتمرسهم بالفتوى والقضاء والشورى، كان لزاما على كل من يتصدى للقضاء أن يلتزم بالقضاء بين الناس بعمل أهل قرطبة.

جاء في النفح «اعلم انه لعظم أمر قرطبة كان عملها حجة بالمغرب، حتى انهم يقولون في الأحكام هذا مما جرى به عمل قرطبة» (77) وقد بسطنا القول عن شرط قرطبة والاحتجاج به، وموقف الفقهاء منه في غير هذا المحل (78).

أما في المغرب فقد تنوع العمل فيه تنوع أقاليمه، وهكذا كان عمل فاس، وعمل مراكش، وعمل تلمسان وعمل سوس. وقد اتخذ علماء سبتة عملا يخصهم كما يظهر من عملهم في جواز توكيل مقدم القاضي من ينوب عنه في التصدق على المحجور وبيعه على خلاف المشهور (79)، واستحدث «الغماريون» عملا خاصا بهم طبقوه في بلادهم، فقد تناقلت كتب النوازل فتاوي لم نر العمل بها جاريا عند غيرهم من مثل : إعطاء المرأة قسمة مساوية للرجل في العمل، إذ كانت تقاسمه فيما نتج بينهما من زرع أو ضرع (80)، كما جرى عملهم بنوع من الشركة في الماشية لا توجد إلا في بلدهم... إلى غيرها من المسائل (81) غير أن ما يجدر ذكره في هذا السياق - أعني تنوع العمل - هو ذلك التهافت الذي كان يدفع العلماء لأن يوجهوا هذا العمل وجهة إقليمية اتسمت في بعض الأحيان بالتعصب

---

76) انظر فتح الجليل الصمد (مخطوط).

77) نفح الطيب 1 / 556.

78) انظره إن شئت في كتاب العرف والعمل في المذهب المالكي 2 / 356.

79) فتح الجليل الصمد (مخطوط).

80) انظر كتاب «ابن عرضون الكبير حياته وآثاره» ص : 209 لكاتب البحث.

81) انظر تفصيل ذلك في كتاب العرف والعمل في المذهب المالكي 2 / 356.

الإقليمي. تدفعهم روح الوطنية الضيقة فيؤلفوا للناس أجوبة يزعمون أنها تتمشى وطبيعة بلدهم. وكثيرا ما اتخذوا سندهم في ذلك دوران العمل على العرف. فحيث كان العمل مبينا على العرف. وحيث أن الاعراف تختلف من بلد إلى بلد. فلا مانع من أن يؤلف لكل بلد عمل يناسبه في أحواله وتصرفاته ونوازله وحوادثه. فلا معنى لأن يظل عمل بلدة ما مسيطرا على بلدة أخرى.

وعلى الرغم من أن هذا المستند يبدو من الوجهة النظرية معقولا. إلا أن غرض بعض الفقهاء لم يكن دائما يتسم بالجدية. الشيء الذي يتنافى مع روح التشريع الحق. وبالفعل فقد رأينا بعض المؤلفات ما بين منظوم ومنثور راجت في المغرب في العصور المتأخرة لم يكن يخلو بعضها من اسفاف. فتجيء اما مكررة لما سبقها. أو تتمشى في جلها مع ما هو معروف في الفقه الأصلي بحيث يجيء الكتاب متضمنا لما هو متداول في كتب المذهب ليس فيه من الطابع المحلي ما يبرر اطلاق اسم العمل عليه (82).

ونشير في خاتمة هذا العرض السريع. إلى أن العمل في المغرب قد توحد في السنين الأخيرة. بحيث لم يعد هناك عمل يطبق في منطقة بعينها. بل عم مجموع أنحاء المغرب. وأصبحت المسطرة تجري موحدة. إذ طلب من القضاة أن يحكموا في النوازل بما شهر من مذهب مالك. أو راجحه. أو ما جرى به العمل. فتقيدوا بذلك. ولم يعد هناك أي مبرر يتعلق به القضاة بعدما نظمت المسطرة. وتقاربت أحوال المجتمع. وتوحدت ظروفها وأعرافها وعاداتها وتقاليدها.

هذه جولة خاطفة في «العمل» قصدنا من ورائها : اعطاء فكرة موجزة عن هذا المصدر التشريعي الذي اعتمد عليه الفقهاء في التخريج والاستنباط. ونحاول الآن أن نبرز أثر عياض في هذا اللون من التشريع. وقبل ذلك نشير إلى أننا لو حاولنا تتبع كل المسائل التي جرى العمل بها طبقا لرأي عياض. لما وسعنا هذا البحث. إذ أن الكتب التي ألفت بعده. مليئة بذكر آرائه. ويكفي أن نعرف أن

---

82) انظر العرف والعمل في المذهب المالكي 2 / 362.

كتابا واحدا فقط. قد استشهد فيه صاحبه برأي عياض في نحو ست وثلاثين مسألة (83) وقل مثل ذلك في بقية المصنفات التي اهتمت بهذا الموضوع.

وقد كان بودنا أن نستعرض طائفة من المسائل التي جرى العمل فيها برأي عياض. وبما أن هذا التمهيد قد أخذ منا حيزا طويلا. فإننا نكتفي بعرض مسألة واحدة فقط. جرى العمل فيها برأي عياض وهي مسألة «بيع الصفقة» ومن خلالها ندرك أثره في غيرها. فلنعرف بها أولا :

التعريف بها لغة وإصلاحا : الصفقة بفتح الصاد وسكون الفاء : المرة من الصفقة كالضربة من الضرب. وفي الأثر : «ألهاني الصفق في الأسواق» (84) وأصله من التصفيق وهو الضرب بباطن الراحة على الأخرى. لأنهم كانوا يفعلون ذلك عند البيع. وفي القاموس : صفق له بالبيع يصفقه. وصفق يده بالبيعة وعلى يديه صفقا : ضرب يده على يده. وذلك عند وجود البيع.

والاسم : الصفق . وصفقة رابحة أو خاسرة : بيعة. هذا أصل اللفظة في اللغة. ثم صار في الغلبة يطلق على نوع خاص من البيع. وهو أن يبيع أحد الشركاء جميع المشترك لأجنبي. ثم يخبر بقية شركائه مخيرا إياهم بين أن يضموا حصته لحصصهم بما نابها من الثمن الذي باع به الشيء المشترك للأجنبي. أو أن يمضوا البيع.

صورتها : وصورة بيع الصفقة : أن تكون دار مثلا أو غيرها بين شخصين أو أكثر. ومدخلهم في ذلك واحد. بحيث يملكون ذلك دفعة واحدة بشراء أو إرث أو غير ذلك. فيعمد أحدهم إلى ذلك الملك ويبيع جميعه. ثم يكون لشريكه أو شركائه الخيار بين أن يكملوا البيع للمشتري أو أن يضموا ذلك المبيع لأنفسهم. ويدفعوا للبائع ما ناب حصته من الثمن الذي باع به (85).

---

83) نشير إلى شرح العمل الفاسي للسجلماسي طبع مرارا على الحجر وقد استشهد برأيه في كتابه فتح الجليل الصمد أيضا في حوالي 12 مسألة.

84) من كلام عمر انظر صحيح البخاري بشرح ابن حجر 17 / 86.

85) تحفة الأصحاب والرفقة لميارة مخطوط خ ع. بالرباط رقم 889 دو البهجة : 2 / 151 .

وجه مخالفتها للنصوص :

والمفروض أن ذلك يتوقف على شروط ربما أنكرها أو بعضها الشريك المبيع عليه. فيحتاج البائع إلى إثباتها. وشأن الاثبات أن يكون عند القضاة. ولكن جرى العمل بعدم الرفع إليهم.. والبيع بهذه الصفة مخالف للنصوص. وظاهر المذهب يقتضي منعه. كما صرح بذلك الونشريسي وغيره (86) وقد وقع اختلاف كثير بين الشيوخ في هذا البيع. فمنهم من أجازه بهذه الصفة. وهو الذي جرى به العمل. ومنهم من منعه جريا على ما تقتضيه نصوص الفقه.

الملـــك المشتـــرك :

ثم ان كل ملك مشترك على نوعين :

أ ـ اما أن يقبل القسمة على الشركاء بلا ضرر. بحيث يصير لكل واحد منهم ما ينتفع به.

ب ـ واما أن لا يقبلها على الوجه المذكور.

فإن كان الوجه الأول وأراد أحدهم القسم أجيب إليه. وأجبر عليه من أباه من الشركاء...

وإن كان الوجه الثاني فالقول قول من دعا إلى البيع ويجبر عليه من أباه من الشركاء...

نقل الشيخ ميارة عن القاضي عبد الوهاب أنه «إذ تشاح الشريكان في عين من أعيان مالا ينقسم كالثوب والدابة ولم يتراضيا بالانتفاع به على الشياع. وأراد أحدهما البيع. فإن أجابه الآخر وإلا أجبر على البيع معه إلا أن يختار الشريك بيع حصته مشاعة فلا يلزم الآخر بيع حصته معه. وأما ما تنقسم أعيانه. فإنه يقسم ما لم يعد بالضرر واتلاف حصة أحد الشركاء» (87).

---

(86) الأمليات الفاشية للعميري (مخطوط خاص)، والمعيار الجديد : 5 / 124.
وتحفة الأكياس : 92/1، وشرح السجلماسي لعمل فاس : 167/1.

(87) تحفة الأصحاب (مخطوط).

الإشكال الوارد في الصفقة :

ويظهر أن مسألة بيع الصفقة حيرت بال الفقهاء كثيرا. وذهبوا فيها مذاهب مختلفة ما بين مجوز ومانع. نلحظ هذا من قول الشيخ أبي العباس الونشريسي الذي صرح بأنه «طالما تشعبت فيها الأفكار. واشتد فيها الإنكار. ووقع لأهل الوقت فيها كلام متسع.. ولا ترى من فقيه أو أفقه. إلا وملأ بها شدقه. وذهب فيها مذهب كل طائفة وفرقة. ولم نر فيمن تقدم من حل عقالها. ومهد للسالكين مقالها. وطبق فيها المفصل. وأحكم حكمها وحصل. سوى القاضي ابن زرب فنظمها في سلك المذهب المالكي وكشف الدرقة. بعد أن كانت بحرا ليس له عقبة» (88).

الشروط المشترطة في بيع مالا ينقسم :

ثم ان جبر الشريك على البيع فيما لا ينقسم يشترط فيه شروط :

1) أن ينقص ثمن حظ من دعا إلى البيع في حالة ما إذا بيع مفردا عن ثمنه فيما لو بيع الجميع.

2) أن يكون فيه ضرر بين كالدار والحائط لا فيما يقصد للغلة كالرحى والفرن. نقل ميارة عن ابن رشد أنه «لا يحكم ببيع مالا ينقسم إذا دعا إلى ذلك أحد الاشراك إلا فيما كان في التشارك فيه ضرر بين كالدار والحائط. وأما مثل الحمام والرحى وشبه ذلك مما هو للغلة فلا» (89).

3) أن يكون ذلك فيما هو للانتفاع أو من ميراث. ولا يجبر على البيع من شريكه فيما اشترى للتجارة.

4) ألا يلتزم الشريك الذي لم يرد البيع أداء النقص لشريكه الذي يريد البيع. فإن التزم فلا. وقد كان اللخمي يفتي بأن الشريك إذا قال: أنا أؤدي النقص الذي ينال شريكي من بيع نصيبه مفردا فذلك له. ولا مقال لشريكه. لأن العلة قد ارتفعت بإزالة الضرر عنه بالنقص الذي يناله في بيع نصيبه (90).

---

88) نفس المصدر.

89) تحفة الأصحاب والرفقة.

90) نفس المرجع.

5) اتحاد المدخل : نقل الشيخ ابن غازي في هذا الشرط رأيين مختلفين لكل من القاضي عياض واللخمي. فعياض يشترط اتحاد المدخل في دعوة الشريك إلى البيع «وطريقة اللخمي خلاف ذلك. وأنه لا يشترط . وعلق ميارة على رأي عياض بقوله : «يجب أن يكون هذا الجبر فيما ورث أو اشتراه الاشراك جملة في صفقة. فاما لو اشترى كل واحد منهم جزءا مفردا وبعضهم بعد بعض. لم يجبر أحد منهم على اجمال البيع مع صاحبه إذا دعا إليه. لأنه كما اشترى مفردا كذلك يبيع مفردا ولا حجة له هنا في بخس الثمن في بيع نصيبه مفردا لأنه كذلك اشترى فلا يطلب الربح فيما اشترى بإخراج الشريك من ماله» (91).

وهذا رأي الونشريسي أيضا. فقد صرح بأنه ليس للشريك أن يجبر شريكه على أن يبيع معه ما اشتركا إلا إذا دخلا مدخلا واحدا بميراث أو شراء أو غيرهما (92) ويفهم من كلام الونشريسي هذا أن بيع الصفقة لا يختص بالأصول كما يذهب إليه عوام العدول (الموثقون) بل هو جار في كل مالا يقبل القسم من الأصول والعروض والحيوان وغير ذلك. وهذا ما صرح به القاضي عبد الوهاب في النص الذي نقلناه سابقا ورجحه الشيخ ميارة.

وعلى ذكر هذا الشرط (أعني اتحاد المدخل) لو ورث ثلاثة أشخاص دارا مثلا أو ملكوها بشراء دفعة واحدة. فباع أحدهم نصيبا منها لأجنبي وأسقط شريكاه الشفعة للمشتري ثم أراد الشريكان أو أحدهما البيع فله أن يصفق على شريكه لا تحاد مدخله معه. ولا إشكال. أو يصفق على المشتري الأجنبي لاتحاد مدخله على البائع له. لأنه كما كان له أن يصفق على شريكه الذي باع لو لم يبع فكذلك له أن يصفق على المشتري بيع حصته لم يكن جبر شريكه البائع له على البيع معه. لدخوله وحده. فلم يتحد مدخله مع بقية شركائه. والضابط في هذا الشرط هو قولهم «يجبر الدخيل للأصيل. ولا يجبر الأصيل للدخيل». لكن هذا مشروط بأن :

---

91) نفس المرجع.

92) شرح العمل للسجلماسي 167/1 وتحفة الأكياس : 93/1.

6 ـ لا يبعض الأصيل حصته. أما ان بعضها فلا يجبر له الدخيل. وعلى هذا الأساس صرح ميارة بأن تبعيض الأصيل حصته هو بمثابة شرط سادس في جبر الشريك على البيع. وزاد شرطا سابعا وهو :

7) كون المشتري أجنبيا غير شريك.

فإذا اجتمع ما ذكر من الشروط ودعا أحد الشركاء إلى بيع مالا ينقسم. فإنه يجبر عليه من أباه من بقية الشركاء (93)...

غير أن العمل لم يجر باشتراط شيء من هذه الشروط ما عدا اتحاد المدخل وهو الشرط الذي اكتفى به عياض. وهو الذي جرى به العمل. نظم هذا أبو زيد الفاسي فقال :

في قابل القسم وما لم يقبل   لا تشترط إلا اتحاد المدخل

المبيع المشترك الجاري على القواعد :

والجاري على النصوص أن من أراد البيع من الشركاء ولم يوافقه من شاركه فإنه يرفع الأمر إلى القاضي ليجبر له الممتنع. ويبيعا دفعة واحدة ويكلفه القاضي باثبات موجبات ذلك. وهي ثبوت الشركة. وأن ذلك المشترك مما لا يقبل القسمة. وأنه مما يراد للاختصاص بالانتفاع لا لمجرد الغلة. وأن على من يريد البيع غبنا في بيع الصفقة مفردة. وأن من شاركه امتنع من البيع معه. ومن اعطائه ما تنقصه حصته لو بيعت مفردة ـ على فتوى اللخمي ـ وأن مدخلهم في المبيع واحد على قول عياض الجاري به العمل. فإن ثبت ذلك أمرهم بعرضه للبيع. فإن أراده بعض الشركاء ممن دعا إلى البيع أو غيره فعلى ما تقدم. وإن لم يرده أحد الشركاء بيع لأجنبي وأخذ كل واحد نصيبه من الثمن.

الصورة التي جرى بها العمل :

ولم يجر العمل بشيء مما ذكر. وإنما الذي جرى به العمل : أن من أراد البيع من الشركاء باع جميع ذلك الشيء المشترك لأجنبي صفقة واحدة من غير

---

93) هذه الشروط ذكرها ميارة، أما السجلماسي فقد عدها تسعة، انظر شرح العمل 1/170 وتبعه على ذلك أبو العباس الرهوني في حادي الرفاق : 5/56.

رفع لحاكم ولا إثبات شيء مما ذكر. بل يبيع أحد الشركاء الشيء المشترك صفقة واحدة. ثم يذهب إلى بقية شركائه فيلزمهم أحد أمرين : اما أن يضموا أي يأخذوا حصة البائع بما نابها من الثمن ويضموها إلى حصصهم. أو يكملوا للمشتري البيع بحسب ما باعه به. فإن ضموا طولبوا بالثمن. وإن لم يضموا طولب المشتري وكان البيع منعقدا من جهة البائع...

وعدم الرفع إلى الحاكم. هو الذي تظهر فيه المخالفة للنصوص. لا في بيع الصفقة مطلقا. إذ هو مذكور في المدونة وغيرها من كتب الأقدمين. وإن لم يسموه بهذا الإسم الذي هو بيع الصفقة. ومن ثم ذهب ميارة إلى القول : «بأنه لامعنى لعد هذا مما جرى به العمل بفاس أو بغيرها. إلا بالنسبة لما خولف فيه المنصوص كوقوعه بلا حاكم» (94).

كما لم يجر طبق الشروط التي استعرضناها من قبل. سواء منها التي ذكرها ميارة أو التي ذكرها السجلماسي. وإنما اقتصر فيها على شرط واحد هو الذي شرطه القاضي عياض وأكد عليه. مخالفا في ذلك ما ذهب إليه اللّخمي من عدم اشتراطه (95). وجريان العمل بقوله عياض ومخالفة غيره كاللخمي مثلا - مع ماعرف عن هذا الأخير من اطلاع واسع علىأسرار الفقه ودخائله - يؤيد وجهة النظر التي ابديناها في أول هذا البحث. من أن متأخري الفقهاء كانوا يقبلون ترجيحه بدون تردد. يأخذونه مسلما لا يناقش - غالبا - متى عورض بغيره..

رحم الله القاضي عياض. فلولاه - كما قيل - لما ذكر المغرب. والله أعلم بالصواب.

---

94) تحفة الأصحاب والرفقة (مخطوط).

95) لمزيد من البحث في مسألة الصفقة، يمكن الرجوع إلى ما كتبه الشيخ ميارة في «تحفة الأصحاب والرفقة» وشرح السجلماسي لعمل فاس 1 / 167 وشرح عمر الفاسي للزقاقية ص 298، وحاشية الهواري على شرح التاودي للامية الزقاق ص 276 وتحفة الأكياس للمهدي الوزاني 91/1 ومعياره الجديد.

ج 5 ابتداء من ص : 123 وقد استعرض ما قيل فيها من نصوص المؤيدين والمعارضين وأطال القول في ذلك ونحن قد اكتفينا بإعطاء نبذة عابرة فقط.

مكانة عياض العلمية

للأستاذ : السعيد بوركبة

بسم الله الرحمن الرحيم

مكانة عياض العلمية

لأعطي نظرة عن مكانة عياض العلمية ـ سواء من ناحية ما قيل عنه من كلام أو من خلال معطياته الفكرية ـ لا بد أن أتحدث عن حياته أولا، ثم عن تراثه ثانيا.

وهكذا أجدني مضطرا لأعالج الموضوع في إطار مبحثين.

المبحث الأول : حياة عياض

المبحث الثاني : تراثه العلمي

المبحث الأول : حياة عياض

سأتحدث في هذا المبحث عن نشأة عياض، وتكوينه، وأخلاقه. كما سأتحدث عن رحلته للأندلس، وتوليته القضاء بعد رجوعه منها... كما سأعطي بعض المؤشرات على ما نسب إليه من مشاركة في إحراق كتاب «الإحياء» للإمام الغزالي، وعلى مالقيه من محنة أيام الموحدين.

وان طبيعة البحث العلمي تستلزم مني أن أعالج مضامين هذا المبحث في خمسة مطالب، وهذه المطالب، هي :

المطلب الأول : نشأة عياض، وتكوينه وأخلاقه :

المطلب الثاني : رحلته للأندلس ورجوعه منها :

المطلب الثالث : توليته القضاء :

المطلب الرابع : مانسب إليه من مشاركة في إحراق «الإحياء» للغزالي.

المطلب الخامس : محنته ومنفاه :

- ● -

المطلب الأول : نشأة عياض وتكوينه وأخلاقه :

تمهيد : نسبه وسبب انتقال جده إلى سبتة :

قبل أن أتناول الكلام عن نشأة عياض، أرى من المفيد، أن أتعرض إلى مادار حول نسبه من كلام وإلى السبب الذي جعل والد جده : عمرون ينتقل إلى سبتة.

ومن المعلوم، أنه وقع اختلاف بين الباحثين في نسبه...

فمنهم من قال : ان نسبه هو : عياض بن موسى بن عياض بن عمرون ابن موسى بن عياض بن محمد بن عبد الله بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي وهذا القول يعزى إلى الرحال أبي عبد الله محمد بن جابر الوادي آشي. (1) ومنهم من خالف هذا الرأي، وهو أبو القاسم بن الملجوم... فقد سأل عياضا عن نسبه عندما زار والده في داره في شهر رجب سنة 543 هـ استحدره فقال له : إنما أحفظ : عياض بن موسى بن عياض بن عمرون بن موسى بن عياض، وأحفظ

أيضا بعد ذلك : محمد بن عبد الله بن موسى بن عياض، ولا أعرف أن محمدا هذا هو أبو عياض، أو بينهما جد (2).

ومنهم من أسقط أحد أجداده، وهو عبد الله، ثم حرف اسم عمرون إلى عمر.. وذكر نسب عياض على الشكل التالي :

عياض بن موسى بن عياض بن عمر بن موسى بن عياض بن محمد بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي، وهذا يعزى لابن خلكان في كتابه : وفيات الأعيان (3).

ومنهم من أسقط من أجداده : عبد الله فقط، وهذا يعزى لأبي جعفر أحمد بن علي بن خاتمة الأنصاري في كتابه : «مزية المرية» وتبعه في هذا الإسقاط ابن الأبار في معجمه (4).

أما الشيخ أبو عبد الله محمد، ولد عياض فقد قال :

كان أبي يقول: لا أدري: هل محمد والد عياض أو بينهما رجل،فهو جده (5).

هذا من حيث النسب :

أما سبب اختيار عمرون والد جده الإقامة في سبتة ، فيرجع إلى ماذكره ابن عياض (6) حيث قال : إن أجداده كانوا قديما بالأندلس في مدينة بسطة (7) ثم انتقلوا منها إلى مدينة فاس.. وكان لهم استقرار بالقيروان، وكان عمرون والد جد أبيه : عياض، خيرا صالحا.. غزا مع المنصور ابن أبي عامر عدة غزوات وانتقل من فاس إلى سبتة بعد دخول الفاطميين المغرب.. وكان مما حمله على الانتقال إليها : انه كان له ولآبائه شأن ونباهة بفاس... فأخذ ابن أبي عامر رهنا، كان من بينهم : حمامة ومعنصر ابنا المعز زيرى بن عطية.. كما كان من بينهم : عيسى والقاسم أخوا عمرون...

وكان الذي تولى أخذ هؤلاء الرهائن، هو : عبد الملك المظفر ولد المنصور مما حمل عمرون على الخروج من فاس إلى سبتة ليكون على مقربة من

أخبارهما، حيث يوجدان بقرطبة، لكنه ما إن رأى سبتة وأعجبته، حتى قرر الإقامة فيها بصفة نهائية...

وفي هذه البلدة، ولد له ولد سماه عياضا ثم ولد لهذا الأخير ولد، سماه موسى، ثم ولد لموسى ولد، فسماه عياضا. وعياض هذا هو موضوع ندوتنا هاته.

وقد كتب له أن يبصر نور الحياة في هذه البلدة الصاخبة بالحركة والمرور، ويترعرع في أحضانها، هذه البلدة التي تعتبر مركز إشعاع فكري ومد حضاري، ومطمح رواد المعرفة والبيان.

وان بلدة تزخر بشتى الفنون والمعارف، من شأنها أن تقوم بأدوار مهمة في تكوين عياضنا تكوينا عظيما، وتجعل منه الشخصية المتألقة في مختلف المجالات الفكرية والدينية والقضائية..

بعد هذا التمهيد في نسبه وانتقال جده إلى سبتة ننتقل إلى ذكر نشأته.

أولا : نشأة عياض :

يذكر المؤرخون وأصحاب التراجم : أن عياضا نشأ في أسرة طيبة الأرومة كريمة الشمائل، كثيرة الأمجاد والمفاخر، وقدر له أن يعيش تحت رعايتها وتهذيبها وصيانتها، مما جعله مهذب الخلق راجح العقل، متوقد الذكاء، بادي الفطنة، إلى حرص شديد على ارتشاف مناهل العلوم.

وليس من شك في أن عياضا لم يسبق له أن تعرف على مركز تعليمي قبل تعرفه على الكتاب.. فالكتاب، إذن هو أول من تلقاه بعناية خاصة، ولا سيما عندما لاحظ فيه مخايل الذكاء ، واستعداده للتلقي وهذا ما جعله يحفظ القرآن في سن لم تتجاوز التاسعة من عمره... وقد استمرت أسرته في العناية به، وتعليمه كل ماله صلة بالقرآن من تجويد وقراءات.. حيث أتقن القراءات السبع برواية نافع وابن كثير وأبي عمرو بن العلاء وابن عامر، أخذ هذه الروايات عن عبد الله بن ادريس ابن سهل المقرىء (515 هـ) وبرواية حمزة بن حبيب الزيات عن عبد الله بن محمد النفزي (538 هـ).

ثانيا : تكوينه :

بعدما استكمل عياض حفظ القرآن، واستوعب مختلف القراءات ، شرع في تلقي العلوم والفنون...

فدرس العربية وأمهاتها على أكبر شيوخ سبتة..

ومن بين الكتب التي درسها عليهم وهو في ريعان شبابه.

1) ـ الإيضاح ، لأبي علي الفارسي.

2) ـ الجمل، للزجاجي، وشرحه لابن فضال.

3) ـ المقتضب، للمبرد.

4) ـ الكافي لابن النحاس.

5) ـ الواضح لأبي بكر الزبيري.

كما درس من أمهات الكتب العربية، الكتب التالية :

1) ـ الفصيح لأبي العباس ثعلب.

2) ـ الأمالي.لأبي علي القالي.

3) ـ أدب الكاتب لأبي محمد بن قتيبة.

4) ـ الكامل لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد.

هذا من حيث الأصول في العربية، أما من حيث الأصول التي درسها في السنة والحديث، وعلومه، فهي :

1) ـ موطأ الإمام مالك.

2) ـ صحيح البخاري.

3) ـ صحيح مسلم.

4) ـ سنن النسائي.

5) ـ كتاب الضعفاء والمتروكين للنسائي أيضا.

6) ـ كتاب الطبقات لمسلم.

7) ـ المؤتلف والمختلف للدارقطني.
8) ـ مشكل الحديث لابن فورك.
9) ـ الاكمال لابن ماكولا.
10) ـ التقصي لابن عبد البر..
11) ـ علوم الحديث للحاكم.
12) ـ غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام.
13) ـ غريب الحديث لأبي سليمان الخطابي.
14) ـ إصلاح الغلط، لأبي محمد بن قتيبة.

كما درس عدة كتب في الفقه، وخاصة منها : رسالة ابن أبي زيد القيرواني والمدونة، وقد أعطى لهذه عناية خاصة حيث تناولها بالبحث والدرس والتمحيص فألف حولها كتابا قيما كما سنقف عليه بعد.

أما فيما يخص الجدل والمناظرة وما له صلة بالعقيدة فقد درس كتاب : المنهاج في الجدل والمناظرة، لأبي الوليد الباجي، كما قرأ على يوسف بن موسى الكليبي المَتكلم على مذهب الأشعرية : أرجوزته التي ألفها في الاعتقادات إلى غير ذلك.

ولم يكتف عياض في تثقيفه بهذه المؤلفات، بل تناول غيرها بالدرس والتمحيص من الكتب الفقهية والأصولية والتفسيرية والتاريخية والأدبية والبلاغية وأصبح لهذا الرصيد العلمي الذي استوعبه، أثر كبير في تكوينه وتوجيهه توجيها حسنا، حيث أضحى في نهاية الأمر : قمة القمم في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي علومه وإماما مرموقا في عصره، لا في الحديث فحسب، وإنما في مختلف العلوم التي كانت متداولة إذ ذاك.

وقد أحرز على هذه الرتبة البارزة في العلم، بفضل حرصه الشديد على استيعاب الفنون وضبطها، والإحاطة بكلياتها وجزئياتها.

وبفضل مساعدة شيوخه الذين عنوا به عناية كبرى إلى أن أصبح إلى ما أصبح عليه من تألق وإشراق.

ولم يكن عياض قد تلقى العلوم على الشيوخ المغاربة وحدهم، بل تلقاها على غيرهم.. ومن بين شيوخه الذين أسهموا في توجيهه وتعليمه وإجازته :

القاضي أبو عبد الله بن حمدين، وأبو علي الصدفي، والحسين بن محمد الصدفي الغساني الجياني، وعبد الله بن محمد الخشني المعروف بابن أبي جعفر، وابراهيم بن جعفر اللواتي المعروف بالفاسي، وعبد الله بن محمد بن منصور اللخمي، وابن فتحون الأريولي، وعبد الله بن شبونة، وعبد الرحمن بن محمد بن عتاب الجذامي، وسراج بن عبد المالك بن سراج الأموي اللغوي، وسفيان بن العاصي الأسدي البلنسي القرطبي، وشريح بن محمد الرعيني الاشبيلي، وأحمد بن محمد بن محمد بن مخلد بن عبد الرحمن بن أحمد بن بقي بن مخلد، والشيخ الراوية : أبو مروان، حيان بن حيان، والحسين بن علي بن طريف النحوي التاهرتي السبتي، وخلف بن ابراهيم النخاس المقرىء الخطيب، وخلف بن خلف الأنصاري المعروف بالانقر، وابن فرتون النحوي الشنتريني، وأبو الطاهر السلفي، ومحمد بن عيسى التميمي السبتي، ومحمد التجيبي القرطبي المعروف بابن الحاج أبي عبد الله، ومحمد بن سليمان النفزي، وأبو بكر الطرطوشي، ومحمد بن داود العكي القلعي، ومحمد بن علي بن عمر المازري، وأبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي، ومحمد بن عبد الرحمن بن شبرين، ومحمد الريوطي، وغيرهم من جهابذة الأعلام...

ولم تكن تنحصر شيوخ عياض في هؤلاء.. بل هنالك ما يزيد على سبعين شيخا آخرين لم أذكر أسماءهم.. وبالإمكان الوقوف عليهم وعلى من ذكرتهم أيضا في كتاب : ... التعريف بالقاضي عياض (8) وفي كتاب «الغنية» لعياض وكتابه هذا، يعتبر موسوعة صغيرة سجل فيها جميع شيوخه الذين أخذ عنهم وكذلك الشيوخ الذين أجازوه مباشرة أو عن طريق المراسلة..

ثالثا : أخلاقه :

وإلى جانب ما كان يتمتع به عياض من ثقافات واسعة، وصيت طائر في الآفاق، فإنه كان يتمتع بأخلاق طيبة وسلوك حسن، واستقامة رائدة مع تواضع جم..

ولا أدل على ذلك أكثر مما ذكره ولده : الشيخ أبو عبد الله محمد في كتابه (9) حيث قال :

«كان ... لين الجانب صبورا حليما موطأ الاكناف جميل العشرة، حسن الأخلاق بساما، يكره الإطراء والإفراط في التصنع منه وله، لا يستسهل التكليف للناس، والتحامل عليهم، منصفا من نفسه، منصفا لأهل العلم، محبا في طلبة العلم، محرضا لهم على طلبه، مسهلا لهم الطرائق مبادرا لقضاء الحوائج صغير النفس، غير متكبر جوادا سمحا من أكرم أهل زمانه كثير الصدقة، صواما قواما متورعا بحاثا في العلوم.

وزاد عنه ولده فقال : «انه كان هينا لينا من غير ضعف، صلبا في الحق لاتأخذه في الله لومة لائم، وكان يأخذ أموره بالملاطفة والسياسة ما أمكنه ويحل الأمور كذلك ما استطاع، وإلا تقوى، وكان يلاطف الأمراء، فإن امتنعوا من الحق تقوى عليهم، غير هيوب لهم مقداما عليهم في صدهم عن الباطل، واستقضاء حوائج الرعية عندهم محببا في قلوب العامة والخاصة (10).

تلكم كانت نظرة موجزة عن نشأة عياض وعن شيوخه وأخلاقه، والآن ننتقل إلى الكلام عن رحلته.

المطلب الثاني : رحلة عياض للأندلس

ما أن اتسع فكر عياض، ونضج عقله، واكتملت درايته حتى حفزته حوافز الاستزادة العلمية إلى التطلع إلى ما عند فحول الأندلس من عوارف فألزم نفسه بارتقاء معارج الصعوبات استجابة لعقله الخلاق وفكره الوثاب وهذه شيمة من شيم ذوي النفوس الكبرى، والعقول العظمى التي لا تقنع بالكمال، بل تسعى دوما إلى

التربع على ذروة درجاته حتى تفنن في منتهى المعارف... فصدق عليه وعلى أمثاله قول أبي الطيب المتنبي.

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

وفي هذه الآونة التي وصل فيها إلى ما وصل إليه من معارف ـ وكان سنه إذ ذاك ثلاثين سنة وأربعة أشهر وخمسة عشر يوما ـ طمحت نفسه إلى قرطبة وكانت آنذاك ؛ قبلة الاشعاع الفكري، وعاصمة الثقافات المتنوعة في العالم فعبر إليها البحر في يوم الثلاثاء 15 جمادى الأولى عام 507 هـ حيث وصل إليها عن طريق الجزيرة الخضراء في فاتح جمادى الثانية من نفس العام (11) فأخذ في الاتصال بأعلامها، لاقتناص ما يمكن أن يكون قد شرد له من معارف، وما تمنع عليه من طرائف وخرائد !!

وكان من بين الأعلام الذين اتصل بهم، واستفاد منهم.

1) ـ الشيخ محمد بن علي أبي محمد بن حمدين قاضي الجماعة بها.

2) ـ الشيخ عبد الرحمن بن عتاب، وكان آخر الشيوخ الأكابر علو إسناد وسعة رواية.

3) ـ الشيخ محمد التجيبي القرطبي المعروف بابن الحاج (12).

وقد كانت رحلته للأندلس هذه محط عناية فائقة من طرف أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين ، حيث كتب كتابا خاصا إلى الشيخ ابن حمدين للاهتمام بشأنه والعناية بمقامه (13) ولما أحرز على ما أراد في قرطبة من مآرب، وما كان يتوق إليه من رغائب ـ بعد أن مكث فيها ثمانية أشهر، وثلاثة أيام ـ توجه إلى مرسية.. للاتصال بعالمها الفريد، وإمامها الشهيد الحافظ أبي علي حسين بن محمد بن فيرة بن حيون بن سكرة الصدفي.. فوصل إليها في يوم الثلاثاء 3 صفر عام 508 هـ ولم يجده هناك، بل كان الرجل مختفيا بالمرية (14) لكونه غير راغب في خطة القضاء..إلا أن عياضا ـ حرصا منه على عدم إضاعة الوقت ـ أخذ يقابل ما عنده من كتب بأصول أبي علي الصدفي، بقية شهر صفر وربيع الأول عام 508 هـ إلى أن وصل إلى الشيخ المختفي كتاب من قاضي الجماعة أبي

محمد عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن قاسم بن منصور اللخمي النكوري. يعلمه فيه بإعفائه من القضاء وترك المجال له. لنشر العلم والمعرفة للعلوم بصفة عامة. ولعياض بصفة خاصة. فاغتنم عياض هذه الفرصة السانحة. فاستفاد من الصدفي أيما استفادة. ولازمه ملازمة ظله حتى ارتوى من معارفه...

وقد قدر لعياض أن يجاز من طرف نخبة من فطاحل الأندلس وإفريقية ومصر والحجاز... وتتمثل في كل من أبي علي الجياني. وشريح وابن شبرين وأبي جعفر بن بشتغير. وخلف بن خلف السرقسطي المعروف بالانقر. وأبي زيد ابن منتيل. وأبي عبد الله المازري. وأبي بكر الطرطوشي. وأبي عبد الله بن الحطاب وحيدر وغيرهم.

ولما ازدادت شخصية الرجل اكتمالا. ونمت معارفه أكثر من ذي قبل. عزم على الرجوع لمسقط رأسه. للقيام بأداء رسالته العلمية..

وهكذا رجع إلى سبتة ليلة السبت 7 جمادى الثانية عام 508 هـ بعد ما قضى في الأندلس سنة واثنين وعشرين يوما.. كانت كلها حافلة بالكد والجد والاجتهاد.. وما ان حل بها حتى أجلس للمناظرة عليه في المدونة. وله من العمر 32 سنة. كما أجلس بعد ذلك للشورى. فهيأته الأقدار. للقضاء بين الناس (15).

المطلب الثالث : تولية عياض القضاء

إذا قدر لعياض أن يكون نجما لامعا في العلوم بصفة عامة. والحديث بصفة خاصة. وقدر له أن يحصل على رصيد فقهي هائل ونوازله. فقد ساقته الأقدار لأن يكون حكما عدلا بين الناس.. ولذلك ولي القضاء على سبتة لثلاث بقين من صفر عام 515 هـ.

وخطة القضاء هذه كانت لها منزلة كبرى وقتذاك.. وكان لا يعين فيها إلا من جمع فأوعى من صنوف المعرفة.. إلى جانب التحلي بالأخلاق الحسنة والتشبع بالنزاهة والورع والتقوى وبلوغ سن معين للقاضي يسمح له بمقاضاة الناس.

وقد ظهر عياض في قضائه مثال القاضي الحق الذي لاتأخذه في الله لومة لائم. ومثال القاضي النزيه الذي لاتغره الأطماع... وقد أحبه أهل سبتة حبا جما، واحترموه كثيرا، لإنصافه المظلوم من الظالم. وما عرف عنه أنه تهاون في تطبيق حد من حدود الله ولو كان المحكوم عليه من أقربائه أو من أعز أصدقائه .. وتطبيقه الحد في شرب الخمر على ابن خاقان - وهو من هو أدبا وظرفا - شهير في هذا المجال.

وهكذا طار صيته في مجال القضاء، وانبعثت شهرته تخترق الآفاق. وبقي يقضي بين الناس حكما عدلا، محقا للحق، ومبطلا للباطل - أيا كان متجهه وكيفما كان مصدره - مدة خمس عشرة سنة وثلاثة أشهر وعشرين يوما.. نقل بعد ذلك إلى غرناطة، حيث جعل قاضيا عليها منذ فاتح صفر عام 531 هـ فاستقبله أهلها أعظم استقبال وكان يوم استقبالهم إياه يوما مشهودا وملحوظا إلى أن صرف منها عن القضاء من طرف تاشفين بن علي بن يوسف في غضون شهر رمضان عام 532 هـ.. وقد كان صرفه عنها فرصة سانحة له في نشر العلم وبثه في صدور الرجال بسبتة.. وبقي على ذلك طوال سبعة أعوام إلى أن ولاه إبراهيم بن تاشفين قاضيا على سبتة من جديد في آخر عام 539 هـ (16).

المطلب الرابع : مانسب لعياض من مشاركة في إحراق «الإحياء»

ولم تكد تحل سنة 503 هـ حتى انتشر كتاب «إحياء علوم الدين» لأبي حامد الغزالي في أقطار العالم الإسلامي، ومن بينهما المغرب...

وقد أخذ الناس في دراسته والتعمق في مختلف جوانبه.

فكان لهذا الكتاب مؤيدون ومعارضون.. وان أكبر من حمل راية المعارضة له، هو القاضي ابن حمدين وجماعة من الفقهاء بقرطبة.. فتصدى لإصدار فتوى ضده إلى أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين حيث حثه فيها على إحراق الكتاب.. وكان المرابطون يلتزمون بالكتاب والسنة، ولا يبتعدون - قيد أنملة - عما

يقوله العلماء : أصحاب الحل والعقد في البلاد. وتبعا لهذا... فإنهم لم يترددوا في الأمر بإحراق «الإحياء».

وكتبوا بهذا إلى كل البلدان المغربية.. فأحرق الكتاب في رحبة مسجد قرطبة على الباب الغربي منه على هيئته بجلوده، بعد اشباعه زيتا، وحضر لذلك جماعة من أعيان الناس (17).

ولم تقتصر ظاهرة الإحراق هذه على عصر علي بن تاشفين ، بل تجاوزته إلى عصر غيره من أمراء المرابطين.. ومن بينهم، ابنه تاشفين..

فقد احتفظ لنا التاريخ بوثيقة صدرت منه إلى بعض أمرائه، يحثه فيها على تتبع البدع وأصحابها، ولا سيما كتب الغزالي.

وها هو نص الوثيقة - كما يحدثنا عنه ابن عذارى المراكشي، حيث قال : «وهناك رسالة صادرة عن تاشفين بن علي إلى أمير بلنسية : يحيى بن علي بن الحاج.. والفقيه القاضي أبي محمد بن جحاف، تاريخها : 538 هـ. وقد جاء فيها : (ومتى عثرتم على كتاب بدعة، أو صاحب بدعة، وخاصة - وفقكم الله - كتب أبي حامد الغزالي، فليتتبع أثرها، وليقطع بالحرق المتتابع خبرها) نصوص سياسية، مجلة المعهد، 3 / 133 (18).

إلا أن الذي تجب ملاحظته في ظاهرة الإحراق هذه، أن الناس قد انقسموا حولها إلى قسمين.

القسم الأول : أفتى بإحراق الكتاب، وسعى إلى تنفيذه بكل ما يمكن من وسائل وحرض عليه.. وكان يتزعم هذا القاضي ابن حمدين وجماعة من فقهاء قرطبة.

القسم الثاني : عارض الإحراق واستنكره أيما استنكار، ولم يكن المعارضون في الأندلس وحدهم بل كانوا يوجدون أيضا في المغرب...

ومن بين من عارض في إحراق الكتاب، وجاهر بإبطال فتوى ابن حمدين في الأندلس : علماء المرية وعلى رأسهم : أبو الحسن علي بن محمد الجذامي

البرجي (509 هـ) تلميذ أبي علي الصدفي، وقد أفتى بتأديب من أحرق الكتاب (19).

أما العلماء الذين عارضوا الإحراق من المغاربة، فمنهم :

1) ـ أبو الفضل يوسف بن النحوي.
2) ـ الشيخ العارف علي بن حرزهم.
3) ـ ميمون بن ياسين الصنهاجي، وهو من قواد المرابطين.

إلا أن مما يستغرب منه هو نسبة الفتوى بالإحراق لقاضينا عياض.. فعالم واسع الأفق.. مثل عياض لا يمكن أن تصدر عنه مثل هذه الفتوى الظالمة ولا يمكن بالتالي أن يأمر بإحراق الكتاب.. لا سيما وأنه ممن اشتهر بالاستقامة والعدالة والنزاهة والإنصاف.. فهو إذن لم يفت بالإحراق ولا أمر به. غير أنه كان له موقف معين من الغزالي ـ كما يقول .. الخطابي ـ حيث كانت له عليه مآخذ فقد خالفه كل المخالفة في بعض آرائه في أصول الدين.. وفي كتاب الشفا.. إشارة إلى ما يفيد هذه المخالفة. وذلك في الفصول التي عرض فيها أبو الفضل لمسائل التأويل والمتأولين واختلاف الفقهاء والمتكلمين في حكم من يضيف إلى الله تعالى مالا يليق به عن طريق التأويل والاجتهاد من تشبيه أو نعت بجارحة أو نفي صفة، أو ما يقرب من ذلك، إلا أن كل هذا لا يخرج عن نطاق المناظرة العلمية وما يقتضيه الخلاف من لجاج وجدل واتهام أحيانا... وانتهى أخيرا إلى قولة عياض في الإحياء :

(لو اختصر.. واقتصر على مافيه من خالص العلم، لكان كتابا مفيدا) (20)

ومن الغريب أن يذهب ضحية الادعاء في نسبة الإحراق.. لعياض، كل من الإمام الشعراني (21) وابن العماد (22) والقاضي عباس بن إبراهيم التعارجي المراكشي (23) فقد تقبلوا نسبة الفتوى بالإحراق لعياض ولم يمحصوا القول في ذلك تمحيصا..

ومما يجب لفت النظر إليه : أن عياضا ـ وقت إحراق كتاب الإحياء ـ كان ما يزال طالب علم مجدا في تحصيل العلوم. وكان سنه لاتسمح له بالخوض في مثل هذه الظاهرة النكراء !

إن سنه كان لا يتجاوز 27 سنة.. وإحراق الكتاب، كان في عام 505 هـ وهو لم يرحل بعد للأندلس. وهذا ما يدفع القول بأنه تأثر بشيخه ابن حمدين.. بالإضافة إلى ذلك. ما يلاحظ في رواية ابن القطان - وهو من مؤرخي دولة الموحدين - من انها لم يرد فيها ذكر للقاضي عياض ولا لعلماء سبتة.. فالفتوى إذن، وردت من قرطبة بمبادرة قاضيها ابن حمدين الذي تعرف أنه كان من ألد أعداء «الإحياء» ولم تكن حواضر الأندلس والمغرب كلها راضية عن هذا الصنيع (24).

وخلاصة القول : إن عياضا لم يشارك في الفتوى، ولا أمر بالإحراق، ولا حرض عليه وإنما كانت له مؤاخذة على الغزالي حسب ماذكر آنفا.

وكل ذلك لا يخرج عن نطاق الجدل الفكري والمناظرة العلمية الهادفة..

المطلب الخامس : محنة عياض ومنفاه

مما لاريب فيه، أن عياضا كان يحتل مكانة عظيمة في نفوس أهل سبتة وكان مهابا مطاعا.

وفي الوقت الذي تسلط فيه الموحدون على الحكم بالمغرب، نلاحظ عبد المومن بن علي الموحدي يوجه حملات عسكرية إلى مختلف المدن الهامة في البلاد.. كسبتة، وفاس، ومراكش وغيرها لإخضاعها، وجعلها تدخل تحت طاعته وقد دامت هذه الحملات العسكرية حوالي 7 سنوات من سنة 534 إلى 541 هـ.

ولما وجهت الجيوش لمحاصرة سبتة في بداية أمرها وجعلها تدخل تحت طاعة الموحدين، قاومت هذه البلدة الجيوش الموحدية مقاومة ضارية بزعامة قاضيها عياض.. فارتدت هذه الجيوش على أعقابها خاسرة.. وكون عياض دافع عن بلده دفاعا مستميتا هو ما أشار إليه العلامة عبد الرحمن بن خلدون حيث قال :

«واستمر عبد المومن على حاله. فنازل سبتة. وامتنعت عليه. وتولى كبر دفاعه عنها القاضي عياض . الشهير الذكر. وكان رئيسها يومئذ بدينه وأبوته ومنصبه... (25).

وإذا استعصت سبتة أول الأمر على الموحدين.. فقد دخلوا إليها بعدئذ وحصلت من سكانها بيعة للحكام الجدد.. ولم تلبث الأحوال أن تغيرت حيث قام السبتيون ثائرين على الموحدين بعد البيعة وكانت هذه الثورة برأي عياض فقتل الموحدون الموجودون بسبتة وقتل عاملهم وأحرقوا بالنار. وفي نفس الوقت يخوض عياض غمار البحر إلى ابن غانية بالبيعة وطلب منه واليا فأرسل معه يحيى بن أبي بكر الصحراوي إلى سبتة فدخلها وأقام بها مدة...

ولما سمع البرغواطيون. بخروج عبد المومن إليهم استنصروا الصحراوي فأتاهم وبايعوه فقاتلوا الموحدين وهزموهم.. ولكن دارت الدائرة على البرغواطيين فهزموا وقتل من قتل منهم وسبي من سبي. ولاذ الصحراوي بالفرار... ثم أرسل يطلب الأمان من عبد المومن.. فأمنه.. وبايعه. وحسنت طاعته فلما رأى ذلك أهل سبتة سقط في أيديهم وندموا على صنعهم. وكتبوا بيعتهم إلى عبد المومن. وأتى بها أشياخ المدينة وطلبتها تائبين. فعفا عنهم وعفا عن القاضي عياض وأمره بسكنى مراكش.. (26).

وهكذا نجد الناصري : يلتمس العذر لعياض فيما فعله في مواجهة الموحدين ويبين : أن عياضا امتنع من الدخول في بيعتهم أولا : لكون بيعة تاشفين في عنقه ولأن تاشفين ما يزال على قيد الحياة... وتبعا لذلك فلا يخرج عن بيعته بدون موجب.. كما أنه يستبعد أن يكون عياض قد وافق على قتل الموحدين وعاملهم وإحراقهم.. ونسب ذلك إلى العامة التي تتسرع إلى مجاوزة الحدود. وخاصة أيام الفتن (27).

ونتيجة لهذه الأحداث وتلك المقاومة السبتية للموحدين بزعامة قاضيها عياض رأى الموحدون أن يبعدوه عن سبتة ويجعلوه بقربهم وتحت رقابتهم.. إلا أن ولد عياض لا يذهب هذا المذهب. ولا يريد أن يتحدث عن الجانب الأسود في

حياة عبد المومن بن علي لأسباب ربما تتعلق بحياته ومستقبله في أيام هذه الدولة الغاشمة. ولذلك يقول : إن أباه عياضا بادر إلى الدخول في طاعة الموحدين والاعتصام بحبلهم المتين، فأقره أمير المومنين على ماكان عليه وصرف أمور بلده إليه... وشكر أمور بداره إليه ثم رحل إليه. فاجتمع به بمدينة سلا عند توجهه إلى محاصرة مراكش فأوسع نزله وانصرف على أحسن حال إلى أن قامت الثورة في سبتة على الموحدين.

ولما حوصرت البلدة من طرفهم بعد ذلك سعى في استعطافهم فعفوا عنه.. وملكوا البلد..ولقي من زعيمهم يصلاتن بن المعز برا وإحسانا..ثم نهض إلى مراكش في 25 جمادى الثانية 543 هـ صحبة الشيخ أبي يحيى بن الجبر إلى أن وصل مكناسة.. وبها الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتي. فلقي منه من البر الشيء الكثير. وأصحبه كتبا إلى الحضرة فوصلها والحال متغيرة عليه فأقام بها إلى أن اجتمع بعبد المومن. وكان منه من الكلام المنظوم والمنثور. ما استعطفه به حتى رق له وعفا عنه وأمره بلزوم مجلسه فأقام عنده إلى أن خرج إلى غزوة دكالة وخرج صحبته.. فمرض بعد مسيرة مرحلة.. فأذن له في الرجوع.. إلى مراكش فأقام بها نحوا من 8 أيام ثم مات ليلة الجمعة نصف الليل 9 جمادى الثانية 544 هـ ودفن بها في باب إيلان داخل السور (28).

هذه نظرات ولد عياض في عصر كان يتميز بهزات سياسية واجتماعية وغيرهما.. وإذا ما قارنا بين ماقاله بن عياض وما ذكره غيره من الباحثين في هذا العصر نجد هنالك بعضا من التخالف في مسيرة الأحداث والظروف التي اكتنفت أخريات أيام عياض كما اكتنفت حياة غيره من قمم الفكر في عصره وهكذا يمكننا أن نقتصر على ما ذكره القاضي النباهي في شأن عياض وفي ابن العربي ليتضح ما قلناه ونص قوله :

هو : (فجرت عليهما محن - يريد عياضا وابن العربي - وأصابتهما فتن - يعني في ظل الموحدين - ومات كل واحد منهما مغربا عن أوطانه محمولا عليه من سلطانه. وقال بعضهم : سم ابن العربي وخنق اليحصبي) (29).

ومن هذا النص. يتضح لنا أن عياضا قد امتحن امتحانا كبيرا وربما قد استدعي إلى مراكش من أجل الإقامة بها حتى يحال فيما بينه وبين أهل سبتة من جهة.. ومن جهة أخرى ليبقى بقرب الموحدين وتحت رقابتهم.

وقدر لعياض ـ كما قدر لابن العربي ـ أن يبقى بعيدا عن أهله ووطنه حيث عاش في منفاه هذا سنة إلا بضعة أيام.

فقد حل بها في 25 جمادى الثانية عام 543 هـ وفارق هذه الحياة بمراكش في 9 جمادى الثانية عام 544 هـ رحمه الله.

وإذا أحطنا بقسط لا بأس به عن حياته، فإنه يجدر بنا أن ننتقل إلى تراثه.

المبحث الثاني : تراث عياض

سأتحدث في هذا المبحث عن أهم ما قيل في عياض وعن مكانته العلمية أولا كما سأتحدث عن تراثه ثانيا :

وهكذا يمكن أن نتناول الكلام عنه في نطاق مطلبين :

المطلب الأول : ما قيل في عياض وفي مكانته العلمية :
المطلب الثاني : تراثـــــه العلمـــــــي :

المطلب الأول : ما قيل في عياض وفي مكانته العلمية

لا يخامرنا أي شك في أن عياضا. يعتبر من أئمة الحديث وعلومه. وله قدح معلى في الفقه وأصوله والقضاء والفتيا. كما له تألق في سماء الآداب .

ورعيا لهذا فقد جعل في عداد الأئمة الأعلام الذين طارت شهرتهم في الآفاق الفكرية. واتسعت مداركهم في شتى المعارف والعلوم..

وهكذا نرى بعض الباحثين المعاصرين يسلكه في عقد جهابذة عظام كابن تيمية. وابن القيم. وداوود الأصفهاني.وأبي القاسم الطبراني. وأبي الوليد الباجي. وابن الصلاح والدارقطني والواحدي وابن حزم وابن العربي وفخر الدين الخطيب وابن عبد البر القرطبي والبيهقي والنسائي وابن دقيق العيد (30).

وبناء على ما قرظ به عياض وما ناله من حظوة بالغة في النفوس فإن هذا يدعوني أن أبحث وأنقب عما قيل فيه من طرف الباحثين...

وهكذا سأتناول أقوال كل من القاضي ابن حمدين وأبي الحسين بن سراج، وابن خاتمة، وابن خلكان، وابن عتاب، وابن فرحون، وابن منصور، والملاحي وابن بشكوال، والذهبي، وابن القصير، وأبي عبد الله بن عياض، واليوسي، وابن خاقان، وابن صعد الأنصاري، والأديب الصحراوي ، وابن أبي جعفر، والحجوي، وفريد وجدي.

1) - **فبالنسبة لابن حمدين** : وهو أول من اتصل به من الشيوخ في قرطبة فقد قال له : «وحقي يا أبا الفضل، ان كنت تركت بالمغرب مثلك» (31).

فإذا تأملنا في هذه الجملة التي خاطب بها ابن حمدين عياضا نجدها تحمل في طياتها إعجابا بعياض وبشخصيته، وما يتميز به من ذكاء خارق ومن علم وافر، إلى دماثة في الخلق، ورهافة في الحس والشعور، الأمر الذي جعل ابن حمدين، وهو من هو، أن يخاطبه بما خاطبه به من كلام.

2) - **وبالنسبة لأبي الحسين بن سراج** : فقد قال له - وأراد الرحلة إلى بعض الأشياخ - : (لهو أحوج إليك منك إليه) (32).

فكلام ابن سراج هذا إن دل على شيء، فإنما يدل على مكانة عياض العلمية وعلى ما وصل إليه من شأو كبير ونظر بعيد.

3) - **وبالنسبة لابن خاتمة** : فقد قال عنه :

(كان لا يبلغ شأوه، ولا يدرك مداه، في العناية بصناعة الحديث، وتقييد الآثار، وخدمة العلم، مع حسن التفنن فيه، والتصرف الكامل في فهم معانيه إلى اضطلاعه بالآداب، وتحققه بالنظم والنثر ومهارته في الفقه ومشاركته في اللغة العربية.

وبالجملة ، فكان جمال العصر، ومعجزة الأفق، وينبوع المعرفة، ومعدن الإفادة وإذا عدت رجالات المغرب فضلا عن الأندلس حسب فيهم صدرا) (33).

والمتأمل في هذا النص يجده يعكس شخصية عياض على حقيقتها. فهو بحر لا يدرك عمقه في الحديث وعلومه.

وهو نهر دفاق في الآداب.

وهو خبير ماهر في الميدان الفقهي والقضائي.

وهو موسوعة كبرى في اللغة العربية وآلاتها.

وهو ينبوع المعرفة، ومعدن الفوائد.

وخلاصة رأيه فيه انه إذا عدت جهابذة المغرب والأندلس . كان رائدهم ويتيمة عقدهم.

4) ـ وبالنسبة لابن خلكان : فقد قال عنه :

(كان إمام وقته في النحو، واللغة، وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم). (34)

فنلاحظ من خلال هذا النص عنصرا جديدا بالنسبة إلى النصوص السابقة يتوفر عليه عياض، وهو كونه ذا خبرة دقيقة بالتاريخ، ومعرفة كثيرة بأنساب العرب وأيامهم، وهذه ميزة أخرى يتحلى بها..

5) ـ وبالنسبة لعبد الرحمن بن عتاب : (35) فقد قال عنه :

(ولما رأيت ماهو عليه الفقيه أبو الفضل المذكور ـ حفظه الله ـ من الفضل والخير والديانة، والفهم، والعلم، وأخذه من كل العلوم بأوفر نصيب أجزت له جميع ما رويته) (35) والخير والديانة.. وأنعم بالرجل أن يكون دينا خيرا فاضلا متورعا عن الشبهات بعيدا عن مواطن الريب، قريبا إلى قلوب الناس.

6) ـ وبالنسبة لابن فرحون : (36) فقد قال عنه :

(كان القاضي أبو الفضل إمام وقته في الحديث وعلومه عالما بالتفسير، وجميع علومه، فقيها أصوليا عالما بالنحو، واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم، بصيرا بالأحكام عاقدا للشروط حافظا لمذهب ملك ـ رحمه الله تعالى ـ شاعـــرا

مجيدا ريان من الأدب، خطيبا. بليغا. صبورا. حليما. جميل العشرة. جوادا سمحا كثير الصدقة. دوؤبا على العمل. صلبا في الحق).

7) ـ **وبالنسبة لأبي محمد ابن منصور اللخمي النكوري** : (37) فقد قال عنه :

عندما تذاكر معه عياض في شأن كتاب الإحياء لأبي حامد الغزالي حيث قال له : (لو اختصر هذا الكتاب. واقتصر على مافيه من خالص العلم. لكان مفيدا) فقال له : (فاختصره إذن) فقال له عياض : (أنت أخلق لذلك) فقال له أبو محمد : «أحق يا أبا الفضل ؟ لئن لم تختصره فما في بلدنا من يختصره !».

وبتأملنا في عبارة الشيخ النكوري يتضح لنا مقدار مكانة عياض العلمية. حيث نفى أن يكون هناك من يستطيع اختصار «الإحياء» ما عدا عياضا.

ونستفيد من هذا القول أيضا أن عياضا كان بعيدا كل البعد عما نسب إليه من مشاركة في إحراقه أو الإفتاء به (38).

8) ـ **وبالنسبة للملاحي** : (39) فقد قال عنه :

(كان القاضي عياض ـ رحمه الله تعالى ـ بحر علم. وهضبة دين وحلم. أحكم قراءة كتاب الله بالسبع وبلغ من معرفته الطول والعرض وبرز في علم الحديث. وحمل راية الرأي ورأس في الأصول. وحفظ أسماء الرجال وثقب في علم النحو وقيد اللغة. وأشرف على مذاهب الفقهاء. وإنحاء العلماء وأغراض الأدباء).

وبتأملنا في قول الملاحي نجده يزيد على ما عرفناه عن عياض من صفات سواء من حيث ريادته الفكرية أو من حيث استخدامه عقله إلى جانب النقول من الروايات.

9) ـ **وبالنسبة لابن بشكوال** : (40) فقد قال عنه :

(قدم الأندلس طالبا للعلم. فأخذ بقرطبة عن القاضي أبي عبد الله محمد بن علي بن حمدين.. وعنى بلقاء الشيوخ والأخذ عنهم. وجمع من الحديث كثيرا. وله عناية كثيرة به واهتمام بجمعه وتقييده. وهو من أهل التفنن في العلم والذكاء.

واليقظة، والفهم، واستقضي ببلده مدة طويلة، حمدت سيرته فيها، ثم نقل عنها إلى قضاء غرناطة، فلم يدم أمده بها، وقدم علينا قرطبة في ربيع الآخر سنة 531 هـ فأخذنا عنه بعض ماعنده، وسمعته يقول : سمعت القاضي أبا علي حسين بن محمد الصدفي يقول : سمعت الإمام أبا محمد التميمي ببغداد يقول : مالكم تأخذون العلم عنا، وتستفيدون منا ثم لاتترحمون علينا.. فرحم الله جميع من أخذنا عنه من شيوخنا وغفر لهم).

فهذا النص ليس فيه جديد عما سبق بالنسبة لميزات عياض ومكانته.

10) ـ وبالنسبة للذهبي : (41) فقد قال عنه :

(انه عالم المغرب الحافظ).

وإذا كانت هذه الجملة التقييمية صغيرة المبنى فإنها عظيمة المعنى.

11) ـ وبالنسبة لابن القصير : (42) فقد قال عنه :

(ولما استقر عندنا، كان مثل الثمرة كلما ليكت زادت حلاوة، ولفظه عذب في كل ماصرف من الكلام للنفس إليه تتوق وله طلاوة،وكان برا بلسانه جوادا ببنانه كثير التخشع في صلاته، مواصلا لصلاته وقد جمعنا من سيره جملا في الكتاب الذي جمعنا في مناقب من ادركنا من أعيان عصرنا ونبهائه، وذكرنا له ما يفاخر برونقه وبهائه وكان مع براعته في علوم الشريعة خطيبا في تحبيره للخطب وفي لفظه ظاهر الخشوع عند التلاوة وفي لحظه سريع العبرة مديما للتفكر والعبرة، كاتبا إذا نثر، ناظما إذا شعر).

وبتأمل سريع في رؤية ابن القصير نحو عياض نجدها تزيد على ما سبق من كون عياض حلو الحديث، ألوفا، ترتاح القلوب إليه كريما مفضالا، رهيف الشعور والإحساس، كثير الخشوع والبكاء، دائم التأمل والتفكير، وهذه صفات قلما نجدها تتوفر في غيره..

12) ـ وبالنسبة لأبي عبد الله محمد بن عياض : (43) فقد قال عنه :

(نشأ أبي على عفة وصيانة مرضي الخلال محمود الأقوال والأفعال موصوفا بالنبل والفهم والحذق. طالبا للعلم. حريصا عليه. مجتهدا فيه. معظما عند الأشياخ من أهل العلم كثير المجالسة لهم. والاختلاف إليهم. إلى أن برع أهل زمانه. وساد جملة أقرانه فكان من حفاظ كتاب الله تعالى مع القراءة الحسنة والنغمة العذبة والصوت الجهير والحظ الوافر من تفسيره. وجميع علومه وكان من أئمة الحديث في وقته. أصوليا متكلما فقيها حافظا للمسائل عاقدا للشروط بصيرا بالأحكام نحويا. ريان من الأدب. شاعرا مجيدا. كاتبا بليغا خطيبا حافظا للغة والأخبار والتواريخ. حسن المجلس. نبيل النادرة حلو الدعابة صبورا حليما. جميل العشرة جوادا سمحا. كثير الصدقة. دؤوبا على العمل صلبا في الحق. وبلغ في التفنن في العلوم ماهو مشهور وفي العلم معلوم).

13) ـ وبالنسبة لأبي علي اليوسي : (44) فقد قال عنه :

(المغرب كله حرم لأبي الفضل).

وسبب قوله هذا أنه لما قدم لزيارة ضريح عياض في حدود 1100 هـ عرض له جيران الضريح فقالوا له : ياسيدي نريد حد حرم أبي الفضل ـ يعنون من ضريحه إلى باب حومته ـ فقال لهم القولة .

واليوسي وان جعل المغرب كله لعياض ـ لم يتجاوز الحقيقة والواقع ـ فقد كان لعياض حرمة وتقديرا وإجلالا بالنسبة لكل من عرفه.. ولاغرابة أن نسمع أو نقرأ عنه ما نقرأ.

14) ـ وبالنسبة للفتح بن خاقان : (45) فقد قال عنه :

(جاء على قدر. وسبق إلى نيل المعالي وابتدر. واستيقظ لها والناس نيام وورد ماءها وهم صيام وتلا من المعارف ما أشكل. وأقدم على ما أحجم عنه سواه ونكل. فتجلت به للعلوم نحور. وتجلت له منها حور. كأنهن الياقوت والمرجان لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان. قد ألحفته الأصالة رداءها. وسقته أنداءها وألقت إليه

الرياسة أقاليدها. ملكته طريفها وتليدها . فبذ على فتائه الكهول سكونا وحلما. وسبقهم معرفة وعلما وأزرت محاسنه بالبدر اللياح. وسرت فضائله مسرى الرياح. فتشوفت لعلاه الأقطار. ووكفت تحكي نداه الأمطار، وهو على اعتنائه بعلوم الشريعة. واختصاصه بهذه الرتبة الرفيعة. يعنى بإقامة أود الأدب وينسل إليه أربابه من كل حدب. إلى سكون ووقار. كما رسا الطود. وجمال مجلس. كما حليت الخود. وعفاف وصون ما علما فسادا بعد الكون. وبهاء. لو رأته الشمس ما باهت بأضواء وخفر. ولو كان للصبح مالاح ولا أسفر. وقد أثبت من كلامه البديع الألفاظ والأغراض. ماهو أسحر من العيون النجل والجفون المراض).

وبالنظر إلى هذا النص الجميل الذي يسيل عذوبة ورقة وظرفا. نرى الفتح بن خاقان : يذكر مكانة عياض العلمية. ومقدرته الفكرية. ووجاهته الأدبية. وقدمه الراسخة في علوم الشريعة مما جعل شهرته تطير بها الركبان . فتخترق الآفاق تلو الآفاق..

15) ـ **وبالنسبة لابن صعد الأنصاري :** (46) فإنه قال عنه :

(كان عمدة أولياء الله بالبلاد المغربية. وممن أجمع على فضله وعلمه علماء الفقه وأكابر الصوفية..).

وبالنظر إلى هذا النص. نلمس منه مدى ما وصل إليه عياض في الولاية وبلوغه الدرجة الكبرى في الطريق إلى الله. إلى جانب ما أحرز عليه من علم جم وفضل كبير..

وذكر عياض في سلك الأولياء هو من البديهيات..

ويكفيه جلالا وعظمة وضعه في سلسلة سبعة رجال الذين تتحلى بهم مراكش حيث يرقدون في بلدة يرقد فيها بطل المرابطين وأشبال السعديين وغيرهم.. وسبعة رجال. هؤلاء هم :

1) ـ أبو العباس السبتي.

2) ـ عبد العزيز التباع .

3) ـ عبد الله الغزواني المعروف بمولى القصور.

4) ـ سليمان الجزولي صاحب دلائل الخيرات.

5) ـ أبو الفضل عياض.

6) ـ الإمام السهيلي.

7) ـ أبو العباس ابن العريف.

16) ـ وبالنسبة للأديب الصحراوي : (47) فإنه قال عنه :

(مقام عياض مثل مقام البخاري والأئمة الأربعة فهم حملة الشريعة وعلومهم التي يبثون في صدور الرجال بالتلقين والتأليف هي أورادهم والوسيلة التي بينهم وبين الله. وذلك أجل الأوراد. وأجدرها نفعا وأبقى للثواب بعد المدة البعيدة).

فلننظر كيف جعل الصحراوي عياضا في مقام البخاري والأئمة الأربعة وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على ما لمكانة عياض العلمية في النفوس من مقدار عظيم.. وكفاه بهذا عظمة وفضلا وفخارا.

17) ـ وبالنسبة لابن أبي جعفر : (48) فإنه قال عنه :

(ما وصل إلينا من المغرب أنبل من عياض).

فهذه الجملة لها ما لها من مقام كريم وأخلاق عظيمة يتمتع بها عياضنا.

18) ـ وبالنسبة لابن العماد : (49) فإنه قال عنه :

(هو أحد الأعلام ولد سنة 476 هـ وأجازه أبو علي الغساني وأبو محمد بن عتاب. وطبقتهما ولي قضاء سبتة مدة ثم قضاء غرناطة وصنف التصانيف البديعة.. وسمع من أبي علي بن سكرة وغيره. إلى أن قال :

وبالجملة فإنه كان عديم النظير حسنة من حسنات الأيام شديد التعصب للسنة.. والتمسك بها حتى أمر بإحراق كتب الغزالي لأمر توهمه منها).

ولست في حاجة إلى التعليق على هذا النص، نظرا لما سبق أن أوردته آنفا .

19) ـ **وبالنسبة للحجوي :** (50) فقد قال عنه :

(كان مقدم وقته في الحديث والتفسير والأدب والشعر والأصول والفقه والعلوم العربية مشاركا. له الرحلة في الأقطار وله الرياسة في بلده فتيا وقضاء خطيبا بليغا شاعرا مجيدا كامل الأخلاق حليما كريما صلبا في الحق طلب العلم بالمغرب ورحل للأندلس سنة 507 هـ فأخذ عن أعلامها كأبي علي الصدفي وا بن رشد وا بن العربي)..

20) ـ **وبالنسبة لفريد وجدي :** (51) فقد قال عنه :

(عياض هو القاضي أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي... كان إمام عصره في الحديث وعلومه والنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم).

وبعد. فمن هذه النظرات التقييمية لمكانة عياض العلمية. وشخصيته الفذة والتي أوضحت ما له من رصيد فكري وثقافات واسعة وفيوضات روحية. تتجلى لنامقدار عظمة الرجل ومكانته في النفوس..

فلا يخلو أي علم ولا أي فن من الفنون نبحث فيه عن عياض.. إلا ونجده فيه : متألقا زخارا بالعطاء لماعا في الهداية. وكأن أبا الطيب المتنبي عناه حينما قال :

كالبـدر مـن حيث التفتت رأيتـه   يهدي إلى عينيك نورا ثاقبـــا
كالشمس في كبد السماء وضوءهـا   يغشى البلاد مشارقا ومغاربـــا
كالبحر يقذف للقريب جواهـــرا   جودا. ويبعث للبعيد سحائبـــا

تلكم كانت نظرة عن حياته.. أما الآن فننتقل إلى التحدث عن تراثه :

المطلب الثاني : تراث عياض العلمي

ان إسهام عياض في حقول المعرفة والعلوم واضح للعيان.. وقد قدر له أن يخلف تراثا قيما دل على هذا الإسهام.

وليس من شك في أن تراثه هذا بعضه موجود وبعضه مفقود.. وأن ما بقي منه موجودا، فيه ماهو مطبوع وفيه ماهو مخطوط وضع على رفوف الخزائن الخاصة والعامة.

وقد أوصل بعض الباحثين تراث عياض إلى ما يقرب من 32 مؤلفا، يمكن الوقوف عليها في مقدمة كتاب ترتيب المدارك (52) وتقريب المسالك إلى معرفة أعلام مذهب مالك.

هذا ويمكن إجمال تراث عياض فيما يأتي :

1) ـ تراثه الكامل والمطبوع.

2) ـ تراثه الكامل والمخطوط.

3) ـ تراثه الناقص والمخطوط.

4) ـ تراثه المفقود أو ما في حكمه.

5) ـ تراثه الذي لم يذكره ولده في التعريف..

أولا : تراثه الكامل والمطبوع :

ان تراث عياض الذي أكمله وعرف ـ فيما بعد ـ طريقه إلى المطابع يتجلى في :

1) ـ كتاب : مشارق الأنوار على صحاح الآثار :

وقد اعتبر هذا الكتاب من أجل وأنفس ما خلفه عياض.. حتى قال فيه ابن فرحون في الديباج المذهب :

(هو كتاب، لو كتب بالذهب ووزن بالجوهر لكان قليلا في حقه)..

أما صاحب أزهار الرياض (53) فقد قال عنه :

(انه من أجمل الكتب وأنفعها) وقد أورد عدة أشعار تقرظه، نكتفي بذكر البيت التالي منها :

وهو :

مشارق أنوار تجلت بسبتة   وذا عجب كون المشارق بالغرب

وقد لوحظ على هذا الكتاب أنه من أجود ما ألفه عياض.. وان البحث فيه ينصب على كل من موطأ مالك وصحيح البخاري وصحيح مسلم حيث عمد مؤلفه إلى كلمات المتن وأسماء الأماكن والرجال وكناهم وألقابهم. فرتب كل ذلك على حروف المعجم. ثم شرع في عمله فضبط متنها وصححها على الأصول. ونبه على رواياتها المختلفة (54).

وقد قدر ولد عياض عدد أجزائه بستة (55) إلا أن المطبوع بفاس لا يتجاوز مجلدين ضخمين.

2) ـ كتاب : الشفا بتعريف حقوق المصطفى :

يعتبر كتاب الشفا من أحسن ماكتب في جانب الرسول صلى الله عليه وسلم. وفي التعريف بحقوقه والدفاع عنه. وقد اشتهر هذا الكتاب شهرة فائقة في الأقطار الإسلامية وفي غيرها وتهافت الناس على اقتنائه. والاقتباس من معينه. وقد قيل : أنه لم يؤلف مثله. ومن بين من قال ذلك هو الشيخ مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة. في كتابه «كشف الظنون» فقد ورد فيه ما يلي :

(وهو كتاب عظيم النفع كثير الفائدة لم يؤلف مثله في الإسلام) (56).

وتيمنا بكتاب الشفا هذا أسوق ما ورد في بدايته بعد البسملة والصلاة على المصطفى صلى الله عليه وسلم قال :

(الحمد لله المنفرد باسمه الأسمى المختص بالعز الأحمى الذي ليس دونه منتهى ولا وراءه مرمى. الظاهر يقينا لا تخيلا ولا وهما. الباطن تقدسا لاعدما وسع كل شئ رحمة وعلما.وأسبغ على أوليائه نعما عما.و بعث فيهم رسولا من أنفسهم وأنفسهم عربا وعجما وأزكاهم محتدا أو منمى وأرجحهم عقلا وحلما وأوفرهم علما وفهما. وأقواهم يقينا وعزما وأشدهم بهم رأفة ورحما زكاه روحا وجسما وحاشاه عيبا ووصما وآتاه حكمة وحكما. وفتح به أعينا عميا. وقلوبا غلفا وآذانا صما فآمن به وعزره ونصره من جعل الله له في مغنم السعادة قسما. وكذب به وصدف عن آياته

من كتب الله عليه الشقاء حتما ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى. صلى الله عليه وسلم. تنمو وعلى آله وصحبه وسلم تسليما).

وقد قسم عياض كتابه هذا إلى أربعة أقسام حيث اشتملت على 13 بابا و 161 فصلا.

أما القسم الأول: فقد تناول فيه الكلام على ثناء الله تعالى على نبيه وإظهار عظيم قدره لديه.. وتكميله له المحاسن خلقا وخلقا وقرانه جميع الفضائل الدينية والدنيوية فيه نسقا وساق فيه من صحيح الأخبار ومشهورها ما يشهد بعظيم قدره عند ربه ومنزلته وما خصه الله به في الدارين من كرامته.. وفيما أظهره الله تعالى على يديه من الآيات والمعجزات وشرفه به من الخصائص والكرامات.

وأما القسم الثاني : فقد اشتمل على ما يجب على الأنام من حقوقه عليه الصلاة والسلام : في فرض الايمان به ووجوب طاعته واتباع سنته وفي لزوم محبته ومناصحته.. وفي تعظيم أمره ولزوم توقيره وبره وفي حكم الصلاة عليه والتسليم. وفرض ذلك وفضيلته.

وأما القسم الثالث : فقد اشتمل على ما يستحيل في حقه صلى الله عليه وسلم . وما يجوز عليه. وما يمتنع. وما يصح من الأمور البشرية أن يضاف إليه (57) ويتناول ما يختص بالأمور الدينية. ويثبت به القول في العصمة.. وفي أحواله الدنيوية. وما يجوز طروؤه عليه من الأعراض البشرية...

وأما القسم الرابع : فقد اشتمل على الكلام في تصرف وجوه الأحكام على من تنقّصه أو سبّه صلى الله عليه وسلم.. حيث بين ماهو في حقه سب ونقص من تعريض أو نقص.. وفي حكم شاتمه ومؤذيه. ومنتقصه وعقوبته وذكر استتابته والصلاة عليه ووراثته.. وفي حكم من سب الله تعالى ورسله وملائكته وكتبه وآل النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه (58).

3) ـ كتاب : الإلماع في ضبط الرواية وتقييد السماع :

وهذا من الكتب الهامة في مصطلح علم الحديث.. وهو كتاب متداول، طبع في مصر، بتحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر..

4) ـ ترتيب المدارك :

وهو مؤلف جليل، يشتمل على ثمانية أجزاء... وقد طبعته وزارة الأوقـــاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية..

5) ـ بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد :

طبعته وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، بالمملكة المغربية ومعه تفسير نفس الحديث للحافظ السيوطي.

6) ـ الإعلام بحدود قواعد الإسلام :

وهو كتاب عن قواعد الإسلام الخمس طبعته وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية.

ثانيا : تراثه الكامل والمخطوط :

يشتمل هذا التراث على :

1) اكمال المعلم بفوائد مسلم :

وهو كتاب جليل المقدار، عظيم الفائدة، ذكر ولد عياض أنه يشتمل على : 29 جزءا (59)، والكتاب هو شرح على صحيح مسلم بن الحجاج، وسمي بالإكمال، لأنه كمل به شرح أبي عبد الله محمد بن علي المازري المسمى، بالمعلم بفوائدمسلم.

2) التنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة، والمختلطة :

قدر ولد عياض عدد أجزاء هذا الكتاب بعشرة، ولكن المعروف عنه ـ كما في الخزانات العامة والخاصة ـ أنه يشتمل على مجلدين كبيرين.. والكتاب يحتاج إلىتحقيق ودراسة له..وهو يشتمل علىالكثير من الأبواب الفقهية فيالمذهب المالكي..

3) الغنية : في شيوخ عياض..

وقد قيل : انه طبع بتونس.. ولكننا لم نقف على هذه الطباعة.. والكتاب صغير الحجم.

ثالثا : تراثه الناقص والمخطوط :

1) الأجوبة المحبرة عن المسائل المتخيرة :

وقد قال عنها ولد القاضي عياض في كتابه : التعريف.. وجدت منها يسيرا، فضممته إلى ما وجدته في بطائقه، أو عند أصحابه، من معان شاذة في أنواع شتى، سئل عنها ـ رحمه الله ـ فأجاب : (جمعت جميع ذلك في جزء) (60).

2) أجوبة القرطبيين :

وقد قال عنها ولد المؤلف : أنه رآها بخطه ولم يجد لها عنده مبيضة لكنه وجدها في بطائق، فجمعها مع أجوبة غيرهم وأجوبته مما نزل في أيام قضائه من نوازل الأحكام (61).

رابعا : تراثه المفقودة أو ما في حكمه :

وتكاد تنحصر مؤلفات عياض المفقودة أو ما في حكمها فيما يلي :

1) ـ كتاب خطبه.

2) ـ كتاب سر السراة، في القضاة.

3) ـ كتاب المعجم في شيوخ ابن سكرة.

4) ـ كتاب غنية الكاتب، وبغية الطالب في الصدور والترسيل.

5) ـ كتاب الفنون الستة في أخبار سبتة (لم يكمل).

6) ـ كتاب نظم البرهان في صحة جزم الآذان.

7) ـ كتاب المقاصد الحسان فيما يلزم الإنسان (لم يكمل).

8) ـ كتاب مسألة الأهل المشترط بينهم التزاور.

خامسا : تراثه الذي لم يذكره ولده في التعريف :

ان كتبه التي لم يذكرها ولده في التعريف به هي :

1) ـ كتاب السيف المسلول على من سب الرسول.

2) ـ كتاب الجامع في التاريخ..

3) ـ كتاب تاريخ المرابطين.

4) ـ كتاب مطامح الأفهام في شرح الأحكام.

5) ـ كتاب غريب الشهاب.

6) ـ كتاب سؤالات وترسيل.

7) ـ كتاب أخبار القرطبيين.

8) ـ كتاب اختصار شرف المصطفى.

9) ـ كتاب العيون الستة في أخبار سبتة.

10) ـ كتاب العقيدة.

ومجمل القول. فإن عياضا كان درة لماعة في جبين الأيام، ذكاء وعلما وفعلا. وصلاحا وولاية ونبلا وكرم أخلاق، وسعة صدر. وملجأ في الملمات وينبوع خير وصدق وانصاف وعدالة...

حلف الزمان ليأتين بمثله   حنثت يمينك يازمان !! فكفر.

وقد استطاع أن يبيع نفسه لله، حيث تفرغ للعلم والتعليم، أخذا وعطاء فكان منارا به يهتدى، ومثالا يقتدى.

وإذا كان مر على استقبال مراكش له يوم حل بها في الماضي مقدار 858 سنة فإنها اليوم تخلد ذكراه في نطاق هذه الندوة العلمية التي تعتبر امتدادا لندوة مالك رحمه الله، التي يرجع الفضل في إحيائها إلى مولانا أمير المؤمنين **الحسن الثاني** نصره الله وسدد خطاه وخلد في الصالحات ذكره، وإذ نشكره جزيل الشكر على هذه المكرمة العظيمة. فإنه لا يفوتنا أن ننوه بما قامت به وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية من أعمال وما بذلته من جهود عظيمة في إنجاحها... ورحم الله عياضا في الأولين ورحمه في الآخرين والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ـ مصادر البحث ومراجعه ـ

1) أزهار الرياض في أخبار عياض. لشهاب الدين المقرى التلمساني.
2) التعريف بالقاضي عياض لولده أبي عبد الله محمد..
3) البيان المعرب في أخبار الأندلس والمغرب. لا بن عذارى المراكشي.
4) الطبقات.... للإمام الشعراني.
5) شذرات الذهب في أخبار من ذهب. لا بن العماد الحنبلي.
6) إظهار الكمال في تتميم أخبار مناقب سبعة رجال للقاضي عباس بن إبراهيم التعارجي.
7) تاريخ العبر : للمؤرخ عبد الرحمن بن خلدون.
8) روض القرطاس. لا بن أبي زرع.
9) الإحاطة في أخبار غرناطة. للسان الدين ابن الخطيب.
10) الاستقصا في تاريخ المغرب الأقصى. للناصري.
11) المرقبة العليا في مسائل القضاء والفتيا. للقاضي النباهي.
12) وفيات الأعيان في أخبار أبناء الزمان. لشمس الدين أحمد بن خلكان.
13) الديباج المذهب. في معرفة أعيان علماء المذهب. لا بن فرحون.
14) الصلة. لا بن بشكوال.
15) تذكرة الحفاظ. للحافظ الذهبي.
16) قلائد العقيان. للفتح بن خاقان.
17) النجم الثاقب. فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب. لا بن صعد الأنصاري.
18) الفكر السامي في تاريخ التشريع الإسلامي. للحجوي..
19) دائرة المعارف الإسلامية. لفريد وجدي.
20) ترتيب المدارك. لأبي الفضل عياض. تقديم الأستاذ محمد بن تاويت.
21) كشف الظنون. لحاجي خليفة.
22) الشفا. بتعريف حقوق المصطفى . لأبي الفضل عياض.
23) مجلة المناهل : العدد : 19 مقال الأستاذ محمد العربي الخطابي.

القاضي عياض الشاعر

للأستاذ : شبيهنا حمداتي ماء العينين

بسم الله الرحمن الرحيم

القاضي عياض الشاعر

ستشتمل هاته الدراسة على **مقدمة وثلاثة مباحث :**

مقدمـــــة :

الأدب المغربي يكاد يكون، الأدب الإقليمي الوحيد الذي يقارب النسيان في العالم العربي. ذلك أنه، بالمقارنة مع بقية التراث الأدبي لبقية الشعوب العربية يجد الباحث، آثارا جليلة بإمكانها ربط الحاضر بالماضي ليكون تليدها دعما قويا لطريفها، عسى أن تستفيد من مضامينها وأشكالها نهضة الشعر الحالية ليقع التلاحم، والتلاقح فتبرز المناعة القابلة للصمود والمواجهة وفرض الوجود في ساحة المناظرة والاختيار والتمحيص والحفظ.

ولكن مع كثرة الإنتاج وجودته، فإن تطورات الأدب المغربي، والشعر منه على الخصوص، هي أقل تراثنا حظوة من مجهود الباحثين، والمؤلفين، إذا ما قيس ذلك بمجهودهم في بقية المعارف الأخرى، حتى لأصبحنا نسمع غير ما مرة من هذا الطرف أو ذاك، بأن حظنا من الشعر العربي، لا يناسب ما لأسلافنا من آثار في مختلف المواضيع الأخرى، ومما يبرهن على شيوع هذا الاتهام ما كتبه غير

واحد من إخواننا في المشرق العربي حيث اعترف جلهم بأنهم كانوا يجهلون الكثير عن الأدب المغربي، قبل محاضرات العلامة عبد الله گنون، عن الأدب المغربي بالمجمع العلمي بالقاهرة سنة 1956، بالرغم أيضا من أن تلك المحاضرات، لم تكن صورة مكتملة عن النماذج الحقيقية للأدب المغربي في كل مختلف جهاتِ المملكة، وكذلك ماكتبه قبل ذلك عن مشاهير الأدب المغربي وفي النبوغ أيضا.

وإذا ماتساءل المرء عن أسباب غياب الشعر المغربي في كثير من الأحيان، ولما يبحث المتصدي للجواب عن أسباب ذلك، لا يجدان تلك الأسباب نتجت عن فقر في الإنتاج، ولا من نقص في التعبير عن وجدان الأمة وتجسيد تطلعاتها، ورسم اختياراتها، بل على العكس من ذلك، فإن الأدب المغربي والشعر منه على الخصوص، ظل أدبا شعبيا في اختياراته وتعابيره عن الإحساس المغربي مناديا بضرورة تحقيق مثلها العليا، وبذلك فإنه ما كان في يوم من أيامه أدبا مستوردا في أسلوبه، أو مضامينه، إذ كل مرحلة من مراحل هذا الأدب، والشعر منه على الخصوص ظلت تجسد بصدق واقع الأمة في أية مرحلة من مراحل تاريخها الحافل بالأمجاد.

وذلك ناتج من كون العلماء والأدباء المغاربة، كل حسب ميولاته، كانوا تواقين إلى : ألا يتخلف نصيب المغرب من الأدب العربي عما هو عليه في بقية البلاد العربية الأخرى.

أمام هذه الملاحظات التي تبدو جلية لكل متصفح لكتب الآداب العربية والشعر منها بصفة خاصة، لا بد من القول بأن التراث الشعري ببلادنا من أهم الأرصدة التي يحق لنا أن نفخر بها، ولكن لا بد من التساؤل عن أسباب غياب الشعر المغربي في كثير من الأحيان، وحتى في أغلب الأندية المغربية.

ان الجواب على هذا التساؤل، يأتي في وضع المسؤولية في هذا الموضوع على كاهل المثقفين المهتمين بالأدب ببلادنا فما دمنا نجد الطالب، والأديب

والأستاذ. والباحث. كل حسب طبيعة تكوينه وكل منهم ينشدك كثيرا من عيون الشعر عبر مختلف العصور. ونادرا ما تجد أديبا من مختلف البلاد العربية الا ويكتب عن إنتاجه. أو يروي بعضا من أشعاره. اللهم ما كان من أشعار بني وطنه من المغاربة. فإن معرفته بهم أو ببعضهم لا بد. أن تكون في أغلب الأحيان قليلة. وان وجدت فتتميز بضيق الأفق. والاكتفاء بحفظ بعض أشعار شعراء الإقليم الذي ينتمي إليه.

هذا بالإضافة إلى التآمر الذي ما فتىء المغرب يتعرض له منذ أقدم العصور بصفته من أعظم دول العالم الإسلامي دورا في تلقين الثقافة الإسلامية. وما الشعر العربي إلا إحدى مقومات اللغة العربية. والتي يكفيها شرفا أنها اللغة التي نزل بها كتاب الله. فكان لا بد أن تنال قسطها من حرب الأعداء للحضارة الإسلامية بهذا البلد.

ولا بد من إضافة ملاحظة أخرى. ألا وهي كون وزارة التربية ببلادنا عليها مسؤولية عدم تقرير كثير من النصوص الأدبية المغربية في مختلف أطوار المناهج التعليمية. إن هذه الأسباب حملتني على اختيار موضوع القاضي عياض الشاعر أمام هذه الندوة المباركة. ذلك أن القاضي عياض العالم شيء معروف في مشرق العالم الإسلامي وغربه. بينما القاضي عياض الشاعر لم يكن منسيا إلى حد الجهل بشعره ولم يكن معروفا إلى حد إنزاله المنزلة الشعرية اللائقة به. إذ لم يكن متداولا في إطار دراسة شاملة. ولذا سأحاول هنا بمجهودي المتواضع أن ألقي بعض الأضواء على خصائص شعره. وأغراضه وأسلوبه. وذلك بعد لمحة خاطفة عن مكانة الأدب في عصره. ونشأته وتكوينه الأدبي ثم نماذج من شعر شيوخه.

وغايتي من هذا. هو أن تعلم ناشئتنا. بأن بضاعة الآباء والأجداد من الشعر لم تكن مزجاة. ولا قليلة. وأنهم ليسوا مسؤولين عن عدم تداولها بين أيدي خلفهم. ولأن مسؤوليتنا كبيرة في عدم الجمع والتدوين والحفظ وتلك أشياء نرجو أن تكون هذه الندوة بادرة جديدة للعمل على تلافيها. وتدارك ماضاع في شأنها استقبالا بحول الله.

المبحـــث الأول
نشأة القاضي عياض والشعر في عصره

ولد القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بسبتة بتاريخ 476 هـ وتوفي سنة 544 هـ وأثبت غير واحد بأن أجداده انتقلوا إلى سبتة من فاس التي انتقلوا إليها من الأندلس. ويرجع نسب أسرته إلى قبيلة يحصب . التي يلتقي فيها نسبه مع مالك وكان ـ رحمه الله ـ فقيها أصوليا متضلعا في علوم القرآن والحديث حافظا لأصول المذهب المالكي وغيره من أمهات المذاهب الأخرى شاعرا مجيدا كاتبا بارعا ورسائله النثرية امتازت بكونها حسانا حليت ببديع بيانه فتاهت بغزير لغته وتجلببت بوفير استعارته. حتى أصبحت تشتاق سماعها آذان أدباء كل عصر. ويكرع من معين زلالها عشاق لغة الضاد في كل زمن. فما بليت نضارتها. ولعل أحد العلماء الأفاضل سيتناولها بالتحليل في موضوع القاضي عياض الأديب.

الشعر في عصر القاضي عياض

يتسم عصر القاضي عياض بميزات خاصة أثرت في الشعر وأسلوبه. ومضامينه فبعد ان انتهت مدرسة عصر المتنبي من فرض نفسها. ووضعها قالبا جديدا. في مسار القصيدة العربية. طالع المجتمع الإسلامي ما عرفه القرنان الرابع والخامس الهجريان من تحولات عقائدية وسياسية. تأرجح فيها الفكر العربي بين الشك. والحيرة فأصبحت تلك المؤثرات. وراء كثير من الأساليب الشعرية.

فمع مطلع القرن الهجري الخامس اضطربت أحوال الأمة الإسلامية فكريا واشتد النزاع بين الفئات. المتناحرة. وجمح زمام ضبط الأمور من يد الحاكمين. فكثرت الطوائف ونمت السلالية وأطلق مفهوم الدولة على كثير من التحركات التي كان من ورائها أعداء الإسلام وحاول مثقفوها. أن يكون لها أدبها المتميز من حيث الأغراض التعبيرية تبعا للأهداف السياسية .

ولو تتبعنا الأمثلة الحية على ذلك من قيام البيت البويهي مع مطلع القرن الرابع الهجري لطال بنا المطاف . ولكن نريد فقط أن نشير إلى أن الشعر عرف

ازدهارا كبيرا في بعض تلك الحركات مثل دولة بني حمدان. ومع هذا فإن ماحدث بين بني مرداس والفاطميين. وما فتح من أبواب لتحكم السلاجقة في أكثر من نقطة في فارس والعراق. وكذلك إمارات بني زياد والصليحيين في اليمن كل ذلك أثر في تطور النهضة الشعرية. فلم تعط عطاءها السخي الذي عرفته الأمة الإسلامية قبل ذلك.

وفي مقابل ذلك قامت دولة الفاطميين في مصر. وإذا كان قيامها كان سببا في نشوء كثير من الحركات الهدامة في الأمة الإسلامية كما يقول حسن ابراهيم حسن. في تاريخ الأدب العربي (1) فإنها كانت أيضا مناسبةلظهور مفاهيم جديدة. فمواجهة المذهب السني للحركات : الدرزية. والعلوية. والمعتزلة. أعطت للشعر نفسا جديدا. ففي الحملات التي ثارت بين المعتزلة. والأشعرية. وخصوصا حول تفسير علم العقائد برز ثراء أدبي خصب. إن لم يكن. أنشأ مدارس شعرية جديدة فإنه على الأقل أغنى مبدأ تطوير الشعر. وأتحفه بمفاهيم وأغراض ذات طابع متميز. وتأتي أيضا الحركات الصوفية لتخلق هي أيضا شعرا جميلا. أتاح لكثيرين تربية نفسية صحيحة جعلت من شعرهم مدارس تربوية اجتماعية. وإنسانية لها آثارها المحمودة في الشعر. لا أريد مناقشة كل المؤثرات الإنسانية التي كتب عنها مؤرخو الأدب. عندما تحدثوا عن أولئك الأعلام وجهادهم حيث كانوا عبادا بالليل. فرسانا في النهار. بل ان غاياتنا من هذه الإشارات الاعتراضية هو تحديد بعض الخصائص الأدبية في تلك الفترة. التي لامحالة انها خلفت انطباعا عاما في نفس القاضي عياض.

اما في الجانب الغربي من الأمة العربية فإنه يشاهد مع بداية القرن الخامس الهجري ازدهار أدبي في الأندلس عظيم. فإذا كان هذا هو أوان تحكم ملوك الطوائف بالقطر المذكور. فإن الشعر بلغ أوجه آنذاك. إذ كل ملك حرص

---

1) حسن إبراهيم حسن (تاريخ الأدب العربي) ج 3 ص : 41.

كل الحرص على أن يجمع حوله أكبر عدد ممكن من الشعراء، والعلماء وكأنما تجسد التنافس السياسي في الإشعاع العلمي ومحاولة كل حاضرة من عواصم الأندلس، بأن تكون لها المكانة العليا في الشعر وتآليفه واستقطاب أبرز الشعراء، وباختصار، فإن الحضارة الإسلامية بكل أسبابها، ومقوماتها قد كستها أنوار المعرفة فجرى الأدب من شعر ونثر على الشفاه وفي غالب أحيانه يكون انشادا من عطاء القرائح السخي الذي يظهر، انه امتاز في تلك الفترة برهافة الشعور ودقة الوصف وسلاسة التعبير، وإن كان يصحابه ضعف في الوزن في بعض حالاته.

وكما قدمت فإن تعدد العواصم وتعدد ملوك الطوائف جعلت كل ملك يحرص على أن يجمع حوله أكبر عدد من الشعراء، فكانت الوفرة الهائلة من نوابغ الشعراء، الذين عاشوا تلك الفترة مثل : ابن زيدون، وابن الحداء وابن عبادة القزاز، والمعتمد بن عباد، وفي آخر تلك الفترة عاش الشاعران الكبيران : ابن حمديس وابن خفاجة، فتراثهم الشعري لازال مفخرة من مفاخر الشعر العربي.

ولم يقتصر الشعر الأندلسي في تلك الفترة على الرجال وحدهم، بل عرف نهضة أخرى على يد النساء تمتاز بكثرة الشاعرات المجيدات وتتميز أيضا بنفاسة إنشائهن وتجديدهن فكان في مدينة (المرية) وحدها من الشاعرات حسب ذكر الدكتور مصطفى الشكعة ـ الشاعرة الغسانية وزينب المرية، وغاية المنى وأم الكرام بنت المعتصم بن صمادح التي ساهمت في ابتكار الموشحات.

وفي غرناطة تباهت ندواتها، بنزهون وحمدونة بنت زياد الملقبة بخنساء الأندلس وأختها زينب.

وفي اشبيلية مريم بنت يعقوب الأنصاري وبثينة بنت كبير ملوك الطوائف المعتمد بن عباد الشاعر الفذ.

وفي مجريط - مدريد - وطليطلة. أم العلاء بنت يوسف الحجارية. وفي قرطبة لا يمكن تجاهل أميرة الشعر الأندلسي ولادة (2).

فاهتمام الأندلس بالشعر خلال فترة حياة عياض يكاد يكون نادرا إذا ما قيس ببقية البلاد العربية عبر التاريخ القديم والحديث.

وإذا كان ابتذال الشعر، وانتشاره خلال هذه الفترة بالأندلس أثر في مستواه من حيث الشكل والمضمون. فإن مالقيه. من اعتناء في الوجه الآخر من البحر الأبيض خصوصا في بلاط المرابطين. وما وفروه من إمكانيات معنوية ومادية للشعراء رفع مستوى الشعر، وغير مضامينه وخصائصه فبدل ان غلبت عليه مسحة الخلاعة. وذكر المعريات النفسية مباحة وغير مباحة. في الأندلس انتقل هنا في المغرب إلى محاولة استجداء عواطف المرابطين التي تتميز بالنزعة الدينية والروح النضالية لإعلاء كلمة المسلمين وتدارك ما أمكن تداركه.

ويصف عبد الله كنون هذه الفترة بما ملخصه :

(لم يكن المرابطون أقل برا بالأدب وأهله منهم بالعلم والعلماء، وليس أدل على نفي ما يتهمهم به خصومهم في مجافاة الأدب وعدم الاهتمام. من هذه الرغبة الكريمة التي أولاها أمراؤهم لعلية الأدباء) (3) ومضى يصف مالقيه الشعراء والكتاب في البلاط المرابطي من جزيل العطاء وعظيم التقدير مفندا كل الادعاءات التي اتهمت يوسف بن تاشفين. بأنه لم يكن يعرف اللغة العربية، مستدلا على ذلك بالجملة البليغة التي كتبها يوسف بمقلوب كتاب أبي بكر ابن القصيرة فقال : هذا جواب طويل. ثم كتب على ظهره (الجواب ماترى لاما تسمع). ويستدل أستاذنا عبد الله كنون بهذا الجواب ليدحض أقوال الذين ادعوا بأن يوسف بن تاشفين بعد انتصاره في وقعة الزلاقة قدم عليه شعراء الأندلس

---

2) الأدب في الأندلس، تأليف الدكتور مصطفى الشكعة ص 141.

3) النبوغ المغربي، للعلامة عبد الله كنون ص 97.

يمدحونه، فأنشدوا أشعارا كثيرة أنشدوها فيه، وأن المعتمد بن عباد قال له : أيعلم أمير المسلمين ما قالوه ؟ فقال : لا ! ولكنهم يطلبون الخير، فليت شعري - يقول عبد الله گنون لم احتاج هنا إلى من يترجمهم له، ولم يحتج إليه في فهم رسالة ابن القصيرة وانتقادها ؟ ويزيد أستاذنا گنون في حديثه عن اهتمام المرابطين بالأدب والشعر منه على الخصوص ليحكم بأنه اهتمام أثر حتى في أسلوب أدب الأندلس، فنقله كما ألمحنا أعلاه من أدب أقرب إلى الضعف والهزل إلى أدب يمتاز بالقوة والجد بدل انغماسهم في البطالة والمجون.

وعلى أي حال ودون الذهاب بعيدا في تحليلات لاتهم موضوعنا إلا بالقدر الذي يخلق انطباعا في النفس يرسم لها صورة المناخ الأدبي الذي نشأ فيه القاضي عياض يمكننا أن نذكر القارىء الكريم ببعض الأسماء التي لمعت في سماء الشعر في المغرب في ذلك العصر ومنهم :

عبد الله بن سعيد الوجدي، وابراهيم بن جعفر اللواتي، وأبو عبد الله التميمي، وعيسى الملجوم، وعلي بن حرزهم، وأبو القاسم، ومروان بن سمحون، وأبو الحسن بن زنباع، ويحيى بن الزيتوني.

وفي الشطر الثاني من حياة القاضي عياض، يكون من إتمام الحديث عن الظروف العلمية والأدبية التي نشأ فيها، بأن ننظر ولو من بعيد إلى نفس الظروف والمناخ في ظل دولة الموحدين، ولا نحتاج إلى كثير من الأدلة لنثبت اهتمام تلك الدولة بالعلماء والأدباء بما فيهم الشعراء، لأن دولة قاد الثورة إليها المهدي بن تومرت، ووضع أسس استقرارها السياسي عبد المومن بن علي، خليق بالشعر أن يزدهر في عهدها، ويبلغ درجة من السمو لم يعرفها في أكثر فتراته قبل ذلك. ولعل خير شاهد لنا على ذلك، القصة التي أوردها النبوغ وهي تدور حول سماع عبد المومن للبيت التالي :

«ما هز عطفيه بين البيض والأسل   مثل الخليفة عبد المومن بن علي»

بهذا البيت البليغ الذي يستولي على المشاعر مدح محمد بن أبي العياشي السمعاني عبد المومن، وهو مطلع قصيدته المشهورة، والتي تعد من عيون الشعر

العربي. قال صاحب الخريدة : بأنه استعاده له ثلاث مرات. ثم أعطاه ألف دينار ولم يستزده بعده من أبيات القصيدة لما بلغ من نفسه قائلا له : قلت كل شيء في هذا البيت.

إن عصر الموحدين أنجب نهضة أدبية خلاقة. ففيه توالت التآليف النحوية من نظم ونثر. مثل : ألفية ابن معطي التي حذا حذوه فيها ابن مالك في ألفيته ويسجل النبوغ أيضا بأن هذا العصر امتاز بمدارس نحوية كانت لها آراؤها الخاصة في بعض مسائل الإعراب (4) ومثل النحو اللغة والعروض والبيان، فنشطت البحوث اللغوية نثرا ونظما. وفي هذا العصر نشأ بمراكش بيت الطلبة الذي بمثابة مجمع علمي يضاهي بيت الحكمة الذي عرفته بغداد في عصر المامون.

وحكى غير واحد بأن عبد المومن. كان لا يترك أي مناسبة تمر من الأعياد والمناسبات. والمواقف إلا وأجلس إلى جنبه الشعراء يتبارون أمامه فيحكون أشعارهم مخلدين بها مفاخر الدولة في عصره، ثم يجزل لهم العطاء ويجسلهم صدر ناديه الذي كان موقوفا على الحلم والوقار وتدبير شؤون الدولة في أبهة والتزام تجعل من كل شعر سينشد بين يديه شعرا ملتزما بعيدا عن المهاترات والمجون والخلاعة اللفظية.

ومن شعراء تلك الفترة أبو عبد الله محمد بن حبوس من مدينة فاس وابن الشريف وابن السيد الاشبيلي. ومحمد ابن غالب المعروف بالرصافي.

ولقد بعث اعتناء الموحدين بالأدب إلى انتشار قول الشعر في مختلف جهات البلاد وعلى مختلف انتماءاتها السلالية.

ويجدر بنا بعد هذه اللمحات الخاطفة عن ظروف الشعر في فترة حياة عياض أن نورد نماذج ولو قليلة من شعر شيوخه. وغايتي من هذا كله هو. أن أسجل ملاحظة هامة. ألا وهي : أن من كان الشعر في عصره على هذا الجانب من

4) النبــــــــوغ 126.

الأهمية ومن كان أساتذته على هذه الدرجة التي نراها من جودة الشعر والاهتمام به. يكون من الأكيد جدا أن يهتم بالشعر إنشادا وإنشاء. أحرى إذا كان على درجة من الذكاء والاهتمام بالتحصيل مثل ما عليه القاضي عياض.

نماذج قليلة من شعر شيوخ عياض من الذين أخذ عنهم أبو بكر بن العربي الذي يقول :

أتتنــي تؤنبنــي بالبكــاء ... فأهــلا بهــا وبتأنيبهــا
تقــول وفــي نفسهــا حســرة ... أتبكــي بعيــن تــران بهــا
فقلــت إذا استحسنــت غيركــم ... أمرت جفونــي بتعذيبهــا

ودخل ابن صارة على أبي بكر وبين يديه نار عليها رماد فقال القاضي لابن صارة : صفها. فأنشأ ابن صارة قوله :

شابــت نــواص النــار بعد سوادهــا ... وتستــرت عنــا بثــوب رمــاد

ثم قال ابن صارة لابن العربي : أجز. فأنشأ يقول :

شابت لما شبنا وزال شبابنــا ... فكأنمــا كنــا علــى ميعــاد

ودخل عليه يوما ملثم وبيده رمح فهزه فأنشأ بن العربي قائلا :

يهــز علــي الرمــح ظبــي مهفهــف ... لعــوب بألبـاب البريــة عابــث
فلو كان رمحا واحدا لا اتقيتــه ... ولكنــه رمــح وثــان وثالــث

ومن شعر شيوخه قول أبي محمد عبد الله بن السيد الذي يقول في قصيدة من عيون الشعر :

اما انه لولا الدموع الهوامــع ... لما بان مني ما تجــن الأضالــع
وكم هتكت ستر الهوى أعين المها ... وهاجت لي الشوق الديار البلاقــع
خليلــي ما لــي كلمــا لاح بــارق ... تلظــى الحشــا وارفض منــي المدامع

ومن هذه النماذج نذكر موسى بن عمران الذي يقول :

الليالــي تســوء ثــم تســر ... وظروف الزمــان مــا تستقــر
بينمــا المــرء فــي حــلاوة عيــش ... إذا أتــاه علــى الحــلاوة مــر
فالكريم المصاب يفزع فيــه ... لكريــم وينفــع الحــر حــر

ونذكر في هذا الصدد أبا بكر محمد بن أحمد بن رحيم وهو من المجيدين البارعين للشعر، فهو الذي قال :

سقى الله الحمى صوب الولي ... وحيا بالأراكة كل حي
وإن ذكر العقيق فباركته ... سحائب معقبات بالروي
يروي مسقط العلمين سكبا ... يلبسه جني الزهور الجني

إلى آخرها..

ومن شعره أيضا قوله :

نفديك من منزل بالنفس واللذات ... كم لي بمغناك من أيام لذات
نجني بك العيش والأيام دانية ... أعوام فضل قطعناها كساعات

إلى آخرها....

وغيرهم كثيرون من شيوخ القاضي عياض تميزوا بقدرتهم الشعرية، واهتمامهم بالأدب دراسة، وتحصيلا، وبحثا وجمعا، مما يدل على أن من نشأ في تلك الفترة التي أشرت إليها أعلاه، وتلقى دراسته على يد شيوخ لهم شأو كبير في الشعر العربي، لا بد أن يستهويه، قرض الشعر، وحفظه، ومن هنا استطعنا أن ندرك المميزات العامة والتي سنتحدث عنها قريبا في شعر القاضي عياض.

المبحث الثاني
شعر القاضي عياض

ان القاضي عياض من القلائل الذين امتازوا بموهبتي قرض الشعر وحسن سبك إنشاء النثر، ففي رسائله التي أشرت إليها في المقدمة ظلت وستبقى تنبىء عن علو مكانة صاحبها الأدبية، وسعة معارفه العربية، وتمكنه من أزمَة اللغة.

أما شعره، فإنه من حيث الكمية قليل، لأن عياضا كان يحب الشعر، ويدافع عنه، ويكرم الشعراء، ويرى أن قول الشعر من الميزات الحسنة التي ينبغي على الأديب والعالم، أن يتعاطاها، ولقد خلد القاضي عياض موقفا من الشعر، واضحا

عندما قال حول الجدل الذي وجده قائما بين الفقهاء. فمنهم من يذم قول الشعر وينعته بأبشع النعوت. ومنهم من يمدحه. ولكل حججه ومبرراته.

وفي هذا المجال قال القاضي عياض في الاكمال : ذكر مسلم استنشاد النبي صلى الله عليه وسلم للشريد بن سعيد شعر أمية بن أبي الصلت. وقوله : هيه. إلى أن أنشده مائة بيت. وقوله : (ان كاد ليسلم) فيه جواز سماع أشعار الجاهلية وأخبارها والتحدث بها وإنشادها. ثم شرح كلمة هيه التي معناها : إيه.

وزاد يقول : وفيه أن الشعر بنفسه ليس بمنكر. وانما المنكر منه المذموم : الإكثار منه. أو مايتضمنه الهجاء للمسلمين وقذف المحصنات والتشبيب بالمحرمات. وذكر أوصاف الخمر. وانواع الباطل مما يهيج المرتكبين لذلك ويحفزهم على المعاصي. وقد جاءت أشياء في شعر حسان وكعب مما مدح به النبي صلى الله عليه وسلم من حيث التشبيب بغير معين جريا على عادة العرب في الجاهلية. فيستحسن من ذلك القليل وعدم الاكثار ولم ير - يقول عياض - أصحابنا في هذا رد شهادة الشاهد ولا جعلوه جرحا فيه.

وقال القاضي عياض في الإكمال أيضا : وأنه كالكلام فحسنه حسن وقبيحه قبيح. كما روي عن الشافعي. قوله : ومما روينا مرفوعا للنبي عليه السلام. أنه أنشد له صلى الله عليه وسلم الشعر وتمثل به. واستنشده وقاله أصحابه وحضهم على قوله في هجاء المشركين (5).

نستنتج من هذا الموقف الحقيقي للقاضي عياض تجاه الشعر فهو - رحمه الله - يحبه ويحب سماعه. ويتعاطى قوله. ولكن مع الالتزام بالنهج الذي رسمه في موقفه السابق أي : عدم الإكثار منه ليلّا يشغل عن العلم والمعرفة. وأيضا عـــدم تعريض أعراض الناس للقذف بالأوصاف الشعرية الكاذبة. وكذلك التغزل

---

5) انظر (كتاب أعلام المغرب والأندلس) للدكتور مصطفى الداية ص 48 ولقد رويت ما كتبه في هذا الموضوع بالحرف الواحد.

بالمحرمات. وذكر أنواع الخمور وما يحرض عليه الناس من تعاطي تلك المحرمات.

فمن هنا سوف لانستغرب. إذا قلت أغراض شعرالقاضي عياض. فالغزل لم يتعاط منه إلا القليل جدا. وكذلك المدح الذي له منه موقف خاص دل على علو مكانته واعتزازه بالعلم ونظرته إلى أهله بأنهم يجب عليهم أن ينزلوا أنفسهم المكانة التي تحتمها حرمة العلم وفضائله. وإليك القاضي عياض يرسم ذلك واضحا في تعليقه على القاضي أبي الوليد الباجي. حيث قال : وكثرت القالة في القاضي أبي الوليد لمداخلته الرؤساء. وولي قضاء أماكن تصغر عن قدره. وكان يبعث إلى تلك النواحي. خلفاءه. وربما أتاها المدة أو نحوها. وكان في أول أمره مقلا حتى احتاج إلى القصد بشعره (6).

أغراض شعر القاضي عياض

الإخوانيات :

كثر هذا النوع من الشعر في فترة حياة القاضي. وأظن أن سبب ذلك راجع إلى أن أكثرية الشعراء العلماء ينأون بأنفسهم عن تعاطي المديح. والتسول بالشعر فأصبح أكثر مواضيع مديحهم في ذكر شمائل أصدقائهم وفي هذا المجال وصلتنا حسان من شعر القاضي عياض هي التالية :

لقد كتب إلى أبي عبد الرحمان بن طاهر رسالته النثرية الرائعة التي قال في أولها : عمادي أبا نصر مثنى الوزارة. وجيد العصر هل لك في منة تفوق الحصر الخ...

---

6) القصة مروية لمحمد بن القاضي عياض في كتاب (التعريف).

وذيلها شعرا بقوله :

أبا النصر إن شدوا رحالك للنـــوى ... فإن جميل الصبر عنك بها شـــدوا
وإن تتركوا قلبي مقيما وترحلـــوا ... فماذا ترى في مهجة معكم تغـــدو

وله يخاطب أبا طاهر أحمد بن محمد السلفي الأصبهاني :

أبا طاهر خذها على البعد والنوى ... تحية مرتاح لذكرك شيـــــــق
طوى لك ما بين الضلوع مـــودة ... يشـــف صفـــاء كالـــزلال المـــورق
يناجيك بالذكرى فيشفي عليلـــه ... ويخلص بالود الصحيح ويلتقـــي
أقمت عمود الدين والاثـــر الـــذي ... سناه هدى للحق كل موفـــــق
وطار لك الصيت البعيد فارجـــت ... مآثره ما بين غرب ومشـــــرق
فما من ثرى إلا بذكرك عاطـر ... ولا أفق إلا بنـورك مشـرق
بقيت لإسناد الحديـث تقيمـــه ... وللعلم تملي عنه كل محـــــــقق
ولا زلت تحوي كل فضل وســؤدد ... وتسمو بمعراج الجلال وترتقـــى

فأجابه الشيخ أبو طاهر بقوله :

أتاني نظم الألمعي الموفـــــق ... يميس اختيالا بين غرب ومشـــرق
فطالعته مستبشـــرا فوجدتـــــه ... نتيجة فهم في البلاغة مشـــــرق
وأنشدته الأصحـــاب بعـــد تأمـــل ... فلم يبق غير مطـــرب ومطــــرق
فمطربهـــم ممـــا رأى مـــن فصاحـــة ... بلا كلفة فيها وغير تفيهـــــق
ومطرقهـــم مـــن حيـــرة وتعجـــب ... ومـــن دهـــش قـــد نالـــه وتقلـــق
وحـــق لـــه هـــذا المحـــل فقـــد علا ... على جرول في نظمه والفـــرزدق
وأضحى فريدا في الحديث وحفظـه ... وقصر عنه كل فحـــل ومفلـــق
وفي الفقه من بعد الذي هو علمـه ... فقد فاق أهل الأفق قول محقـــق
وفاز بمجد ليس يرجـو بلوغـــه ... مدى الدهر الاكل أحمق أخـــرق
توراثـــه مـــن والـــد متقـــــدم ... عن الجد قرم في الرئاسة معـــرق

نكتفي بهذا القدر منها وهي طويلة وكلها تمجيد للقاضي عياض وإشادة برتبته العلمية العالية، ومكانته الشعرية السامية.

ومن تلك الرسائل ما كتبه بعد رسالته المشهورة التي أبان فيها عن مقدرته وعمق إطلاعه، في جمع من الأدباء اشترطوا أن تكتب رسالة نثرية على أسلوب صعب المهيع، فلم يستطع أي منهم كتابتها وفق شروطهم المطلوبة، والتي قصدوا فيها باب التعجيز فاشترطوا أن تكتب ويمكن أن يلحق بين كل سطرين منها زيادة، توافق معانيها ولا تخل بشيء من مبانيها، فافتتحها بالقطعة التالية :

قل للأماجد والحديث شجــون ... ماضر إن شاب الوقار مجــون
ولئن غدوت من العلوم بموضــع ... تومي إليه أصابع وعيــون
فلدي للآداب نفــس صبــة ... فيهـا إلـى ملـح الظـروف ركـون
كنا افترقنا عند دعوى خطــة ... ساءت فيها فيما فهمت ظنــون
فأتيت بالبرهــان فيهـا نيــرا ... وعدت عواد بعد ذا وشــؤون
وبعثـت حينئـذ ليعلـم أننــي ... عين الزمان وســره المكنــون

ومن اخوانياته قوله :

الله يعلم أني منذ لم أركـــم ... كطائر خانه ريـش الجناحيــن
فلو قـدرت ركبـت البحـر نحوكـم ... فـإن بعدكـم عنـي جنى حيــن

المدح :

لقد مر معنا استنكار عياض للتكسب بالشعر، وذمه لأن يحتاج العالم أن يتولى مناصب لاتناسب مكانته العلمية، وتبينا كيف بلغ به شموخ النفس والحفاظ على الكرامة مما يجعل مدحه للناس غير وارد مادام ينظر إلى المديح نظرته التي جسدتها ملاحظاته على أحد كبراء القضاة في زمنه وهذا يسهل قبول عدم كثرة المديح في شعر عياض، وأيضا إذا نحن نظرنا إلى أغراض الشعر العربي بصفة أكثر شمولية وجدناه تغلب على أغراضه، مواضيع معينة، كالغزل، والمدح، والهجاء، اما الحكم والوصف، فانها أقل حظا من المواضيع الأخرى، وإن كانت غير

مهجورة. وأيضا لعل هذا مما يبرر عدم توفر كمية كبيرة من شعر القاضي عياض ومع هذا فلدينا نماذج من شعره في المدح. تمكن من معرفة مكانته في هذا المجال. ومن ذلك :

ولله قوم كلما جئت طارقـــا	رأيت شخوصا كلها ملئت فهمـا
إذا اجتمعوا جاؤوا بكـل طريفـة	ويزداد بعض القوم من بعضهم علما
تساقوا كؤوس العلم من روضة التقى	فكلهم من ذلك الري لا يظمـا
نفوس على لفظ الجدال قد انطـوت	فتبصرها حربا وتعلقها سلمـا
أولئك مثل الطيب كل له شـذى	ومجموعه أذكى أريجا إذا شمـا

هذا بالإضافة إلى قصيدته الرائعة التي خاطب فيها أبا طاهر والمتقدم ذكرها وكذلك يجدر بنا ذكر قصة القصيدة المديحية الرائعة التي نظمها على سور القرآن ومديح الرسول صلى الله عليه وسلم باستعمال أسلوب من الاستعارة في غاية من الجودة والروعة. مع تسجيل ما راج في شأنها من خلاف. فبعضهم يعزيها للقاضي عياض وبعضهم ينسبها للشمس بن جابر. وفي كثير من التقاييد التي عثرت عليها بصحرائنا المغربية المسترجعة تغلب نسبتها للقاضي عياض. وذلك طبعا دون إغفال ما سجل في شأنها من خلاف وإذا سمحت لنفسي بتعليق على كل تلك الآراء فإنني أرجح نسبتها للقاضي عياض لكونه : استعمل نفس التورية في نثره. وذلك في خطبته التي يقول فيها :

الحمد لله الذي افتتح بالحمد كلامه. وبين في سورة البقرة أحكامه. ومد في آل عمران والنساء أحكامـه. ومائدة الأنعام ليتم إنعامه. وجعل في الأعراف أنفال توبة يونس والى كتاب أحكمت آياته. إلى أن يقول في ختامها : اله الناس. من شر الوسواس الخناس. الذي غسق. ونتوب إليه ونتوكل عليه وكفى بالله وكيلا.

وان من قرأ القصيدة والخطبة يجد التناسب واضحا بينهما.ولا يستبعد أن يكون قائلهما واحد. أما القصيدة فمنها :

في كل فاتحة للقـول معتبــــره حق الثناء على المبعوث بالبقـــــره
قد مد للناس من نعماء مائـــــدة عمت فليست على الأنعام مقتصـره
به توسل إذ نادى بتوبتـــــــه في البحر يونس والظلماء معتكــره

إلى أن يقول :

قد أفلح الناس بالنور الذي شهدوا من نور فرقانه لما جلا غــــــرره
أكابر الشعراء اللسن قد خرســوا كالنمل إذ سمعت اذانهم ســـوره

قال في النثر :

وأوضح الأمر (حتى حج) (المومنون) (بنور الفرقان) والشعراء صاروا ومن كالنمل) ذلا وصغارا لعظمته وظهر «قصص العنكبوت» ومن النظم أيضا قوله في تلك القصيدة :

في ليلة القدر كم قد حاز من شرف في الفخر لم يكن الإنسان قد قدره
فكـل علـى (قـدر) مقامـه يبيـن. (ولم يكونـوا بمنفكيـن) دهرهم ليله ونهاره

ومن مدحه للرسول صلى الله عليه وسلم :

يادار خيــر المرسليـــن ومــن بـــه هدي الأنام وخص بالايـــات
عندي لأجلك لوعة وصبابــــــة وتشوق متوقـــد الجمــــرات
وعلي عهد إن ملات محاجـــــري من تلكم الجـدران والعرصـــات
لأعفرن مصون شيبي ببيتهــا من كثرة التقبيـــل والرشفـــات
لولا العوادي والأعادي زرتهـــا أبدا ولو سحبا على الوجنـــات
لكن سأهدي من حفيل تحيتـــي لقطين تلك الدار والحجــــرات
أزكى من المسك المفتـق نفحــة تغشـــاه بالآصـــال والبكـــرات
وتخصـه بزواكـي الصلـــــوات ونواصـــي التسليـــم والبركـــات

هذه النماذج تجعلنا نستسهل الحكم بأن أبا الفضل اذا لم يكن في المرتبة الأولى من المداحين. فإن الحائل بينه مع ذلك ليس سوى عدم امتهانه لقول الشعر.

كأحد الأشياء التي كرس لها كل وقته. فجودة التعبير. وحسن سبك تلك المقطعات. لا يدع مجالا للقول بأنه ليس في الشعر دون مرتبته في العلوم الأخرى.

الغـــزل :

ان من تتبع حياة القاضي عياض المكرسة لتحصيل العلوم والإنتاج. والتمسك بالزهد وممارسة شتى فنون العبادة سوف لا يتوقع. أن يجد تغزلا في شعر القاضي عياض. ولكن عند مراجعة شعره. سوف يجد نماذج رفيعة المستوى في هذا الفن أيضا ومن ذلك قوله :

رات قمر السماء فاذكرتنـــي ... ليالي وصلهـا بالرقمتيـــن
كلانا ناظـر قمـرا ولكـــن ... رأيت بعينهـا ورأت بعيـــن

ومنه قوله :

ياخليلـي فاحمــلا بعـض قولـي ... للتـي غـادرت فـؤادي عليـــلا
بلغـا عنـي الثريـا سلامـــا ... واذكرانـــي لهـا وقـولا جميـــلا
خلت أني ملكتها واذا بـــي ... في يديهـا تخيـــلا مستحيـــلا
لست أنسى وكيف لي أن أنســى ... حيـن ألقـى الدجـى عليهـا السدولا
هل إلى نظرة سبيل فإنـــي ... لست أبغي الا إليهـا سبيـــلا

ومن ذلك قوله أيضا :

أذات الخـال كـم ذا تنتضيهـــا ... علـي سيـوف عينيـك انتضـــاء
بمطلـك لـي مواعـد أقتضيهـــا ... مـن التوريـد واللعـس اقتضـــاء
فقضـي وعد مطلـك وانجزيـــه ... (خيار الناس أحسنهم قضـــاء)

وله في الحنين الممزوج بالتغزل :

يا راحليـن وبالفـؤاد تحملـــوا ... أترى لكم قبل الممات قفـــول
اما الفـؤاد فعندكـم أنبـــاؤه ... ولواعـــج تنتابـــه وعليـــل
أترى لكم علم بمنتـــزح الكـــرى ... عن جفن صب ليله موصـــول

أودى بعزمة صبره ولبابه … طرف أحم ومبسم مصقول
ما ضركم وأضنكم بتحية … يحيى بها عند الوداع قتيل
ان البخيل بلحظة أو لفظة … أو عطفة أو وقفة لبخيل

وفي هذا المعنى قال :

أتراني وما عسى أن تراني … اخذا مرة أمان الزمان
سلبتني صروفه كل علق … من شباب وصاحب وأمان
كلما حزت بغيتي بفلان … علقت كفه بذاك الفلان
عمرك الله هل سمعت بحي … لم ترعهم روائع الحدثان
كل يوم طليعة لفراق … ومن العجب ان ترى للتداني
فاسأل الشعريين عنها وحسبي … شاهدا ما تقوله الشعريان
ودع الفرقدين ان جهلاها … فستدهى بأمرها الفرقدان

ومن أجود ما قيل في النسيب والحنين إلى الأهل والديار قوله وهو (بداي) بناحية تادلة. يتذكر مسقط رأسه سبتة.

أقمرية الأدواح بالله طارحي … أخا شجن بالنوح أو بغناء
فقد أرقتني من هديلك رنة … تهيج من برحي ومن برحاء
لعلك مثلي ياحمام فإنني … غريب بداي قد بليت بداء
فكم من فلاة بين داي وسبتة … وخرق بعيد الخافقين قواء
تصفق فيها للرياح لواقح … كما ضعضعتني زفرة الصعداء
يذكرني سح المياه بأرضها … دموعا أريقت يوم بنت ورائي
ويعجبني في سهلها وحزونها … خمائل أشجار تزف رواء
لعل الذي كان التفرق حكمه … سيجمع منا الشمل بعد تنائي

ومن جميل قوله عند رحيله من قرطبة راجعا إلى وطنه المغرب :

أقول وقد جد ارتحالي لطيتي … وزفت على وشك الفراق ركائبي
ولم تبق إلا وقفة يستحثها … وداعي للأحباب لا للحبائب

رعى الله جيرانا بقرطبة العـــلا وسقى رباها بالعهـاد الصوائـــب
وحي زمانا بينهم قد ألفتـــه طليق المحيا مستلان الجوانـــب
أإخوانـنـا باللـه فيهـا تذكـروا معاهـد جـار، أو مـودة صاحـب
غدوت بهم من برهم واحتفائهـم كأني في أهلي وبين أقـــارب

يتضح من هذه النماذج، أن شعره تميز بسمات خاصة منها الميل في طرق التعبير إلى الأساليب البيانية، من تشبيه، واستعارة وكناية كما سيأتي عند دراسة الخصائص الفنية.

كما تغلب على شعره رقة اللفظ وحسن التعليل فغزله وإن كان قليلا، فإنه اتسم بالرقة، وسلاسة التعبير، في تفنن بياني غير متهتك، وخصوصا عند ذكر أوصاف أماكن الجمال في المرأة، وإذا كانت منزلة عياض الأدبية، ومكانته اللغوية، وكونه شاعرا مجيدا كما قال غير واحد كل ذلك كان يحمل على الاعتقاد بأنه على القاضي عياض أن يكون مجددا في أغراض الشعر اناك أو على الأصح يكون فيه ابتعاد عن بعض المواضيع التي أصبحت سائدة وخصوصا في مواضيع الغـــزل المتعمق في وصف الحب، والتغني بالمرأة والحنين إلى مفاتنها، فإنه ظل فيه نوع من الحذر وعدم استعمال كثير من النعوت التي اعتاد الشعراء إعطاءها في تغزلهم، ومنهم حتى بعض شيوخ القاضي وكمثال على ذلك ما قدمته لأبي بكر بن العربي.

وعلى أي حال فلا موضوع للغزل الا في التغني بمفاتن المرأة وحنين النفس إلى مواطن جمالها، مهما كانت مكانة الشاعر العلمية، والاجتماعية والسياسية، وأمام هذه الظاهرة التي تكاد تحصر مواضيع الغزل في المجالات الكلاسيكية المألوفة وهي ما ينشأ بين المحبين من قسوة، ولين، ووصل وهجران وشكوى، وعتاب ودموع وبكاء، وما أشبه ذلك مما لم يستطع التغزل الخروج عنه في كل مراحل تاريخ الشعر العربي القديمة، فإن القاضي سجل فيه وقفات رائعة بحذر ومع كل هذا فلا نستطيع أمام حكم الدكتور عبد العزيز عتيق في كتابه «الأدب العربـي في الاندلس» على أن الأدب في الغرب العربي بقي في تغزله غزلا مكشوفا

متهتكا ينبىء عن الابتذال (7) ومع أن حكمه استند فيه على نماذج من شعر الاندلس فقط. دون التعرض لذكر أي شيء عن شعراء المغرب في هذا الموضوع مع تعميم الحكم على القطرين. لانستطيع. الا ان نقول : بأنه لو درس شعر المغاربة في تلك الفترة لغير حكمه. وان ما راينا من تغزل في شعر عياض خير حجة لتكذيب تلك المزاعم.

اما الرثاء فلم أعثر له على شيء فيه. وكذلك الهجاء أما الحكم فله فيها مقطعات قليلة اهمها :

أتراني وما عسى أن تراني ... اخذا مرة أمان الزمان

وقد تقدمت إشارة إليها :

ومن شعره في الزهد :

لإتيان مال كل مؤمل ... ولكنها سبل صعاب المسالك (8)

كذلك جنات النعيم ودونها ... صراط وكم ناج هناك وهالك

وفي هذا المعنى (أي الحكم) قال أيضا :

إذا ما نشرت بساط انبساط ... فعنه فديتك فاطو المزاحا

فإن المزاح قدما حكاه ... أولو العلم قبل عن العلم زاحا

ومن ذلك قوله في قطعة سلفت إشارة إليها :

عمرك الله هل سمعت بحي ... لم ترعهم روائع الحدثان

كل يوم طليعة لفراق ... ومن العجب أن ترى للتدان

فاسأل الشعريين عنها وحسبي ... شاهدا ما تقوله الشعريان

ودع الفرقدين ان جهلاها ... فستدهى بأمرها الفرقدان

7) انظر الصفحة 169 من الكتاب المذكور.

8) في أزهار الرياض، ورد لفظ ومل الصواب. ومؤمل.

وفي الفخر لاتخلو قصائد عياض من إشارات تنبه إلى اعتزازه بماله من مكانة علمية رفيعة. وما حبي به من تقدير اجتماعي. وما لأجداده من مكانة عالية. لانجد هذا صريحا في ألفاظ شعره. ولكن يسهل علينا استنتاجه منه. وذلك في مثل قوله :

عسى تعرف العلياء ذنبي إلى الدهر فأبدي له جهد اعترافي أو عذر

إن حنينه إلى بلده وأهله. مع ما لقيه من حفاوة. واكرام في كل البلاد التي زارها لخير برهان على مكانته الاجتماعية. مما يجعله فخورا بنفسه ولكن بأسلوبه المتزن فهو الذي لا يعرف المغالاة في شيء مهما كان نوعه. ويترك دائما للاخرين الحكم على نفسه. مع عدم فرصة تضيع إلا ويذكر بمكانتها حتى في مناسبات البسط والمجاملة.

شعر الطبيعة :

ان شعر الطبيعة بما فيه من وصف. واستعارة قد غلب على شعر الفترة التي سبقت مولد القاضي عياض. وأيضا كان سائدا هذا الاسلوب في عهده واننا نستطيع القول من خلال البيتين التاليين. بأنه كان مجيدا لهذا الفن. وله فيه القدح المعلى. وهما :

انظر إلى الزرع وخاماته تحكي وقد ماست أمام الرياح
كتيبة خضراء مهزومة شقائق النعمان فيها جراح

وقال يصف مجلسا لأحد أمراء زمنه :

سمح الزمان بليلة غراء جامعة السرور
أجنت أكف جناتها قطف الأماني والحبور
مافض طين ختامها فيما تقدم من دهور
دارت على فلك السعود بمثل أشبال البدور
من كل ماملات مها بته العيون أو الصدور
ما ان ترى إلا أميرا حاز إرثا عن أمير

تخـــذوا القلـــوب أســـــــــرة   وثـــووا بهـــا عـوض السريــر
فعليهـــم وقـــــف العـــــــلا   وان تدوولـــــت الامـــــــور

لقد سبق أن بينت بأن اغراض شعر القاضي لم تكن شاملة لكل الأغراض التي تناولها شعراء زمانه. بل ان ماوصلنا من شعره أهمل اغراضا معينة بصفة نهائية مثل الرثاء. والاستغاثة. والاستنجاد.

المبحث الثالث :

الخصائص الفنية في شعر القاضي عياض :

ان ما بين أيدينا من شعر القاضي أبي الفضل يجعلنا ونحن ندرس شعره نتحرك في ساحة ضيقة. لاتسمح بكثير من الإسهاب. في بعض المجالات التي تعنى بهذا الجانب . ومع هذا. فالمقطعات التي بين أيدينا كلها في المستوى الرفيع. مما يمكن المهتم بالشعر ونقده من الحكم. بأن عياضا كان من المبدعين في ميدان الشعر. وإن كان هو نفسه لايحب الإكثار منه كما أشار إلى ذلك ولده في كتاب التعريف (9) حيث ذكر انه لم يدون شعره. ولم يرغب في أن يروى عنه.

ولكن ما بين أيدينا منه كاف لجعله في نظري في قمة المرتبة الوسطى من الشعراء فعدم امتهانه لقول الشعر. وعدم تعرضه لبعض المواضيع. وقصر النفس الشعري. ما عدا في قصيدة التورية بسور القران مع ما فيها من خلاف. هل هي له أم لا. كل تلك العوائق تجعل وضعه في المرتبة الاولى قريبا من المغالاة. ولكن لا بد من التسليم في نظري. بأنه من أحسن شعراء الطبقة الثانية بعد المتنبي وأبي تمام. وابن زيدون وجماعتهم التي وضعها مصنفو الشعر على رأس الهرم الشعري في الإسلام.

---

9) التعريف بالقاضي عياض لولده ابن عبد الله محمد ص 100 طبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب.

فالمقطعات التي بين أيدينا كافية للحكم على مستوى لغة صاحبها وأسلوب تعبيره، ودرجة تجربته الشعرية واشتمالها على مختلف تطلعاته النفسية والمجالات الوجدانية المنتجة للرؤى الجمالية، بسلاسة ولمعان، ومن المفيد في نظري الرجوع بشيء من التفصيل إلى كل تلك الخصائص في الفقرات التالية :

الموسيقى :

ان المقاطع التي يتالف منها سبك شعر القاضي عياض تسبر أعماق النفس فتهز المشاعر فتقبل ما حملته من معاني وافكار، وما نظمته من كلمات وما توخته من ابراز بعض الظواهر، وإذا كانت الايقاعات الموسيقية التي يعبر عنها قديما بالسلاسة تلبس العمل الشعري رونقا وجمالا يبني على مقياسهما في كثير من الأحيان مكانة الشعر، إذ عن طريقهما يحكم عليه وعلى مستواه وذلك في نظر من يهمهم الجانب الموسيقي أكثر من غيره، بحيث تاتي بعده بقية العناصر الاخرى، من اختيار الألفاظ الجذابة، وابتكار المعاني الممتازة، ثم تكتمل بذلك عناصر جمال الإنتاج الشعري، وهؤلاء الذين يميلون إلى تفضيل الايقاع الموسيقي،اعتبروه من أهم الوظائف الشعرية،لا يمكنهم إلا أن يسلموا للقاضي عياض بعلو المكانة في هذا العنصر، وإذ أحيل على ماسبق فإني اذكر بصفة خاصة بقوله :

أولئك مثل الطيب كل له شذى   ومجموعه أذكى أريجا إذا شما

وقوله :

يامن تحمل عني غير مكترث   لكنه للضنى والسقم أوصى بي

وإذا كنت من الذين لا يسايرون من يقول بان الجانب الموسيقي في الشعر العربي يمكن الاستغناء عنه إذا اكتملت العناصر الأخرى فإنني أجد القاضي عياض اعتنى إلى حد بعيد بهذا الجانب، وجاء شعره كله غنيا بجمال الرنات الموسيقية، مما يجعل المطلع عليه يتعشقه، ويلتمس الزيادة منه (10) (11) (12).

---

10) انظر في موضوع الموسيقى الشعرية كتاب (النجوم الزاهرة في مدح ملوك القاهرة) ج 3 دار الكتاب المصرية.

11) معجم الأدباء، ج 3 ـ دار المامون.

12) نقد الشعر، لابن قدامة، حققه كمال مصطفى.

ان من يردد قول عياض :

قل للاماجد والحديث شجـــــون ما ضر ان شاب الوقار مجـــون

وأيضا قوله :

لعلك مثلي ياحمام فإننـــــــي غريب بداي قد بليت بـــــــداء

وقوله :

اتراني وما عسى أن ترانـــــي اخذا مرة أمـــان الزمـــــــان

سلبتنـــي صروفـــه كـــل علـــق مـــن شبـــاب وصاحـــب وامـــان

يحكم بسلاسة الرنات الموسيقية في شعره.

أما بقية العناصر الأخرى. وهي اختيار الألفاظ. والمعاني فكل شعره كان حافلا بها. وذلك لا يثير استغرابا.فالفقهاء شعرهم عادة لا ينقصه هذان العنصران بل ان مصيبته تأتيه دائما من أود النظم لهم. فلا يستطيعون سبك الشعر بالأسلوب السلس الذي يتوفر عليه غيرهم من الشعراء. لا أستطيع تعميم هذا الحكم ولكن اريد فقط. ان أنبه إلى أن معاني شعرهم عادة تكون سامية وعباراتهم غنية. ولكن الايحاء الشعري يغلب عليه الضعف عند بعضهم وعياض خرج من ذلك البعض فعبارات شعره جذابة وحلوة. وسهلة. ومعاني شعره راقية ونظمه سلس خال من التكلف في أغلب أحواله.

فمن حيث العبارات. الكل حكم على تضلع عياض في اللغة العربية بمختلف فروع معرفتها.

ومن حيث المعاني يكاد يكون اختار البحور التي تساعد دائما على التغلب على مراد الشاعر دون مشقة مثل الطويل. والخفيف. والكامل. والوافر. واذا كنا تبعا لما أشار إليه غير واحد لانستطيع. أن نحكم بأن اختيار الأوزان الشعرية. كان يتبع عند العرب من أجل التحكم في تجسيم المعنى الذي يريده الشاعر. والسيطرة

على ربط الكلمات بالأفكار. وصهر هذا في بوتقة. وزن بحر معين. لتأتي القصيدة حسب اختيار الشاعر وعدم إمكانية قطعنا على ذلك ناتج عن عدم توفرنا على آثار من حيث تاريخ الشعر تسوقنا إلى اعتقاد ذلك. لأن الشعر عند العرب. كان في غالب أحواله. ينشأ مكتملا في ذهن الشاعر. وزنا. وانشادا. باستثناء بعض الحالات الخاصة مثل حوليات زهير.

إلا أن أكثرية شعر العرب تغلب عليها البحور الرئيسية . التي استقطبت أكثرية شعر القاضي عياض. وللاستشهاد على أن أكثرية شعر العرب قيل في البحور الرئيسية نشير إلى المعلقات. ولعل ذلك راجع إلى أن رناتها الموسيقية أكثر تحكما في مشاعر السامع. وأكثر تطرابا لنفسه من البحور الصغيرة الأخرى.

ولنلتمس اثار البيان في شعر القاضي عياض إضافة إلى الخصائص السالفة لنعرف مدى توفر. أو عدم توفر بعض الأشكال الجمالية في شعره. والتي يقول الدكتور شوقي ضيف في كتابه (البلاغة تطور وتاريخ). بأنه يجدر بكل شاعر أن يلم بها وتظهر أثارها في شعره. وإلا كان متطفلا على الشعر. وتلك الأشكال هي :

1 ـ الكناية .

2 ـ والاستعارة .

3 ـ والتمثيل .

4 ـ والإشـــــارة .

ونحاول . أن ننظر في شعر القاضي عياض من خلال تلك العناصر.

1) ـ الكناية :

إذا كان أحد أنواع الكناية. هو أن تاتي بالمراد منسوبا إلى أمر يشتمل على من. الكناية حقيقة له. مثل قول زياد الأعجم :

ان السماحة والمروءة والندى   في قبة ضربت على ابن الحشرج (13)

---

13) انظر الجزء الأول من الأغاني في باب الاستعارة ج : 12 ص 20 طبع دار الملايين ـ بيروت.

يرى الكثيرون أن الكناية أبلغ من التصريح.

ومن أمثلة الكناية في شعر القاضي عياض قوله :

رعى الله جيرانا بقرطبة العلا وسقى رباها بالعهاد الصوائب

فما استعمله ابن الأعجم في شأن القبة التي ضربت على ابن الحشرج أبلغ منه ما استعمله القاضي عياض في التعبير عن سكان قرطبة. وما له معهم من صلات قد تتنوع.

فمثل قول عياض أيضا :

بلغا عني الثريا سلاما واذكراني لها وقولا جميلا

2) ـ الاستعارة :

مادامت الاستعارة مشتقة من العارية. لأن الشاعر يستعير معنى، ثم يضعه بلفظ غير لفظه الموضوع له فإن هذا ينطبق على قول عياض :

تبلغ منها للوزير تحيـــــة معطرة الأرجاء دائمة النشـــر
تظلله من حر كل هجيـــرة وتؤنســه في وحشة البلد القفـــر

إنها الاستعارة بعينها بحيث تجعل التحية وهي من الأسماء المعنوية تظلل الوزير وتؤنسه. ألم يكن هذا شبيها بقول بشار بن برد :

كأن مثار النقع فوق رؤوســنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبـــه

التمثيل :

منه المجازي ومنه الحقيقي. والمجازي أحيانا يكون أجمل لقربه من الخيال الشعري وذلك مثل قول الله عز وجل :

(واخفض لهما جناح الذل من الرحمة).

وفي هذا الموضوع قال عياض :

انظر إلى الزرع وخاماتـــه تحكي وقد ماست أمام الريـــاح
كتيبـــة خضـــراء مهزومـــة شقائـــق النعمـــان فيهـــا جـــراح

الإشـــــارة :

قال قدامة هي : اشتمال اللفظ القليل على المعاني الكثيرة باللحمة الدالة كما قال زهير :

فإنـي لـو لقيتـك فاجتمعنـــــا ... لكـان لكـل منكـرة كفـــــاء

وقوله أيضا :

على هيكل يعطيك قبل سؤالــه ... أفانين جري غير كر ولاوانـــي

ومثل هذا قول القاضي عياض :

سلبتني صروفه كـل علــق ... مـن شبـاب وصاحـب وأمـان

كلما حزت بغيتــي بفــلان ... علقـت كفـه بـذاك الفــلان

البيت (سلبتني صروفه كل علق) أتى إشارات بأوجز تعبير يبين لنا شكواه من الزمان الذي سلبه أشياء أكثر مما يمكن. أن يحمله البيت.

ويحسن بنا ضرب أمثلة أخرى في شعر القاضي عياض في مواضيع أخرى مما يطلق عليه صناعة البديع. ويتعلق ذلك بما يلي :

الجنـــاس :

ففيه قال عياض :

يامن تحمل عني غير مكتـرث ... لكنه للضنى والسقم أوصى بـي

تركتني مستهام القلب ذا ولـه ... أخا هوى وتباريح وأوصــاب

في اخر الأبيات التي سبقت إشارات إليها فهي كلها بدات بالجناس وانتهت به.

من ذلك أيضا :

إذا ما نشرت بساط انبســاط ... فعنه فديتك فاطو المزاحـــا

فـإن المـزاح قدمـا حكـاه ... أو لو العلم قبل عن العلم زاحـا

ومثل قوله :

الله يعلم أني منذ لم أركـم ... كطائر خانه ريش الجناحيـن

فلو قدرت ركبت البحر نحوكـم ... فإن بعدكـم عنـي جنـى حيـن

الترصيع :

المراد به أن تكون الكلمات. متقاربة في الأوزان. متفقة الأعجاز. كقول الله عز وجل :

(ان الينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم).

وقوله عز وجل :

(لامقطوعة ولا ممنوعة).

وفي هذا المجال قال عياض :

ان البخيل بلحظة أو لفظة أو عطفة أو وقفة لبخيل

وهذا مطابق لما قالت الخنساء في البيت التالي :

جواب قاصية جزار ناصية عقاد الوية للخيل جرار

الاشتقاق :

لقد استخدم المرحوم القاضي عياض الاشتقاق غير ما مرة فمن ذلك قوله :

أجنت أكف جناتها قطف الأماني والحبور

وكذلك قوله :

بمطلك لي مواعيد اقتضيها من التوريد واللعس اقتضاء
فقضي وعد مطلك وانجزيه خيار الناس احسنهم قضاء (14)

هذا يسير في النهج الذي رسمه قول الله عز وجل :

(فاقم وجهك للدين القيم).

وكقول الشاعر :

ألم تبتدرك يوم بدر سيوفنا وليلك عما ناب قومك نائم

---

14) عجز هذا البيت ورد منسوبا لغير عياض، وهو مقتبس من حديث شريف.

التطبيق :

وهو أن تأتي بالشيء وضده مثل قوله تعالى :

(فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا).

وفيه يقول عياض :

كذلك جنات النعيم ودونهـــــا صراط وكم ناج هناك وهالـــــك

لزوم مالا يلزم :

قد ينتج في كثير من الأحيان أن يخلق هذا النوع ضعفا في نظم الشعر أو في معانيه، إلا عند القليلين ومنهم القاضي عياض. ولنرجع إلى الأبيات التي مطلعها :

يا من تحمل عني غير مكتـــــرث لكنه للضنى والسقم أوصـــى بـــي

الاعتراض :

عرفه الدكتور مصطفى الداية بأنه : الأخذ بمعنى ثم مغادرته إلى اخر ، ثم الرجوع إليه بعد ذلك. ليكون ما عدل إليه مبالغة في الأول. وهذا ينطبق على قول عياض :

عسى تعرف العلياء ذنبي إلى الدهـر فأبدي له جهد اعترافي أو عـــذر

فقد حال ما بيني وبين أحبـــــة ألفتهم ألف الخمائل للقطــــــر

إلى أن يقول :

أجل وعساها أن تبلغ مهجتـــــي قابلى قابلى بها أمر زهري وأقضى بها نذر

أما اللف والنشر فإنه قليل في شعر عياض إن لم يكن غير موجود فيه. وأما التفسير المراد به. أن يذكر الشاعر شيئا فيقصد تخصيصه. مع ذلك المخصص نفسه مثل قول الله عز وجل :

(فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق وأما الذين سعدوا ففي الجنة).

وكقول طريح في مدح الوليد بن يزيد :

إن حاربوا وضعوا أو سالموا رفعوا أو واعدوا ضمنوا أو حدثوا صدقوا

فمثل هذا قول عياض :

ياطالب العلم استمع قول امرىء محض النصيحة للمريد الراغب
العلم في أصلين لايعدوهما إلا المضل عن الطريق اللاحب
علم الكتاب وعلم الاثار التي قد أسندت عن تابع عن صاحب

المساواة :

المقصود بهاالسلامة من الحشو وذلك بأن يكون اللفظ مساويا للمعنى من غير زيادة ولا نقص كقول زهير :

ومهما تكن عند امرىء من خليقة وان خالها تخفى على الناس تعلم

فيطابقه في المساواة قول عياض :

كلما حزت بغيتي بفلان علقت كفه بذاك الفلان

بل كل تلك القطعة ابتدات بالمساواة. وانتهت بها.

وأما العكس والتبديل اللذان عبر عنهما صاحب تحرير التحبير بقوله : كل ما كان من قبيل ما يحمل على غيره لقصد المدح. أو الذم. فتجعل ماينبغي أن يوصف به موصوفا. وما ينبغي أن يكون موصوفا صفة مع اجرائهما على الأصل في ذلك الكلام مثاله قول الشاعر :

وإذا الدر زان حسن وجوه كان للدر حسن وجهك زينا

قريب منه قول عياض :

عسى تعرف العلياء ذنبي إلى الدهر فأبدي له جهد اعترافي أو عذر

الاستــــدراك :

ويعني هنا الرجوع حيث يعود المتكلم على كلامه السابق بالنقض والإبطال مثل قول القائل :

أليـــس قليـــلا نظــرة أن نظرتهـــا   إليك وكلا ليس منك قليــــــل

ومثله قول عياض :

خلت أني ملكتها وإذا بـــــــي   في يديهــــا تخيــــلا مستحيــــلا

الاستطـراد :

من أجود ما يقال فيه قول عياض :

ليهن العلى إن زفت الشمس للبــدر   وحلي جيد الملك بالأنجم الزهـــر

وقرت عيون المجد أية قـــــرة   بيوم تعالى أن يكون من الدهـــر

إلى أن يصل إلى قوله :

قران كلا السعدين فيه تلاقيـــــا   كما يلتقي في المقلة الشفر بالشفر

ومنه أيضا ما ورد في الأبيات الأولى من المقطوعة التي مطلعها :

قل للأصاحب والحديث شجون.

إلى أن يصل إلى قوله :

كنا افترقنا عند دعوى خطــــــة   ساءت فيها فيما فهمـــت ظنـــون

الاستهـــلال :

وهو أن يبتدىء الشاعر بما يرمز إلى غايته مثل قول الخنساء :

ومــا بلغــت كــف امــرىء متناولا   من المجد إلا والذي نلت أطــــول

قال عياض :

ياراحلين وبالفـؤاد تحملــــوا   أترى لكم قبل الممات قفـــــول

أما الفؤاد فعندكم أنبــــــاؤه   ولواعــج تنتابــه وعليــــــل

الترديـــــد :

وهو استعمال كلمة واحدة معلقا بها عدة معاني مثل قول أبي حية النميري (15).

ألا حي من أجل الحبيب المغانيـا لبسن البلا مما لبسن اللياليـا
إذا ما تقاض المرء يوم وليلـة تقاضاه شيء لا يمل التقاضيا
كلانا غني عن أخيه حياتـه ونحن إذا متنا أشد تغانيـا

قال فيه عياض :

أذات الخال كم ذا تنتضيهـا علي سيوف عينيك انتضـاء
بمطلك لي مواعيد أقتضيهـا من التوريد واللعس اقتضـاء
فقضي وعد مطلك وانجزيـه خيار الناس أحسنهم قضـاء

وغير هذه الصور من ألقاب صناعة البديع لا يخلو منها شعر القاضي عياض مثل التتميم والهزل الذي يراد به الجد والتنبيه.

وقد تعمدت إيراد هذه النماذج مع تطبيقات لها في شعر القاضي عياض ليعلم أنه إن قل ما بين أيدنا من شعره فإن ذلك لا يمكن أن يكون نقصا في مكانته الشعرية. ولدي بعض الأسباب التي تكمن وراء قلة المتداول من شعر القاضي أبي الفضل وهي :

- أن عياضا في بعض آرائه يمدح الشعر وقوله من حيث المبدأ. ولكن يذم الإكثار منه. لأنه يشغل في نظره عن البحث العلمي. والإشتغال بشتى أنواع العبادات.

2 - عياض لم يكن مفتونا بالمرأة يتغزل عليها في كل مناسبة ولم يكن أيضا مداحا يستجدي بالشعر. ويصاعر به خده للناس. ومعلوم أن الغزل والمدح يشكلان أغلبية شعر كثير من الشعراء. في مختلف العصور.

---

15) الأغاني ج 6 ص 23.

أما الهجاء : فإن مقامه أجل من أن يضيع فيه وقته الذي تنبىء اثاره أنه كان مخصصا لما هو أهم وأنفع منه.

ولهذه الأسباب في نظري قل شعره. وبالتالي كانت اغراضه محدودة جدا. مع أنه لا يستبعد. أن يكون ضاع من شعره الكثير.

وإني لأرجو. أن تكون هذه الدراسة باعثا للمثقفين المهتمين بالشعر على تقصي اثار القاضي عياض في مجال الشعر. وإبراز المجهول منه الى الوجود وذلك بتكميل ما فيها من نقص.

وإن أمة كالمغرب تفخر بقيادة عالم عبقري أديب متضلع هو صاحب الجلالة **الحسن الثاني** نصره الله لجدير بها ان تلم شعث تراثها. وتسترجع ما لأمجادها من عظمة. وما ذلك على الله بعزيز .

أبو الفضل عياض من خلال أدبه وثقافته

للأستاذ : عبد الله الجراري

بسم الله الرحمن الرحيم

أبو الفضل عياض من خلال أدبه وثقافته

اختلاف الناس درجة وموهبة :

من الجلي أن الناس تختلف درجأتهم ومقاماتهم باختلاف المواهب التي يتوفرون عليها والأستعدادات المطبوعة بطابع النشأة الأولى. والتكوين الفطري للنوع البشري:

«لولا مواهب في بعض الانام لما تفاوت الناس في الأقدار والقيم»

طموح وعمل كنقطتين أساسيتين يتكيف بهما الفرد اليقظ. جاعلا نصب عينيه حياة شخصيات أنصفها التاريخ في سجله الأمين. فكانت نبراسا للاهتداء والاقتداء. حفزت وفي قوة نفوسا كبارا سعت للالتحاق بالصفوف الأولى. جاهدة صوب بلوغ الهدف الذي لم يكن ولا كان وقفا على طائفة دون طائفة. بل كان طيعا وفي خدمة كل من تهون عليه ذاته في سبيل النبل والكرامة. وفي تضحية متلاحقة بكل ما يحب ويهوى من ملاذ ورغائب لاتقوم على بقاء.

نعم إذا ما جال الفكر متصفحا وفاحصا بعض فترات التاريخ، وجدها ملئت برجالات ورجالات خلقوا وما خلقوا إلا ليكونوا نماذج حية، وأمثلة واعية لأجيال وأجيال كلها أماني وآمال لتلقي - وعلى أحر من الجمر - ما أنتجوا كخطط تضيء الطريق لجهود جديدة تعمل وفي خلق وابتكار يخطوان نحو الواقع المتجدد والمتطور عبر التاريخ، وفي شتى مرافق الحياة علما وفنا وتقنا فهـذا القـــرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) نجده طافحا بالأعلام والمفكرين وعلى اختلاف هواياتهم واتجاهاتهم واستعداداتهم الثقافية، فعقب تدرجاتهم الطبيعية في التنشيء والأخذ بدءا ونهاية، نرى البعض وفي نهم تلقائي غير مقتنع بما أفاده من شيوخ بلده فقد يكون (في نظره استنفاد ما لديهم من فنون ومعارف لاتفتأ تنمي طاقته العرفانية للبحث عن آخرين توفروا على علوم وروايات تسمو بعلمه إلى الأوج الذي يطمح إليه كصادق في الطلب يسعى وفي جهد لتحقيق المطامح، واهتبال الفرص للقاءات تفسح له مجالات أوسع نطاقا، وأبعد مدى، للتطلع على ما قد يكون غاب عن أساتذته الأول من علوم لها فعاليتها في تلقيح أفكاره، وشحذ آرائه، وأيضا إضافة ما لم يكن درج في مدرسته الأولى. كما ألمعت لهذا المفهوم آية التوبة 122.

عوامل لها أبعادها في تأصيل المعرفة وتمتين القواعد التي لا تعتم تذيب كل ما يمكن أن يساورها من شكوك، أو يعتور معالمها من شذوذ.

هذا وأكثر ما نجده، يتجلى وبصورة جد واضحة في أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي الغرناطي المولود سنة 476 هـ والمتوفى سنة 544 هـ. ولا أدل على هذه الظاهرة النبيلة ما أثبته في فهرسته الخطية والمطبوعة أخيرا (1) فقد ضمنها مائة شيخ ذوي كفاءات في مختلف المعارف والثقافات : فقها وحديثا قراءة وأدبا، كأبـي عبد . الله محمد بن عيسى التميمي السبتي التاهرتي يقول فيه

1) توجد بخزانة الكاتب تحت رقم 3147 وطبعت أخيرا بتحقيق الدكتور محمد بن عبد الكريم (الدار العربية للكتّاب).

مترجمنا السبتي : لازمته كثيرا للمناظرة في المدونة والموطأ. وسماع المصنفات. وأجازني جميع رواياته. ونجد هذا السلوك من أبي الفضل يجري مع عدة شيوخ وفيما يهدف لنوعية تلك المصنفات. والذي أريد أن أطرقه في مشيخته وفي لمسات خفيفة هادفة : هي الناحية الأدبية وما كان له فيها من يد طولى تبلورت وضاءة في كتابه «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» رغم طاقته الثرية في باقي العلوم.

فقد درس على أبي عبد الله بن حمدين التغلبي أجل رجال الأندلس وزعيمها وجاهة ونباهة مع النظر الصحيح في الأدب نثرا ونظما قال : جالسته كثيرا. وأخذت عنه بعض رسائله. وردوده على الإمام أبي حامد الغزالي. كما سمعت منه رسالته لابن السماخ (2). من هذا روايته عن يحيى بن يحيى الليثي المصمودي عن مالك بن أنس رحمه الله قال : بلغني أن لقمان الحكيم أوصى ابنه فقال يابني : جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك. فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض الميتة بوابل السماء.

وصية لها فعاليتها في البعث والتكوين الناشئين عن الاتصال والمثافنة في احتكاك صادق مع رجال الثقافة الحق.

ونجده يأخذ عن الأديب الراوية أبي عبد الله بن سليمان النفزي ـ عرف بابن أخت غانم ـ كتاب الكامل لأبي العباس المبرد في منزله بقرطبة. قال : «ودرسته بسبتة سنة 493 هـ على الأديب صاحب الشرطة أبي بكر محمد بن البراء الجزيري. وسمعت منه كثيرا على شيخنا أبي علي التاهرتي النحوي. كتاب «إصلاح المنطق» ليعقوب بن السكيت. وكتاب «الألفاظ» له سماعا ومناولة لما فاته منه».

وفي ثنايا هذه المشيخة تتفجر طاقة أخذ المترجم عياض ونهمه الفياض. من ثروة الأدب العربي. ودراسة ما كتب فيه وعنه من أمهات. ككتاب الزاهر لأبي

---

2) السماخ بسين مهملة.

بكر الأنباري. والامالي لأبي علي القالي البغدادي. والتعرف على جميع تآليفه سندا وإجازة.

وكتاب الحماسة لأبي الفتوح ثابت الجرجاني. وكتاب مختصر العين (3) لأبي بكر بن الحسين الزبيدي الاشبيلي. وهو بما كان له من ولوع لغوي نجده يتتلمذ للشيخ أبي علي بن طريف النحوي التاهرتي تـ501هـ. فيدرس عليه النحو والأدب وجمل أبي القاسم الزجاجي. والواضح للزبيدي والكافي لأبي جعفر النحاس. وكثيرا من كتاب «المقتضب» للمبرد. وأدب الكاتب (4) لابن قتيبة الذي شرحه ابن السيد البطليوسي وسماه : «الاقتضاب في شرح أدب الكتاب» والايضاح للفارسي. وكتاب الفصيح لثعلب. وقرأ عليه أكثر كتاب الأمالي للقالي. كما سمع منه الكثير من كامل المبرد.

ومن بين رجالات أساتذته خلف بن فرتون إمام النحاة والآداب قال : جالسته كثيرا وذاكرته وتلقيت منه فوائد جمة. وكان ينشد لأبي وهب الزاهد القرطبي الأبيات التالية :

أنا في حالة كما قد تراها ... ان تأملت أسعد الناس حالا
ليس لي كسوة أخاف عليها ... من مغير ولم تر لي مالا
أضع الساعد اليمين وسادي ... ومتى ما أشا وضعت الشمالا
قد تنعمت حقبة بأمور ... ثم دبرتها فكانت خيالا

ومن أعيان الأشياخ الذين ثافنهم وتلقى عنهم مادة الأدب الرفيع : الأستاذ عبد الواحد بن يوسف البغدادي الفهري تـ : 527 هـ والذي يكفي أن تحدث عنه أبو بكر عبد المجيد بن عبدون اليابري الوزير الكاتب مما تتنور من بين سطوره مدى الاختيار الذي كان يترسم خطاه. باحثا وبإلحاح عن رجال المادة المبرزين في علوم العرب ودواوينها وأخبارها. وما ينبثق عن ذلك من آيات ومفاهيم لها مقاصدها الهادفة التي لا تلبث تعرف قاصدها بمزايا اللغة وما تحتضنه مبانيها من

3) قوم نصه وعلق حواشيه وقدم له الأستاذان المرحومان ـ علال الفاسي، ومحمد بن تاويت الطنجي.
4) أحد الكتب الأربعة المعتمدة في الأدب.

أسرار دقيقة نثرا وشعرا. وضوحا وغرابة. يقول أبو الفضل عن ذي الوزارتين ابن عبدون (5) .

لقيته بسبتة في إنصرافه. وأقسم لي أنه ما قصد سبتة إلا للقائي والاجتماع بي. ثم سألني عن أشياء في نفسه. وجرت بيننا مذاكرات أنشدني أثناءها رائيته التي رثى بها ملوك بني الأفطس عارضا فيها لمن أبادته الحدثان. من ملوك كل زمان . مطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالأثـــــر فما البكاء على الأشباح والصـــــور

إلى أن يقول :

وليتها إذ فدت عمرا بخارجـــــة فدت عليا بمن شـاءت مـن البشر

وهو كالسيل الجارف يندفع في هواية غريبة متقريا أشياخ الأدب والاتصال بهم أخذا ورواية كالأستاذ النحوي أبي الحسـن التنوخـي - عرف بابن الأخضر - كان أكثر دراسته على أبي الحجاج الاعلم تـ 498هـ فحدثني بشرح الأشعار الستة لأبي الحجاج. وأجازني عنه جميع تأليفه : كشرحي الحماسة. وشعر حبيب وغيرهما. وأنشدني في نفس الوقت لبعض شعراء الأدب الأبيات التالية :

وزاد وضعـت الكـف فيـه تأنســـا وما بي إلا أنسة الضيف من أكـــل

وزاد رفعـت الكـف عنـه تكرمـا إذا ابتـدر القوم القليـل من الثقـــل

وزاد أكلناه ولم ننتظر بـــــه غدا ان بخل المرء من أسـوأ الفعـــل

ولست أراني في حاجة لشرح الأبيات فمدلولها منها وفيها.

وها هو مرة أخرى يتتلمذ لأبي الحسين بن عبد الملك الوزير اللغـــوي الحافظ الذي كانت الرحلة إليه بعد أبيه في تقييد كتب الأدب والغريب. ودراسة كتاب سيبويه يقول أبو الفضل : قرأت عليه كتاب أبي عبيد القاسم بن سلام. كما أخذت عنه كتاب الغريبين لأبي عبيد الهروي. وصححته عليه قال : وأنشدنا من قوله :

---

5) ترجمه صاحب فوات الوفيات ج 2 ص 19.

بث الصنائع لا تحفـل بموقعهـــا في آمـل شكـر المعـروف أو كفـــرا
كالغيـث ليس يبالي حيثما انسكبت فيه الغمائم تربا كان أو حجـــرا

تراه لا ينفك من فينة لفينة يجلب إلينا شعرا له أبعاده في بث الوعي. وايقاظ النفوس لمكارم الشيم. ومحامد الأخلاق. وهو في ذات اللحظة يسبح في خضم الآداب الواعية وفي لمة من زعماء الفن يتدارس وإياهم في عمق ما شرد وعز. رغبة في استكناه أسرار اللغة فيه الأدب الرفيع بمعناه الواسع حيث لا يفوته أن ما تسمو به المدارك. ويتجلى فيه الأدب الرفيع بمعناه الواسع حيث لا يفوته أن يتكيف بما يعطاه اليوم من تعاريف تكسوه حلة الشمول لمرافق الحياة. وما تهدف إليه في شتى المجالات الإنسانية.

هذا وأكثر ما نجده متجليا وبقلم حي رائع وقتما نتصفح بعض آثاره العلمية والأدبية كالشفاء والطبقات والمدارك. ومشارق الأنوار في تفسير غريب الحديث المختص بالصحاح الثلاثة (الموطأ والبخاري ومسلم) وإلى تلك الأنوار الوضاءة يلمح الأديب قائلا :

(مشارق أنوار تبدت بسبتة ومن عجب كون المشارق بالمغرب) (6)

وكان الإمام أبو عمرو بن الصلاح صاحب كتاب علوم الحديث. يعجب بها. وكلما طالعها أنشد البيت «مشارق أنوار» وقد ذيله جماعة (7). ويقول الأديب أبو الحكم. مالك بن المرحل من قصيدة طويلة مطلعها :

(سلام على سبتة المغرب أخيـة مكـة أو يثـرب)

وشرح حديث أم زرع شرحا مستوفى. وكتاب الاكمال في شرح كتاب مسلم كمل به (المعلم في شرح كتاب مسلم) للإمام المازري. والاعلام بحدود قواعد الإسلام. والفهرست. خاصة كتابه الشفا الذي كان بحق شفاء القلوب والأساليب :

---

6) يوجد مشارق الأنوار في الحديث للغوي الكبير الحسن بن محمد الصاغاني ألفه للمستنصر العباسي مطبوع، ولا عجب أن يتفق الصاغاني (ت : 650 هـ ـ 1252م) مع أبي الفضل في التسمية فكثيرا ما يقع التواطؤ على الاسم أو اللقب.

7) راجع الأزهار ج 4.

فقالوا أراك تحب الشفا وتخبر فيه عن المصطفى
فقلت لأني عليل الفؤا د وكل عليل يحب الشفا

ويقول المحب الصادق :

كلهم عالجوا الدواء ولكن ما أتى بالشفاء إلا عياض

وكمثال خفيف يلقي الأضواء هو الآخر على هذه الظاهرة الرائعة نلمسه ونحن نردد بيتين ارتفع فيهما إلى القمة بلاغة وتشبيها يذكرنا على التو بشعر عبد الله بن المعتز. وقد ساعده محيطه وآنيته. ولكن على مسرح الطبيعة حسبما رواه ولده عبد الله محمد قاضي دانية قال : أنشدني لنفسه في خامات زرع بينها شقائق النعمان هبت عليها ريح. قال :

انظر إلى الزرع وخاماته تحكي وقد ماست أمام الرياح
كتيبة خضراء مهزومة شقائق النعمان فيها جراح

وأنشدهما له أبو النصر الفتح بن خاقان في كتابه «قلائد العقيان» وأطال النفس فيه بما زهيت به رتب الكمال. وحامت على مشرع مجده العذب طيور الآمال.

وأنشد قول أبي نواس :

«وليس لله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد»

وذكره العماد في الخريدة فقال : كبير الشان. غزير البيان. وذكر له البيتين في الخامة.

ولا بدع أن يسمو أسلوبه قريضا ونثرا. ثم من بين أساتيذ مدرسته خلف بن يوسف بن فرتون النحوي الثقة علما وأدبا. إذ كان كعبة الأدباء بالأندلس والمغرب جميعا. وبعد فلم يكن ولوع أبي الفضل عياض الأدبي وتردده على مدارسه وتكرار نصوصه ومصنفاته كالكامل الذي كان يمتزج بنفسه لكثرة ممارسته وعلى جمهرة من أعلام الفكر والأدب لم يكن ذلك لينسيه أو يثني طاقته الثقافية. عن باقي العلوم أصولا وفروعا خاصة علم القراءات وتوجيهاتها والتردد

على حلقاته وأخذه عن غير ما أستاذ. كالمقرى أبي القاسم خلاف - المعروف با بن النحاس القرطبي - قال : ناولني كتاب طبقات القراء لأبي عمرو كما كانت إليه الرحلة. في علم القراءات أثناء العقد الثاني بعد الخمسمائة طالما كان هذا النوع من العلوم القرآنية لدى العهود الأولى ذا قيمة روا ية ودرا ية. إيمانا من رجال تلك المدارس المشرقة. ان من لم يتصف بالأستاذية لا يوثق بثقافتــه الإسلاميــة. خاصة علوم التفسير ففي بلده حفظ القرآن بقراءاته السبع بروا ية نافع وا بن كثير. وأبي عمرو بن العلاء. وا بن عامر. أخذ تلك الروا يات بطرقها المختلفة المعروفة عن عبد الله بن ادريس بن سهل المقرىء تـ : 515 هـ وبروا ية حمزة الزيات عن عبد الله بن محمد النفزي تـ : 538 هـ راجع الغنية.

وهذا يدلنا في جلاء على ضلاعة لها قيمتها فقها وتفسيرا. حديثا وروا يــة ودرا ية. أشياء تنبو في عمقها عما وسموا به بعض أحاديث الشفا بالضعف. وقليل مما قيل عنه بالوضع قالوا : انه تبع ا بن سبع في شفائه. وقد نبه على ذلك كله الجلال السيوطي في كتابه «مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا» ونجد الحافظ الذهبي هو الآخر لم ينصف في قوله : انه محشو بالأحاديث الموضوعة والتأويلات الواهية. الدالة على قلة تفقده مما لا يحتاج قدر النبوة له. ثم قال : فعليك (بدلائل النبوة) للبيهقي. فإنه كله هدى ونور وقال : انه قلد ا بن سبع (وكفى المرء نبلا أن تعد معايبه) (8) وهو تحامل منه لا ينبغي. قال الشهاب رحمه الله : وسترى إن شاء الله ما ذكره في محله. فإنا لم نترك شيئا يحتاج إليه قارىء هذا الكتاب.

وصنف من هذا القبيل يجب التثبت فيه أكثر. والإلمام بجوانبه عن سبر قائم على معرفة بالحديث وعلومه وأخباره سندا ومتنا كي يقع الفني الخبير على الحكم الصحيح القار دونما اضطراب وتقوقع في النسبة المؤدية إلى توريط الأكفاء من رجال السنة. فيما قد لا يتورع أن يضع البغض من أمثالهم في قفص الاتهام. رمينا بالضعف الذي قد يمس الأمانة.

---

8) صدره : ومن ذا الذي ترجى سجاياه كلها.

ورغم كل هذا وانطلاقا منه. فقد هيأ الله تعالى رجالا للدفاع عن القيم والكرامات وقتا تتجلى فيه الرؤية. وتنكشف الحقيقة أكثر. غيرة على جلالها وحفاظا على قداستها.

يقول الفقيه قاضي القضاء برهان الدين بن فرحون في ديباجه ((كان أبو الفضل إمام وقته في الحديث وعلومه. عالما بالتفسير وجميع علومه. فقيها أصوليا. عالما بالنحو واللغة. وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم. بصيرا بالأحكام. عاقدا للشروط. حافظا لمذهب مالك (رحمه الله) (9) شاعرا مجيدا. ريانا من علم الأدب. خطيبا بليغا. صبورا حليما. جميل العشرة. جوادا سمحا. دؤوبا على العمل. صلبا في الحق)).

لا جرم أن هذا النص الجامع الذي أورده ابن فرحون في ديباجه هو وهو وحده ليقوم حجة قوية في دفع ما قيل عن مترجمنا أبي الفضل مما قد يمس علمه واطلاعه. ومعرفته الواسعة في الثقافة الإسلامية على اختلاف مفاهيمها وأنماطها أصولا وفروعا.

ناهيكم أن الرجل تكون تكوينا صحيحا غربا وشرقا فثافن اختصاصيين في شتى أصناف المعارف بما كان له من اتصالات ولقاءات بالجهابذة والمهرة من الشيوخ. كأبي علي بن محمد الصدفي. وأبي عبد الله المازري. وأجاز له الشيخ أبو بكر الطرطوشي الاسكندري. كما أخذ عن الوليد بن رشد طيب الله ثرى الجميع. ثم لاغرابة أن تكون رحلاته العلمية كونت منه رجل نقد ومراقبة علماء كيف كان الشيوخ الأكفاء يتناولون المسائل بالدرس والبحث يردون منها ما يردون ويقبلون ما يقبلون مقارنا ما شاهد وما أخذ عن علماء بلده من أسس ومناهج يقارن بينها ويفاضل بعد الموازنة والعرض على ميزان النقد ما يصلح أن يبقى وما لا يثبت للنقد.

9) أبو الفضل صاحب الذكرى يتصل بالإمام مالك بصلتين : 1) صلة المذهب الذي دان به سكان المغرب وما يزالون إذ كان من أبرز أعلامهم وأشهرهم. درس رسالة ابن أبي زيد والمدونة. وتأليفا في الأيمان اللازمة للقاضي أبي بكر بن العربي المعافري قرأه عليه بسبتة عند مروره بها. كما جاء في الغنية. 2) صلة القربى والانتساب إلى قبيلة حمير من عرب اليمن ذات الصيت الذائع في التاريخ الإسلامي.

ومن هذه الزاوية نجده خدم المذهب المالكي خدمة جليلة أبرزت معالمه وأسهمت بدراسات معمقة تشريعا وقانونا ماضيا وحاضرا. ولا بدع أن يحظى بهذه العناية الجلى كمذهب علته مسحة المرونة في نوازله وقضاياه بعيدا عن التعقيد والالتواء إذ كان متسما في مجموع وسائله ومقاصده باليسر والسهولة أضف لهذا ماله في نفوس المغاربة من أثر فعال جد قوي في ربط أواصر المحبة. وتجسيد مسيرتها البعيدة عما يمكن أن يقف في طريقه من آراء وإيديولوجيات مستوردة : شيء لو لم يكن للمذهب من خصائص الا هو لكفاه ميزة وفضلا على سواه. وهذه استمراريته وبقاؤه طوال ما ينيف على أحد عشر قرنا لشاهد حق على هذه الظاهرة الطيبة الدالة على حسن الاختيار.

(قد عرفناك باختياري إذ كا   ن دليلا على اللبيب اختياره)

اختيار وحد القلوب. وألحم الصفوف. وأصبح المغرب من أقصاه إلى أقصاه يدين بالوحدة المذهبية التي لم تعرف انفصاما وانحلالا منذ أجيال وقرون.

وقد يكون هذا العرض المتواضع كذكرى يقظة تلفت الأنظار وأنظار الشباب الواعي إلى مثقفي السلف وعلمائه وأدبائه. ومدى انكبابهم على الأخذ والدرس وفي جهاد متواصل. ورهبانية تنسيهم كل ما يمت بصلة إلى المادة وتعرفهم في ذات الوقت قيمة الإنسان الحق. وما يجب أن يتوفر عليه كطالب له طموحه الصادق. وهيامه بالمعرفة. جاعلا نصب عينيه كنموذج حي أمثال مترجمنا صاحب الذكرى أبي الفضل عياض.

وتلكم الغاية المتوخاة من انعقاد هذه الذكريات والندوات التي لها أبعادها المتأججة حيوية طالما بعثت وتبعث من أبنائنا وشبابنا وعيا يهديه إلى الحق وإلى طريق مستقيم. طريق الذين فنوا ونسوا ذواتهم في سبيل الارتفاع بأرواحهم واضعينها في بوتقة المعارف وتلكم اللذة الكبرى التي لا يحسها إلا من ذاق طعمها. وامتزجت بشرايينه.

(وحصر الشيخ الإمام اللذة في المعارف)

من ذاق طعم شراب العلم يدريه   ومن داره غدا بالروح يشريه

وفي هذه المناسبة الطيبة لا أكاد أنسى أن ألمح ولو في أسطر خفيفة إلى العناية التي حظي بها كتاب الشفا لأبي الفضل السبتي ـ طيب الله ثراه ـ منذ عصره الزاهر إلى اليوم.ذلك أن الشيخ المطلع أبا العباس أحمد سكيرج ـ رحمه الله ـ ساعده تعلقه بالرسول الكريم أن ينكب علىدراسة كتاب الشفا ويتعمق ماضمه من درر غالية في السيرة النبوية. لا غنى للمسلم الحق عن معرفتها. والتكيف بمضمونها أخلاقا وسلوكا. دينا ودنيا.

فعمد إلى الكتاب وصاغه في بسيط سهل حلو في نحو : 9000 بيت أو تزيد مطلعه :

حمدا لمن باسمه الاسما قد انفــــردا واختص بالملك فهو لم يزل صمــدا
ما دونه منتهى للطالبيــــن ولا وراء مطلبه لمن له قصـــــــدا

وقدمه للبحاثة الشيخ عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني. فماذا كان منه ؟ كان انه جند طاقته العلمية. وخبرته الواسعة. بما صنف وألف ونشر أو لم ينشر. وضمته المعلمات الإسلامية العامة وغيرها حول الشفاء أو الترياق الناجع ان شئت.

وقرضه بتقريظ مفيد وغريب أتى (كأطروحة نادرة) حول كتاب الشفا حسبما يهدف إليه عصرنا الحديث في البحوث العلمية الجديدة. فقد تناول فيه عدد نسخ الشفا العتيقة الموجودة في خزائن العالم. ثم من كتب عنها. ومن أفرد رجالها بالذكر سواء المغاربة والمشارقة. وعلى من خرج أحاديثها. وعلى أسانيدها. وعلى ما جاء فيها من حكم وأمثال. وسوى هذا من نوادر المبتكرات التي استنتجها المقرظ الباحث. وأثبتها على هوامش الأطروحة القيمة والمدهشة في آن واحد. ثم ماطبع منها وما لم يطبع واختلاف الخطوط التي كتبت بها تلك النسخ. وبأقلام فنية تسطيرا وتلوينا. وترويقا وتنميقا. ثم ما أهدي منها للملوك والأمراء في عدة دول. ثم التيمن بها والتبرك والاستشفاء . وسردها أحيانا في بعض ما يطرأ من مصائب وأحداث خاصة في الاسقام والمآتم. كما صرح بذلك جمهور من رجالات الثقافة الحق. وإذا صح الاعتقاد حصل المراد. كما يقول المومن :

(وبحسن الظن ينتفع الفتى لاسيما ظن يصح مجيبا)

نعم كانت تلكم الخدمة الثقافية من الشيخ كأطروحة مهمة قدمها للمجمع العلمي بدمشق الشقيقة كعضو عامل من أعضائه البارزين.

ولكن. أقول لكن. والأسف يحز في النفس : أين هي تلكم الأطروحة التي كانت كدراسة مستفيضة عن الشفا. لها مكانها العلمي في التراث الجامعي الخالد ؟

أجل قد كنت يوما خاطبت نجله القاضي أبا بكر الكتاني قبل وفاته بأشهر سائلا إياه عنها فأخبرني أنها موجودة وسيطلعني عليها. بيد أن الأجل المحتوم حال دون تلك الأمنية الغالية والله غالب على أمره. نعم فقد لا نستبعد أن توجد ضمن ما نقل من خزانة الشيخ التي كانت معه بباريز إلى الخزانة الملكية بالرباط.

وغير خاف ما كان لصاحب الذكرى من رأي في العصمة. وفكر في الغزالي وإحراق إحيائه أو تلخيصه واختصاره مما جاء في ثناياه من مكاشفات وفيوضـات.

وأيضا نعلم الموقف الشريف والصلب لأبي الفضل وهو يثور في وجه الموحدين كزعيم للمغاربة إذ صدموا في عقيدتهم السنية ورموا بالتجسيم لحد التكفير والمحاربة. ولتمسكه أيضا ببيعة المرابطين كتاشفين. وامتناعه عن مبايعة عبد المومن. ودفاعه عن سبتة. وهو يدحض مغالطة المهدي المشار إليها. وينبئنا هذا الموقف المعبر في عمقه عن نموذج حي في الرجولة الكاملة لعياض. واستماتته الصادقة وصموده في المبدأ الذي يجب ويجب في تأكيد على ناشئتنا وشبابنا أن يترسموا خطاه حذو القذة بالقذة. ذلك ما أدى أبا الفضل في النهاية لإبعاده وتغريبه إلى مدينة (داي) الواقعة سفح هضاب بني ملال جنوب (قصبة تادلة) ومنها إلى مراكش حيث وافاه الأجل سابع جمادى الأخيرة سنة 544 هـ - 1150م.

وأقبر داخل باب (ايلان)

هذا فإن الشيخ الناظم للشفا وعاقدها قدر له أن يوارى ازاء ضريح أبي الفضل عياض. وداخل قبته ذلك لرؤيا رآها أخبر بها قبل. كانت ككرامة. والمومن بخير على كل حال. والأعمال بالخواتم.

- اقتـــــــراح -

وأخيرا أود أن أختم كلمتي باقتراح أوجهه إلى وزارة التربية الوطنية ذلك إدخال بعض كتب صاحب الذكرى عياض رحمه الله في البرامج والمناهج.

1) - كتاب «الإعلام بحدود قواعد الإسلام» المصنف للمتعلمين من الأطفال ومن في مستواهم من أبناء المغرب لما هو عليه من توضيح (قواعد الإسلام الخمس) وتبسيطها في أسلوب سهل يستسيغونه دونما معاناة يتكبدونها في الفهم.

2) - اختيار فصول من كتاب (الشفا) لتضاف إلى برامج التربية الإسلامية من السلك الثانوي بنوعيه.

3) - كتاب (مشارق الأنوار) لجعله في مواد التعليم العالي بـ (دار الحديث الحسنية) حيث يجعل قسمين ، 1) في سنة الدبلوم ماجستير. 2) في سنة الدكتوراه ففيها تشرق آية التوسع والدقة. في رؤية فاحصة لما في الصحاح الثلاثة «الموطأ والبخاري ومسلم» من غريب ومشكل. وضبط الألفاظ والتنبيه على مواضع الأوهام والتصحيفات وضبط أسماء الرجال. أشياء لا بدع تساعد الطالب والدارس على إدراك ما وراء الغريب والمشكل من خفاء وغموض وبطريقة علمية فنية يسلكها أبو الفضل فيما يكتب ويحرر.

علاوة على ما يعلو هذه الكتب من مسحة الصدق والإخلاص اللذين يطبعان أسلوبها بسلفية هي حقا منبثقة عن القلب. والكلمة إذا صدرت من القلب وقعت في القلب.

وشكرا.

القاضي عياض من خلال تمحيص الرواية الحديثية

للأستاذ : محمد الأزرق

بسم الله الرحمن الرحيم

القاضي عياض من خلال تمحيص الرواية الحديثية

ان انكار تناول حديث الاسراء - برواية انس - ض - عن النبي صلى الله عليه وسلم - قصة شق الصدر الشريف يثار في الأوساط العلمية كحديث الفرانيق من جملة ما يثار كلما ذكر اسم هذه الشخصية المغربية العملاقة التي طبقت شهرتها الشرق والغرب على مر العصور. وسار الركبان بذكرها والتحدث عنها على توالي الدهور. والتي سجل لها التاريخ بمداد الفخر كلمة ذهبية كانت أصدق تعبير لما كان المغاربة يكنونه لهذه الشخصية اللامعة. والطود الشامخ والعلم الفذ. وهي : لولا عياض لما ذكر المغرب.

وان أول ما يبدو عندما تثار المسألة أن القاضي عياضا ـ رحمه الله ـ أول من أنكر على شريك بن عبد الله بن أبي نمر (1) ـ رحمه الله ـ إدراج قصة شق الصدر الشريف في حديث الاسراء. وانها الغلطة الوحيدة التي رميت بها رواية شريك. والواقع بالنسبة للأمرين خلاف ما يبدو.

أما بالنسبة للأول فإن أول من أنكر على ـ شريك في الحقيقة هو الإمام مسلم عندما نبه آخر حديث الاسراء بعدما ساقه برواية شريك عن أنس ـ ض ـ بقوله : وقدم فيه شيئا وأخر وزاد ونقص. فالظاهر أن الزيادة تنصب على قصة شق الصدر التي هي النقطة المعنية بالدرس، وأن شريكا ـ رحمه الله ـ قد زادها في روايته حسب روايات أكثر حفاظ المحدثين عن أنس ـ ض ـ ثم أعقبه الإمام الخطابي (2)، ثم تلاه الإمام ابن حزم المتوفى سنة 456 هـ فطعنا في روايته عن أنس ـ ض ـ حديث الاسراء، بل وهاه ابن حزم لأجلها كما تناقلته كتب التراجم. فهؤلاء الأئمة الثلاثة نراهم قد سبقوا القاضي عياضا إلى النكير على شريك ـ رحمه الله ـ.

وان أول ما يواجه الباحث ـ وهو يبحث عن مبرر للانكار المذكور، انه يجد عندما يلقي نظرة على أحاديث القصتين : قصة الاسراء، وقصة شق الصدر بصحيح مسلم، انه ساق حديث قصة الاسراء برواية حماد بن سلمة (3) عن ثابت البناني عن أنس ـ ض ـ والذي أوله قوله صلى الله عليه وسلم : «اتيت بالبراق» الحديث. تحت ترجمة أحاديث الاسراء وساق حديث قصة

---

1) قرشي مدني تابعي، يروي عن أنس وابن المسيب وكريب، ويروي عنه مالك والثوري ومحمد وإسماعيل ابنا جعفر بن أبي كثير، قال ابن سعد : ثقة كثير الحديث مات سنة 140 هامش التبصرة والتذكرة : 1/36

2) هو أبو سليمان حمد ـ بسكون الميم ـ بن محمد ابن خطاب الخطابي ـ نسبة إلى جده، ويقال : انه من نسل زيد بن الخطاب أي سيدنا عمر بن الخطاب ـ ض ـ البستي : نسبة إلى لبست من بلاد كابل ـ كان أحد أوعية العلم في زمانه حافظا فقيها مبرزا. من تصانيفه النافعة معالم السنن، وغريب الحديث واصلاح غلط المحدثين. روى عن جماعة من الأكابر، وروى عنه الحاكم، توفي سنة 388.
هامش التبصرة والتذكرة : 1 / 12، والرسالة المستظرفة : 44 ط دار الفكر بدمشق.

3) هو ابن دينار، أحد أعلام المحدثين فقد قال فيه عمرو بن عاصم : كتبت عن حماد بن سلمة بضعة عشر ألفا، وقال في الميزان : هو ثقة صدوق لكنه يغلط. توفي سنة 167.

شق الصدر الشريف بنفس الرواية والذي أوله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان» الحديث. ثاني أحاديث خمسة نسقها تحت ترجمة أحاديث شق الصدر. نسق بعدها بقية أحاديث الاسراء.

وهنا تجدر الإشارة إلى ان شارحه الابي المالكي المتوفى سنة 828 قد أفرد رواية شريك بالترجمة تمييزا لها عن باقي الروايات.

وانه لفصل - من حماد بن سلمة الراوي عن التابعي ثابت البناني - (4) له وزنه بالنسبة للنقطة المعنية بالبحث. إذ فيه حجة على أن قصة شق الصدر ليست من حديث الاسراء الذي رواه أنس - ض - عن النبي صلى الله عليه وسلم. ومن ثم اختار هذه الرواية القاضي عياض في الشفا من بين أحاديث كثيرة توجد منتشرة في دواوين السنة بأسانيد مختلفة وعلل ذلك قبل سوقها بأنها اجمعها لقصة الاسراء وأصحها. (5) ثم ما ساقها نقلا عن شيخه القاضي الشهيد الحافظ أبي علي بن سكرة المتوفى سنة 514هـ انه - أي ثابتا البناني - جود فيها ماشاء. (6) وقد خلط فيها غيره لاسيما من رواية شريك. وقد سلك القاضي عياض في الشفا نهج الإمام مسلم فساق بعد حديث ثابت المتقدم حديث شق الصدر الشريف قائلا : وقد روى ثابت عن أنس - ض - من رواية حماد بن سلمة أيضا مجيء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يلعب مع الغلمان عند ظئره. وشقه قلبه تلك القصة منفردة من حديث الاسراء كما رواه الناس (7) فجود (8) في القصتين... إلى أن قال فأزاح أشكال أوهمه غيره.

---

4) بضم الموحدة وتخفيف النونين - كما ضبطه في التقريب - أبو محمد البصري، روى عن أنس وابن الزبير، وابن عمر، وعبد الله بن معقل وغيرهم، وروى عنه حميد الطويل، وشعبة وجرير بن حازم وغيرهم. قال الإمام البخاري عن المديني له 250 حديثا. وقال أبو طالب : ثابت يثبت في الحديث وكان يقص، وثقه جماعة، وما وقع في حديثه من النكرة، إنما هو من الراوي عنه، مات سنة 127 (التبصرة والتذكرة 1/287).

5) شرح الشهاب : 2 / 252 ط التركية.

6) يوجد بهامش الشهاب أن بنسخة - ولم يأت أحد عنه بأصوب من هذا.

7) في شرح الشهاب غير شريك وهم أكثر الحفاظ المحدثين.

8) الذي في توضيح الأفكار : 1 / 131، نقلا عن القاضي عياض أن الذي جود في القصتين حماد بن سلمة.

وأما بالنسبة للثاني فإن عدد ما لوحظ على شريك في حديث الاسراء قد بلغ إحدى عشر غلطة حسبما بشرح الشهاب. (9) وقد قال بعد ما أتى عليها : فهذه مواضع مخالفته في السند والمتن التي قال المصنف ـ رحمه الله ـ : انه غلط فيها. وقد أجيب عن بعضها(10)هـ أما الحافظ ابن حجر فقد أوصلها إلى اثنتي عشرة.وأجاب عن جلها.وأحال على ماسبق له من الأجوبة عن بعضها وذلك عندما تعرض لفقرات حديث شريك ـ رحمه الله ـ بالشرح حيث ساقه الإمام البخاري ثالث أحاديث باب ما جاء في قوله عز وجل : (وكلم الله موسى تكليما) فقال حدثنا عبد العزيز بن عبد الله بن شريك بن عبد الله انه قال : سمعت ابن مالك يقول ليلة أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم من مسجد الكعبة «انه جاء ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم في المسجد الحرام» الحديث .

وبما أن نقطة ارتكاز البحث في هذه العجالة هي : هل قصة شق الصدر الشريف من حديث الاسراء بالرواية الخاصة ـ أي رواية أنس ـ ض ـ عن النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة. كما جاءت به رواية شريك أو ليست منه كما ورد في روايات غيره. وهم أكثر الحفاظ والمحدثين ؟ فلنتخلص لها فنقول : أن ممن رد على عياض ومن سبقه المحدث أحمد بن عمر القرطبي (11) المتوفى سنة 656 والحافظ العراقي المتوفى سنة 806 وتلميذه الحافظ ابن حجر المتوفى سنة 852 فقد قال في الفتح (12) عند شرحه حديث مالك بن صعصعة (13) وقد استنكر بعضهم وقوع شق الصدر ليلة الاسراء وقال : إنما كان ذلك وهو صغير في بني

---

9) شرح الشهاب للشفا : 2 / 263.

10) انظر شرح الأبي لمسلم : 1 / 314.

11) هذا خلاف المفسر الذي اسمه ـ محمد بن أحمد ـ والمتوفى سنة 671.

12) بالصفحة 136 من الجزء 7 ط الأميرية.

13) صحابي جليل. أنصاري من بني النجار. وفي الفتح : 7 / 155 انه ليس له في البخاري ولا في غيره سوى هذا الحديث ولا يعرف وما روى عنه إلا أنس بن مالك وفي تهذيب النووي روى له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسة أحاديث اتفق البخاري ومسلم على احدها وهو حديث الاسراء والمعراج الخ شرح ابن سلطان : 1 / 388 ط التركية.

سعد. ولا إنكار في ذلك فقد تواردت الروايات. وثبت شق الصدر - أيضا - عند البعثة كما أخرجه أبو نعيم في الدلائل إلخ..

وقال القسطلاني الشافعي المتوفى سنة 923 - في المواهب اللدنية ممزوجا بكلام شارحه الزرقاني المالكي المتوفى سنة 1014 عند ما أشار إلى شق الصدر الشريف للمرة الرابعة : (ومرة أخرى عند الاسراء) رواه الشيخان وأحمد من حديث قتادة عن أنس عن مالك بن صعصعة أن نبي الله صلى الله عليه وسلم حدثهم فذكره الشيخان والترمذي والنسائي من طريق الزهري عن أنس عن أبي ذر مرفوعا. ورواه البخاري من طريق شريك عن أنس رفعه مسلم والزرقاني وغيرهما من طريق ثابت عن أنس رفعه بلا واسطة. فلا عبرة بمن نفاه. لأن رواته ثقات مشاهير. قال الحافظ : والحكمة فيه الزيادة في إكرامه.

وقال الشيخ عبد الله الشرقاوي بشرح اختصار الزبيدي(14) مانصه : وقد وقع شق صدره الشريف - عليه الصلاة والسلام - أربع مرات - الأولى : عند حليمة لنزع العلقة التي قيل له عندها : هذه حظ الشيطان منك. ولذا نشأ على أكمل الأحوال من العصمة. والثانية : وهو ابن عشر. كما ذكر ابن حجر الهيثمي والشيخ على الاجهوري في قصة الاسراء. والثالثة : عند مجيء جبريل له بالوحي في غار حراء لزيادة الكرامة وليتلقى الوحي بقلب قوي على أكمل الأحوال من التقديس. والرابعة : ليلة الاسراء. وروى خامسة ولم تثبت عند المحدثين ليكون لكل طـور من أطواره كمال يخصه. وقد أنكر القاضي عياض - رحمه الله تعالى - شق الصدر ليلة الاسراء وقال : إنما كان وهو صغير في بني سعد عند مرضعته حليمة. وتعقبوه بأن ذلك وقع ليلة الاسراء كما ثبت في الأحاديث الصحيحة إلخ..

وبعد استعراض نصوص الرد على القاضي عياض ومن سبقه على الباحث أن يواصل بحثه. هل هناك من يؤيدهم في دعواهم على شريك - بالنسبة لخصوص نقطة البحث طبعا - ويعضدهم في وجهة نظرهم إزاءها ؟

---

14) بالصفحة 97 من الجزء الثالث.

وأول عنصر يدخل في هذا النطاق ما بين سلفا من التفصيل بين حديثي الاسراء، وقصة شق الصدر الشريف برواية التابعي ثابت البناني - رحمه الله - على أنس - ض - عن النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة دون واسطة لاسيما وقد قيل فيها : انها أجمع وأصح بالنسبة لما ورد في معجزة الاسراء في كثير من الدواوين الحديثية بروايات مختلفة. فإن في ذلك دلالة واضحة على المدعي من كون قصة شق الصدر ليست من حديث الاسراء.

وهناك إفراد الابي لرواية شريك بالترجمة من بين أحاديث شق الصدر الخمسة. كما سلف التنبيه عليه.

ونجد الحافظ عبد الحق الأزدي الاشبيلي المتوفى سنة 581. قال في كتاب الجمع بين الصحيحين - بعد ذكر الإمام البخاري - رحمه الله - رواية شريك عن أنس في كتاب التوحيد من صحيحه : هذا الحديث بهذا اللفظ من رواية شريك ابن أبي نمر عن أنس. وقد زاد فيه زيادة مجهولة. وأتى فيه بألفاظ غير معروفة. وقد روى حديث الاسراء جماعة من الحفاظ المتقنين والأئمة المشهورين كإبن شهاب، وثابت البناني، وقتادة : يعني عن أنس. فلم يأت أحد منهم بما أتى به شريك. وشريك ليس بالحافظ عند أهل الحديث. قال : والاحايث التي تقدمت قبل هذا هي المعول عليها (15) هـ.

وبعد ما انجلى مما سطر أن سوق قصة شق الصدر الشريف ضمن حديث الاسراء يعتبر زيادة من شريك - رحمه الله - كان علينا أن نبحث عن هذه الزيادة هل يقتضي الإصطلاح الحديثي قبولها أوردها ؟

وينبغي قبل الإجابة بأحد شقي السؤال من التمهيد بما يلي :

ان ما لبحثنا تعلق به من أنواع علوم الحديث زيادات الثقات. والذي يستخلص بعد البحث في هذا العنوان : وقد تضاربت آراء أئمة الحديث حوله - انه

---

(15) شرح الإمام النووي لصحيح الإمام مسلم : 2 / 209 - 210 تحت ترجمة باب الاسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم.

ان وردت زيادة في رواية أحد الصحابة رضي الله عنهم ـ دون رواية صحابي آخر، قد صح السند إليه، حيث وردت خلوا منها. فإن حكم هذه الزيادة القبول باتفاق المحدثين. وان وقعت في إحدى روايتي تابعي فمن بعده فقد اختلف العلماء في قبولها على أقوال تسعة. (16) نقتصر على تاسعها الذي يعزونه لابن الصلاح والنووي، لأنه الذي رجحه الحافظان ابن حجر، والسيوطي. وهو قول بتفصيل الزيادة إلى أنواع ثلاثة، لكل حكمه الخاص. فإن كانت لاتنافي ما ليست فيه قبلت. وإن كانت مخالفة منحصرة في تقييد المطلق رجح قبولها. وإن كانت منافية له ردت ولم تقبل. إذا تمهد هذا فزيادة شريك هي وان كانت زيادة تابعي على ما ليس في روايات التابعين الثلاثة : الزهري (17)، وثابت البناني، وقتادة (18) فإنها ليست مما يدخل في نطاق الخلاف المذكور. لأن الذي انفصل عليه أئمة الاصطلاح ان الخلاف المذكور إنما يجري فيمن اتفق على عدالته. وشريك ـ رحمه الله ـ قد انتج البحث بعد النظر فيما قيل فيه وذكره الذهبي في ترجمته (19) انه مختلف فيه.

وبيان ذلك أن الذهبي بعد ما حلاه ـ بتابعي صدوق ـ نقل عن ابن معين انه قال فيه : لا بأس به. وهو أحد ألفاظ أربعة تنتظم في سلك مرتبة التعديل الرابعة التي نسقها الإمام السيوطي في ألفيته إذ قال :

ثم صدوق أو فمأمون ولا   بأس به كذا خيار...

---

16) هي منسقة بهامش توضيح الأفكار : 2 / 19 / 20.

17) هو أبو بكر محمد بن مسلم بن شهاب القرشي الزهري المدني. سكن الشام وغيرها، أحد الفقهاء السبعة، واحد الأعلام المشهورين. قال عمر بن عبد العزيز : لم يبق أعلم بسنة ماضية من الزهري. وقال توفي سنة 124 ـ التبصرة والتذكرة : 1 / 22.

18) هو ابن دعامة ـ بكسر الدال وخفة عين ـ أبو الخطاب السدوسي. ولد أكمه فمن روى عنهم أنس بن مالك، وممن أرسل عنهم أبو سعيد الخدري، وعمران بن حصين، وسعيد بن المسيب، وعكرمة بن سعيد بن المسيب : قال : أتاني عراقي أحسن من قتادة. وقال ابن سيرين : قتادة احفظ الناس، وقال مطر الوراق : ما زال قتادة متعلما حتى مات، وقال أبو حاتم : أثبت أصحاب أنس الزهري ثم قتادة قال : وهو أحب إلي من أيوب، مات سنة 117.

19) ميزان الاعتدال : 2 / 269.

وهنا ينبغي التنبيه إلى ما يذكرون عن ابن أبي حاتم وهو أن من قيل في شأنه ما ذكر فهو ممن يكتب حديثه وينظر فيه ويختبر حتى يعرف ضبطه (20).

ونقل - أي الذهبي - عن أبي داود وابن عدى - ثقة. (21) وهو أحد ألفاظ أربعة هي من قبيل أعلى مراتب التعديل. قال القسطلاني في المقدمة : ولألفاظ التعديل مراتب. أعلاها ثقة. أو متقن. أو ضابط. أو حجة.

بينما نقل عن ابن معين (22) والنسائي - ليس بالقوي - وهي عبارة تعد في الاصطلاح من المرتبة الثانية لألفاظ التجريح. قال القسطلاني في المقدمة : وألفاظ التجريح مراتب أيضا.. إلى أن قال : ثانيها - ليس القوي - فهي أشد ضعفا من الأولى التي هي أدناها. وهي - لين الحديث - والتي ذكروا منها - كما قال العراقي - فيه ما قال . وليس بالمتين. وليس بحجة وليس بعمدة. وليس بمرضي. وفيه خلف. وتكلموا فيه. وطعنوا فيه وتعرف وتنكر - أي يأتي مرة بالمشاهير المعروفة ومرة بالمناكير - وللضعيف ما هو - أي هو قريب للضعف.

ونقل - أي الذهبي - عن ابن حزم انه وهاه - كما سلف. ويضاف لما ذكر مقالة ابن العربي فيه. وهي : كان تغير بأخره (23).

وحيث اتضح من تحليل ما قيل في شريك - رحمه الله - انه مختلف فيه. وذلك لتضارب ما قيل فيه تعديلا بثقة. ولا بأس به. وتجريحا بسوء الحفظ والأخرة والاختلاط وترجيح طرف التجريح. فإن الحكم على زيادته بالرد دون خلاف. لما فرط من أن الخلاف المتقدم إنما يجري في زيادة المتفق على عدالته.

ثم نتساءل حول هذه الرواية التي حكم على زيادتها بالرد هل يعبر عنها اصطلاحا بالشذوذ أو الإنكار ؟ (24).

---

20) شرح محيي الدين لألفية السيوطي.

21) ووصفه بثقة كثير الحديث ابن سعد. كما بالتبصرة والتذكرة : 1 / 36.

22) يعني في موضوع آخر، والافقد سبق له القول بأنه لابأس به.

23) أحكام ابن العربي : 3 / 1194.

24) لكونه المعتمد في حده صدر به القسطلاني في مقدمته.

وبناء على تعريف الشافعي للشاذ بأنه : ما خالف الراوي الثقة فيه جماعة الثقات بزيادة أو نقص فيظن أنه وهم. وما كتبه الأبياري بشرح المقدمة على أحد قيوده وهو - قيد الثقة - حيث قال : وقوله - الثقة - خرج الضعيف،فحديثه يقال له منكر. فيخالف الشاذ المنكر بأن المخالف في الشاذ ثقة (25) إلخ...

أقول : بالبحث في التعريف المذكور يعلم أن زيادة شريك - رحمه الله - هي منكرة. وبعد الوصول إلى هذه النتيجة التي أدى إليها هذا البحث المتواضع وقفت على نص الشهاب في عين النازلة. ذلك انه بعد ما ساق ما قاله أئمة التعديل والتجريح في شريك - رحمه الله - قال : والحاصل انه اختلف فيه فيما انفرد به شاذا منكرا. بيد انه يلاحظ على حكمه عليها بالشذوذ والنكارة معا مع انها متمحضة لكونها منكرة تمشيا على الراجح من التفرقة بينهما - بأن المخالف في الشاذ ثقة وفي المنكر ضعيف. كما سلف بيانه.

فإن قيل : كيف يروي الشيخان أو احدهما عمن رمي بالضعيف أو علم الطعن فيه. وهما من هما حفظا واتقانا. وصحة معرفة بتراجم رجال الحديث والتعرف على أحوالهم. ومهارة فائقة في تحري جمع الصحيح. أجيب عن ذلك بأربعة أوجه ذكرها ابن الصلاح (26) وهي :

1) أن يكون الضعيف عند غيرهما ثقة عندهما. أو من روى عنه منهما.

2) أن يسوق الواحد منهما حديث من ذكر في المتبعات والشواهد. لا في الأصول.

3) أن يكون ضعف من احتج احدهما بحديثه قد طرأ بعد الرواية عنه في زمن الاستقامة.

4) أن يروي احدهما عن الشخص الضعيف سميا وراء علو السند. وذلك عندما يكون السند عنده من رواية الثقات نازلا إلخ...

---

(25) شرح المقدمة للأبياري : 47 - ط - الميمنية.

(26) ذكره لهذا هو عن الشيخين وأبي داود.

فإن قيل : هناك عبارة يتناقلها أئمة هذا الشأن عن ابن الصلاح وهي : ان الأمة تلقت الصحيحين بالقبول سوى أحرف يسيرة قد تكلم عليها بعض أهل النقد من الحافظ.

أجيب بأن الحافظ زين الدين العراقي بعد ما اعترض على ابن الصلاح من جهة أن المواضع التي استثناها أهل النقد من الحفاظ هي كثيرة لا يسيرة كما قال. ومن جهة انه نص على تعقيب أهل النقد لها ولم يتعرض لكونه أجيب عنها. مع انه ـ أي الحافظ العراقي ـ قد جمعها وأجاب عنها (27).

أقول : بعد ما اعترض العبارة بما ذكر تعقبه تلميذه الحافظ ابن حجر بأن كونها يسيرة أمر نسبي. فإنها بالنسبة لما لاطعن فيه في الصحيحين يسيرة جداً. وبأن كونها يمكن الجواب عنها لا يمنع استثناءها. نظرا لكونها هي عند من تعقبوها ـ وهم من جملة من ينسب إليه الإجماع بالتلقي ـ مختلفة عن التلقي. فيتعين ـ يقول الحافظ ابن حجر ـ استثناؤها.

والحاصل أن الذي أنتجه تسلسل البحث. ودعمته قواعد الاصطلاح ان إنكار القاضي عياض ومن سبقه رواية شريك بن عبد الله عن أنس ـ ض ـ هو وجيه بحسب ما يظهر. وهنا يلاحظ أن إنكار أبي الفضل رواية شريك كان بتركيزه على ما قيد به المحدثون والأصوليون ترجيح طرف التجريح عند التعارض. بما إذا فسر ما وقع به التجريح. اما حصره شق صدره الشريف في مرة واحدة وهو صلى الله عليه وسلم عند مرضعته السيدة حليمة السعدية ـ ض ـ ونفيه تعدده ـ مع ثبوته في أحاديث صحيحة ـ فإن عهدة ذلك تبقى عليه ـ رحمه الله ـ

هذا وان من تتبع طرق بحث أبي الفضل. ومنهجيته فيه. واستقصاءه الروايات الحديثية ثم المقارنة بينها. وتعمق البحث ودقته في الغريب من ألفاظها.

---

27) قد ذكر في الشرح الكبير انه افرد كتابا لما ضعف من أحاديث الصحيحين مع الجواب عنها، ويحكون عن ولده أن مسودة هذا الكتاب قد ضاع منها كراسان أو لأن ذلك سبب إهمالها وعدم انتشارها (توضيح الأفكار) 1 / 131.

والغوص على الشوارد النادرة لإظهارها واستجلاء ما انبهم من درر معانيها. أقول : إن من تتبع ما ذكر تحقق لديه صدق ما قاله في هذا الإمام المغربي الفذ من انصفه حقه. اعترافا بالفضل لأهله.

وفي الأخير لا يفوتنا أن نثير ما يتناقلونه عن الدكتور اسدرستم مما قاله تنويها برسالة أبي الفضل في علم الاصطلاح عند وصفه عنوان تحري الرواية والمجيء باللفظ بأن ما جاء فيها يضاهي أدق ما ورد في الموضوع نفسه في أهم كتب الأفرنج. وانه سبق فيها إلى إقرار - نظريات - ليس بإمكان رجال التاريخ في أوربا وأمريكا أن يكتبوا الآن - رغم مرور سبعة قرون عليها - أحسن منها. وفقنا الله جميعا لما فيه رضاه. وهدانا إلى سواء السبيل. انه على ما يشاء قدير. وبالإجابة جدير. إنه نعم المولى ونعم النصير.

عياض خريج مدرسة الحديث المرابطية

للأستاذ : عبد الهادي حسيسن

بسم الله الرحمن الرحيم

«عياض خريج مدرسة الحديث المرابطية»

كان المغرب أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجرة. يتمتع بالراحة والسكينة. فهو أحسن استقرارا واطمئنانا من بقية العالم الإسلامي المفككة والمضطربة آنذاك. وذلك بفضل حزم الدولة المرابطية القوية التي استطاعت أن تجعل من المغرب دولة قوية. ذات كيان سياسي وحربي. تخشاه الدول المعاصرة.

لقد حررت المغرب كله الذي كان يتعذب تحت وطأة ملوك الطوائف المغاربة. من مغراوة وبرغواطيين. ويفرانيين. وغيرهم. كما حررت بلاد الأندلس التي كانت هي بدورها تئن وتلتوي وتتلقى الضربات تلو الضربات على يد الإسبان الطغاة بسبب ملوك طوائفها. وكان أبو الحسن بن رشيد صادقا حين فهم بقوله:

مما يزهدني في أرض أندلس — أسماء معتمد بها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها — كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد (1)

ويصور لنا عبد الواحد المراكشي ما آلت إليه الأندلس زمن ملوك الطوائف من سقوطها في يد القشتاليين الاسبان بلدا بعد بلد. وقلعة بعد قلعة. إلى أن تداركها الله على يد أمير المرابطين يوسف بن تاشفين يقول:

ولم يزالوا كذلك. وأحوال الأندلس تضعف وثغورها تحتل ومجاورها من الروم تشتد أطماعهم ويقوى تشوقهم. إلى أن جمع الله الكلمة. ورأب الصدع. ونظم

---

1) انظر المعجب ص 105 ط 7 ـ 1978 دار الكتاب ـ البيضاء.

الشمل. وحسم الخلاف. وأعز الدين وأعلى كلمة الإسلام. وقطع طمع العدو. بيمن نقيبة أمير المسلمين. وناصر الدين أبي يعقوب يوسف ابن تاشفين اللمتوني رحمه الله. ثم استمر على ذلك ابنه علي. وأعاد إلى الأندلس معهود هنائهـا. وسالـف نضارة عيشها. فكانت الأندلس في أيامهما حرما آمنا (2) وكذلك كان بالفعل.

وقد تمكن المرابطون لأول مرة من تخليص المغرب والأندلس من التمزق السياسي. والظلم الاجتماعي والاقتصادي. ومن الفساد الخلقي وكونوا له دولة من أعظم دول الإسلام. عرفها الغرب الإسلامي أنذاك.

وهكذا ظل المرابطون أصحاب السيادة في المغرب والأندلس مدة امارة يوسف وولده علي (453 ـ 537 هـ / 1061 ـ 1142م) وبهذا عرف المغرب ولأول مرة معنى الوحدة الكبرى.

وقد قال القاضي أبو بكر ابن العربي في شأنهم : المرابطون قاموا بدعوة الحق ونصرة الدين وهم حماة المسلمين ذواء عنهـم والمجاهـدون دونهم. ولو لـم يكن للمرابطين فضيلة ولا تقدم ولا وسيلة إلا وقعة الزلاقة كان ذلك من أعظم فخرهم وأربح تجرهم (3).

لقد اتهم المرابطون بأنهم كانوا فروعيين يهتمون فقط بفروع الفقه المالكي. ويهملون الأصول من كتاب وسنة وانهم كانوا يحاربون النظريات العقلية في علم الكلام. ولا يقبلون أي تأويل عقلي للعقائد حتى اتهموا من طرف المهدي بن تومرت زعيم الموحدين المتوفى سنة 524 هـ بأنهم مجسمة (4).

ولا شك أن هذه التهمة المفتعلة. لا أساس لها من الصحة وإنما هو حقد الحاقدين من خصومهم الموحدين. ومن بعض المستشرقين المشنعين أمثال دوزي ومن تبعه من بعض الباحثين المعاصرين .

---

2) نفس المصدر ص : 137.

3) الحلل الموشية ص : 110.

4) الأنيس المطرب ج 2 ص 108.

ان مؤسسي الحركة الفكرية الأوائل إنما كانوا مجموعة من العلماء المجاهدين المخلصين. أمثال ابن عمران الفاسي سنة 430 هـ والفقيه وجاج بن زلو اللمطي وعبد الله بن ياسين المتوفي سنة451 هـ .

وقد راعهم ما كان عليه مغربهم من جهل شعائر دينه الإسلامي ومن جور ولاته وكان شغلهم الشاغل أولا معرفة العقيدة الصحيحة المبسطة السلفية. وبعض القضايا الفقهية المبسطة.

والفقه هو حياة الأمة الاجتماعية وتطورها الحضاري والفكري. وعن الفقه نشأت علوم الإسلام كلها. ان المرابطين وإن كانوا أهل فروع وسلفية في العقيدة. فهل كانوا سدا منيعا أمام الأصول الإسلامية ؟ وهل وقفوا في يوم من الأيام في مسالك الفكر الإسلامي ؟

ان الدعوة المرابطية إنما كانت بعثا جديدا للأمة المغربية. نشأت على أسس علمية واضحة. وتبعا لخطة مدروسة محكمة.

وتتجلى هذه الظاهرة العلمية بمعناها الواسع. زمن استقرار الدولة المرابطية في عهد يوسف ابن تاشفين وولده علي التي يصفها عبد الواحد في معجبه بقوله : «فانقطع إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله. حتى اشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم. واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة. مالم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار (5).

وهذا النص الصريح من المراكشي . لأكبر دليل على ما كانت عليه الحالة الثقافية ابان ازدهار الدولة المرابطية في المغرب الكبير.

٥ ٥ ٥

ليس غرضي من هذا العرض. ان استقصي أخبار دولة المرابطين. وإنما هدفي أن نتعرف على بعض جوانب مظاهر الحياة العلمية في العهد المرابطي. بغية أن

---

5) ص 243 ط دار الكتاب - البيضاء 1978.

نصل بالذات إلى عالمنا الجليل القاضي أبي الفضل عياض السبتي الذي تخرج من مدرسة المرابطين الحديثية ودرس على علمائها الأجلة الكبار.

صادف ميلاد عياض سنة (476 هـ 1107م) الفترة التي قضى فيها يوسف بن تاشفين على حكم البرغواطيين العتاة. الذين استبدوا بحكم سبتة وطنجة وما إليها. فطهرها من نحلهم ومعتقداتهم الفاسدة وجعلها قاعدة من قواعد المغرب السليمة.

وبحكم موقع سبتة الجغرافي. كانت ملتقى الوافدين عليها من رجال العلم وغيرهم. وأنشأ المقيمون بها والوافدون عليها مركزا علميا هاما يليق بها.

نشأ عياض وترعرع في هذا الملتقى العلمي الهام. يأخذ عن علمائه ويستقي ماعندهم من العلم. من لغة ونحو وعقيدة وفقه وأصول وتفسير وخصوصا مادة الحديث وعلومه.

وهنا يجمل بنا أن نقف مع عبد الواحد المراكشي من اجل أن نحاوره ونناقضه حيث يدعي انه في العهد المرابطي لم يبق العمل بكتاب الله وسنة رسوله عليه السلام. حتى تنوسي النظر فيهما من طرف علماء المرابطين يقول: «ولم يكن يقرب من أمير المسلمين. ويحظى عنده إلا من علم علم الفروع. أعني فروع مذهب مالك. فنفقت في ذلك الزمان كتب المذهب. وعمل بمقتضاها. ونبذ ما سواها. وكثير ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله. وحديث رسوله صلى الله عليه وسلم. فلم يكن من مشاهير ذلك الزمان يعتني بهما كل اعتناء (6).

الواقع انه ظهر في الفترة المرابطية من أعلام المحدثين. جمهرة كبيرة. بلغ بعضهم في ميدانه أرفع مكانة. وأعظم تقدير. حتى ظهر اعتناء بالحديث النبوي تمشيا مع الروح الإسلامية. ومكرمة للسنة النبوية. ونشرا للتعاليم الإسلامية. مما قامت عليه دولتهم بتوجيه من مؤسسها عبد الله بن ياسين الذي طبع رجالاتها بالطابع السني. وجعل منهم أبطال الجهاد. ورواة الحديث في آن واحد. الأمر الذي جعل قادتها يعتنون برجال الحديث. ويروون عنهم. ويسمعون منهم .

---

6) المعجب ص : 254 ط دار الكتاب ـ الدار البيضاء 1978.

ويستخبرونهم، مما يدل دلالة واضحة على ماطبعوا عليه من ولع بالحديث، رغبة أكيدة منهم في الحصول على السند العالي، والأخذ عن كبار المحدثين، كما سيمر بنا (7).

وهاته التهمة التي وصم بها المراكشي المرابطين هو نفسه روى في معجبه فيما قبل ما يفندها : فانقطع إلى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله.. (8) وطبعا من هذا الصنف رجال التفسير ورجال الحديث.

ان المراكشي فيما يظهر لم يبرأ من النزعة العدائية التي كان يحملها بعض المؤلفين في العهد الموحدي، حيث لم يذكروا الحقيقة كاملة، فهم متأثرون بذلك العداء الصراح الذي شنه الموحدون على أعدائهم المرابطين، فشوهوا تاريخهم وطمسوا معالم آثارهم.

ويظهر هذا جليا في فهرسة عالمنا أبي الفضل عياض التي دون فيها تراجم من أخذ عنهم من العلماء وغيرهم، ولازمهم زمن الدراسة، وأجمعته بهم ظــــروف تلقى عنهم الرواية والسند، فإننا نجده فيها يصف كل مقروءاته الحديثية وغيرها بكل تفصيل، كما يصف شيوخه الذين أجازوه (9) وعياض نفسه كاف لدحض ما زعمه المراكشي لأنه يعد من أكبر خريجي المدرسة الحديثية المرابطية وتراثه الحديثي الموجود بين أيدينا أكبر شاهد وأعظم دليل.

وللرد على ادعاء عبد الواحد المراكشي أستعرض بعــض رجــالات الحديث اللامعين في زمن المرابطين لبيان الحقيقة، وللمزيد من الاقناع.

ومن العلماء المحدثين المرموقين في هذا الزمان أبو علي الحسين الجياني، (427 ـ 498 هـ / 1035 ـ 1105م)..الحافظ الحجة محدث الأندلس في زمانه.

---

7) انظر «مظاهر النهضة الحديثية في عهد يعقوب المنصور الموحدي لصاحب البحث».

8) المعجب ص : 243 ط دار الكتاب.

9) انظر الغنية ط تونس.

يقول عنه تلميذه أبو الحسن بن مغيث شيخ عياض : «كان من أكمل مارأيت علما بالحديث ومعرفة بطرقه وحفظا لرجاله جمع من سعة الرواية مالم يجمعه أحد أدركناه (10).

ويقول عنه عياض : هو شيخ الأندلس في وقته وحامل رحلتهم واضبط الناس لكتابه وأتقنهم لرواية مع الحفظ الوافر من الأدب والنسب والمعرفة. بأسماء الرجال. وسعة السماع. رحل إليه الناس من الأقطار وحملوا عنه. كتبا إلي يجزيني في «فهرسته الكبرى» وجميع رواياته. غير مرة (11) ومن تآليفه الحديثية المهمة : التعريف بشيوخ البخاري. التعريف بشيوخ أبي داود. وشيوخ النسائي. التنبيه على الأوهام الواقعة في المسندين الصحيحين. تقييد المهمل وتمييز المشكل على الصحيحين (12) وهو من أنفس الكتب في بابه. ضبط فيه كل لفظ يقع فيه اللبس من رجال الصحيحين.

وعلى ضوء هذا الكتاب درج عياض في كتابه «المشارق» ومنه استقى واستفاد واستنتج.

جلس الجياني لتدريس العلم ردحا من الزمن فأخذ عنه الناس وعولوا عليه في الرواية والسند. وسمع منه الاعلام وكبار الفقهاء أمثال الفقيه ابن رشد الجد (420 ـ 520 هـ) وابن مغيث آخر المشايخ بقرطبة وشيخ الفتوى والرواية في وقته (447 ـ 530 هـ) على حد تعبير تلميذه عياض (13) وسواهما.

ومن هؤلاء المحدثين اللامعين في هذا العهد. القاضي أبو عبد الله محمد بن التميمي السبتي شيخ عياض (429 ـ 505 هـ) أجل شيوخ مدينة سبتة ومقدم قضاتهم كان كثير الكتب. حافظا عارفا بالفقه من أعقل أهل زمانه وأفضلهم. بعيد الصيت عند الخاصة والعامة عظيم القدر.

---

10) الصلة لابن بشكوال ص 200 ع 400.

11) الغنية ص 201 ط تونس 1978.

12) توجد نسخة خطية بمكتبة جامع مكناس.

13) الغنية ص 96 ط تونس.

يقول عنه تلميذه عياض : لازمته كثيرا للمناظرة في المدونة والموطأ. وسماع المصنفات. منها صحيح البخاري وصحيح مسلم ومصنف السنن لأبي داوود السجتاني وشرح غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام. وكتاب إصلاح الغلط لأبي محمد ابن قتيبة وكتاب غريب الحديث لابن سليمان أحمد الخطابي. وكتاب (علوم الحديث) لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الحكم النيسابوري وكتاب الطبقات. لمسلم بن الحجاج. وكتاب «الضعفاء والمتروكين» وكتاب «الطبقات» لأبي عبد الرحمان النسائي و «الملخص» لمسند الموطأ لابن الحسن القاسمي. والتقصي. لابن عمر ابن عبد البر. ومسند الموطأ لأبي القاسم الجوهري. وغيرها من الكتب الأخرى (14).

فمن هاته اللائحة. يتبين لنا ما كان يدرس من كتب الحديث على تعدد أنواعها زمن المرابطين في إحدى قواعدهم من المدن المغربية. مدينة سبتة.

ثم يجيء أكبر محدث عرفه هذا العصر المرابطي. هو القاضي الشهيد أبو علي حسين الصدفي (454 - 514 هـ) أحد شيوخ الحديث البارزين. كان عالما بالحديث وطرقه. عارفا بعلله وأسماء رجاله ونقلته. بصيرا بالمعدلين والمجروحين. كتب بيده علما كثيرا وقيده. وكان حافظا لمصنفات الحديث. قائما عليها. ذاكرا لمتونها وأساليبها ورواياتها (15).

أخذ عنه الجم الغفير من طلاب العلم. ومن أبرزهم القاضيان ابن العربي المعافري وعالمنا عياض الذي يقول عنه في غنيته : «اعتنى بالحديث ورحل إلى المشرق. فلقي بها شيوخ إفريقية. وببغداد بقية محدثيها. فاتسعت روايته. لهذا كان عارفا بالحديث قائما به. حافظا لأسماء الرجال عارفا بقويهم من ضعيفهم. ذا دين وخلق حسنة وصيانة من أجل من لقيناه.

---

(14) الفنية ص : 100 - 115 ط بتونس 1978.

(15) أزهار الرياض لعياض ج ص 157 الأستاذ سعيد أعراب وشيوخ العصر للدكتور مؤنس ص 92.

دخل بلدنا سبتة كرتين. فأخذ عنه إذ ذاك جماعة من شيوخنا وأصحابنا. وحضرت أنا بعض ما قرىء عليه ولم يحصله حينئذ.

رحلت إليه غرة محرم سنة ثمان وخمسمائة. فسمعت عليه خيرا كثيرا والحمد لله (16).

ومما سمعته عليه كتاب «الناسخ والمنسوخ لهبة الله» وكتاب «الشمائل لأبي عيسى الترمذي» وكتاب «حديث الأربعين لابن نعيم الأصبهاني. » وكتاب «الاستدراكات على البخاري ومسلم» تأليف أبي الحسن الدارقطني وكتاب «السنن والعلل» وكتاب «الإلزامات للشيخين» للدارقطني كذلك وكتاب «الهداية والإرشاد» لأبي نصر أحمد الكلاباذي وكتاب «التاريخ الكبير» للإمام البخاري «والجامع الصحيح» لأبي عيسى الترمذي.

فهذه لائحة أخرى تطلعنا على أهم الكتب الحديثية التي كانت تقرأ في هذا العصر المرابطي على يد أحد قضاته الكبار.

وأبو علي الصدفي هذا. هو صاحب أصح نسخة للبخاري موجودة في المغرب الذي فرغ من نسخها أواخر محرم سنة (508 هـ / 1114م) (17).

وأكثر نسخ البخاري الصحيحة بالمغرب اما من رواية محمد الأصيلي سنة 372 هـ واما من رواية أبي الوليد الباجي سنة 474 هـ واما من رواية الصدفي التي هي المعول عليها. والتي في آخرها سماع القاضي عياض بخط يده. وغيره من الشيوخ (18).

وتعتبر نسخة الصدفي هي الأصل التي انتسخت منه نسخة أبي سعادة صهره المعروفة (بالأم).

---

16) الغنية ص 193 تونس 1978.

17) انظر رسالة التجريح والتعديل ص : 50 لإبراهيم بن الصديق.

18) نفس المصدر.

ومن علماء الحديث البارزين النقاد القاضي أبو بكر ابن العربي المعافري (468 ـ 543 هـ / 1075 ـ 1178م) الذي استغرق في رحلته العلمية في بلاد الشـــرق نحوا من احد عشر عاما. وقد رجع إلى بلاده بعلم كثير لم يدخله أحد قبله ممن كانت له رحلة على حد تعبير تلميذه ابن بشكوال (19) مع نقله مناظرات ومباحث في الخلافات على الطريقة الحنفية العراقية. وتفرده بفوائد جليلة حملها إلى أهل المغرب.هذا حديث عزيز لم يقع لأحد من أهل المغرب قبل في رحلة. وهو من فوائدي الخمسين التي انفردت بها بابلاغها عن الشريعة إلى أهل المغرب ـ فظنوا انه لا يوجد صحيحا (20).

انقطع أخيرا للتدريس ونشر العلم. وهو دون شك من أكبر علماء الأندلس قاطبة ونقادهم. خاتمة علماء الأندلس وآخر أئمتها وحفاظها (21).
وتراثه الفكري الباقي الحديثي وغيره أصدق شاهد على علمه الغزير الواسع.

ونجد من الآخذين عنه علماء أجلاء. منهم عالمنا عياض الذي قال عنه في الغنية (22) قيد الحديث واتسع في الرواية وأتقن مسائل الخلاف والكلام على أئمة هذا الشأن....

اجتاز بلدنا سبتة فكتبت عنه فوائد من حديثه. وناولني كتاب «المؤتلف والمختلف» للدارقطني وكتاب «الاكمال» لابن ماكولا وقرأت عليه مسألة الايمان اللازمة من تاليفه وأجازني جميع رواياته ولقيته أيضا باشبيلية وقرطبة وحدثني باشياء وكتبت عنه أشياء.

ومن تأليف ابن العربي التفسيرية والحديثية :

(19) الرحلة ص 590 ع 1917.
(20) قانون التأويل ج ص 64 تحقيق مصطفى الصفير.
(21) الصلة ص : 590 ع 1917.
(22) ص : 133 ط تونس 1978.

- الناسخ والمنسوخ (23) وأحكام القرآن في أربعة أجزاء. مطبوع. وأنوار الفجر في مجالس الذكر (24) وعارضة الاحودي في مطبوع وقانون التأويل (25) وغيرها من الكتب المفيدة.

وهؤلاء العلماء الأجلة المحدثون الذين كانوا يعيشون في كنف الدولة المرابطية التي بفضلها استمرت مدرسة الحديث بالمغرب. لم آت بهم للعد والحصر. وإنما للتنظير. ومن أراد المزيد فعليه بكتب المعاجم والفهارس ففيها الشيء الكثير من هذا الصنف الذي كان موجودا في هذا العهد.

ولم يكتف العلماء وحدهم زمن المرابطين بالإقبال على دراسة الحديث. بل نرى كذلك حتى أمراء المرابطين. كان لهم اهتمام كبير بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهذا أمير المسلمين علي بن يوسف. استجاز أبا عبد الله محمد الخولاني جميع رواياته. لعلو إسناده فأجازه. وكان دائما يبحث عن العلماء أصحاب السند العالي ليجيزوه (25).

وكان الأمير ابراهيم بن تاشفين يبعث في طلب المحدث الكبير أبي علي الصدفي. ليسمع منه الحديث النبوي وينتفع به وبعلمه (26).

والأمير ميمون اللمتوني سنة (530 هـ / 1135م) وهو بدوره ممن عني بالرواية والسماع. وله رحلة حج فيها عام (482 هـ / 1098م) وسمع من أبي مكتوم بن أبي ذر الهروي صحيح البخاري في أصل أبيه أبي ذر.. كما سمع صحيح مسلم من أبي عبد الله الطبري.

رجع ميمون من رحلته العلمية إلى المغرب وصار يحدث بما رواه وبما تلقاه من أفواه علماء الشرق فسمع منه الناس باشبيلية وغيرها من المدن المغربية.

---

23) حققه الأستاذ المدغري لنيل الدكتوراه من دار الحديث الحسنية.

24) كان موجودا لعهد المرينيين.

25) التكملة ج 2 ص 56.

26) ج 1 ص 16 انظر معها.

وممن أخذ عنه أبو بكر بن خير الحافظ صاحب الفهرسة (توفي سنة 578 هـ / 1982م) وأبو القاسم بن بشكوال (توفي سنة 575 هـ/ 1179م) وأبو إسحاق بن حبيش توفي سنة 584 هـ / 1188م) وغيرهم (27).

وهناك عالم منها في صنهاجة آخر من رؤساء لمتونة يدعى داود بن عمر اللمتوني الذي سمع بقرطبة من أبي محمد بن عتاب ومن أبي علي الصدفي بمرسية نبغ في معرفة الأخبار والسنن والآثار واجتمع له من الدواوين والأصول الشيء الكثير فهو فخر صنهاجة ليس له مثل (28).

ولولا تشجيع المرابطين للحديث وعلمائه ماديا ومعنويا لما كان له هذا الاعتناء والانتشار إلى أن وصل إلينا مضبوطا محفوظا.

وإذا كان فضل للدولة المرابطية ولمدرستها الحديثية التي انجبت هؤلاء العلماء الذين مر بنا ذكرهم وغيرهم لكفاها فخرا أن تخرج على يدها عالمنا عياض المحدث الشهير.

فعياض من مواليد مدينة سبتة المغربية (476 ـ 544 هـ) درس بها وأخذ عن شيوخها الاعلام كل ما كان يدرس آنذاك فهو لم يرحل عن بلده سبتة إلا داخل القطر المغربي الكبير.

جمع عياض من الحديث وعلومه الشيء الكثير واهتم بتقييده وتنقيحه فهو إمام الحديث في زمانه وأعرف الناس بعلومه على حد تعبير الحافظ الذهبي (29).

فعياض يعد بحق محدث المغرب، ومفخرة من مفاخره فقد تألق نجمه أوائل القرن السادس الهجري إذ أصبح من أعلام المغرب البارزين وقضاته المحنكين الماهرين شاعرا مجيدا وخطيبا مفوها اشتهر بغزارة العلم والحفظ والدقة والاتقان يمتاز بالعمق وامتلاك المنهج الواضح في التأليف والدراسة وله ثبت حافل من المؤلفات العظيمة الحديثية وغيرها.

---

27) التكملة ص 616.

28) نفس المصدر.

29) انظر رسالة «الجرح والتعديل» ص : 50 لابن الصديق.

ومن كتبه الحديثية الجليلة القدر التي وصلتنا «مشارق الأنوار على صحاح الاثار» فهو من أجل الدواوين وأتقنها في بابه درس فيه أصول الحديث الثلاث موطأ مالك. وصحيح البخاري. وصحيح مسلم. تعرض فيه إلى أسماء الرجال وكناهم وألقابهم وإلى كلمات متن الأحاديث فرتب كل ذلك على حروف المعجم. فضبط متونها. وصححها على الأصول. ونبه على رواياتها المختلفة. وأشار إلى الصواب أو الأرجح منها. استنادا على المقارنة بين الروايات.

لم يؤلف مثل هذا الكتاب في موضوعه إلا ما كان من شيخ الحديث في وقته الحافظ الجياني توفي سنة 498 هـ الذي ألف كتابه «تقييد المهمل وتمييز المشكل» إلا أنه اقتصر فيه على ما يتعلق بالأسماء وألقاب الرجال وكناهم. دون ما في المتن من تصحيح وأشكال. لكن عياضا استدرك على شيخه الجياني فيما بحث فيه. وزاد عليه أصلا ثالثا وهو «موطأ مالك» وسيعلم من وقف عليه من أهل المعرفة والدراية قدره. ويعرف أهل الإنصاف والديانة حقه (30).

وهكذا نرى عياضا يتتبع متون هذه الأصول الثلاثة وأسانيدها تتبعا دقيقا ويعلق عليها. ولهذا قال ابن فرحون في هذا الكتاب «هو كتاب لو كتب بالذهب أو وزن بالجوهر. لكان قليلا في حقه» (31).

وكان بعض العلماء يقول عنه : «لا أحتاج في كتب الحديث إلا للمشارق. فإذا كان عندي فلا أبالي بما فقدت منها».

وابن الصلاح المحدث هو بدوره يردد في شأنه هذا البيت :

مشارق أنوار تجلت بسبتة وذا عجب كون المشارق بالغرب

ولعياض كتاب آخر في الحديث. لا يقل أهمية عن صنوه «المشارق» هو كتاب «الإلماع إلى معرفة أصول السماع» وهو في علوم الحديث يتناول فيه معرفة الضبط والسماع. وتصحيح الروايات. وأقسام التحمل مع التحري في السماع والضبط في الاداء (32) «انتفع بهذا. وسار على نهجه وقلده أبو عمرو بن الصلاح» (33).

---

30) انظر مقدمة المشارق ط فاس الحجرية.

31) الديباج المذهب.

32) طبع بمصر سنة 1978 بتحقيق الأستاذ أحمد صقر.

33) انظر مقدمة الناشر لكتاب «الالماع».

وعن كتاب «الالماع» هذا يقول د. أسد رستم : «على الرغم من مرور سبعة قرون عليه. فإنه ليس بإمكان رجال التاريخ في أوربا وأميركا أن يكتبوا أحسن منه. وان ما جاء فيه من مظاهر الدقة في التفكير والاستنتاج في باب تحري الرواية والمجيء باللفظ. يضاهي أدق ما ورد في الموضوع نفسه في أهم كتب الأفرنج في ألمانيا وفرنسا وأميركا وانجلترا (34).

ومن الكتب الحديثية لعياض كتاب اكمال المعلم في شرح مسلم أكمل به شرح الإمام المازري وضم له ما بدأه في كتابه المشارق بخصوص صحيح مسلم كما نبه على ذلك في مقدمة المشارق ومنها «بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد» في هذا الكتاب تتجلى عبقرية عياض اللغوية والنحوية والبيانية فهو يورد نص الحديث. ويبين مافيه من تقديم وتأخير. وما فيه من اختلافات في اللفظ حسب رواياته المختلفة وأخيرا يدلي بترجيحه حسب ما وصل إليه في دراسته المتعمقة للحديث.

وهذا الكتاب يستفيد منه المحدث كما يستفيد منه الأديب والنحوي واللغوي والبلاغي فهو يعد عملا مفيدا من جميع جوانبه الدراسية وهو أوفى شرح لهذا الحديث وافيدها وأغزرها.

ومن تاليفه الهامة في السيرة النبوية. «الشفا في التعريف بحقوق المصطفى» وبهذا الكتاب اشتهر عياض وعرف وأصبح أحد الكتب التي تحظى بالتنويه من لدن العلماء شرقا وغربا.

يقول ابن فرحون في حقه «أبدع فيه كل الابداع وسلم له اكفاؤه كفاءته فيه. ولم ينازعه أحد في الانفراد به. ولا انكروا مزيته في السبق إليه بل تشوفوا للوقوف عليه وانصفوا في الاستفادة منه وحمله الناس وطارت نسخه شرقا وغربا (35).

---

34) انظر مجلة الايمان عدد خاص بعياض 1978 ع 72 ـ 73.

35) الديباج المذهب.

ولقد بلغت المؤلفات المنسوبة الى عياض ما يزيد على الثلاثين تاليفا والذي وصل إلينا منها قليل فلا ترى تاليفا من تواليف أهل الحديث ولا أصحاب السير والفقهاء إلا وجدته مشحونا بكلامه وتعقيباته مع انه لم يرتحل إلى المشرق.

وقلما اجتمع العلم والأدب بمعناهما الكامل إلا للنوابغ الأفذاذ وأهل الكفاءات النادرة مثل القاضي عياض السبتي.

وعلى ضوء هذا العرض لعلماء الحديث. وانتاجهم الحديثي الذين مر بنا ذكرهم بما فيهم القاضي عياض وتآليفه الحديثية القيمة يتبين ان ما زعمه عبد الواحد المراكشي في معجبه مجرد ادعاء وافتراء.

إذا لم يكن الحافظ الجياني وأضرابه كأبي علي الصدفي وابن العربي المعافري وعياض من مشاهير رجال الحديث في الزمن المرابطي من يكون ياترى من مشاهير هاته الفترة المرابطية ؟ أليس المكر السياسي على عادته يطمس الحقائق ويزيفها. بما فيها الحجج التاريخية ؟ فإذا كان للباطل جولة. فللحق جولات ان الباطل كان زهوقا.

والموحدون كما نعلم كانوا يكرهون المرابطين وعلماءهم كرها شديدا ويعملون على تشويه سمعتهم ورميهم بكل نقيصة (36).

وعياض هو نفسه من هذا الصنف المغضوب عليه من طرف الموحدين لأنه لم يكن مستعدا ليرضخ لدعوة المهدي والمهدوية. ويستجيب لندائها لهذا استتر هو وتاليفه عن أعين الناس مدة من الزمان إلى ظهور العصر المريني الذي كان له الفضل في إحياء شخصيته وإخراج تراثه العلمي.

يقول أبو الحسن النباهي المالقي ان ممن سما ذكرهم بعد وفاتهم وانقضاء أمد حياتهم. فبهرت ولايتهم واشتهرت في الافاق درايتهم. ومنهم كان القاضيان أبو بكر بن عبد الله العربي وأبو الفضل عياض فجرت عليهما محن وأصابتهما فتن ومات كل واحد منهما مغربا من أوطانه. محمولا عليه من سلطانه. حتى قال بعضهم سم ابن العربي وخنق اليحصبي تغمد الله الجميع برحمته (37).

36) انظر كتاب قيام المرابطين ص 116 ـ 160.

37) المرتبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ص 85.

وإذا كان الصنف المقرب المحظوظ من العلماء بأمير المسلمين وولده علي هو الصنف المختص بعلم فروع المذهب المالكي. فهذا شيء اخر لأن الدولة المرابطية قامت على أكتاف العلماء المالكية كوجاج بن زلو وعبد الله بن ياسين مؤسس الدولة المرابطية فهو مالكي صميم. تخرج من المدرسة المالكية. وعلى يد رجالها **فميوله إلى علم الفقه أقوى من أي علم آخر. فغلب هذا الميل على الدولة** ومن ثم كان اقترابها للفقهاء المالكية دون غيرهم من أرباب المعارف الأخرى. رغم ما ال إلى الدولة المرابطية من كثرة العلماء الاخرين في المواد الأخرى. والفلاسفة من جراء فتح الأندلس وضمها إلى المغرب.

ان اصطناع الدولة لنوع خاص من العلوم كثيرا ما كان ظاهرة ملحوظة في غير ما دولة من دول الشرق والغرب. فلم يغب عليها هذا. بل اعتبر من أسباب نهضة ذلك العلم. واعتبر خيرا وبركة على رجاله المشتغلين به. ولكن هذا لا يعني أن اضطهادا فكريا كان ينال غير الفقهاء المالكية. أو أن حقوقهم المشروعة كانت مهضومة فإن غاية الأمر ان مهام الدولة ووظائفها القضائية كانت من نصيب رجال الفقه المالكي الاعلام. أمثال القاضي النزيه أبي علي الصدفي المحدث الكبير والقاضي ابن العربي المعافري. والقاضي عياض وأمثالهم. وتلك سيادة القانون ولا **نقيصه في ذلك** (38).

ولقد كان لظهور القاضي عياض ايذان باستقلال الشخصية المغربية العلمية لإسهامها في حركة الثقافة بمعناها الواسع. وامتلاكها لناصية البيان والمنهجية العلمية الرصينة ببلاد المغرب.

وبفضل عياض وأمثاله ذكر المغرب وعرف تراثه الفكري الحضاري فلقد أمسى قمة شامخة من قمم الدولة المرابطية فهو نموذج من نماذج أعلامها المبرزين في الحديث النبوي الشريف وغيره من العلوم الأخرى. وقاضي من قضاتها النزهاء البارزين فالدولة المرابطية تذكر معه. وهو يذكر معها مدى التاريخ المغربي.

---

38) **انظر النبوغ المغربي ص 67 ـ 68 ط : 1 ـ ج : 1.**

دور عياض في توطيد المذهب المالكي في المغرب

للأستاذ : محمد بن عبد القادر السلاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

دور عياض في توطيد المذهب المالكي في المغــرب

(التمهيد)

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. والصلاة والسلام على من تألقت الفضيلة بصفاته واندثرت الرذيلة بسماته سيدنا محمد عليه أزكى الصلوات والتسليم.

وبعد :

.. ربيع يلاحقه ربيع.. ورحيل يتلوه رحيل. والنفس بين الربيعين والرحيلين تتوق في لهفة إلى مد حبل الاتصال بين لقاء فاس على مزايا إمام دار الهجرة مالك بن أنس. وبين لقاء مراكش على سمات الخير لأحد تلاميذه المخلصين القاضي عياض.

ولا عجب. فالجامع بين أصالة المدينتين تاريخ زاخر بالمكرمات تحسس جماله سكان المدينتين. شأنهم في ذلك شأن كل المغاربة الذين فتحوا صدورهم لكل خير يبلور مقوماتهم الأصيلة. ويحقق مطامحهم النبيلة سيما وقد وجدوا في مذهبهم المالكي معينهم الذي لا ينضب. ووحدة مذهبهم الذي لا يتزعزع. مستنيرين مسترشدين بهدي أمير المومنين الداعي إلى ضرورة الالتزام بالمالكية حين قال حفظه الله :

(نريد مغربا في أخلاقه وفي تصرفاته جسدا واحدا موحدا تجمعه اللغة والدين ووحدة المذاهب فديننا القرآن والإسلام ولغتنا لغة القرآن ومذهبنا مذهب الإمام مالك، ولم يقدم أجدادنا رحمة الله عليهم على التثبت بمذهب واحد عبثا أو رغبة في انتحال المذهب المالكي، بل اعتبروا أن وحدة المذاهب كذلك من مكونات وحدة الأسرة (1)).

ويشاء الرب الكريم أن يلهم وزير صاحب الجلالة في الأوقاف الدكتور أحمد رمزي استيعاب مغزى هذا اللقاء المستمد من توجيهات صاحب الجلالة وأمثاله حين جعل ندوة الإمام مالك مفتوحة. وما انعقاد ندوة عياض إلا استمرار عملي لندوة مالك وكذا ما سيعقبها - إن شاء الله - من ندوات أخرى تخدم قضايا الفكر المالكي اعترافا بالجميل وتأكيدا حقيقيا للمضي على هذا المنهج المصيب.

وان الشيء الذي يدعو إلى الحبور والاعتزاز أن نجد عياضا أكثر وفاء وتحمسا لمالك مما يدعو إلى الوقوف وقفة درس وتأمل لدوره في توطيد المذهب بالمغرب.

وان البحث في هذا الموضوع. يستلزم ضرورة الوقوف على أمور مهمة أساسية من أجل بلورة حقيقة حماس عياض ومدى توطيده للمذهب في المغرب. وهذه الأمور نوجزها فيما يلي :

أولا : الظروف التاريخية.

---

1) من خطاب صاحب الجلالة الحسن الثاني نصره الله في دورة مجلس النواب لشهر أكتوبر 1970.

ثانيا : الاستئناس ببعض مظاهر حياته.
ثالثا : نظرة موجزة على مؤلفاته والتركيز على التنبيهات.
رابعا : تركيز المذهب المالكي بالمغرب.
خامسا : آثار انتشاره بعد وفاة عياض.

أولا : الظروف التاريخية :

لقد تميز المغرب مبكرا باستقلال شخصيته ونزوعه إلى الحرية في الرأي «والعقيدة» والهدف.. فلم تنل منه الأطماع السياسية والاقتصادية على عهد الرومان أو الوندال. أو البيزنطيين أو الفينيقيين إلا التحدي وتكسير شوكة الهيمنة والاستبداد حتى إذا جاء الإسلام وخالطت بشاشته قلوب بنيه انفتحت صدور المغاربة للترحاب والتهليل بهذا الدين الذي حقق آمالهم ونقى سرائرهم من ضغائن التفرقة والخذلان التي بقيت راسخة في نفوسهم وساعدتهم على الحفاظ على سلامة الشخصية المغربية من الوقوع في متاهات التفرقة على اختلاف أشكالها وأنواعها. فوحدتهم العقائدية تبعتها وحدتهم السياسية وجرت مع هذه التبعية أيضا وحدتهم المذهبية. لأنه لم تستطع التيارات المذهبية في فهم وتطبيق الشريعة الإسلامية بمجرد انتهاء عهد الخلفاء الراشدين أو زمن الأمويين بالشرق أو بالأندلس. أو عند نشوء الدولة العباسية أن تنشيء بالمغرب مدارس لهذه النزعة أو تلك رغم وجود البلاد المغربية في موقع جغرافي هام. يربط بين سائر الأمصار التي تفاعلت تفاعلا كبيرا مع هذه التيارات التي صورت خريطة العالم الإسلامي خصوصا في الربع الأخير من القرن الثاني الهجري تصويرا مؤسفا كما يدل لذلك وجود إمارات ودويلات مستقلة أو تابعة لنفوذ معين من نفوذ الحكم القائم في أماكن متفرقة من البلاد كالعباسيين بالشرق والأمويين بالغرب أي الأندلس والأدارسة بالمغرب الأقصى. وما رافق الفترة من تصدع وانقسام. كل ذلك كان نتيجة حتمية للوقوع في فخ الصراعات المذهبية.

ومع ذلك، فإن المغاربة اقتنعوا بضرورة التشبث بمذهب واحد، خوفا من الوقوع في الا بتداع من جهة أو تسرب التفرقة، وانقسام الدولة الواحدة إلى دويلات وامارات من جهة أخرى. ولذلك اختاروا مطمئنين سلفية وسنية مالك بن أنس إمام دار الهجرة.

وإذا كان الوعي على هذا المستوى الرفيع مسيطرا على شعب من الشعوب لم يجد الحكام أنفسهم إلا مقتنعين بضرورة الرضى بما رضيه رعاياهم خصوصا إذا كان الحكم يستمد قوته من إرادة الشعوب الواعية بأمور دينها وشريعة ربها.

ولذا نلاحظ الحماس والتحميس اللذين ظهرا على عهد المرابطين رعاية وعناية بالمذهب يقول صاحب المعجب (2) : (ولم يكن يقرب من امير المسلمين ويحظى عنده إلا من علم علم فروع مذهب الامام مالك فنفقت في ذلك الزمن كتب المذهب وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم).

وان المتأمل لهذا النص ليرى بوضوح مدى تغلغل المذهب على هذا العهد، ومدى نظرة الدولة الحاكمة إليه وهي نظرة واضحة المعالم غنية عن التعليق.

في هذا الجو الحافل بالحماس للمذهب.. وفي هذه الفترة التاريخية عرف عياض الذي أذكى أجيج نيران هذا الحماس. بما عرف عنه من حب وتحبيب للمذهب ظلا قائمين إلى الآن.. من عهد المرابطين إلى عهد العلويين. انطلاقا من نص صاحب المعجب لربط الماضي بالحاضر في مسيرة تاريخ إنساني يقدم للإنسانية أنبل القيم لتحريك عجلة التقدم نحو البناء والتقدم والاطمئنان.

فهل سأجد من حياة عياض ومؤلفاته ما يفي بإيجاد الأسباب الحقيقية لنهضة مذهب مالك وترسيخه من زمن عياض إلى الان.

---

2) المرجع : المعجب لعبد الواحد المراكشي من الصفحة : 171 إلى 172.

ثانيا : (3) الاستئناس ببعض مظاهر حياته :

أ ـ نسب القاضي عياض :

نقل ابنه محمد (4) وأبو القاسم ابن الملجوم (5) كلاهما عن القاضي عياض أنه :

(عياض بن موسى بن عياض بن عمرون بن موسى بن عياض بن محمد بن عبد الله بن موسى بن عياض اليحصبي). وهو نسب يرتفع ـ كما نرى ـ إلى يحصب بن مالك بن زيد (6) ويحصب.

ب ـ موطن أجداده :

ينقل ابن عياض محمد حسبما كتبه أبوه بخطه :

قال القاضي أبو عبد الله محمد بن القاضي أبي الفضل عياض : «استقر أجدادنا في القديم بجهة بسطة (7) من بلاد الأندلس ثم انتقلوا إلى مدينة فاس. وكان لهم استقرار بالقيروان فلا أدري أكان قبل استقرارهم بالأندلس أم بعده ؟... لذلك يقول عبد الله بن حكيم :

وكانت لهم بالقيروان ماثر   عليها لمحض الحق أوضح برهان

قال : وكان «عمرون» والدجرابي. رحمة الله على جميعهم رجلا خيرا صالحا من أهل القرآن حج إحدى عشر حجة وغزا مع ابن أبي عامر (8) غزوات كثيرة وانتقل من مدينة فاس إلى مدينة سبتة بعد دخول بني عبير (9) المغرب وكان

---

3) الجزء الأول من ترتيب المدارك للقاضي عياض بن موسى بن عياض السبتي المتوفي سنة 544 هـ عارضه بأصوله وعلق حواشيه وقدم له : محمد بن تاويت الطنجي.

4) في كتابه الذي عرف فيه بأبيه صفحة 3 ـ 4 وانظر أزهار الرياض الجزء 1 الصفحة 23 ـ 25.

5) أزهار الرياض الجزء الأول الصفحة 24.

6) وقع في أزهار الرياض الجزء 1 الصفحة 27 : (يحصب بن مدرك) وهو تصحيف ونسب يحصب في جمهرة ابن حزم 408 ـ 409 ونهاية الأرب للقلقشندي 249 / 254 وانظر تاج العروس (حصب صح).

7) بسطة : من أعمال جيان. (عن تقويم البلدان).

8) هو المنصور محمد بن أبي عامر المعافري الوزير الحاجب في دولة المؤيد هشام بن الحكم المستنصر الأموي. كان من أهل الفقه والحنكة والذكاء وأبلى في محاربة الاسبان أعظم البلاء.

9) يريد الفاطميين اولاد عبيد الله.

سبب ذلك أنه كان له ولأبيه نباهة بمدينة فاس. فأخذ ابن أبي عامر رهنا من أعيان مدينة فاس. فأخذ فيهم اخوي (عمرون) عيسى والقاسم. فخرج إلى مدينة سبتة ليقرب من اخبارهما. بمدينة قرطبة فاستحسن سكنى مدينة سبتة وكان موسرا فاشترى بها أرضا وهي المعروفة بالمنارة فبنى في بعضها مسجدا وفي بعضها دارا حبسها على المسجد وهو حتى الآن منسوب إليه وحبس باقي الأرض للدفن ولم يزل منقطعا في ذلك المسجد إلى أن مات رحمه الله. سنة سبع وتسعين وثلاث مائة وولد له قبل وفاته بيسير ابنه عياض ثم ولد لعياض ابنه موسى ثم ولد لموسى ابنه عياض أبي رحمهم الله أجمعين...»

جـ - أوصافه :

اتفقت مصادر ترجمة عياض على وصفه بالذكاء والفهم والحدة والفطنة والتيقظ. والحرص على طلب العلم.

وهي مؤهلات من شأنها أن ترفع صاحبها إلى مراتب عالية في العلم والفضل.

وبهذه المواهب العقلية الممتازة. وفي ذلك الجو العلمي الذي تهيأ له بمسقط رأسه سبتة بدأ عياض طلبه للعلم وإذا كانت الكتب التي يدرسها طالب العلم تتدخل - مثلما يؤثر الشيوخ - في تكوين شخصيته فإن ما قرأه عياض الطالب وقد حباه الله تلك المواهب العقلية من أمهات الكتب على اختلاف موضوعاتها في بلده سبتة دال على أن شخصيته العلمية قد اكتملت قبل أن يغادر بلده. وانه قد انتزع شهرته الخالدة على الزمن بسعيه دون أن يحابيه بها أحد.

ففي بلده حفظ القرآن بقراءاته السبع. برواية نافع وابن كثير وأبي عمرو ابن العلاء وابن عامر أخذ هذه الروايات بطرقها المختلفة المعروفة عن عبد الله بن ادريس ابن سهم المقرىء (المتوفى سنة 515 هـ) وبرواية حمزة ابن حبيب الزيات عن عبد الله ابن محمد النفزي (المتوفى سنة 538 هـ).

وقرأ اللغة العربية متنها وأدبها في كتاب الفصيح لأبي العباس ثعلب

وكتاب الأمالي لأبي علي القالي والكامل لأبي العباس محمد ابن اليزيد المدرب وأدب الكتاب لأبي محمد بن قتيبة (10).

ودرس قواعدها في كتاب الجمل للزجاجي والواضح لأبي بكر الزبيري والكافي لابن النحاس والمقتضب للمبرد والإيضاح لأبي علي الفارسي (11) وشرح الجمل لابن فضال (12).

اما أصول الفقه وأصول الدين وعلم الكلام (13) على مذهب أبي الحسن الأزهري والجدل والمناظرة (14) فقرأ أصول الدين على قاضي سبتة عبد الله محمد ابن ابراهيم ابن قاسم اللخمي (المتوفى سنة 458 هـ) (15) وقرأ رسالة أبي زيد القيرواني (16) على محمد ابن عيسى التميمي وصحب عبد الغالب ابن يوسف السالمي (المتوفى سنة 516 هـ) المتكلم على مذهب أهل السنة من الأشعرية مدة إقامته بسبتة وناوله كثيرا من مجموعاته (17).

ولعل كتاب «الغنية» وكتاب الشفا يكونان كافيين لإظهار اهتمامه بعلم الكلام بيد أنه من الضروري التذكير بقراءته لموطأ الإمام مالك ومسند الموطأ لأبي قاسم الجوهري... أما الفقه المالكي فدرس رسالة ابن أبي زيد (18)

---

(10) الغنية 134 ـ 135 وانظر 43 ـ 67.

(11) الغنية 135 ـ

(12) الغنية 160.

(13) جاء في (التعريف) صحيفة 6 ان القاضي عياضا كان متكلما أصوليا وكان لا يرى الكلام في ذلك إلا عند نازلة وعلم الكلام منذ نشأته يعني الحجاج عن العقيدة والمناظرة عليه ثم اشتهر بين أهل السنة استعماله في معنى الحجاج عن العقيدة السنية بالأدلة البرهانية العقلية والرد على المخالفين لهم فيها. فالحاجة والمناظرة جزء من مفهوم علم الكلام.

(14) اما (علم الجدل والمناظرة فيراد به الجدل والمناظرة في مسائل الفقه تارة وفي مسائل الاعتقاد تارة أخرى ومهما كان فهو صناعة الجدل.

(15) الغنية 146.

(16) الغنية 22.

(17) الغنية 166.

(18) الغنية 56

والحمدونية (19) وتأليفا في الإيمان اللازمة للقاضي أبي بكر ابن العربي المعافري قرأه عليه بسبتة عند مروره بها (20) وقرأ أصول الفقه على محمد ابن عطية القلعي...

وبهذا المحصول العلمي رحل عياض إلى الأندلس (1) للتأكد من سلامة المنهج النقلي ومن كماله ويتطلب ذلك تصحيح المتون المروية والبحث عن أصولها ووصل أسانيدها بأصحابها والبحث عن أعلى هذه الأسانيد وأقومها وأصحها (2) تصحيح منهج التفكير وإقامة أسسه على قواعد ثابتة وتقول مصادر الترجمة انه عنى في رحلته بلقاء الشيوخ (21) ليقابل أفكارهم فيزنها بما تعلمه في بلده من أفكار.

وعاد عياض من رحلته قبسا من النور يضيء ومعينا عذبا فياضا من العلم لا يلحقه النضوب وصوتا عاليا للحق ينادي مرشدا وحكيما فيسمع النداء وطاقة هائلة من الايمان والثبات والخلق وإلى هذا جميعا إحساس واع بنفسه وبلده (22) وبمكانته الرفيعة.

هكذا سبراغوار البحث وهكذا أخذ العلوم والمعارف ومن المؤكد ان من يملك يستطيع أن يعطي وإذا كان عياض قد اكتسب هذه المعارف بسبب نبوغه واجتهاده وصارت لديه سوقا رائدة فهل عرض بضاعة هذه السوق العلمية الرائجة لزبناء المعرفة من المتعلمين والقراء وبمعنى آخر هل صاغ امكانيته العلمية في بحوث ومؤلفات تعكس نتائج استيعابه واجتهاده ؟

الجواب على ذلك نلتمسه في العنصر الثالث من البحث وهو كما يلي :

---

19) الغنية 22.

20) الغنية 19، 119، 146، 40، 42.

الصلة 466، الوفيات 1 / 497.

22) من مظاهر هذا الإحساس عنايته بأخبار سبتة وتأليفه كتاب (العيون الستة) والعناية بتاريخ المدن المغربية القديم فقد ألف محمد ابن يوسف التاريخي الوراق أخبار تاهرت والبصرة وسجلماسة ونكور وغيرها.

ثالثا : نظرة موجزة على بعض مؤلفاته مع التركيز على التنبيهات :

1) كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى :

يرمي الكتاب إلى التعريف بقيمة النبي صلى الله عليه وسلم وما يجب في حقها من تشريف وإجلال وبيان حكم من لم يوف سيدنا محمدا عليه السلام حقه من التوقير والاحترام مع جمع أقوال السلف والأئمة في ذلك.

وقد التزم القاضي عياض بترتيب كتابه وأبوابه وتقسيم ما قام بتبويبه إلى فصول وفقر وكان لا يكرر معلوماته بل يحيل القارىء إلى المواضع المطلوبة في كتابه.

ولقد كان يجمع شتات مادة من مصادر متنوعة كثيرة ويحسن وضع وتفسير ما جمع حتى لقد ذكر ابنه في كتاب التعريف (أن القاضي عياض كان من أقدر الناس على تقليد الروايات وجمعها) .

ويقضي منهجه أن يعتمد القرآن أول مصادره فيأتي منه بالآيات وفق أبواب الكتاب وأقسامه ثم يأتي بأقوال المفسرين من كتب التفسير المختلفة كما يعتمد على الحديث والفقه وأقوال الفقهاء خصوصا منهم فقهاء المالكية وعلى رأسهم الإمام مالك ابن انس الذي اعتمد كتابه الموطأ في مقدمة المصادر التي رجع إليها في بحثه.

2) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك :

ولعل التسمية التي اختارها المؤلف لعنوان الكتاب كافية لمعرفة موضوعه ومساعدة في نفس الوقت على إدراك الأهداف التي يريدها عياض من إدراج الخصائص المميزة لمدرسة الإمام مالك وخريجيها ممن صاروا أعلاما للمذهب يحملون لواءه ويذودون عن قضاياه بنفس الايمان الصادق الذي علمه إياهم إمام المذهب مالك رحمه الله وتتميما للفائدة نسجل ما أراده المقدم للكتاب من لفت للانتباه حول ما ميز بداية ونهاية كل جزء من أجزاء الكتاب حسب التقسيم الوارد في هذه النسخة :

1) يبدأ الجزء الأول بخطبة الكتاب وينتهي بباب في اجماع الناس عليه (على الإمام مالك) واقتداء الأكابر به.. إلخ.

2) ويبدأ الجزء الثاني بباب صفة مجلس مالك للعلم وينتهي بذكر أسماء من حملوا الفقه والأثر عن الإمام مالك مرتبة على حروف المعجم.

3) ويبدأ الجزء الثالث في بداية الطبقات وينتهي بترجمة يحيى بن يحيى الليثي.

4) ويبدأ الجزء الرابع بالطبقة الذين انتهى إليهم فقه مالك والتزموا مذهبهم مما لم يرو ولم يسمع منه وينتهي عند ترجمة ابن طالب القاضي عبد الله ابـن طالب ابن سفيان ابن سالم ابن عقال ابن خفاجة التميمي أبو عباس القيرواني.

ويبدأ الجزء الخامس بترجمة عيسى بن مسكين بن جريح بن محمد الافريقي وينتهي بترجمة أبي عبد الله الفهري التطيلي.

6) ويبدأ الجزء السادس بترجمة أبي مروان عبد المالك بن محمد بن عبد العزيز بن أحمد بن عبد الرحمان المدني المعروف بالمرواني. وينتهي بترجمة محمد بن عيسى بن أبي سعد بن سيد الدار بن يوسف التميمي.

7) ويبدأ الجزء السابع بترجمة ابي القاسم سليمان بن علي بن سليمان الجباني الحجازي وينتهي بترجمة أبي عبد الله فتوح بن موسى بن عبد الواحد ابنتي وتلك هي نهاية الكتاب.

ثم يستطرد المقدم للجزء الثاني من الكتاب قائلا :

(والواقع اننا وجدنا انفسنا في هذا الجزءمن كتاب « ترتيب المدارك » امام عدد هائل من الاعلام قد يصل الى نحو الالفي علم ان لم يتجاوزها.

فقد ذكر القاضي عياض رحمه الله في هذا الجزء نحو ألف ومائة وسبعـة وعشرين رجلا من الذين رووا الفقه والاثر عن مالك رضي الله عنه وذكر نحو المائة رجل ممن اعتنوا بالكلام على رجال الموطأ وحديثه والتصنيف في ذلك.

وذكر أزيد من ستيـن رجلا ممن رووا الموطأ للإمام مالك يضاف إلى كل هؤلاء رواة أخبار مالك وأقواله وهم كثيرون جدا. وقد مر ذكر أكثرهم فـــي الجزءالأول.

ويضاف إليهم الذين قالوا شعرا في الإمام مالك في حياته أو بعد مماته ويضاف إليهم الذين قالوا شعرا في الموطأ.

ويضاف إليهم العلماء الذين خالفوا مالكا أو ناظروه أو ما إلى ذلك. ويضاف إليهم الخلفاء والحكام والولاة الذين كان له معهم اخبار أو كان له اتصال بهم.

ويضاف إليهم أيضا الذين رووا عنه كتبه الآخرى غير الموطأ بأسانيدهم المتصلة إليه.

3) مشارق الانوار على صحاح الاثار :

موضوعه (23) اجملته الدكتورة عائشة عبد الرحمان في فقرة موجزة بقولها : ضبط ما التبس أو اشكل وشرح ما غمض وأبهم وتحرير ما وقع فيه الاختلاف أو الخطأ والوهم متنا أو اسنادا في الأصول الثلاثة الأمهات لصحاح الآثار : (الموطأ للإمام مالك والجامع الصحيح للإمام أبي عبد الله البخاري : والمسند الصحيح للإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري).

ثم استطردت قائلة (24) : في الكتاب أبواب بعدد حروف المعجم على ترتيبها المعروف للمغاربة من حرف الهمزة المفردة ومع ما يليها من باء وتاء إلى ياء حتى حرف الياء مع الهمزة والباء والتاء إلى آخر حروف المعجم.

في باب كل حرف منها أربعة فصول رئيسية :

في أولها تقصي ما في هذا الحرف من الكتب الثلاثة الأصول من ألفاظ تحتاج إلى ضبط أو شرح وما وقع فيها بالكتب الثلاثة الأمهات من خلاف أو وهم

---

23) الدكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطىء ـ المناهل.

24) العدد رقم 19.

وتبين ما هو منها على صواب يبلغ بالباب في الحرف ما جاء مع الهمزة حتى الياء.

والثاني لما جاء في هذا الحرف بالكتب الثلاثة من أسماء بلدان وبقاع يضبط كتبها ويحدد مواقعها ويتعقب ما اختلفت الروايات فيه. وما وقع فيها من وهم أو تصحيف.

- يليه فصل ثالث في مشكل الأسماء والكنى من هذا الحرف في الكتب الثلاثة يضبط ما التبس واشتبه وينظر فيما وقع في روايته من خلاف أو وهم.

- والفصل الرابع لما اشكل أو التبس من الانساب في هذا الحرف من الكتب الثلاثة الأمهات. وتحري وجه الصواب فيما اختلفت فيه الروايات.

4) الإلماع في ضبط الرواية وتقييد السماع (25) :

حققه الأستاذ السيد أحمد صقر وطبع في مصر - دار التراث القاهرة : 1398 - 1978 وهو من أهم المراجع في علم الحديث قال عنه الأستاذ صقر في مقدمة التحقيق : (وقد انتفع بهذا الكتاب وسار على نهجه وصرح بأنه قد قلده أبو عمرو بن الصلاح المتوفى سنة 642 هـ ولكنه كان في أكثر الأحيان يذكر قوله ولا يصرح باسمه ولا يشير إليه وكذلك استقى منه كل المؤلفين الذين داروا في فلك مقدمة ابن الصلاح وجعلوها كعبة يطوفون بها... كالعراقي والزركشي والبقاعي وابن حجر والسخاري والسيوطي والبلقيني وابن جماعة وغيرهم) ص 30 مقدمة الالماع.

5) بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد :

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري : انه اجمع الشروح واوسعها ومنه أخذ غالب الشراح بعده.

---

25) مأخوذ من مقال الأستاذ محمد العربي الخطابي في موضوعه ذكرى أبي الفضل عياض اليحصبي المنشور بمجلة المناهل عدد 19 - صفحة 193 - 194.

وقد ذكر الأستاذ ابن شريفة أن دار التراث بالقاهرة أعلنت انه تحت الطبع.

ونذكر أن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالرباط قد نشرته وطبع بتحقيق الأساتذة صلاح الدين بن أحمد الأدلبي ومحمد الحسن أجانف ومحمد عبد السلام الشرقاوي.

أما مؤلفات عياض التي ما تزال مخطوطة استنادا إلى تعليقات الدكتور ابن شريفة فهي (26).

- اكمال المعلم في شرح مسلم وهو اكمال لكتاب محمد بن علي المازري وعنوانه «المعلم».
- التنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة والمختلطة وهو شرح لمعاني المدونة يجلي غوامضها ويضبط أسماء رواتها (توجد منه نسخ مخطوطة في كل من الخزانة الملكية والمكتبة العامة وخزانة جامعة القرويين).
- الغنية، وهو فهرسة شيوخ القاضي عياض.

بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد. ذكره ابنه في التعريف (27).

وهناك كتب مفقودة من مؤلفات عياض كالمقاحل الحسان فيما يلزم الإنسان وغنية الكاتب وبغية الطالب في الصدور والترسيل وكذا الأجوبة المحبرة على الأسئلة المتخيرة وغيرها من الخطب وكثير من الأشعار والرسائل والنوازل أشارت إليها الكثير من كتب الفهارس كالذهبي في تذكرة حفاظه وحاجي خليفة في كشف ظنونه وغيرهما ممن اشتهروا بالجمع والاستقصا لأمهات الكتب ولرواد الفكر الإنساني على مختلف العصور من أجل تسهيل مأمورية البحث وصيانة روح الأمانة العلمية.

---

26) المناهل : نفس المصدر السابق العدد 19.

27) ذكر الكتاب في تعريف ابنه 133 والمذهبي في تذكرة الحفاظ 4 : 97 وابن خير في فهرست مارواه عن شيوخه وما رواه عن مؤلفه 197 ـ 148 وابن خلكان 1 : 496 وكشف الظنون 1 : 248 وهداية العارفين 1 : 805 وفي الخزانة العامة نسخ منه.

وإذا كان لمثل هؤلاء الأعلام سوابق الفضل في تمهيد الطرق للبحث العلمي فإن بحثنا هذا يقتضي الإشادة بدور ابن عياض في تخريج الكثير من كنوز أبيه خصوصا ماورد في تعريفه بأبيه الذي ساعد البحث العلمي بكثير من الأدلة على شمولية عياض العلمية وتنوع خروجها.

وإذا كان كتاب ترتيب المدارك مرجعا صالحا لأخذ المواقف العلمية الهائلة من أجل توطيد مذهب مالك بالإضافة إلى ما قدمته لنا الكتب الأخرى من قرائن تدل بصدق على إيمانه القوي بضرورة تثبيت المذهب حق لنا ونحن في معرض التماس ما يؤيد ذلك الوقوف على كتاب التنبيهات لاستجلاء الغايات المتوخاة منه في هذا المجال.

لفت الانتباه إلى كتاب التنبيهات (28) :

اسمه كتاب التنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة والمختلطة قدره ابنه وعنه الإحاطة بعشرة أجزاء وكان عليه المعول في حل ألفاظ المدونة وحل مشكلاتها وتحليل رواياتها وتسمية رواتها ويرجع السبب في ذلك إلى أنه جمع بين شرح المعاني وإيضاحها وضبط الألفاظ وذكر من رواها من الشيوخ والحفاظ. ذكره ابنه في التعريف 132 والوفيات 1 : 496 وعنه الذهبي في تذكرة الحفاظ 4 : 97 والإحاطة 183 - وأزهار الرياض 3 : 21 وكشف الظنون 1 : 493. 2 : 1644 وهداية العارفين 1 : 805.

انطلاقا مما ورد في هذا اللفت يحسن ذكر صناعة التأليف بالمغرب حسبما جاءت في كتاب أزهار الرياض الثالث من أجل الموازنة بين صناعة التأليف السائدة آنذاك وصناعة القاضي عياض : صناعة التأليف بالمغرب ولقد وقفت في بعض التعاليق لأحد المتأخرين على كلام في صناعة التأليف رأيت (29) أن أجلبه جميعه. لما فيه من ذكر بلاغة القاضي عياض ونصه :

---

28) نقلت الفقرة كما أوردها محمد بن تاويت الطنجي في تحقيقه لترتيب المدارك ج 1 ص كج.

29) الرياض الجزء الثالث الصفحة 22 - في م : و «انا» بدل «رأيت أن»

لتدريس المدونة اصطلاحان : وقد كان للقدماء رضي الله عنهم في تدريس المدونة اصطلاحان : اصطلاح عراقي واصطلاح قروي فأهل العراق جعلوا في مصطلحهم مسائل المدونة كالأساس وبنوا عليها فصول المذهب بالأدلة والقياس. ولم يعرجوا على الكتاب بتصحيح الروايات ومناقشة الألفاظ. وأبهم القصد إلى افراد المسائل وتحرير الدلائل على رسم الجدليين وأهل النظر الأصوليين. واما الاصطلاح القروي فهو البحث عن ألفاظ الكتاب وتحقيق ما احتوت عليه بواطن الأبواب وتصحيح الروايات وبيان وجوه الاحتمالات والتنبيه على ما في الكلام من اضطراب الجوانب. واختلاف المقارن مع ما انضاف إلى ذلك من تتبع الآثار وترتيب أساليب الأخبار وضبط الحروف على حسب ما وقع في السماع وافق ذلك عوامل الاعراب أو خالفها.

فهذه سيرة القوم رضوان الله عليهم إلى أن عم التكاسل وصار رسم العلم كالماحل ويحقق ما قلناه تصرف التونسي (30) في تعاليقه اللطيفة المنزع واللخمي (31) في تبصرته البارعة الختام والمطلع إلى غير ذلك من تآليف القرويين وتعاليق المحققين من شيوخ الإفريقيين .

فضل عياض في التأليف : وقد سلك القاضي عياض في تنبيهاته مسلكا جمع فيه بين الطريقتين والمذهبين. وذلك لقوة عارضته نفعه الله بذلك وأعاد علينا من بركته.

يبقى بعد ذلك لأي كان أن يتساءل : فإذا أراد صاحبنا هذا بهذه الاثارة لكتاب التنبيهات على الخصوص. الا يوجد في الكتب الأخرى ما يغنينا عن التماس أوجه الأسباب التي وطدت مذهب مالك بالمغرب ؟

---

30) هو أبو القاسم بن محرز القيرواني كان نظارا وله تعاليق على المدونة توفي في الخمسين والاربع مئة (انظر مقدمة ابن خلدون في الكلام على الفقه وابن فرحون في الديباج).

31) هو أبو علي بن محمد اللخمي له تعليق كبير على المدونة سماه (التبصرة) توفي سنة ثمان وتسعين وأربع مئة (عن الديباج) ـ اعتمدت هذه المعلومات من نفس المصدر السابق : أزهار الرياض في أخبار عياض. الجزء الثالث نفس الصفحة.

الجواب بارز في العنوان نفسه المسمى بـ (التنبيهات) والتنبيهات جمع تنبيه وهو كل ما يراد إيضاحه وبيانه وعزله عن الشبهات والمتناقضات حفاظا على سلامة الأفكار التي يسعى الباحث إلى ترسيخها ومن ثم كانت هذه التنبيهات ضرورية وملحة للاعتبارات التالية :

1) صعوبة فهم الأساليب الفقهية لما تتميز به من طابع خاص يجعلها غاية في الدقة والإيجاز.

2) صعوبة الوصول إلى مقاصد الفقهاء الذين ينفردون وحدهم أو صحبة جماعة قليلة من ذوي الاختصاص والاهتمام.

3) تعذر وجود الكثير من العقول المتميزة بكل الملكات العلمية الكفيلة باكتشاف سائر المقاصد التي يطرحها الفقهاء بأساليب يخالف فيها المفهوم المنطوق أو تدخل فيها أشياء وتخرج منها أشياء أو يقاس عليها شيء أولا يقاس أو تؤول إلى كذا أولا تؤول إلى غيرها من الأشياء التي ينفرد بها القليل. بينما تصعب على العموم في حين يريد عياض أن يكون فقه مالك مفهوما مطبقا لدى جميع الناس.

4) حماس عياض من أجل توطيد المذهب بالمغرب حتم عليه إعادة النظر في القضايا المستنبطة على الكتب المدونة والمختلطة من أجل تقريبها إلى أكثر طلاب العلم بشكل يحبب إليهم المادة ويغريهم بقراءتها.

فإذا اقبلوا عليها وقرأوها واستوعبوا تعليمها وتعميمها خصوصا وان مثل هذه الأمور لا يعذر أحد بجهلها وكأني بعياض قد سبق رجال القانون لهذه الخاصية القانونية التي إن دلت على شيء فإنما تدل على عمق الغيرة الوطنية ومحبة الوطن الذي يريده موحدا في سياسته موحدا في عقيدته.. موحدا في اختيار المذهب الصالح لسلوك الجماعة المسلمة وقاية من الهبوط إلى مهاوي التناقضات. المؤدية إلى الاجحاف بسمو القانون الإسلامي.

وانه ما من شك في أن القانون الوضعي نفسه استمد الكثير من قضاياه من مصادر المذهب المالكي لما اتسمت به من إسعافات طبية لمعالجة كثير من أفراد المجتمع الحديث التي لم تسعفها استطبابات النظريات والمذاهب القانونية الحديثة.

لمثل هذه الاعتبارات المتقدمة نجد أنفسنا مرتاحين للتنويه بكتاب التنبيهات الذي قرب الفقه المالكي إلى الجماهير وأقام جسرا منيعا بين الوضوح والغموض حتى لا يرتاب المرتابون أو يتيه الغالطون...

إلا أنه وياللاسف ظل الكتاب في صدور الطلاب الذين درسوه أو درسوه وظل مكتوبا بخط مؤلفه في بعض الخزانات كما أشرنا إلى ذلك لم تتناوله العناية الواجبة والتحقيقات الكافية قصد إثراء خزانتنا الإسلامية وبلورة أصالتنا في مجال الفكر والعقيدة فعسى أن نتنبه والفرصة مناسبة للتنبيه. والكتاب كتاب التنبيهات إلى ما يجب حول هذا المؤلف من التزام بالمسؤولية العلمية الملقاة على عاتقنا خصوصا وإننا في ندوة يباركها الله إن شاء الله وتحفها الملائكة إذا رافق القول العمل وأخلصت الأعمال والنيات لوجه الله سبحانه وتعالى.

رابعا : تركيز المذهب المالكي بالمغرب :

- كنتيجة لما تقدم وسياتي - ان كل ما سبق في هذا البحث يخدم أساسا فكرة : التدعيم والتركيز لمذهب إمام دار الهجرة مالك رضي الله عنه. فرغم تداخل الاهتمامات العلمية لعياض وغزارة المواضيع التي بحثها لم يكن من شأن ذلك الخروج عن موضوع المساهمة في توطيد مذهب الإمام مالك لأن الطابع المميز لجميع ما بحثه عياض هو تنمية الملكة العلمية فإذا نمت واتسعت هذه الملكة أمكن تيسير ما صعب من الفقه من جهة وخدمته وتعميمه واتساع آفاقه من جهة أخرى.

على أنه لا بد من مراعاة أمور أخرى هامة ساهمت مساهمة فعالة في مساعدة عياض على توطيد هذا المذهب بالمغرب نوجزها فيما يلي :

أ) من المعلوم تاريخيا أن المصدر الذي صدر منه العلم إلى المغرب هو الشرق الذي لم تكن رؤياه المذهبية موحدة بل هو متنوع ومتضارب (32) ولو استطاع أن يصدر كل بضاعته إلى المغرب لظهر في هذا الأخير نفس التوزيع والتضارب لكن شاءت حكمة التاريخ أن تقع التصفية في الطريق المقارنة بين المصدر والملتقى ترجع بنا إلى ملاحظات أساسية نلتقي فيها شيئا ما مع ابن خلدون. فالشرق. بحكم أقدميته في التاريخ وتعرضه لموجات متتالية من الفتوح والهجرات البشرية وتقلبه بين حضارات مختلفة وتعرفه على آراء ومذاهب وأديان متعددة تعود منذ زمان بعيد على النقاش والجدال بين الملل والنحل وعلى استيعاب الخلافات في الرأي والعقيدة غير متخوف مما يترتب عن ذلك من تصدعات في البنية المجتمعية أو في كيان الدولة ووحدتها السياسية... فكانت بغداد مثلا تحتضن في آن واحد السنة والمعتزلة والشيعة؛ بمختلف تياراتها من زيدية وامامية جعفرية واسماعلية. كما التقت فيها المذاهب الفقهية على اختلافها.

ولم يكن كذلك شأن المغرب بحكم موقعه الجغرافي وبعده عن التيارات التي هزت الشرق هزا فالمغاربة في حياتهم الدينية والفكرية كانوا يتصرفون دائما على أساس أن الحق واحد. ولا بد أن يكون في جهة معينة.

لقد سار المغرب قدما في اتجاه التوحد المذهبي منذ عصر مبكر نسبيا فقضى على كل الانحرافات التي طرأت عليه في بداية عهد الإسلام وترصد لكل البدع بالاستنكار والمحاربة (33) فضلا على ما أبداه الملوك الذين تعاقبوا على الحكم في هذه الفترة التي عاصرت عياضا أو ما بعدها - باستثناء نفور الموحدين من المذهب - من مناصرة وتشريف واعتزاز بالمذهب بل لم تكن هذه الوحدة مذهبية فقط بل مذهبية وسياسية في آن واحد وأكبر دليل على ذلك نص المعجب الذي أوردته فيما تقدم من البحث.

32) نقلت هذه الفقرة من مقالة الدكتور محمد زنيبر بالمناهل العدد 19 الصفحتان 412 - 413.

33) نفس المصدر السابق - المناهل عدد 19 الصفحة 417.

هكذا ساهمت الظروف التاريخية متآزرة متعاونة مع الجهاد الكبير الذي خاضه عياض في توطيد المذهب وتركيزه. ورغم انه عاش في ظروف دولتين متناقضتين هما المرابطون والموحدون لم ينقطع حماسه وتحميسه. وما صدر منه رحمه الله في جانب الموحدين دليل على أنه كان يرى أن لاحق لهم في الأمر والإمامة وإنما هم متغلبون وهذا أمر لاخفاء به كما هو واضح ولما كانت شوكة عبد المومن لازالت ضعيفة وتاشفين بن علي أمير الوقت لازال قائم العين امتنع القاضي عياض رحمه الله من مبايعة عبد المومن ودفاعه عن سبتة إذ لا موجب لذلك لأن بيعة تاشفين في أعناقهم وهو لازال حيا فلا يعدل عن بيعته إلى غيره بلا موجب ... (34).

ولما قتل تاشفين وفتحت تلمسان وفاس وقويت شوكة عبد المومن بايعه القاضي عياض حينئذ وقبل صلته لأن من قويت شوكته وجبت طاعته (35).

تعتبر مهنة القضاء التي مارسها عياض وأبلى فيها البلاء الحسن فرصة سانحة لترسيخ أحكام المذهب في عقول المغاربة الذين كانوا ـ وما يزالون. وسيظلون إن شاء الله ـ يرون في القضاء الإسلامي الصرخة القوية التي تتكسر على صلابتها وقوتها كل أنواع الظلم.

ولم يكن اعتزاز الناس بالقانون كبيرا إذا رعى العدالة والانصاف واقترب من المتقاضين كما هو الشأن بالنسبة لعياض الذي احتفظ له التاريخ بهذه الصفة إذ ظل يعرف بالقاضي واشتركت صفته التي نعت بها باسمه وصار يدعى للآن بالقاضي عياض على أن من باب الأمانة العلمية استخراج المعلومات من مصادرها ليكون ماذكرناه من تعليق أو استنتاج في مأمن من الحشو واللغو لذا يحسن نقل الفقرة التي وردت في موضع ولاية القضاء عن كتاب التعريف بالقاضي عياض

---

34) كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للشيخ أبي العباس أحمد بن خالد الناصري الجزء الثاني الصفحة 115.

35) لعله يريد التحري من الوقوع في المحظور كان يساهم في إثارة الفتنة أو الفساد وبالتالي لا يريد أن يكون صنيعه متنافيا مع قوله تعالى : (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم).

الذي ألفه ولده أبو عبد الله محمد وقدم له وحققه الدكتور محمد بن شريفة (انظر الصفحتين 9 و 10 من المقدمة).

ولاية عياض للقضاء : تسلسل القضاء في أسرة القاضي عياض فقد تعاقب على تولي خطة القضاء أربعة أعلام - فيما نعلم - من هذا البيت السبتي البنية :

أولهم : القاضي عياض خلال دولة المرابطين كما هو معروف.

وثانيهم : ولده أبو عبد الله محمد - موضوع هذه المقدمة - في عهد الموحدين.

وثالثهم : عياض (561 - 630 هـ) حفيد القاضي سماه والده باسم جده تيمنا وتفاؤلا به واحياء وذكرى له. وتشير المصادر إلى أنه كان - من جهة - معظما عند ملوكه جليل القدر. وكان - من جهة أخرى - موصوفا بجزالة امتحن بسببها (36).

ورابعهم : أبو عبد الله محمد بن عياض بن محمد بن عياض (584 - 655 هـ) قاضي الجماعة في غرناطة في أوائل الدولة النصرية (37). وإذا كان توارث الخطط والمناصب تقليدا معمولا به أحيانا فإن من الحق أن نقرر هنا أن هؤلاء القضاة من آل عياض كانوا جميعا - فيما تنطق به تراجمهم - ممن تتجمل بهم الخطة علما وعملا وفقها وسيرة وفي ترجمة قاضي الجماعة أبي عبد الله - حفيد مؤلف هذا الكتاب من مواقف الجزالة والتصميم ما يشرف القضاء الإسلامي والذي يعنينا شأنه منهم - في هذه المقدمة - هو أبو عبد الله محمد. فقد ذكر في ترجمته انه : (استعمل على القضاء بدانية قبل السبعين وخمسمائة ثم بغرناطة فحمدت سيرته) (38) ومعنى هذا أن مدة قضائه كانت في عهد يوسف بن عبد المومن (558 - 580 هـ) وانها كانت بعد مرور أزيد من عشرين سنة على محنة

---

36) ترجمته في التكملة (رقم 1947) وصلة الصلة : 165 والذيل والتكملة 70.8 (مخطوط) والإحاطة (مخطوط) والديباج المذهب 172.

37) ترجمته في الصلة (مخطوط) والذيل والتكملة 8 : 121.

38) الذيل والتكملة 8 : 121.

القاضي عياض والده وكان من الجائز أن تسحب هذه المحنة ذيل الخمول على عقب القاضي أبي الفضل ـ والأمثلة في التاريخ عديدة ـ فهل كان هذا التعيين ضربا من (رد الاعتبار) لآل عياض أم أن فيه شيئا من القصد إلى إبعاد الأسرة العياضية عن مركز زعامتها في سبتة ومهما يكن من شيء فإننا نجد آل عياض ينتقلون في آخر الأمر من سبتة ويستقرون بمالقة.

قصدت بما أوردته من هذه المقدمة تأكيد ماسبق أن قلت من كون القضاء ممارسة طائعين راضين مطمئنين.

وهكذا ظلت مدرسة القاضي عياض قائمة رغم نهايته المؤسفة.. ورغم عبث الموحدين بمؤلفات المذهب لكونهم اصطدموا بمدى تغلغل المذهب المالكي في نفوس المغاربة ولكون هذه المدرسة القضائية ـ إن صح التعبير ـ عرفت استمرارها وازدهارها. كما تبين ذلك من النص على يد أبنائه وحفدته.

ومما ساعد على توطيد المذهب إفصاح القاضي عياض عن مناقب وصفات الإمام مالك التي ترفع قدره بين الناس وهو صنيع صادق هادف لم يرد به تعصبا ولا مطمعا وإنما أراد بيان المحجة الهادية إلى سعادة الإنسان وكرامته.

وسوف نستأنس ببعض أقواله في هذا الخصوص فيما يلي على سبيل الأمثلة وليس على سبيل الحصر.

ـ قال الفقيه القاضي أبو الفضل عياض : قال الواقدي وغيره : (39) (كان مالك يجلس على ضجاع ونمارق مطروحة في منزله يمنة ويسرة لمن يأتي من قريش والأنصار والناس. وكان مجلسه مجلس وقار وحلم وكان رجلا مهيبا نبيلا ليس في مجلسه شيء من المراء واللغط ولا رفع صوت إذا سئل عن شيء فأجاب سائله. لم يقل له : من أين رأيت هذا ؟

39) انظر الجزء الثاني من ترتيب المدارك الصفحة 15 بعد مقدمة المرحوم الصحراوي.

وكان الغرباء يسألونه عن الحديث والحديثين، فيجيبهم الفينة بعد الفينة وربما اذن لبعضهم فقرأ إليه. وكان له كاتب قد نسخ له كتبه يقال له حبيب يقرأ للجماعة فليس احد ممن حضر يدنو منه ولا ينظر في كتابه. ولا يستفهمه هيبة له واجلالا ؟

وكان حبيب إذا أخطأ فتح عليه مالك. وكان ذلك قليلا ولم يكن يقرأ كتبه على أحد.

وكان كالسلطان له حاجب يأذن عليه فإذا اجتمع الناس ببابه أمر آذنه فدعاهم يخص أولا أصحابه فإذا فرغ من يخص أذن للعامة وهذا هو المشهور من سماع أصحاب مالك انهم كانوا يقرأون عليه وسيأتي من أخباره ما يعقد هذا كثيرا إلا أن يحيى بن بكير ذكر انه سمع الموطأ من مالك أربع عشرة مرة. وزعم أن أكثرها بقراءة مالك وبعضها بالقراءة عليه وعوتب مالك في تقديمه لاذن أصحابه فقال : أصحابي وجيراني رسول الله صلى الله عليه وسلم.

- وقال القاضي رضي الله عنه : قال زياد بن يونس : ما رأيت قط عالما ولا عابدا ولا شاطرا ولا واليا أهيب من مالك رحمه الله تعالى (40).

- وقال الفقيه رضي الله عنه (41) كان مالك كثيرا ما يتمثل وخير أمـور الدين ما كان سنة. وشر الأمور المحدثات البدائع.

وقال القاضي رضي الله عنه : (42).

سئل عيسى بن عمر المدني أكان مالك يخشى الأمراء ؟ قال : لا إلا أن يبعثوا إليه فيأتيهم.

وقيل لمالك : تدخل على السلاطين وهم يظلمون ويجورون ؟ فقال : يرحمك الله واين التكلم بالحق.

---

40) نفس المصدر السابق الصفحة 33.

41) نفس المصدر السابق الصفحة 38.

42) نفس المصدر السابق الصفحة 95.

وقال مالك : حق على كل مسلم أو رجل جعل الله في صدره شيئا من العلم والفقه أن يدخل إلى ذي سلطان يأمره بالخير وينهاه عن الشر ويعظه حتى يتبين دخول العالم على غيره لأن العالم إنما يدخل على السلطان لذلك فإذا كان فهو الفضل الذي لا بعده فضل.

وإذا كان الإعلام في العصر الحديث يلعب دورا مهما في تنوير الرأي العام فإن تقديم مزايا مالك على يد القاضي عياض وببيانه الساحر وفصاحته المبدعة تنجلي للمواطنين بكل تأكيد مزايا المذهب وكل ما تكرر الصنيع ازداد الإعجاب. وكلما ازداد الإعجاب استقر الحب والتعلق بالمحبوب سيما وأن هذا المحبوب فرض وجوده بالوفاء للسنة الشريفة الصافية التي استوحت صفاءها من القرآن فمالك يبقى الوفي الكبير والمنفذ الحريص للمصدرين وفق شروطه وآرائه التي سنها لمذهبه في البحث والاجتهاد.

خامسا : أثر انتشار المذهب بعد وفاة عياض :

لم تنقض جهود عياض في توطيد المذهب المالكي بالمغرب بموته أو بموقف الموحدين المعادي لكتب الفروع المالكية المتمثل في إحراق ما أمكنهم إحراقه ولكن الأفكار والمبادىء إذا سجلت في العقول لن تجد النار لها سبيلا.

لقد استطاعت الركائز التي وطد بها عياض المذهب أن تثبت قائمة صلبة متحدية ظروف الأيام وتقلباتها حيث استقرت في قلوب المغاربة إلى الآن تناطح الثريا بعليائها وتجابه التحديات بقناعاتها وصدقها.

ولم يكن استمرار المذهب المالكي إلى زماننا هذا عبثا أو مسألة ظرفية عادية بل صنع وأرسى ذلك التاريخ بسبب الأثر الذي تركه عياض في جهاده الطويل من أجل الانتصار للمذهب سواء فيما حوته مؤلفاته أو فيما ألقاه من دروس على طلبته أو فيما سمعه العوام من توجيه أو فيما جاء في أحكامه القضائية أو فيما بثه في صدور أبنائه وحفدته وتلاميذه وجمهور القراء أو فيما انعكس على سلوكه رحمه الله من تطبيق عملي لهذا المذهب.

كل ذلك قد أثر وترك أثره الحميد على نفوس المغاربة الذين ادركوا المغزى العميق الذي يحبب المذهب الى نفوسهم وما هذه الملتقيات والندوات إلا أثر من هذا الأثر الحميد الذي يجعلنا نجدد العهد ونخلص النية في الله لالتماس نفحات الخير التي تقوي عقيدتنا وتنظف سلوكنا من براثين الفرقة. وفواحش المتاهات والخزعبلات.

على أن هذا الإيمان الراسخ بالمذهب لم يكن ناتجا عن تعصب أعمى أو عن تبعية تقليدية بل كان نابعا من قناعات أملاها على المغاربة شعورهم العميق بالوحدة ـ كيف ما كانت هذه الوحدة على اختلاف أشكالها وألوانها ـ لأنه متى كانت الوحدة ـ بصورتها المطلقة ـ أمكن استبعاد التفرقة بجميع ما تحمله من شرور القتل والدمار والخراب. فالمغاربة من طبيعة مساكنة بعضهم لبعض لا يسترخصون الدماء والأرواح البشرية كما هو الشأن لما تحدثه التفرقة من آثار سيئة.

واذا كان الناس في بحوثهم أو ندواتهم يركزون عادة على فكرة أساسية لبلورة المقصود من عملهم فأقترح لهذه الندوة فكرة الوحدة بما تحمله من شمولية وبما تستهدفه من أغراض نبيلة لمعالجة معضلات العصر.

فلتكن وحدة المذهب المالكي بالمغرب تيمنا بوحدة إنسانية شاملة أساسها المهادنة والمسالمة وهدفها استثمار طاقات الإنسان لصالح الإنسان لا للفتك به وهلاكه.

فعسى أن يستفيق الناس من غفلتهم وينكرون أنانيتهم وينبذون عصبياتهم مختارين الحبل الذي لا ينقطع ألا وهو حبل الله المتين : قال الله تعالى : **(واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقدكم منها كذلك يبين الله لكم أياته لعلكم تهتدون)** صدق الله العظيم.

القاضي عياض، حياته، وشخصيته العلمية

للأستاذ : ادريس أعزوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

أبو الفضل القاضي عياض
حياته، وشخصيته العلمية

نسبه وصلته بالإمام مالك :

هو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرون بن موسى بن عياض بن محمد بن عبد الله بن موسى بن عياض اليحصبي.

ويلاحظ من نسبه هذا أنه يرتفع إلى يحصب بن مالك بن زيد. الذي يعتبره المؤرخون أخا لذي أصبح الحارث بن مالك بن زيد. الذي ينتهي إليه نسب الإمام مالك بن أنس الأصبحي إمام الأئمة.

وبهذه الملاحظة نجد عياضا يتصل بالإمام مالك من الجهتين. فهو بالإضافة إلى أنه من أشهر أعلام مذهبه الذين خدموه ونشروه. فإن له به صلة القربى

والانتساب إلى قبيلة حمير من عرب اليمن المعروفة في التاريخ. التي ينتسب إليها الإمام مالك بدوره.

موطـــن سلفـــه :

حسب ما ورد في كتاب «التعريف» لابنه محمد (1) كان منزل أجـــداده بالأندلس بجهة «بسطة» شمال مدينة غرناطة. ومنها انتقلوا إلى فاس. وذكر ابنه محمد أيضا. أن أجداده. كان لهم استقرار بالقيروان. ولم يبين هل كان هذا الاستقرار بعد نزولهم بالأندلس أو بعده. أما جد القاضي عياض عمرون فقد انتقل إلى سبتة من فاس حوالي سنة 373 هـ والداعي إلى خروجه من فاس ظهور بني عبيد بالمغرب. وقد كان ابن عامر الفاطمي أخذ رهنا من أعيان فاس ومن جملتهم أخو عمرون. فخرج إلى سبتة واستحسن سكناها حيث الاطمئنان والاستقرار.

ووصف المؤرخون جد القاضي عياض. عمرون بالزهد والورع. وأنه كان من أهل الخير والعلم حافظا للقرآن. حج إحدى عشرة حجة. وغزا مع ابن أبي عامر غزوات كثيرة. كما أنه كان موسرا فاشترى أرضا بسبتة من ماله الشخصي خصص بعضها تحبيسا لدفن أموات المسلمين. وبنى في الباقي مسجدا ودورا أوقفها عليه. ولازم هذا المسجد للعبادة إلى أن مات عام 397 هـ (2).

نشأتــه ودراستـــه :

ولد القاضي عياض في منتصف شعبان سنة 476 هـ (3) بسبتة. وكانت سبتة إذ ذاك من المدن المغربية الثقافية الكبرى تلعب دورا هاما في الحياة الفكرية. حيث كانت ملتقى العلماء. سواء الواردون عليها من المشرق والمغرب قاصدين

---

1) يمكن الاعتماد في ترجمة عياض على كتاب ولده محمد «التعريف» أو على كتاب المقري «أزهار الرياض» وانظر الديباج لابن فرحون ص 168. وارجع في تكوينه الفكري إلى كتابه «الغنية».

2) انظر التعريف المخطوط ص 5.

3) راجع الصلة ص 447.

الأندلس. أم القادمون إليها من الأندلس إلى المغرب سواء بقصد الرحلة أو الإقامة. فهي ملتقى علماء العدوتين. ورسل الفكر.

كما كانت معقلا من معاقل العلم. درس فيها جمهور عظيم من العلماء الاعلام. وكانت كذلك مركزا ثقافيا تشع من بين جوانبه أنوار المعرفة والثقافة الإسلامية المتنوعة. أنجبت الكثير من العلماء والأدباء والجغرافيين والساسة والرحالة. أمثال ملك بن المرحل الشاعر الأديب وأبي العباس السبتي أحمد بن جعفر الخزرجي دفين مراكش والرحالة الكبير الشريف الإدريسي ومحمد بن رشيد وغيرهم.

نشأ أبو الفضل القاضي عياض بسبتة. وكان على جانب كبير من الذكاء والفهم. والفطنة والحرص على طلب العلم. بالإضافة إلى الجو العلمي المزدهر الذي كان يطبع مسقط رأسه.

هذه العوامل كلها ساعدت عياضا ـ وقد بدأ يطلب العلم ـ على تحقيق أهدافه وبلوغ غايته. فحفظ القرآن بقراءاته السبع برواية نافع. وابن كثير وأبي عمرو بن العلاء وابن عامر. وهذه القراءات أخذ رواياتها بطرقها المختلفة المعروفة عن عبد الله ابن ادريس بن سهل المقرى المتوفى سنة 515 هـ (4) ثم جود القرآن على مشيخة بلده وغيرهم.

في هذا الجو الثقافي العلمي استطاع القاضي عياض أن يدرس مختلف العلوم. وأن يقرأ أمهات الكتب وأن يتعمق فيها.

وهكذا درس قواعد العربية في كتاب الكافي لابن النحاس والواضح لأبي بكر الزبيري وكتاب الجمل للزجاجي. والمقتضب للمبرد. والإيضاح لأبي علي الفارسي.

وقرأ اللغة العربية في كتب عديدة. ككتاب الكامل لأبي العباس المبرد. وأدب الكاتب لابن قتيبة. وكتاب (الفصيح) لأبي العباس ثعلب.

---

4) انظر الغنية ص 149.

- وفي الجدل والمناظرة قرأ كتاب «المنهاج» لأبي الوليد الباجي.
- ودرس أصول الفقه وأصول الدين. على مذهب أبي الحسن الأشعري.
- وتتلمذ في أصول الدين لقاضي سبتة عبد الله بن محمد اللخمي.
- ودرس الفقه المالكي في المدونة ورسالة ابن أبي زيد القيرواني وبعض تآليف أبي بكر بن العربي.

وعنى بدراسة الحديث فقرأ موطأ الإمام مالك. وصحيح البخاري. وصحيح مسلم. وسنن النسائي. وشرح غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام.

رحلته إلى الأندلس :

وهكذا بعد أن اكتمل تكوينه وانتهى تحصيله ببلده سبتة. تاقت نفسه إلى المزيد فرحل إلى الأندلس عام 507 هـ وعمره إحدى وثلاثون سنة. طلبا لقراءة كتب لم يقرأها. وطلبا للمزيد من التحصيل وسعة الرواية ولقاء الشيوخ والأخذ عنهم ولو بطريق الإجازة. وقد تم له ما أراد فلقي شيوخا كثيرين. حتى اجتمع له منهم مائة شيخ. فيما بين السماع والإجازة. وحرص بالدرجة الأولى على إكمال للنهج النقلي والتأكد من صحته وسلامته.

أما ما يتعلق بجانب القراءة فقد قرأ كتبا جديدة لم يقرأها ببلده وهكذا قرأ جامع الترمذي. ورياضة المتعلمين لأبي نعيم. والناسخ والمنسوخ لهبة الله. والاستدراكات على البخاري ومسلم. والأربعين حديثا لأبي نعيم وللشيباني.

وكذلك قام بمقابلة كتبه بالأصول الصحيحة. والبحث عن أصول العلماء الخطية المسندة (5) والنص على الأفضل والأصح من رواياتها إلى أصحابها ان تعددت الطرق والروايات.

وكذلك قام بتصحيح منهج التفكير الذي عنده بمناهج الشيوخ في الأندلس واقامتها على أسس وقواعد ثابتة. ولذلك حرص على لقاء الشيوخ في رحلته (6).

---

5) انظر الغنية ص 142 ـ 143.
6) راجع الصلة ص 446.

ثم بعد أن أخذ بقرطبة عن علمائها شخص إلى «مرسية» ووجد هنالك أبا علي الصدفي الذي كان قد رحل إلى المشرق وأخذ عن الأكابر. علا بهم سنده، وتميزت طريقته. فسمع عليه الصحيحين. والمؤتلف والمختلف ومشتبه السنة لعبد الغني المقدسي والشهاب للقضاعي. والإشارة للباجي. وأدب الصحبة للسلمي. وشيوخ البخاري لابن عدي.

وأجازه أبو علي الغساني الجياني. وابن سبرين. وغيرهم أعيان شرق الأندلس وغربها.

وعاد من الأندلس سنة 508 هـ فلم تطل رحلته إليها أكثر من سنة ومع ذلك فقد قام فيها بنشاط علمي عظيم. لأن الرجل كان قد اكتمل تكوينه وانتهى تحصيله.

شيوخـــــه :

أخذ عن شيوخ كثيرين. واجتمع له ما بين من سمع منه وبين من أجاز له نحو مائة شيخ. ألف فيهم فهرسة سماها «الغنية» وهو كتاب مشهور معروف بين الأوساط الثقافية (7).

ولقد ربط القاضي عياض الصلة بأعلام عصره سواء في المشرق أو المغرب أو الأندلس وما أخذه عن شيوخ سبتة وحده كاف ليجعل منه رجل علم ورواية من أعلى طبقة.

وممن أخذ عنه «بسبتة» ولازمه كثيرا أبو عبد الله التميمي. فلقد سمع منه وقرأ عليه وأجازه جميع رواياته.

ومما قرأه عليه : المدونة. ورسالة ابن أبي زيد القيرواني. وموطأ الإمام مالك. وصحيح البخاري ومسلم. وسنن أبي داود وغريب الحديث للخطابي. وشرح غريب الحديث للقاسم بن سلام. وكتاب علوم الحديث لأبي عبد الله الحاكم

---

7) انظر شجرة النور الزكية ص 141.

وكتاب الطبقات لمسلم بن الحجاج، والتقصي لمسند الموطأ، وكتاب الضعفاء والمتروكين للنسائي وغيرها من الكتب.

وممن لقيهم القاضي عياض بسبتة وأخذ عنهم أبو بكر بن عطية وابن العربي، وممن كتب له من الشرق الطرطوشي وأبو طاهر السلفي، وأبو نصر النهاوندي، وأبو عبد الله المازري (8).

ولقد ذكر المؤرخون من شيوخه عددا يفوق حد الحصر، منهم أحمد ابن بقي، وأحمد بن محمد بن محمد بن مكحول، وأبو الطاهر أحمد بن محمد السلفي، والحسن بن محمد بن سكرة والحسن بن علي بن طريف، وخلف بن ابراهيم ابن النحاس، ومحمد بن الحاج القرطبي، وعبد الله بن محمد الخشني، وعبد الرحمن بن بقي بن مخلد وغيرهم.

كما أخذ عن ابن رشد، وابن الحاج، وابن المعدل، والجياني، وابن عتاب، وابن رصيص ومحمد بن أحمد القرطبي ممن يطول ذكرهم.

أما الجانب الأدبي فقد درس على أبي عبد الله بن حمدين الثعلبي أجل رجال الأدب في الأندلس نظما ونثرا، وقال «جالسته» كثيرا وأخذت عنه بعض رسائله وردوده على الإمام الغزالي، كما سمعت منه رسالته لابن الشماخ، وكذلك بين رجالات أساتذته خلف بن فرتون إمام النحاة والأداب، قال «جالسته كثيرا وذاكرته وتلقيت منه فوائد جمة».

تلامذتـــــــــــه :

وأخذ عن القاضي عياض عدد كبير منهم ابنه محمد وابن غازي وابن زرقون، وابن مضاء، وأبو القاسم بن ملجوم، وأبو عبد الله التادلي، والقاضي أبو عبد الرحمن القصير، والقاضي أبو عبد الله بن عطية، وغيرهم (9).

---

8) راجع الديباج المذهب ص 169.

9) انظر شجرة النور الزكية ص 141 والديباج المذهب ص 169.

ولايته للشورى والقضاء :

لقد كان مركز القاضي عياض الاجتماعي، ونفوذه المعنوي رحمه الله قويا، عندما رجع من الأندلس أجله أهل سبتة، وأجلسوه للمناظرة وهم أهل الذكاء والفطنة والعلم والمعرفة، وعمره لا يتجاوز 32 سنة وبعد ذلك بزمن يسير أجلس للشورى.

ولقد تولى القضاء بسبتة بعد هذه المراحل عام 515هـ. فسار فيه أحسن سيرة، عرف بالعدل والصرامة، وتطبيق الشريعة الإسلامية والضرب على أيدي المستهترين، فكان محمود الطريقة محبوبا عند الناس، عظمت منزلته وقدره عندهم، وحاز من الثناء والشهرة مالم يحزه أحد.

قضاؤه بغرناطة :

دعي لتولى القضاء بغرناطة في عهد تاشفين بن علي اللمتوني المرابطي عام 531 هـ ولقد استقبل استقبالا منقطع النظير عند حلوله بغرناطة.

وصف أبو زيد عبد الرحمن بن القصير دخول عياض إلى هذه المدينة فقال :

«لما ورد علينا القاضي عياض غرناطة خرج الناس للقائه وبرزوا تبريزا ما رأيت لأمير مؤمر مثله، وحزرت أعيان البلد الذين خرجوا إليه ركابا مائتي راكب ونيف، ومن سواد العامة مالا يحصى كثرة».

وبتوليه لمنصب القضاء في غرناطة كسر العادة التي تجعل القضاة يأتون من الأندلس إلى المغرب.

فحسنت سيرة القاضي عياض في القضاء بغرناطة كعادته، ونال محبة الناس وتقديرهم وإكبارهم له، لأنه أقام الحدود، وصرف أهل الباطل عن باطلهم، وتقلد الأمور بصرامة وعدالة تامة، وأخذ نفسه بالجد والاستقامة والضرب على أيدي أهل العبث والفساد.

ومما يروى في عدالته انه أقام حد الشرب على الكاتب الشهير، الفتح بن

خاقان صاحب «القلائد» فإنه دخل عليه وهو سكران فأمر باستنكائه فوجدت منه رائحة الخمر فنفذ فيه الحد. ثم بعث إليه بعد ذلك ثمانية دنانير وعمامة (10).

لكن لم يطل أمره بالأندلس لأن أهل الباطل من أصحاب السياسة والرئاسة ضاقوا ذرعا بصرامته. وخاصة منهم تاشفين بن علي فإنه صرفه عن القضاء في رمضان عام 532 هـ فلم تدم ولا يته إلا ستة أشهر. فأعيد إلى قضاء سبتة مرة أخرى بعد مدة من عزله عن قضاء قرطبة. فسار فيه سيرته الأولى.

عقيدته وصلابته :

فصلابة عياض رحمه الله في الحق ودفاعه وجهره بما يعتقد أنه الصواب سواء كان ذلك وهو عالم يعطي الدرس. أو هو قاض يفصل بين الناس أو إذا رأى انحرافا ومخالفة للكتاب والسنة في تسيير شؤون الدولة. فشخصيته كانت شخصية قوية. لاتخاف في الله لومة لائم.

ومن أجل ذلك أقام الحد أي حد الشرب على الكاتب الفتح بن خاقان. وكان أحد العلماء الذين أفتوا بتكفير محمد بن هانىء الأندلسي الذي قال في ممدوحه :

ماشئت لا ماشاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

وهذا كفر صراح والعياذ بالله لذلك أفتى مع جماعة من العلماء بتكفيره.

فالقاضي عياض رحمه الله كان يقدر المسؤولية الملقاة على عاتقه والأمانة التي حملها الله إياه. وهذا ما جعل القاضي عياضا ينال محبة الناس الخاصة والعامة.

مكانته الاجتماعية :

فقد كانت صفات عياض وأخلاقه وديانته على مستوى عال. مما جعله يحظى لدى الخاصة والعامة بمنزلة سامية من التقدير والاحترام ذكر ابنه محمد

---

10) انظر التعريف ص : 112.

في «التعريف» والافراني في «درة الحجال في سبعة رجال» وابن صعد في «النجم الثاقب» أن القاضي عياضا : لما ولي قضاء بلدته كانت الخاصة والعامة على غاية من محبته وإجلاله وإكباره. وكان له من الهيبة والجلالة عند الأمراء والولاة ما جعلهم يقبلون قوله حين يطالبهم باداء حق من حقوق الرعية. صان العلم وعمل به. واستقام في سلوكه وحياته الخاصة والعامة. فأطاعه الصغير والكبير.

وكان رحمه الله محبا للمساكين والفقراء يجالسهم ويسأل عن أحوالهم ويكثر من الصدقة عليهم. فهو حسن المعاشرة حسن الأخلاق لين الجانب. فأصبح يتمتع بالذكر لدى عامة الناس في مشارق الأرض ومغاربها.

ولا شك أن مكانة عياض الاجتماعية الرفيعة التي حازها، كانت موطدة بأبوته الكريمة وفي طليعتهم جده «عمرون» الذي كان مثال النزاهة والاستقامة والزهد والورع. حيث حبس أرضا للدفن وبنى مسجدا وأوقف عليه دورا. لاريب أن هذه الأعمال قد أكسبت ولده نباهة وذكرا حسنا. ثم توطدت هذه المكانة أيضا بسلوك عياض نفسه وسيرته الحميدة في ولايته للقضاء وارتفاع درجته في العلم بالإضافة إلى المشارع العمرانية التي قام بها مترجمنا من الزيادة في المسجد وبناء الرابطة.

وفاتـــــه :

هكذا ظل عياض يخدم العلم وينشره ويؤلف إلى أن ظهر أمر الموحدين فبادر بالدخول في طاعتهم. فأقره عبد المومن على القضاء. واجتمع به بمدينة «سلا» فأكرمه وأجزل صلته وخاطبه بالتنويه وأقره على ماكان عليه. وصرف أمور بلده إليه وبقي تحت سلطانهم ينعم بالهناء والاستقرار إلى أن اضطربت أمور الموحدين عام 543 هـ فنقلوه إلى مراكش. وقيل انهم ولوه قضاء بلدة «داي» بتادلة وبقي في هذا المنصب إلى أن توفي في جمادى الآخرة وقيل في رمضان سنة 544 هـ.

وقد اختلف في سبب موته. فقيل مات ميتة طبيعية بعد مرض قصير. وقيل سمه يهودي بإشارة من الموحدين . فإن بعض الروايات تتحدث أن الموحدين قلبوا لـه ظهـر المجـن بسبـب تمـرد أهـل سبتة بأمر القاضي عيـاض. حيث كان يرى ألا مبرر لبيعة أخرى والأمير الشرعي قائم من أجل ذلك قرروا إبعاده عن موطنه ونفيه من بلدته سبتة إلى مدينة مراكش التي استقر فيها منفيا إلى أن وافاه الأجل المحتوم فلحق بربه راضيا مرضيا.

ويؤيد هذا الرأي الأخير ما جاء في كتاب «التعريف» لابنه أن القاضي عياض كان يقول لمواطنيه عند وداعهم بسبتة (جعلني الله فداءكم) ويبكي.

أما ما جاء في بعض الروايات كما في كتاب «الطبقات الكبرى» للشعراني «والشذرات» لابن العماد الحنبلي (11) من أن القاضي عياضا مات فجأة في الحمام يوم دعا عليه الإمام الغزالي لما بلغه أنه أفتى بإحراق كتابه «الاحياء» فمردود. لا يصمد للنقد.

إذ كيف يتصور هذا. وقد تم إحراق الكتاب سنة 503 هـ والإمام الغزالي توفي سنة 505 هـ والقاضي عياض بقي على قيد الحياة إلى سنة 544 هـ. فدعوة الإمام الغزالي المميتة لم تصب القاضي عياضا اذن إلا بعد أربعين سنة.

والواقع أن هذه الرواية من الأساطير التي أثيرت حول إحراق كتاب الاحياء. والتي نفى العلماء كثيرا منها.

والحقيقة أن القاضي عياضا لم يشارك في أية فتوى بإحراق كتاب الاحياء إذ حين إصدار هذه الفتوى كان القاضي عياض ما يزال طالبا وانه لم يرحل بعد إلى الأندلس للأخذ عن علمائها. فإنه لم يرحل إليها إلا سنة 507 هـ.

ومما يؤيد هذا الرأي ما جاء من مؤرخ الدولة الموحدية لابن القطان في كتابه «نظم الجمان» من بيان قصة إحراق كتاب «الإحياء» ولم يذكر من بين العلماء الذين أفتوا بإحراقه القاضي عياضا.

---

11) انظر الشذرات لابن العماد الحنبلي 4 / 139.

وجاء في قصة الاحراق ما يلي :

(انه في أول عام ثلاثة وخمسمائة عزم علي بن يوسف المرابطي على إجماع قاضي قرطبة أبي عبد الله محمد بن علي بن حمدين وفقهائها على إحراق كتاب أبي حامد الغزالي رحمه الله المسمى بالاحياء. فأحرق في رحبة مسجدها على الباب الغربي على هيئته بجلوده بعد اشباعه زيتا. وحضر لذلك جماعة من أعيان الناس. ونفذت كتبه «أي علي بن يوسف» إلى جميع بلاده آمرا بإحراقه حيثما وجد. وأخذت منه نسخ من أيدي أصحابها. كان معول الغزالية عليها. منها كتاب ميمون ابن ياسين توعده علي بن يوسف على إحضاره فأحضره له. ومنها كتاب ابن العربي حمله معه إلى الجزيرة الخضراء. ثم أمر بحله في الماء فحل معظمه وفقد سائره. وتوالى الإحراق على ما اشتري منه ببلاد المغرب بقية ذلك العام).

نعم ان للقاضي عياض رحمه الله. حينما جلس للتدريس والتأليف كان له موقف معين من الإمام الغزالي. فهو يخالفه كل المخالفة في بعض آرائه في أصول الدين. وانه بلا شك كان يعرف فضل الإمام الغزالي ويقدره. وإن لم يكن يوافقه على كل آرائه وطريقته.

ويدلنا على ذلك ما ورد في كتاب «التعريف» لابنه محمد من أن القاضي عياضا (كان يرى أن كتاب الاحياء لو اختصر. واقتصر على ما فيه من خالص العلم لكان كتابا مفيدا) ولذلك قال له شيخه أبو محمد بن منصور اللخمي المكوري : «فاختصره إذن. لئن لم تختصره فما في بلدنا من يختصره» (12).

مشيخته العلمية :

كان القاضي عياض إماما في الحديث والتفسير وعلومهما. عالما بالأصول متبحرا في الفروع أديبا شاعرا مجيدا. وكان القاضي عياض مثال العالم المتضلع في

---

12) كتاب التعريف ص 121.

مختلف الفنون والعلوم ذا مواهب كبرى وثقافة واسعة. استلفتت الأنظار. وآثاره وتآليفه وما كتب حوله أكبر شاهد على ذلك.

وبالجملة فالقاضي عياض كان مشاركا في كل الفنون العقلية والنقلية والأدبية والفقهية. والحديثية. حتى أصبح من أئمة الحفاظ والفقهاء والمحدثين. بل أصبح كما قال ابن خلكان عنه (توفي 681 هـ) «إمام وقته في الحديث وعلومه والنحو واللغة وكلام العرب وايامهم وأنسابهم».

ولقد شهد للقاضي عياض أشياخه بالرسوخ والتعمق والذكاء وأثرت عنهم كلمات تشير إلى فراستهم فيه واعترافهم بفضله ومنزلته العلمية. قال له أستاذه أبو عبد الله بن حمدين أثناء رحلته «وحقي يا أبا الفضل إن كنت تركت في المغرب مثلك» (13).

وقال محمد بن أبي جعفر «ما وصل إلينا من المغرب أنبل من عياض» وعندما أراد الارتحال من الأندلس للقاء بعض الشيوخ للأخذ عنه. قال له الوزير أبو الحسن : «لهو أحوج إليك منك إليه».

يقول : ابن بشكوال : «دخل عياض الأندلس طالبا للعلم... وهو من أهل اليقين في العلم والذكاء والفطنة والفهم. ولم يكن أحد بسبتة أكثر تآليفا منه. وحاز من الرئاسة في بلده ومن الرفعة ما لم يصل إليه أحد قط من أهل بلده. وما زاده ذلك إلا تواضعا وخشية لله» وقد وصف بعضهم عودته من الأندلس وقال : «بأن عياضا عاد من رحلته قبسا من النور يضيء. ومعينا عذبا فياضا من العلم لا يلحقه النضوب. وصوتا عاليا للحق ينادي مرشدا وحاكما فيسمع النداء. وطاقة هائلة من الايمان والثبات والخلق».

فحياة عياض المثالية وعلمه الواسع وسلوكه الحميد. كل هذه الأشياء جعلت المؤرخين في المشرق والمغرب من أهل العلم يلهجون بفضله وعلمه. ويشيدون بمآثره الخالدة.

---

13) التعريف ص 121.

فقد اتفقت مصادر ترجمة عياض على وصفه بالذكاء والفهم والحذق. والفطنة، والتيقظ والحرص على طلب العلم. وهي مؤهلات من شأنها أن ترفع صاحبها إلى مراتب عالية في العلم والفضل.

قال فيه ابن العماد الحنبلي في كتابه الشذرات : «كان إمام وقته في علوم شتى مفرطا في الذكاء. إلى أن قال : وبالجملة فإنه كان عديم النظير حسنة من حسنات الأيام. شديد التعصب للسنة والتمسك بها» (14).

وفي طبقات ابن فرحون لعلماء المالكية «انه كان إماما في الفقه والتفسير والحديث وسائر العلوم. خطيبا بليغا».

وقال عنه شهاب الدين الخفاجي في شرحه للشفا : «وانتقل إلى سبتة بعد سكنى فاس. وهو مجد في العلوم النقلية والعقلية. وأما أدبه وبلاغة شعره فحدث عنه ولا حرج».

وقال عنه ابن كثير في البداية والنهاية «هو أحد مشايخ العلماء المالكية وصاحب المصنفات الكثيرة المفيدة منها الشفا. وشرح مسلم. ومشارق الأنوار وغير ذلك. وله شعر حسن وكان إماما في علوم كثيرة كالفقه واللغة والحديث وأيام الناس» (15).

والقاضي عياض يعد ثالث ثلاثة بعد الاصيلي وأبي عمران الفاسي الذين رفعوا رأس المغرب عاليا في ميدان الدراسات الإسلامية العليا وخاصة الفقه والخلاف على مستوى المذاهب. وعلم الحديث رواية ودراية.

غير أن القاضي عياض كان محظوظا أكثر منهما حيث احتفظت لنا الخزائن العلمية بأهم مؤلفاته التي تشهد بعلو كعبه وطول باعه في المعارف والفنون أما ما بقي من آثار سلفيه فهو أقوالهما فقط. والنقول المعزوة إليهما في أمهات الكتب من

---

14) الشذرات 4 / 138.

15) البداية والنهاية 12 / 225.

دواوين الفقه وشرح السنة. وبالجملة فقد انفرد عنهما ببقاء كتبه. وشاركهما في انتشار الذكر والشهرة بالعلم.

ثم هو بعد ذلك يمتاز ببراعته وصناعتي النظم والنثر والخطابة ومعرفته الواسعة بالأخبار والتواريخ وغيرها.

تفنن عياض في الجدل والمناظرة :

وكان القاضي عياض على علم تام بالجدل والمناظرة وأصول الدين وكانت له معرفة واسعة بعلم الكلام على مذهب أبي الحسن الأشعري وآراء المخالفين له.

ويدلنا على ذلك مناقشاته العميقة لآراء المعتزلة والفرق الاعتقادية الإسلامية على اختلاف مذاهبها. من الفلاسفة والصوفية والخوارج وغيرهم من الفرق.

أدبـــه وشعـــره :

درس القاضي عياض الادب شعرا ونثرا على عدد كبير من الشعراء والأدباء كأبي عبد الله بن حمدين التغلبي. والأديب الراوية أبي عبد الله بن سليمان التغري الذي أخذ عنه كتاب الكامل للمبرد. والأستاذ عبد الواحد بن يوسف الفهري توفي 527 هـ وابن عبدون الذي لقيه بسبتة.

وهكذا قرأ أمهات الكتب في الأدب ككتاب الزاهر لأبي بكر الأنباري والامالي لأبي علي القالي. وكتاب الحماسة لأبي الفتوح. والمقتضب للمبرد وأدب الكاتب لابن قتيبة والايضاح للفارسي.

وبهذه الدراسة المستوعبة العميقة أصبحت لديه ملكة في الشعر البديع. وأصبح له قلم سيال في النثر العني والمرسل.

ومن شعره هذه الأبيات التي قالها عند ارتحاله عن حاضرة قرطبة :

أقول وقد جد ارتحالي وغـــرت حداتي وزمت للفـراق ركائبـــي
وقد غمصت من كثرة الدمع مقلتي وصارت هواء من فؤادي ترائبـــي
ولم تبق إلا وقفة يستحثهـــا وداعـي للأحبـاب لا للحبائـــب

رعى الله جيرانا بقرطبة العلا وسقى رباها بالعهاد السواكب
وحيا زمانا بينهم قد ألفته طليق المحيا مستلان الجوانب
أإخواننا بالله فيها نذكروا معاهد جار أو مودة صاحب
عدوت بهم من برهم واحتفائهم كأني في أهلي وبين أقاربي

وله في خامات الزرع بينهما شقائق النعمان هبت عليها رياح :

انظر إلى الزرع وخامته تحكي وقد ما ست أمام الرياح
كتيبة خضراء مهزومة شقائق النعمان فيها جراح

وله في كتابه الشفا يرد على من أنكر عليه مبالغته في محبته للشفا :

فقالوا اراك تحب الشفا وتخبر فيه عن المصطفى
فقلت لأني عليل الفؤا د وكل عليل يحب الشفا

إنتاجه ومؤلفاته :

خلف القاضي عياض رحمه الله إنتاجا عظيما ضخما يدل على رسوخه في العلوم والمعارف، وتجدده في سائر الفنون واحاطته بالمنطوق والمفهوم وانه كان مشاركا بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى. من ذلك.

1) **«كتاب الشفا في التعريف بحقوق المصطفى»** صلى الله عليه وسلم.

وهو كتاب فريد في بابه وهو الذي طار له صيته في العالم الإسلامي، وتلقته الأمة بالقبول . أقرأه القاضي عياض في حياته وأجاز به. يقول ابن فرحون في حقه : «أبدع فيه كل الإبداع، وسلم له أكفاؤه فيه ولم ينازعه أحد في الانفراد به ولا أنكروا مزيته في السبق إليه، بل تشوقوا للوقوف عليه، وجدوا في الاستفادة منه وحمله الناس وطارت نسخه شرقا وغربا».

وقد كتبت على الشفا شروح كثيرة، وهذا ما يدل على اهتمام الناس به من علماء جميع العصور.

قال المقري في أزهار الرياض في وصف الشفا : «ولا يمتري من سمع كلامه العذب السهل المنور في وصف النبي صلى الله عليه وسلم، أو وصف اعجاز القرآن

ان تلك نفحة ربانية. ومنحة صمدانية خص الله بها هذا الإمام : «ذلك فضل الله يوتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم».

ويرمي كتاب الشفا إلى تحقيق أربعة أمور رئيسية. أوردها في مقدمة الكتاب هي :

1) التعريف بقدر المصطفى.

2)ما يجب له من توقير وإكرام.

3) حكم من لم يوف المصطفى صلى الله عليه وسلم. حقه من التوقير والاحترام.

4) جمع أقوال السلف والأئمة في ذلك.

2) كتاب «الغنية» فيذكر مشايخه وأسانيده،ومن أخذ عنهم قراءة أو إجازة مع ذكر أسانيدهم إن كانت لهم رواية. وهو لم يستوعب فيه جميع من لقيه من الشيوخ. بل اقتصر فيه على مائة منهم. وصرح بأنه ترك جماعة ممن لقيهم وذاكرهم وحضر مجالسهم. ولكنه لم يأخذ عنهم شيئا. لذلك لم يتعرض لترجمتهم. ومنها :

3) كتاب (الالماع الى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع) وهو في علوم الحديث وقد جمع فيه كل ما كتب في هذا الفن قبله. وأضاف إليه أشياء أخرى مع مزيد من الضبط والاتقان والتحري في السماع والاداء ولقد اعتمده من جاء بعده كابن الصلاح وابن كثير وغيرهما.

4) «مشارق الأنوار على صحاح الآثار» موضوعه ضبط ما التبس أو أشكل. وشرح ما غمض وأبهم. وتحرير ما وقع فيه الاختلاف أو الخطأ والوهم متنا أو اسنادا في الكتب الصحاح الثلاثة : (الموطأ وصحيح البخاري وصحيح مسلم) فبعد أن رتب على حروف المعجم كلمات المتن وأسماء الأماكن. والرجال وألقابهم. ضبط متونها وصححها على الأصول ونبه على رواياتها المختلفة وأشار إلى الصواب والأرجح منها.

ثم افرد فصلا لأسماء الأمكنة فضبطها. وكذلك فعل في الأسماء والألقاب والكنى والأنساب الواردة في أسانيد هذه الكتب الثلاثة المذكورة.

قال فيه ابن فرحون : «لو كتب بالذهب أو وزن بالجوهر لكان قليلا في حقه (16) وفيه أنشد بعضهم :

مشارق أنوار تبدت بسبتة ومن عجب كون المشارق بالغرب

5) **ومنه «اكمال المعلم»** وهو في علوم الحديث. غير طلبته في وضع شرح عليه. يكمل شرح المازري يبين مشكله ويقيد مهمله. فاستجاب لهم وقام به. ولكنه قرر أن يكون شرحه ذيلا لشرح شيخه يبدأ بما قاله ثم يضيف إليه ما زاده عليه اعترافا بفضل السبق للإمام المازري. ومن كتبه :

6) **«التنبيهات المستنبطة على المدونة والمختلطة»** وضع فيه منهجا جديدا للفقهاء والباحثين في أصول المذهب المالكي. ثم انه جمع في هذا الكتاب بين طريقة أهل العراق الذين يجعلون مسائل المدونة كالأساس ويبنون عليها تفريعات المذهب دون تصحيح الروايات ومناقشة الألفاظ وطريقة أهل القيروان الذين يبحثون الألفاظ ويحققون الروايات.

وكان المعول في شرح المدونة على هذا الكتاب. لأنه حل فيه ألفاظ المدونة. وضبط مشكلاتها وحرر رواياتها وتعرض لذكر رواتها.

7) **ومنها: «ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك»** وهو كتاب فريد في بابه. لم يحاكه أحد فيه. ولم يأت بمثله سواه ولو بتلخيصه أو التذييل عليه. وإن كان قدوة لغيره من أتباع المذاهب الأخرى. فألفوا في طبقات مذهبهم كتبا.

وقد استهله بمقدمة تعرض فيها لبيان القواعد التي بنى عليها مالك قواعده. والمقارنة بين هذا المذهب والمذاهب الأخرى مع ترجيح مذهب مالك.

---

16) انظر الديباج المذهب ص 170.

ثم شرع بعد ذلك في ذكر تراجم علماء المذهب مرتبا لهم على الطبقات وقد اعتمد في طريقته المنهج العلمي النقدي سالكا قواعد النظر عند علماء الحديث في الرواية والرواة.

وله تآليف أخرى بعضها مطبوع وبعضها يوجد مخطوطا. وبعضها يعد في حكم المفقود.

ففي التاريخ يوجد غير «المدارك» كتاب «جامع التاريخ» جمع فيه أخبار ملوك الأندلس والمغرب. واستوعب فيه أخبار سبتة وعلمائها ومعجم شيوخ أبي علي الصدفي والعيون الستة في أخبار سبتة. وأخبار العلويين وأخبار القرطبيين.

وذكر ابن فرحون في الديباج بالإضافة إلى ما أشرنا إليه من مؤلفاته «كتاب الاعلام بحدود قواعد الإسلام» وكتاب «بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد» وهو مطبوع وزارة الأوقاف المحترمة وكتاب «الغنية» في شيوخه وكتاب المعجم في شيوخ ابن سكرة وكتاب نظم البرهان على صحة جزم الآذان».

ومما لم يكمله «المكان الحسان فيما يلزم الإنسان» وكتاب «العيون الستة في أخبار سبتة» وكتاب «غنية الكاتب وبغية الرائد» في الصدور والمرسل وكتاب «الأجوبة المحبرة على الأسئلة المتخيرة» وكتاب «أجوبة القرطبيين» وكتاب أجوبته عما نزل في أيام قضائه من نوازل الأحكام. وكتاب «سر السراة في أدب القضاة» وكتاب خطبه.

وبالتالي فإن حياة عياض كانت كلها جدا ونشاطا. كلها عملا وتأليفا ودرسا. بالإضافة إلى عبادة وتقوى وزهد وورع. ويحق للمغرب وللمغاربة أن يفخروا به ويقيموا له ذكريات ومهرجانات في كل مناسبة.

ولعل الأقدمين وفوا بحقه عندما شهدوا له برفعه لرأس المغرب عاليا فقالوا : «لولا عياض ماذكر المغرب».

فرحم الله عياضا رحمة واسعة وجازاه عن الإسلام والمسلمين. عما ألف ونشر وقدم وكافح دفاعا على العقيدة والقيم الروحية خير جزاء.

ثقافة القاضي عياض واستقامته وورعه

للأستاذ : الصديق العلوي

بسم الله الرحمن الرحيم

ثقافة القاضي عياض واستقامته وورعه

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه أجمعين. إخواني الأجلاء السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته. وبعد. فيسرني أن أتقدم بهذه الكلمة الوجيزة بمناسبة الاحتفال بذكرى الإمام الفاضل العلامة الجليل القاضي عياض بن موسى بن عياض السبتي رحمه الله تعالى رحمة واسعة. وأمد في عمر إمامنا أمير المومنين **الحسن الثاني** الذي ما فتىء منذ قلده الله زمام هذه الأمة المسلمة يبحث عن نبغائها وأعلامها فينشر مآثرهم ويحيي آثارهم وما هذه الندوات المتتابعة إلا دليل على اعتناء جلالته بإحياء تراث هذه الأمة وصقل المواهب الذكية لتزيد التراث نماء والعلم ازدهارا في هذه الربوع التي أبى الله إلا أن تكون منبت العلم والعرفان على مدى الأزمان.

أيها الإخوة : إن الجوانب أو المحاور التي يمكن أن نصل بواسطتها إلى التعريف بعبقرية القاضي عياض كثيرة ومتعددة ولهذا رأيت أن أتناول جانبا من عظمة هذه الشخصية الفذة عن طريق الناحية العلمية والخلقية للرجل. إنني أشكر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية التي أتاحت لنا هذه الفرصة للاطلاع على جوانب كثيرة من حياة الرجل وإذا كان غيري من الكتاب سيتناول هذه الحياة بتفصيل فإنني سأقتصر على الجانب الثقافي والخلقي للمترجم الجليل فأقول :

كان القاضي عياض رحمه الله بحرا زاخرا في العلم والفقه وكان إماما في الحديث والتفسير وعلومهما خبيرا بالأصول بصيرا بالفروع شاعرا ناثرا ذا فصاحة وبلاغة عالما بأيام العرب وأنسابهم وتاريخهم وعلومهم شهد له بهذا كثير من العلماء الأفذاذ وعلى رأسهم ابن فرحون. قال : كان إمام وقته في الحديث وعلومه عالما بالتفسير وجميع علومه فقيها أصوليا عالما بالنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم بصيرا بالأحكام عاقدا للشروط بصيرا بمذهب مالك شاعرا مجيدا خطيبا بليغا. وقال عنه بن خلكان المتوفى سنة 681 هـ كان إمام وقته في الحديث وعلومه والنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم وصنف التصانيف المفيدة. منها كتاب الاكمال في شرح كتاب مسلم الذي أصبح عمدة لكل المحدثين خصوصا منهم شراح صحيح الإمام مسلم ويقع الاكمال في عدة مجلدات.

وقال ابن الأبار عنه : «أحد الأئمة الحفاظ الفقهاء المحدثين الأدباء وتآليفه وأشعاره شاهدة بذلك. وكان لا يدرك شأوه ولا يبلغ مداه في العناية بصناعة الحديث وتقييد الآثار وخدمة العلم مع حسن التفنن والتصرف الكامل في فهم معانيه إلى إضطلاعه بالادب وتحققه بالنظم والنشر ومهارته بالفقه وبالجملة فكان جمال العصر ومفخرة الأفق وينبوع المعرفة ومعدن الإفادة وإذا عددت رجالات المغرب فضلا عن الأندلس حسب فيهم صدرا.

عياض والفقه المالكي :

كان القاضي عياض رحمه الله من أعلام علماء المالكية بالمغرب درس المذهب المالكي دراسة واعية متقنة وتحمس لتبيين مزاياه والتعريف بأعلامه لأنه بعد ما درس الفقه بصفة عامة واطلع على كثير من نظرياته ونظريات أشياخه ومقارنته لأفكارهم وفحصها الفحص الدقيق حسب ما وهبه الله من قوة إدراك وصحة ملكة ترجح لديه أفضلية مذهب الإمام مالك بن أنس على غيره واقتنع بضرورة الالتزام به وأتباعه لما تقرر عنده في كتابه «ترتيب المدارك». «معرفة مذهب مالك».

يقول فيه مشيرا إلى الموجبات التي اقتضت التمسك بالمذهب المذكور ص 67 وصار الناس في أنظار الدنيا إلى خمسة مذاهب المالكية والحنفية والحنبلية والشافعية والظاهرية. فحق على طالب العلم ومريد معرفة الصواب والحق أن يعرف أولاهم بالتقليد ليعتمد على مذهبه ويسلك في التفقه سبيله. وها نحن نبين أن مالكا رحمه الله هو ذاك لجمعه أدوات الإمامة وتحصيله في درجة الاجتهاد وكونه أعلم القوم وهو القدوة والناس إذ ذاك ناس والزمن زمان ثم للأثر الوارد في عالم المدينة التي هي داره يشير إلى الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «يوشك أن يضرب أكباد الابل في طلب العلم فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة»ثم يمضي القاضي عياض متحدثا عن ترجيح هذا المذهب المالكي على غيره من درجات الاجتهاد في الدين وانه أوتي من القدرة العلمية والخلقية والتجرد عن التعصب والركون إلى الحق درجة قل ان وصلها غيره ويستدل لذلك بكثير من الروايات يثبت فيها انه كان أعلم المسلمين في وقته سواء في ميدان السنة والحديث أو في العلم وتحكي المساجلة التي وقعت بين الإمام الشافعي ومحمد بن الحسن الشيباني في ترجيح علم مالك على علم أبي حنيفة رضي الله عنهم أجمعين. غير أنه لا يهمل المزايا التي للأئمة الآخرين ولا ينكرها ولكنه يؤكد أن مالكا جمع مالم يجمعه غيره. وعندما يتعرض إلى استنباط الأحكام من أصولها والغوص عن إدراك أسرار التشريع يرى أن مالكا حاز قصب السبق في هذا كله. هذا ومن المعروف أن المغاربة والأندلسيين كانوا في عهده يتبعون مذهب الإمام مالك في الفقه والأحكام ويتبعون التقاليد القومية التي مثلها العلماء المالكية في الدفاع عن حوزة الشريعة والنضال في سبيل اعزازها والزهد في متاع الدنيا الفانية ذلك المتاع الزائد عن الحاجة الذي أفسد أخلاق الكثيرين.

ان تعلق القاضي عياض بالمذهب المالكي وحماسته له جعلاه يتشبث بالدولة المرابطية تشبثا قويا لأنها قامت على دعائم قومية من الإصلاح والتزمت في احكامها وتصرفاتها في أمور الدولة تطبيق الأوامر الشرعية على حسب ما جاء

في النصوص الفقهية الأمر الذي جعل علماء المغرب يرحبون بمقدم الدولة المرابطية ويساندونها ويدعون لها.

أخلاقه وصلابته في الحق :

يقول أبو عبد الله محمد ولد المترجع في كتابه التعريف بالقاضي عياض والده. يقول : كان والدي لين الجانب صبورا حليما موطأ الأكناف جميل العشرة حسن الأخلاق بساما يكره الاطراء والافراط في التصنع منه وله منصفا من نفسه ومنصفا لأهل العلم محبا لطلبة العلم محرضا لهم على طلبه مسهلا لهم الطرائق مبادرا لقضاء الحوائج صغير النفس غير متكبر جوادا سميحا من أكرم أهل زمانه كثير الصداقة والمواساة هينا لينا من غير ضعف صلبا في الحق لاتأخذه في الله لومة لائم وكان يأخذ أمره بالملاطفة والسياسة ما أمكنه ويحل الأمور كذلك ما استطاع. وكان يلاطف الأمراء. فإن امتنعوا من الحق تقوى عليهم غير هيوب لهم مقداما عليهم في صدهم عن الباطل واستقضاء حوائج الرعية عندهم. محببا في قلوب العامة والخاصة. ومما يدل على صلابته في الحق وتطبيقه لأوامر الشرع ما وقع له «على ما يحكى» مع الفتح بن خاقان فقد ورد أنه قصد إلى مجلس قضائه مخمرا فتنسم بعض شهود المجلس منه رائحة الخمر فأعلم بذلك فتثبت من ذلك وأمر بحده. ثم بعث له بعد ذلك ثمانية دنانير وعمامة فعزم الفتح بن خاقان على إسقاط كنية القاضي عياض التي هي أبو الفضل من كتابه قلائد العقيان. غير أنه عدل عن ذلك لنصيحة تلقاها من أحد أصحابه. أما وقوفه مع الحق وجهره بما يعتقد أنه الصواب فهما اللذان جعلاه يقف من كتاب الاحياء للإمام الغزالي الموقف المعروف إذ أنكر على الغزالي مواقفه الصوفية الخيالية. معتقدا أنه لو اقتصر على العلم في كتابه لكفى. لقد عاش القاضي عياض رحمه الله مكافحا عن أفكاره ومبادئه. ولقي الله وهو مبعد من أجلها فأكد أنه الفقيه الملتزم لما يعتقد وهذه الاستماتة في الحق اكتسبها من الأخلاق التي تربى عليها والدين المتين الذي تمرس عليه. فقد كان عميق التدين كثير الصوم قواما لليل تاليا للقرآن. ان هذا

التدين العميق كان له الأثر العميق في سيرته وتصرفاته مع الناس أجمعين ومن صلابته في الحق واستماتته في سبيل نصرة العقيدة انه افتى بتكفير الشاعر محمد بن هانىء الأندلسي الذي قال في ممدوحه المعز :

ماشئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

وما من شك ان مثل هذه المبالغات الجرينة تثير الشبهات حول صاحبها. وتجعله معرضا للمتابعة والمعاقبة «والشعراء يتبعهم الغاوون. ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وانهم يقولون مالا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا». هذا وإذا أردت أن تتحدث عن أدب الرجل وشعره على الخصوص فحدث بما يطيب لك ولا حرج. فقد كان رحمه الله ممن توفر على شعر جيد يجمع إلى العاطفة المتأججة خيالا خصبا وأسلوبا رائعا وصورا بديعة. نقتصر من ذلك على قطعة شعرية قالها وهو ببلدة (داي) قرب مراكش يتشوق إلي مسقط رأسه سبتة. قال :

أقمرية الأدواح بالله طارحي أخا شجن بالنوح أو بغناء
فقد أرقتني من هديلك رنة تهيج من برحي ومن برحاء
لعلك مثلي يا حمام فإنني غريب بداي قد بليت بداء
فكم من فلاة بين داي وسبتة وخرق بعيد الخافقين قواء

وهذا يذكرني بشعر شوقي عندما شاهد طائرا ينوح قرب منفاه بالأندلس :

يا نائح الطلح أشباه عوادينا ناس لواديك أم تشجي لوادينا
ماذا تقص علينا أن يدا قصت جناحك جالت في حواشينا
رمى بنا البين ايكا غير سامرنا أخا الغريب وظلا غير نادينا

وهكذا نجد هذه النبرات متجانسة حزينة متألمة. ومن هنا نستطيع أن ندرك مدى ما يحدثه هذا الادب الرفيع من انفعال عاطفي. فالشاعر قد تأثر ثم استطاع ببراعته وصوره الأدبية أن ينقل إلينا تأثره وانفعاله.

أما زهد القاضي عياض وورعه فقد سارت بذكره الركبان. ويكفي أن ننقل نبذة وجيزة في هذا الباب : فقد حكى ولده في كتاب التعريف بالقاضي عياض ما يلي. قال : توفي أبوه رحمة الله على جميعهم وترك نعمه. وذلك فيما ذكر نحو السبعة عشر ألف دينار. فلم يلتفت إلى شيء من ذلك حرصا على العلم واشتغالا بطلبه. وأبقى جميع ذلك بيد أخيه وصار في عياله يمونه كما كان يفعل به والده إلى أن مات رحمة الله عليهم جميعا.

ولما طالت مدته في خطة القضاء وأتلف أكثر ما ورث من أبيه حتى احتاج إلى بيع بعض رباعه بمدينة سبتة ومات رحمة الله عليه وعليه دين. وصدق الإمام الشافعي حيث يقول : من ولي القضاء أيها الإخوة: هدانا الله جميعا للاقتداء بهؤلاء الهداة الذين تمسكوا بالمحجة البيضاء فخلفوا لنا هذا التراث الناصح والحق الساطع والله أسأل أن يلهمنا الرشد وأن يجعلنا على سنن هؤلاء الاعلام. وينصر رائدنا الهمام أمير المومنين **الحسن الثاني** ويكافئه على ما يقدمه للعلم والمعرفة من أيادي بيضاء. والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

عيـــاض المحـــدث

للدكتور : يوسف الكتاني

بسم الله الرحمن الرحيم

عيـــاض المحـــدث

إذا كان القاضي عياض شارك في أغلب علوم وفنون عصره فإن عبقريته وتبريزه ظهر جليا واضحا في علم الحديث رواية ودراية بشكل لفت إليه الأنظار ووجه نحوه الأبصار وجمع حوله القلوب بمجرد عودته من رحلته الأندلسية طلبا للعلم والتحصيل والأخذ والرواية عن العلماء والشيوخ ممن اتصل بهم وسمع منهم وروى عنهم.

وقد كان قصده الأكبر وغايته في رحلاته العلمية يتجه نحو شيوخ الرواية وعلماء الحديث وأصحاب الأصول العتاق من أمثال شيوخ قرطبة ورواتها كابن عتاب وابن حمدين وابن رشد وابن السراج وابن مغيث وسواهم (1).

وفي مرسية ظل يترقب باحثا متلهفا للقاء أبي علي الصدفي ليروي عنه ويقابل على أصوله وخاصة في صحيح البخاري ولم ينتظر خروجه من مخبئه وظهوره للناس إذ امتدت بينهم الرسائل والكتب متصلة حتى إذا خرج أقبل عليه ولازمه وسمع منه وأخذ عنه وقابل على أصوله واختص به (2).

---

1) التعريف بالقاضي عياض لولده ص 7.

2) معجم أصحاب الصدفي ص 294 و 295.

وكذلك كان شأنه في كل وجهة يتجه إليها أو رحلة يرحلها كان همه أن يسمع من الشيوخ ويروي عن العلماء ويحقق. ويدقق ما معه من علم ويمحص ما عنده من رواية وأخبار كما هو شأنه مع أبي علي الجياني وشريح وابن سبيرين وابن مميل وابن العربي والنهاوندي والسلفي والمازري والطرطوشي وابن الحطاب وسواهم من شيوخه وأساتذته الذين نيفوا على المائة (3) والذين أعانوه على استكمال التحصيل والإلمام والإحاطة والاستيعاب لأغلب العلوم والفنون وتحقيق الروايات والتعرف على الأصول حتى اتسعت روايته وتعمقت درايته وانتشر أمره وبعد صيته فأقبل الناس عليه وأجلسوه للمناظرة وطلبوا منه الفتوى فأصبح من أهل الشورى وهو بعد في مقتبل عمره وبدء أمره (4).

إن هذه المشيخة الكبيرة والرحلة المتصلة وملازمة المحدثين والحفاظ والإقبال على كتب الحديث ودواوينه جعلت له القدم الراسخة والمقدرة الكبيرة والباع الطويل في علمي الرواية والدراية حتى أصبح إمام الحديث في وقته وحتى قال هو عن نفسه فيما نقله ابن صعد لدى ترجمته «ما وقفت قط على خبر أو أثر إلا وعندي إسناده» (5) وحلاه الذهبي في التذكرة بعالم المغرب الحافظ (6) واعتبره ابن خلكان إمام الحديث في وقته وأعرف الناس بعلومه (7) ووصفه السخاوي بأعرف الناس في وقته بعلوم الحديث والنحو واللغة وكلام العرب وأنسابهم (8) واعتبر أبو علي اليوسي المغرب كله حرم لأبي الفضل (9) تقديرا لمكانته وعلمه واستشهد في حقه بالبيت المشهور :

---

3) الغنية فهرس شيوخ عياض.
الديباج المذهب 2 / 47 تحقيق الدكتور الأحمدي أبو النور دار الثرات القاهرة.

4) معجم أصحاب الصدفي ص 294 ـ الجذوة 277.

5) النجم الثاقب لابن صعد.

6) تذكرة الحفاظ 4 / 1304.

7) المصدر السابق 4 / 1306.

8) فهرس الفهارس 2 / 184.

9) فهرس الفهارس 2 / 186.

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

لقد بلغ عياض في الحديث وعلومه شأوا ومقاما لم يدركه سواه لمعرفته الواسعة بفنونه وعلومه وتبصره برجاله وعلله وتمييزه لصحيحه. من سقيمه وعنايته الفائقة بتقييد آثاره والإطلاع على كتبه وأصوله مع مهارته الفائقة في سائر العلوم والفنون وفي ذلك يقول ابن الآبار :

«وكان لا يدرك شأوه ولا يبلغ مداه في العناية بصناعة الحديث وتقييد آثاره وخدمة العلم مع حسن التفنن والتصرف الكامل في فهم معانيه إلى اضطلاعه بالأدب وتحققه بالنظم والنثر ومهارته بالفقه وبالجملة فقد كان جمال العصر ومفخرة الأفق وينبوع المعرفة ومعدن الإفادة وإذا عدت رجالات المغرب فضلا عن الأندلس حسب فيهم صدرا (10).

كما كان من جهابذة المحدثين وكبار العلماء المسندين عالما بالحديث عارفا بطرقه حافظا لرجاله حتى جمع من سعة الرواية مالم يجمعه أحد في زمانه حافظا لمصنفات الحديث قائما عليها ذاكرا لمتونها وأسانيدها ورواتها وكتب منها صحيح البخاري في سفر وكذلك مسلم جيد الفهم جم الحفظ رحل الناس إليه وعولوا في الرواية عليه وسمع منه أعلام الأندلس وكبارها وفقهاؤها وجلتها (11) حتى عد من المجتهدين المفكرين والأئمة المقتدرين (12) وعالم المغرب وحافظه (13).

لقد كانت حياة عياض موزعة على ثلاثة أعمال رئيسية : القضاء والإقراء والتأليف.

---

10) معجم أصحاب الصدفي ص 296.

11) أزهار الرياض 3 / 59ح

12) الإحاطة 4 / 222 تحقيق عبد الله عنان ـ مكتبة الخانجي القاهرة طبقات الحفاظ 468 و 469 تحقيق علي محمد عمر ـ مكتبة وهبة القاهرة 1393 / 1973.

13) تذكرة الحفاظ 4 / 1304.

معجم أصحاب الصدفي ص 294.

ولذلك اشتهر بغزارة الإنتاج ومجالس القراء وكثرة التأليف حتى نيفت كتبه على العشرين مابين مطبوع ومخطوط وبين موجود ومفقود يدور أغلبها حول ثلاثة علوم : الحديث . والفقه . والتاريخ. إلا أن الطابع العام لكتبه ومؤلفاته جميعا هو طابع الدائرة التي اتسع فيها واختص بها وأصبح بفضلها من أهل الصدراة في المذهب المالكي ومن أوائل المحدثين المغاربة رواة الصحيح (14).

ومن أهل التفنن في العلم والفهم كما وصفه بن بشكوال (15).

ان الباحث الدارس لآثار عياض ومؤلفاته وتراثه الحديثي الضخم الممتاز يتبين في وضوح وجلاء ريادته وعقبريته في هذا المجال ونبوغه وتفننه في هذا الميدان كما يلاحظ مدى عنايته الفائقة بالحديث وعلومه واهتمامه بأصوله ورواياته وعنايته بجمع وتقييد أوابده وشوارده وطريقته في التحقيق والتدقيق والبحث والمناقشة لأحوال الرجال والنقل والرواية وأسلوبه الفريد ومنهجه الدقيق في دراسة النصوص وفهم الأصول والتعمق في الدراسة والتقصي. والاستيعاب .

إننا نلاحظ في مقدمة تراثه الحديثي وآثاره في علمي الرواية والدراية معالم بارزة وآثار شاهدة على إمامته وريادته في هذا الميدان لابد من الوقوف عندها والكلام عليها ليعرف مقامه ويدرك شأوه وشأنه. ونجد في مقدمته هذه المعالم :

1) روايته لصحيح البخاري.
2) سنده العالي إلى الكتب الأمهات في الحديث.
3) كتبه الحديثية : الغنية ـ المشارق ـ الإكمال ـ بغية الرائد ـ الشفا ـ الإماع.
4) منهجه في علم الحديث.

وسنتحدث عن هذه المعالم البارزة بتركيز واختصار تدليلا على منهجيته في هذا الميدان وريادته في هذا المجال.

---

14) التعريف ص 116 ـ 118.
فهرس الفهارس 2 / 185 ـ 187.
15) الصلة رقم 972 مدرسة الإمام البخاري في المغرب للدكتور يوسف الكتاني تحت الطبع 1 / 217 ـ 218.

1) الرواية العياضية لصحيح البخاري :

مما يتميز به القاضي عياض في هذا المجال أنه من أوائل الرواة المغاربة لصحيح البخاري وناهيك بنسخته الشهيرة منه وهي روايته عن أبي علي الصدفي التي قابلها على أصله الفريد الذي كتب منه نسخته وسمع عليه منها وصحح عليه (16) ولازمه حتى كان له إختصاص به وحصل له مسموع كثير في مدة يسيرة (17).

قال المقري في أزهاره عنها :

«وكان حافظا لمصنفات الحديث قائما عليها ذاكرا لمتونها وأسانيدها ورواتها وكتب منها صحيح البخاري في سفر كما كان قائما على كتابة البخاري ومسلم (18).

وقد كانت الرواية العياضية معروفة بالمغرب خلال القرن الثاني عشر الهجري لدى المحدث المغربي أبي العلاء إدريس بن محمد بن حمدون العراقي المتوفى سنة 1183 / 1769م كما أكد ذلك أبو محمد عبد السلام بن الخياط القادري الفاسي في «تحفته» قال :

«وقد وقفت على نسخة رواية عياض عن الصدفي المشار إليها عند مولانا إدريس المذكور وسمعت عليه جلها وقابلت عليه معها نسخة ابن سعادة المشار إليها» (19).

كما أورد القادري رأي شيخه العراقي في رواية عياض وتفضيلها على رواية ابن سعادة وهل وقف عليها ابن حجر أم لا ؟ في أثناء شرحه لصحيح البخاري ورأي بعض العلماء فيما يقول القادري :

---

(16) أزهار الرياض 3 / 8 - 9.

(17) التعريف ص 8.

(18) أزهار الرياض 3 / 59.

(19) التحفة القادرية مخ خ ع رقم 2321 ك المجلد الأول الباب السابع ص 140.

«ورواية موسى بن سعادة عن الباجي عن ابن ذر قال فيها بعض الطلبة من المغاربة: هي أفضل من الرواية التي شرح عليها ابن حجر العسقلاني وأنه لم يعثر عليها قال شيخنا الحافظ العراقي على هذا الكلام : باعتبار ما ظهر له وإلا فرواية عياض عن أبي علي الصدفي أفضل من رواية موسى بن سعادة عن الصدفي ولا يمكن أن نجزم أن ابن حجر لم يقف عليها كما لانجزم أن ابن حجروقف عليها أو على أحدهما لأمر محتمل. ولا ينبغي لنا أن نأخذ بالاحتمال (20) .

كما تحدث عن الرواية العياضية وقيمتها وأهميتها وعن السبب في عدم انتشارها واشتهار الرواية السعادية مع أن صاحبها لم يبلغ درجة عياض في الحديث ولا في غيره يقول أبو عبد الله محمد الأمين الصحراوي في المجد الطارف والتالد :

«فإن قلت لم تركت رواية عياض ولم تذكر مع ثبوت حفظه وروايته عن ابن علي الصدفي واعتمدوا رواية ابن سعادة مع أنه لم يبلغ درجة عياض في الحديث ولا في غيره وإن كان من الحفاظ ورحل إلى المشرق وأخذ عنه لكنه لم يشتهر شهرة عياض.

قلت يمكن أن يجاب بأن ابن سعادة كانت بنته عند أبي علي الصدفي ولازمه وأكثر عنه وانتسخ صحيح البخاري ومسلم بخطه وسمعهما على صهره أبي علي وكانا أصلين لا يكاد يوجد في الصحيح مثلهما وسمعهما على أبي علي نحو ستين مرة فلعل هذا كان هو السبب في انتشار رواية ابن سعادة دون القاضي عياض وأيضا فإن أهل مغربنا خصوصا الأقصى لا يهتمون بالرواية إذا قرأوا بعض الأحايين بالدراية (21).

---

20) المصدر السابق 1 / 139 ـ 140.
انظر تفصيلنا في الموضوع في كتابنا مدرسة الإمام البخاري في المغرب 1 / 81 و 105.
21) المجد الطارق والتالد لمحمد الأمين الصحراوي نقلا عن التنويه والإشادة لعبد الحي الكتاني ص 29.

كما نص علي الرواية العياضية وذكرها واعتمد عليها وافتخر بسنده إليها علماء كثيرون من المشرق والمغرب نذكر منهم :

علم الدين صالح بن محمد الفلاني المسوفي الذي رفع سنده لصحيح البخاري إلى محمد بن جابر السبتي الوادي آشى عن ابن مجاهد عن أبي محمد أحمد بن خليل السبتي عن القاضيين عياض وأبي بكر العربي عن أبي علي الصدفي (22).

ومن بين الذين ذكروا الرواية العياضية وأسندوها عالم فاس أبو عبد الله محمد بن قاسم الحسني الفاسي القادري. فقد ذكر سنده إلى صحيح البخاري برواية عياض وأسندها من طريق المنثوري إلى القاضي عياض عن أبي علي الصدفي عن الباجي عن أبي ذر (23) .

ونجد من العلماء المشارقة الذين اعتمدوا الرواية العياضية الشرف اليونيني صاحب الرواية الشهيرة لصحيح البخاري التي اعتمد عليها القسطاني في شرحه للصحيح فقد روى اليونيني صحيح البخاري من طريق أبي ذر عن أبي جعفر الهمداني عن أبي طاهر السلفي عن أبي الفضل عياض أبي علي الصدفي عن أبي الوليد الباجي عن أبي ذر (24).

أسانيد عياض في الأصول الأمهات :

لو كانت بين أيدينا الرواية العياضية النفيسة لصحيح البخاري والتي نقلها ورواها وسمعها وقابلها على أصل شيخه وأستاذه أبي علي الصدفي كما هو معروف لأوردنا اسناده العالي إليه منها لكننا نرجع في هذه الحالة إلى أثرين من آثاره البارزة في علم الحديث وهما فهرسته «الغنية» وكتابه «مشارق الأنوار» (25) فقد

(22) قطف الثمر لصالح الفلاني ص 11 مطبعة الحي أباد الهند .

(23) فهرس القادري المطبعة الفاسية الملزمة الثانية ص 5.

(24) مقدمة النسخة اليونانية الخزانة الملكية عدد 10802.

(25) انظر المشارق 1 / 8 ـ 9 المطبعة المولوية بفاس سنة 1328.

نص فيهما معا على أسانيده العالية والمتعددة إلى الكتب الأصول في الحديث وهي الموطأ وصحيح البخاري ومسلم.

أسانيده في الموطإ :

من فهرسته «الغنية» ننقل أسانيده إلى كتاب الموطإ للإمام مالك بن أنس رواية أبي محمد يحيى بن يحي الليثي المصمودي لاعتماد أهل أفقنا عليها غالبا دون غيرها الا المكثرين ممن إتسعت روايته وكثر سماعه (26).

حدثه به أبو عبد الله محمد التميمي عن أبي عبد الله ابن الطلاع عن يونس بن عبد الله عن أبي عيسى يحيى بن عبد الله عن عبيدالله بن يحيى عن أبيه يحيى عن مالك.

وحدثه أيضا أبو عبد الله التميمي عن أبي علي الجياني عن أبي عبد الله بن عتاب عن أبي القاسم خلف بن المشاط وأحمد بن سعيد بن حزم ومحمد بن قاسم بن هلال عن عبيد الله قال ابن عتاب :

وحدثني به أبو عثمان سعيد بن أبي سلمة وأبو بكر بن وافد عن أبي عيسى بن عبيد الله حاشا كتاب الحج بعض كتاب الصلاة فإن ابن عتاب شكى في سماعه من ابن وافد قال ابن عتاب :

وحدثني به أبو بكر عبد الرحمان بن حوبيل عن ابن المشاط وابن حزم وأبي عيسى عن عبيد الله.

حدثه به أبو علي الجياني عن حاتم بن محمد عن أبي عبد الله بن الفخار وأبي عمر الطلمنكي وأبي المطرف بن فطيس عن أبي عيسى قال حاتم :

وحدثنا به أيضا أبو بكر بن حوبيل عن أبي عمر بن المشاط عن عبيد الله قال الجياني :

وحدثني أبو عمر بن عبد البر عن أبي عثمان سعيد بن نصر عن أبي محمد قاسم بن أصبغ عن ابن وضاح عن يحيى.

---

26) انظر الغنية ص 3 والمشارق 1 / 8.

قال أبو عمر :

وحدثنا به أيضا أبو الفضل التاهرتي عن أبي عبد المالك محمد بن أبي دليم ووهب بن مسرة كلاهما عن أبي وضاح.

قال أبو عمر :

وأخبرني به أيضا أبو عمر أحمد بن محمد الأموي عن ابن المشاط وأحمد بن سعيد بن حزم عن عبيد الله.

قال القاضي أبو عبد الله التميمي :

وحدثني به أبو عبد الله محمد بن خلف المري عن أبي الوليد محمد بن عبد الله ريقل وأبي القاسم المهلب بن أبي صفرة عن أبي محمد الأصيلي عن ابن المشاط عن عبيد الله.

وعن الأصيلي عن وهب بن مسرة عن ابن وضاح .

قال أبو الوليد :

وحدثني به أيضا عيسى بن أبي العلاء أحمد بن سعيد عن عبيد الله إلى آخر أسانيده المتعددة إلى الموطإ كما فصلها في الغنية (27).

سند عال لعياض في الموطإ :

لقد نص القاضي عياض في «الغنية» لدى ترجمة شيخه الحافظ أبي علي الغساني على علو سند شيخه وذكر بعض سنداته وافتخر بسنده العالي الى الموطإ علو سند شيخه ابن علي أو قريبا منه قال :

حدثنا شيخنا القاضي الشهيد الصدفي رحمه الله قال سمعت الإمام أبا محمد التميمي يقول بسند لأذكره إن أبا القاسم البغوي حدث يوما فقال : حدثنا طالوت حدثنا فضال بن جبير عن أبي أمامة عن النبي عليه السلام فقام رجل من خراسان فقال أسحر هذا أم أنتم لاتبصرون طالوت عن فضال عن أبي أمامة.

---

27) انظر بقية أسانيده في الموطإ الغنية ص 4 و 5.

قال الفقيه القاضي رضي الله عنه وعن سلفه ولا يستغرب مثل هذا فقد حصل لنا الموطإ بنحو هذا السند أو قريبا منه في العدد.

فإن شيخنا أبا عبد الله بن غلبّون أخبرنا به عن أبي عمر وعثمان بن سعيد عن أبي عيسى عن عبيد الله عن يحيى عن مالك فبين شيخنا وبين النبي صلى الله عليه وسلم في كثير من حديثه سبعة رجال (28) قلت بخ بخ هذا سند سباعي عال جدا بالنسبة لعياض وعصره.

أسانيد عياض إلى صحيح البخاري :

لقد ذكر القاضي عياض في الغنية أن أسانيده إلى صحيح البخاري متعددة إلا أنه اقتصر هنا على روايتين :

1) رواية أبي عبد الله محمد بن يوسف الفربري لأن أكثر الروايات من طريقه.

2) ورواية إبراهيم بن معقل النسفي.

إذ لم يصل صحيح البخاري إلى المغرب ولم يدخل الأندلس إلا عنهما على كثرة الرواة (29).

أما رواية الفربري : فقد روى عياض صحيح البخاري برواية الفربري من طرق كثيرة :

من طريق أبي عبد الله عن بن أحمد الهروي.

وطريق أبي محمد عبد الله بن إبراهيم الأصيلي.

وطريق أبي الحسن علي بن خلف القابسي.

وطريق أبي علي سعيد بن عثمان بن السكن.

وطريق كريمة بنت حمد المروزية.

وطريق أبي علي إسماعيل بن محمد الكشاني.

---

(28) انظر الغنية ص 76 و 77.

(29) المصدر السابق ص 7.

حدثه به أبو عبد الله التميمي عن أبي علي الجياني عن سراج بن محمد بن سراج وأبي شاكر بن محمد بن موهب عن أبي محمد الأصيلي عن أبي أحمد الجرجاني وأبي زيد المروزي عن محمد بن يوسف الفريري.

وحدثه به عن الجياني عن حاتم بن محمد عن أبي الحسن القابسي عن المروزي.

وحدثه به الجياني عن أبي العباس أحمد الدلائي عن أبي ذر الهروي عن شيوخه الثلاثة أبي محمد الحموي وأبي الهيثم الكشميهني. وأبي إسحاق المستملي عن الفريري.

قال الجياني :

وكتبت به إلى كريمة بنت محمد المروزية تحدثني به عن أبي الهيثم.

قال الجياني :

وحدثني به أبو عمر أحمد بن الحذاء وأبو عمر بن عبد الله عن أبي محمد بن أسد الجهني عن أبي علي بن السكن عن الفربري. وقد أجاز أبو العباس الدلائي جميعه لشيخنا القاضي أبي عبد البر بن عيسى قال القاضي أبو الفضل :

وسمعت أنا البخاري وقرأته على غيره من شيوخنا :

فقرأت جميعه على أبي محمد بن عتاب حدثني به عن حاتم بن محمد بسنده المتقدم.

وحدثني به أيضا عن أبيه حدثنا أحمد بن ثابت الواسطي عن الأصيلي بسنده.

وعن أبي عمر بن الحذاء وأبي عمر بن عبد البر بسندهما إجازة له.

وعن أبيه عن أبي عبد الله بن نبات عن أحمد بن عون الله ومحمد بن أحمد بن مفرج عن أبي علي بن السكن عن الفريري.

وسمعت جميعه على أبي علي الصدفي حدثني به عن أبي علي الباجي عن أبي ذر بسنده وحدثني به أبو علي أيضا عن أبي الحسن البزار عن أبي عبد الله الحسيني الخلال عن ابي علي الكشامر عن الفربلى.

قال القاضي :

وحدثني به أحمد بن محمد عن أبي ذر إجازة.

وحدثني به أبو القاسم خلف المقري وأحمد بن خليفة والخزاعي وأبو الأصبغ عيسى الزهري كلهم عن كريمة بنت محمد.

أما رواية النسفي :

حدثه بها إجازة أبو علي الجياني عن أبي العاصي حكم بن محمد عن أبي الفضل أحمد بن أبي عمران عن أبي صالح خلف الخيام عن إبراهيم بن معقل النسفي عن البخاري (30).

أسانيد عياض إلى صحيح مسلم :

روى القاضي عياض أيضا في الغنية صحيح مسلم بأسانيده المتعددة عن شيوخه من طريقين :

1) رواية أبي أسحاق إبراهيم بن سفيان المروزي.

2) رواية أبي محمد بن أحمد بن علي الفلانسي.

لأنه لم يصل إلى هذه البلاد ـ المغرب والأندلس ـ إلا من طريقهما (31) ـ فقد حدثه به أبو عبد الله التميمي قراءة وسماعا الا ما فاته وأجاز له به عن أبي العباس أحمد بن عمر العذري إجازة منه له. وعن أبي علي الجياني سماعا عن أبي العباس العذري عن أبي العباس أحمد الرازي حدثنا أبو أحمد محمد بن عيسى الجلودي حدثنا إبراهيم بن سفيان حدثنا مسلم بن الحجاج.

قال الجياني :

وحدثنا به أبو القاسم حاتم بن محمد الطرابلسي حدثنا أبو سعيد عمر بن محمد السجزي حدثنا أبو أحمد الجلودي.

---

30) انظر تفصيل هذه الأسانيد في الغنية ص 5 ـ 7.

31) الغنية ص 8.

قال حاتم بن محمد :

وحدثنا به عبد الملك بن الحسن الصقلي حدثنا أبو بكر محمد بن ابراهيم الكسائي حدثنا ابن سفيان.

قال الجياني :

وحدثنا به أبو عمر أحمد بن الحذاء قال : حدثني أبي حدثنا أبو العلاء بن ماهان قال : حدثنا أبو بكر أحمد بن الأشقر حدثنا أبو محمد أحمد القلانسي حدثنا مسلم حاشا من آخر الكتاب من حديث حذيفة (والله اني لأعلم الناس بكل فتنة) فإن ابن ماهان روى ذلك عن الجلودي بسنده.

قال القاضي أبو الفضل :

وقد قرأت هذا الكتاب وسمعته أيضا على غير واحد من أشياخي منهم أبو علي الصدفي حدثني به عن أبي العباس العذري بسنده.

وقرأت جميعه على أبي محمد الحشني حدثني به عن أبي عبد الله الطبري عن أبي الحسين عبد الغافر الفارسي عن أبي أحمد الجلودي بسنده عن أبيه عن أبي حفص الهوزني عن أبي عبد الله الباجي عن ابن ماهان وسمعت جميعه يقرأ على أبي بحر سفيان بن العاصي حدثني به عن أبو العباس العذري بسنده.

وعن أبي الفتح وأبي الليث نصر السمرقندي عن أبي الحسين الفارسي بسنده.

وعن أبي الوليد هشام بن أحمد الكناني عن أبي محمد الشنتجالي عن أبي سعيد السجزي بسنده (32).

منهج عياض في علم الحديث :

لقد تميز القاضي عياض بمنهج حديثي فريد وأسلوب نقدي عظيم استمده من طول اتصاله ومخالطته للعلماء والشيوخ لمقابلة أفكارهم ورصد مناهج تفكيرهم وكثرة مدارسته وتدريسه لمصنفات الحديث وكتبه ودواوينه وتعمقه في فهمها

---

32) انظر تفصيل هذه الأسانيد بالفنية ص 7 ـ 8.

وجودة إستيعابه لنصوصها وسبر أغوارها والبحث في دقائقها ومعرفته الكبيرة للرجال والرواة وأحوالهم وتواريخهم وإحاطته الواسعة بغريب الحديث ومشكله ومختلفه وصحيحه وسقيمه وعلله وجميع أنواع علومه (33) مما جعله من أقدر الناس على تقييد الروايات وجمعها ومن أهل التفنن في العلم واليقظة والفهم (34) حتى أصبحت له في الحديث وعلومه حافظة مستوعبة وملكة نادرة ميزته عن سائر شيوخ عصره. وذلك بفضل ما لاحظه واستنتجه من أحوال المتعاطين للحديث في وقته وتقصيرهم عن إدراك شأوه وقصده ولما لحق كتبهم من نقص وتحريف وما وصلت إليه أفهام بعضهم من أسقام واعوجاج مما حمله على رفع عقيرته وإعلان نقده وتوجيهه.

اننا نلتمس أسلوبه الفريد منهجه الدقيق من تراثه الممتاز وخاصة كتبه في الحديث وعلومه وفي مقدمتها كتاباه العظيمان : «المشارق» - و«الالماع» - فهما النموذج الحي الرفيع لفكر عياض ومنهجه ونبوغه.

ان منهج القاضي عياض يتمثل في حرصه البالغ على إكمال المنهج النقلي وسلامته وعنايته بالتوسع في الرواية والدراية بقراءة كتب لم تكن مقروءة في وقته ببلده والبحث عن أصول العلماء الخطية المسندة ومقابلة كتبه بالأصول الصحيحة والتنصيص على الأصح والأفضل من الروايات في حال تعدد الطرق.

ان منهجه يعتمد على طريقته الخاصة في معالجة النصوص وفهمها وطريقته المثلى في التحقيق والتدقيق والمناقشة والبحث والاستنباط والتقعيد والأخذ والرد والتعديل والتجريح وتناولها على أساس قاعدة اتخذها نبراسا ومنهاجا في فهم الحديث وروايته سندا ومتنا ألا وهي الحديث الشريف الذي صرح بأنه النموذج والقاعدة لكل محدث ونافذ كما أثبت ذلك وأعلنه في مقدمة المشارق (35) وهي

---

33) التعريف ص 4.

34) الصلة لابن بشكوال.

35) المشارق 1 / 2 / 3.

قوله عليه الصلاة والسلام : «نضر الله امرءا سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها فرب حامل فقه ليس بفقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه».

لقد اعتمد عياض في منهجه الحديثي على طريقة الأئمة السابقين ومذاهبهم السليمة ومناهجهم القويمة في فهم السنة وبيانها وشرحها وتوضيحها ونقلها وأدائها بناء على ما بينه الله على لسان نبيه من مناهجه وشرعته وما وكل نفي التحريف عنه لعدول أعلام الهدى من أمته الذين واظبوا على الذب عن حماها والقيام بهداها والتنبيه على من يهتك حماها ويخلط بين صحيحها وسقيمها حتى تميز الخبيث من الطيب وتميز الرشد من الغي ثم كلت الهمم وفترت الرغائب وضعف الطالب والمطلوب حتى أصبح جهد المبرز في حمل علم السنن والآثار نقل ما أثبت في كتابه وأداء ماقيده فيه دون المعرفة لخطئه من صوابه ماعدا آحادا من المهرة وأفرادا من العلماء حيث قلت الموجه وضعف الاتقان وكاد ينعدم منهجه.

منهجه في الرواية والنقل :

ان منهجه في رواية الحديث ونقله يقوم على أساس أن الرواية هي الأصل إذ قد يتصور وجودها دون دراية ولا يتصور العكس ولا يعيب الراوي في نظره ألا يفقه مايرويه شريطة الحفظ والوعي في السماع والأداء كما مع صحبة النقل وتسليم التأويل لأهل الفقه والمعرفة لأن خوض المرء فيما لم يحط به علما هو أساس فساد الدين والعلم جميعا.

فإن الخوض في ما لم يحط به علما وهو فساد الدين والعلم جميعا. ولذلك قستا على المشايخ المتساهلين في الأخذ والأداء بسبب عدم حفظهم وعدم اتقان تحملهم وأدائهم وفساد كتبهم ومراجعهم.

ومن أجل ذلك اتخذ موقفا صارما في رواية الحديث بالمعنى وسد بابه وتشدد فيه لكون باب الاحتمال مفتوح للتأويل ولاختلاف منازل الناس في الدراية وتفاوتهم في المعرفة وحسن التأويل ومذهبه فيه أن الصواب لمن رزق فهما وأوتي علما إقرار ماسمعه كما سمعه ورواه والتنبيه على ما انتقده في ذلك ورآه كي يجمع الأمرين بايراده على وجهه وتبيين الصواب فيه أو طرح الخطأ البين

والإضراب عن ذكره في الحديث صلة أو تبييض مكانه والاقتصار على رواية الصواب او الكناية عنه بما يمكنهم ويفهم لا عن طريقة القطع (36) حتى لا يقع مثل رفع في بعض الأمهات من الجسارة التي تعتبر خسارة أدت إلى كثير من الغلط والتغيير وهو من شدة اهتمامه بهذا الموضوع وتدقيقه في شروطه وضع كتابه العظيم «الإلماع» أوردا من مذاهب العلماء ونظرياتهم واختلافهم في الرواية بالمعنى واصلاح الخطأ وتقويم اللحن وخص كل موضوع بالبحث والتدقيق وإيراد نظريته فيه مما يعتبر عملا رائعا في علوم الحديث مؤكدا أن حماية باب الإصلاح والتغيير أولى وأجدر.

المنهج الذي انتهجه عياض :

ان المنهج الذي انتهجه عياض في دراساته الحديثية وتناوله للأسانيد والنصوص وطريقة فهمها وشرحه اياها يعتبر نهجا فريدا لم يسبق اليه كما أشار إلى ذلك في أثناء شرحه لحديث أم زرع (37) مما لم يتقدم فيه كلام بلغه علمي معتمدا على سيرة السلف في التصحيح والتمريض والتحويص والتضبيب والإلحاق والتجريح متخذا من علماء الأندلس نماذج وشيوخا فيه.

ففي دراسته للنص الحديثي يبدأ بتحقيق إسناد الروايات وجرحه لرواتها متبعا نقد النص والمتن أو مايسمى اليوم بطريقة النقد الداخلي متبعا منهج السلف مستفيدا منه مضيفا عليه من فكره وعلمه واستنتاجه.

فهو يبدأ أولا بإيراد أسانيده المختارة بطريقة علمية دقيقة معتمدا على السند الصحيح متوخيا شروط الجرح والتعديل لمعرفة مدى صحة الأسانيد وضبطها وتوثيق الرجال وتتبع سلاسل الإسناد وطرقها.

وعندما يتناول المتن يتناوله بدقة متناهية يدرس لغته وأسلوبه ومادته ثم ينص على الرواية التي اعتمدها وأخذ بها وغالبا ما يعتمد ويرجع إلى الأصل إلى الرواية الأم بل يذهب إلى تحديد إحدى الروايات التي نقل عنها أو أوردها

---

36) المشارق 1 / 4.

37) بغية الرائد ص 214.

ويحدد خط النسخة كقوله مثلا في رواية البخاري وهكذا وجدتها في أصل الأصيلي ابن محمد بخطه داخل الكتاب وأصل كتابه على رواية أبي أحمد الجرجاني أحد شيوخه في الصحيح (38).

كما حدد طريقة أخذه ونقله قراءة أو سماعا في توثيق عجيب كقوله عن كتاب لابن حبيب بشأن حديث أم زرع : انه قرأه مضبوطا في كتابه ولم يروه سماعا (39) بل يذهب أحيانا إلى تحديد نوع الأخذ كقوله : بأن أخذه كان عن طريقة القراءة على شيخه وقراءة عليه ولا قراءة منه عليه (40).

وعند اختلاف الروايات يرجع للأصل ثم ما كان من زيادة ألحقت أو نقص أعلم عليه أو خلاف خرجه في الحواشي منبها فيها على كل خطأ أو وهم أو علة. وعندما يذكر روايات أخرى من غير أسانيده التي اختارها فإنه ينص عليها ليؤكد رأيه فيها. كما أن موافقته لآراء شيوخه لانجدها مقترنة بأقوالهم دائما بل يذكرها أحيانا كدليل على صحة ما يذهب إليه أو بالعكس أو يذكر رأي أكثر من شيخ من شيوخه ليوافق بعد ذلك على رأي أحدهم كما فعل عند حديثه عن المزاح والضحك وانهما قادحان في عدالة الشاهد حيث أنكر على أبي بكر الأبهري رأيه وأقر رأي شيخه أبي بكر بن الوليد (41).

ولذلك كان القاضي عياض في دراسته للنصوص ومتون الأحاديث يحاكمها ويخضعها للبحث والمناقشة والتدقيق والتحقيق فيقبلها أو يوجهها الوجهة التي يريدها ويقتنع بها كما فعل عندما تحدث عن معجزة الإسراء وكلامه عن الأحاديث المنتشرة استشهد بحديث أنس متعرضا لفرقه المختلفة موثقا الطريق الأول مستصوبا إياه قائلا : حديث ثابت أنس أتقن وأجود (42).

---

38) بغية الرائد ص 26.

39) المصدر السابق ص 132.

40) المصدر السابق ص 2.

41) بغية الرائد ص 40 و 41.

42) الشفا 1 / 349 طبعة دمشق سنة 1392 تحقيق محمد أمين وجماعة.

وذلك كله يبين مدى قدرة القاضي عياض على تحقيق النص وتوثيقه وضبطه واقامته على أحسن الوجوه وأن دراسته الرائعة لحديث أم زرع في بغية الرائد تعتبر نموذجا رفيعا لمنهج عياض وأسلوبه الفريد الذي جمع فيه بين مناهج المحدثين واللغويين والنقاد والفقهاء والمؤرخين وهو قمين بأن يجعله الدارسون الباحثون في جامعتنا اليوم نموذجا حيا للدراسات الحديثية للتعلم منه والاستفادة والاستيعاب.

اثار عياض الحديثية :

تكميلا للصورة واستكمالا لمعالم شخصية عياض المحدث نتكلم بايجاز وتركيز عن كتبه في الحديث وعلومه وهي : الغنية ـ والمشارق ـ واكمال المعلم ـ وبغية الرائد ـ والالماع.

الغنية : وهي فهرست شيوخه في نحو ثمانية كراريس ترجم فيها لحوالي مائة من شيوخه ابتدأها بمن اسمه محمد حيث افتتح بترجمة شيخه محمد بن عيسى التميمي وختمها بترجمة يوسف بن عبد العزيز الطليطلي واصطلاحه فيها أن يذكر الشيخ ونسبه وتقلبات الدهر به ومشيخته ثم يذكر مسموعه عليه وإسناده فيه.

ثم أتى بنحو خمس وعشرين من الفهارس لأهل المشرق والمغرب راويا أهم كتب الحديث ومصنفاته ودواوينه بأسانيدهم كالموطإ وصحيح البخاري وصحيح مسلم. وسنن أبي داود وغريب الحديث لابن سلام واصلاح الغلط له وغريب الحديث للخطابي وطبقات مسلم وكتاب الضعفاء والمتروكين للنسائي وكتاب الطبقات له ومدونة سحنون وملخص القابسي وتقصي ابن عبد البر ومسند الموطإ للجوهري ورسائل ابن حمدين وردوده على الغزالي وغريب الحديث لابن قتيبة واختصار المبسوطة لابن رشد وأمالي الحميدي وشهاب القضاعي وأربعين الآجرى والانتصار للحديث للأصيلي والمستدرك على البخاري ومسلم للدارقطني وأربعين أبي نعيم والإشارة للباجي وعوالي الزينبي وشيوخ البخاري لابن عدي والجرح والتعديل للباجي والعلل الكبير للدارقطني وسنن الدارقطني والتاريخ الكبير

للبخاري وعلوم الحديث للحاكم ومشكل الحديث لابن فورك وملخص القابسي والشهاب للقضاعي وكتاب الغريبين للهروي... إلخ مما يكون عناصر ثقافة وفكر عياض وما أحسن في هذا المجال التقديم الذي كتبه عياض لفهرسته يقول :

وبعد. أيها الراغبون في تعيين رواياتي وإجازة مسموعاتي ومجموعاتي فقد تعين بحكم الحاكم على مدكم إياي الرغبات إلى أن أنص لكم من ذلك على عيون وأخص أوراقي بما لعله يفي بالمضمون وأحيل على فهارس الأشياخ على العموم في سائر أنواع العلوم وأسمى أشياخي الذين أخذت عنهم قراءة وسماعا ومناولة وإجازة ومن كتب الي ولم ألقه وذكرت في خبر كل واحد منهم ما يقضي الحال وفقه من الاختصار والإيجاز بحكم ما أدت اليه الحال من الرحلة والانحفاز وذكرت أثناء ذلك أسماء جلة من لقيتهم وجالستهم وذاكرتهم ولم أرو عنهم أو سمعت منهم اليسير إما لقاطع قطع أو لسبب منع أو لأنهم لم يكونوا أصحاب رواية ولا أهل إتقان لما رووا ودراية (43).

مشارق الأنوار على صحاح الآثار :

هو أجل كتبه قدرا وأنبهها ذكرا وأكثرها دلالة على عظم مكانته (44) في علم الحديث وسعة ثقافته. وموضوعه تفسير غريب حديث الموطإ والصحيحين وضبط الألفاظ والتنبيه على مواضع الأوهام والتصحيفات وضبط أسماء الرجال وتحقيق نصوص الكتب من الأمهات في الحديث وقد دفعه إلى تأليفه ما لاحظه من تساهل في الأخذ والأداء.

وما شاع بين المنتصبين للرواية والسماع من تهاون في الضبط والإتقان وعدم تحقيق ما يسمعون ويروون وما ينقلون ويكتبون حتى عم التصحيف وكثرت الأوهام فتصدى للكتب الأمهات وتقصى ما اشتملوا عليه وقيده ورتبه في مشارقه التي جمعت الشوارد وسددت المقاصد وبينت مشكل المعاني واختلاف

---

43) الغنية ص 1.

44) انظر مقدمة محقق الالماع السيد أحمد صقر ص 10.

الروايات وأظهرت أحقها بالحق وأولاها وأوضحت كثيرا من الإشكالات والإلهامات فيها وتممت عمل الشيوخ السابقين في توضيح مقاصدها وأغراضها (مقتصرا على ما يتعلق بالأسماء والكنى والأنساب وألقاب الرجال دون ما في المتون من تغيير وتصحيف وإشكال (45) وقد حدد غرضه فيه : ألا يبقى على طالب المعرفة إشكال في الأصول يستغني بما فيه عن الرحلة لمتقني الرجال.

ويكتفي بالسماع على الشيوخ.

ويعتمد عليه في درس الأصول المشهورة والتصحيح به والاعتماد عليه فيما يشكل.

ولذلك لاعجب أن يقول عنه ابن فرحون : (هو كتاب لو كتب بالذهب ووزن بالجوهر لكان قليلا في حقه) (46).

ويقول في حقه الشيخ عبد الحي الكتاني في معرض الحديث عن الرواية العياضية «قلت عياض وان لم تشتهر روايته بخصوصها وعينها انتشرت مشارقه التي جمع فيها ما اتصل به وبمشايخه من اختلاف الروايات وصحيحها وطرق تويجهها فاتخذها الأعلام وحفاظ الإسلام بالمشرق والمغرب خير خريت للاهتداء في مشاكل الصحيحين والموطإ وهذا الكتاب الذي أعجز به من بعده واستدرك به على أكثر من قبله من الأئمة وكثيرا ما يعتمده الحافظ في الفتح وينقل عنه (47).

إكمال المعلم في شرح مسلم :

لقد وضع القاضي عياض هذا الكتاب تكملة وتتميما لشرح شيخه وأستاذه أبي عبد الله المازري المسمى (المعلم بفوائد مسلم) وكتاب (تقييد المهمل) لأبي علي الجياني كما يدل على ذلك ويؤكده اسم الكتاب وعنوانه الذي هو سمة على وفقه شاهدة بالاعتراف والاتصاف بسبقه (48).

---

45) انظر مقدمة المشارق ص 5 و 6.

46) فهرس الفهارس 2 / 186 نقلا عن الديباج المذهب.

47) التنويه والإشادة ص 29.

48) انظر مقدمة الكتاب المخطوط بالخزانة الملكية بالرباط.

وقد جعله في تسعة وعشرين جزءا شرح فيه معاني صحيح مسلم وبحث عن أغواره وكشف فيه عن أسراره وبين غامضه ومشكله وقيد مهمله ومبهمه ونبه على ما وقع فيه من اختلال لبعض رواته في أسانيده ومتونه ونبه إلى ما في مقدمته الرائعة الرائدة من أصول علم الحديث وأكمل به وذيل كتابي شيخيه الجليلين ففسر ما فيهما من أحاديث مشكلة لم يقع تفسيرها وشرحها وتصدى لتحقيق فصولها ومعانيها وفصل منها ما يحتاج إلى تفصيل وصوب منها ماهو محتاج إلى الإتقان والتقييد وأكمل كل ما غيره النقلة من ألفاظ وكلمات كانت بحاجة إلى التصويب والتحقيق وقد كان الأمل معقودا والرجاء موصولا ان تحقق وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بطبع هذا الكتاب محققا احتفاء بهذه المناسبة ونشرا لهذا الأثر النفيس ولكن لله الأمر من قبل ومن بعد.

بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد :

رغم أن كثيرا من العلماء والمحدثين تصدوا لشرح هذا الحديث وأفردوه بالتأليف والكتابة فإن كتاب عياض هذا كان أجمعها وأوسعها كما وصفه الحافظ ابن حجر (49).

ذلك أن اختياره لهذا الحديث بالذات وتخصيصه بالشرح والتفسير والتعليق والتحقيق لاعتباره إياه نصا من النصوص الحديثية الرفيعة ومجالا لتطبيق منهجه الفريد في دراسة الحديث وفهم نصوصه وإظهار تفكيره السديد وأسلوبه البديع جمع فيه بين مناهج المحدثين والنقاد والفقهاء واللغويين ابداء لبراعته وريادته ودقته وتحقيقه.

وطريقته فيه انه روى حديث ام زرع عن طريق أسانيده التي صحت عنده وفق مقاييسه حيث اختار من بين طرق المحدثين ورواياتهم أكملها رواية وأحسنها سياقا وأسندها وترك بعضها اختصارا وبعضها لما شابه من اختلاف وزيادة أو تقديم أو تأخير.

---

49) فتح الباري 11 / 164.

ثم اتى بالحديث وسياق متنه منبها على اختلاف ألفاظ نقلته وزيادة بعضهم على بعض في سرده ذاكرا علة إسناده شارحا غريبه وعويص اعرابه ومعاني فصوله وما يتعلق به من فقه وما فيه من فائدة (50).

لذلك كله يعتبر كتاب (بغية الرائد) نموذجا للدراسات والأبحاث التي جمعت إلى عمق فهم عياض وعظمة تفكيره وشمول علمه ودقة بيانه وذوقه الرفيع وأسلوبه البديع ونقده الدقيق في علم الحديث وفنون العربية جميعا.

الشفا بتعريف حقوق المصطفى :

من المقدمة الموجزة والمركزة التي افتتح بها القاضي عياض كتاب الشفا نتلمس تعريفه وموضوعه وغايته منه.

فهو كتاب سيرة يلوح في غرة الإيمان لمعة منيرة وفي تاج التراجم ذرة خطيرة تزيح كل لبس وتوضح كل تخمين وحدس وهو نفحات ربانية ومنحة صمدانية خص الله به هذا الإمام (51).

وهو كتاب فريد دحض به مزاعم الملاحدة ومطاعنهم على المقام النبوي الشريف وأتى في ذلك بالعجب العجاب مما لاينكره إلا أعمى القلب مطموس البصيرة (52).

لذلك تركز موضوعه على :

- التعريف بقدر المصطفى عليه الصلاة والسلام وخلقه العظيم وبيان خصائصه التي لن تجتمع لمخلوق قبله.
- ما يجب له من التوقير والاكرام.
- وحكم من لم يعرف واجب عظيم قدره أو قصر في حقه.
- عرض مذاهب الأئمة وبيانه وتوضيحه بالامثال (53).

---

(50) بغية الرائد ص 2 طبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية سنة 1395 / 1975.

(51) أزهار الرياض 4 / 272 مطبعة فضالة المغرب.

(52) الينبوع المغربي 1 / 88.

(53) انظر مقدمة الشفا ص 4 و 5 مطبعة دار الفكر بيروت.

وقد حدد غايته منه في وضوح وجلاء بقوله :

«وجعلناه لأهل ملته الملبين لدعوته المصدقين لنبوته ليكون تأكيدا لمحبتهم له ومتممة لأعمالهم».

ان أسلوب عياض في كتاب السبق ارتكز على آيات القرآن وسوره والأحاديث والأخبار ارتكازا أساسيا واعتمد على أمهات المصادر المختلفة فأسند الأحاديث الواردة فيه إلى نحو خمسة وعشرين من شيوخه أمثال ابن الوليد القرطبي وابن سكرة والجياني وأبي عتاب والاشبيلي والمازري وسواهم.

وكان يناقش فيه نصوص الأحاديث فيوجهها الوجهة التي يرمي اليها ويقتنع بها أو يرفضها من أجل تحديد صورة رائعة للرسول عليه السلام وتركيزها في الأذهان متحلية بكل مظاهر الكمال مظهرا ومجليا قوة حبه للنبي وعميق عواطفه بكماله الإنساني وحقائق أنواره فأبدع فيه كل الإبداع وسلم له أكفاؤه كفاءته فيه ولم ينازعه أحد في الانفرادية. وتشوفوا للوقوف عليه وأنصفوا في الاستفادة منه وحمله الناس وطارت نسخه شرقا وغربا. كما قال عنه ابن فرحون (54) واعتبره الشيخ عبد الحي الكتاني لأهميته وقيمته مرجعا لأسانيده حتى أفرد العلماء أحاديثه الستين المسندة بالتأليف (55) واعتبره الشهاب العجمي في مشيخته كتاب (الشفا) مرجعا لرواية الكتب الستة من طريق عياض (56).

لذلك توالت العناية بهذا الأثر النفيس وتسابق الناس لقراءته والإقبال عليه منذ القديم فأمر أبو عنان المريني بتدريسه بجامعة القرويين وإنشاء السلطان رشيد العلوي كرسيا في الضريح الإدريسي لتوريقه(57) كما أمر كل من محمد

---

54) الديباج المذهب لابن فرحون.

55) فهرس الفهارس 2 / 187.

56) المصدر السابق بنفس الصفحة.

57) جامع القرويين 2 / 397.

الثالث والسلطان عبد العزيز بقراءته وتدريسه (58) والأمل معقود على الحسن الثاني الذي أحيا كثيرا من تراثه أن يحيى سنن أجداده مع هذا الإمام العظيم خاصة ونحن على أبواب إحياء الكراسي العلمية وتجديد معالمها وما أصدق ما قال فيه أبو العباس أحمد بن عبد المنان(59) :

علماء الحديث كم خلصت في مدح خير الورى لهم
بمعاني الرسول تجلى وتتلى عندها تنعش القلوب المراض
كلهم عالج السقام ولكن ما أتى بالشفاء إلا عياض

الإلماع في ضبط الرواية وتقييد السماع (60) :

يعتبر كتاب الإلماع أول كتاب جامع في علم الحديث لعالم مغربي وقد جاء فريدا في بابه وحيدا في أسلوبه وطريقته جمع فيه ما تفرق في كتب مصطلح الحديث قبله وأضاف إليه إضافات مبتكرة وأبوابا فريدة لم يسبق إليها ولم يلحق فيها (61).

وقد جعل موضوعه بيان معرفة الضبط وتقييد السماع والرواية تبين أنواعها عند أهل التحصيل والرواية وما يصح منها وما يتزيف وما يتفق من وجوهها ويختلف.

افتتحه ببيان نشأة علم الحديث وشرف أهله ووجوب السماع والأداء له ونقله والأمر بالضبط والوعي والإتقان.

وختمه بباب ضمنه أحاديث غريبة نكلثا مفيدة عجيبة من آداب المحدثين وسيرهم وشوارد من أقاصيهم وأخبارهم (62).

---

58) الدرر الفاخرة ص 111.

59) أزهار الرياض 4 / 288 ـ 289.

60) هكذا أسماه ولده القاضي عياض في التعريف انظر صفحة 116 غير أن محقق الكتاب السيد أحمد صقر نشره تحت عنوان : الالماع إلى معرفة أصول التربية وتقييدا لسماع : دار التراث القاهرة والمكتبة الفنية بتونس سنة 1399 هـ ـ 1979.

61) كتاب الالماع ص 107.

62) انظر مقدمة الالماع ص 4 و 5.

وقد بلغ فيه الذروة في باب أنواع الأخذ وأصول الرواية وخاصة الفصل المتعلق بالإجازة فقد أبدع فيه وأجاد واستوفى الكلام على وجوهها وأفاد واعتمد نصوصا نادرة واعتمد على مراجع فريدة عزيزة مثل كتاب الوجازة لأبي العباس الغمري المالكي والبرهان لأبي المعالي الجويني وكتاب أبي مروان الطبني وغيرهم وقد شعر عياض نفسه بتوفيقه في هذا الباب وبراعته فيما توصل إليه في فصله من هذا الكتاب فقال :

«وقد تقصينا وجه الإجازة بما لم نسبق إليه وجمعنا فيه تفاريق المجموعات والمسموعات والمشافهات والمستنبطات بحول الله وعونه» (63).

هذا ما جعل كتاب الإلماع أصلا يرجع إليه الباحثون والدارسون ومرجعا ضروريا ينقل منه العلماء والمحدثون ويقتبسون كما فعل أبو عمرو ابن الصلاح في مقدمته حيث اعتمد عليه وانتفع به ونقل منه كثيرا وغيره من علماء الحديث وأصحاب الكتب المؤلفة في المصطلح كالعراقي والزركشي وابن حجر والسخاوي والسيوطي وأضرابهم.

وقد عده الحافظ ابن حجر أول الكتب المؤلفة في علوم الحديث بعد كتب الخطيب وبرأه مما نسبه إلى كتب ابن خلاء والحاكم وأبي نعيم (64).

واعتبره الدكتور أسد رستم نموذجا حيا للدراسة والتفكير والاستنتاج لا في المكتبة الإسلامية فحسب بل في المكتبة العالمية إلى عصرنا هذا يقول على الرغم من مرور سبعة قرون عليه فإنه ليس بإمكان رجال التاريخ في أوربا وأمريكا أن يكتبوا أحسن منه. وأن ما جاء فيه من مظاهر الدقة والتفكير والاستنتاج من باب تحري الرواية المجيء باللفظ يضاهي أدق ماورد في الموضوع نفسه في أهم كتب الإفرنج في ألمانيا وفرنسا وأمريكا وانجلترا (65).

---

63) الالماع ص 107.
وراجع كلامنا المفصل في الموضوع في كتابنا مدرسة الإمام البخاري 1 / 113 وما بعدها.

64) انظر كتاب نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر لابن حجر .

65) انظر مقال عبد الله كنون مجلة الإيمان العدد الخاص بعياض ص 75 ع 72 ـ 73 يناير فبراير 1978.

روايتنا لكتب عياض :

نروي كتب القاضي عن الشيخ الوالد إبراهيم بن الشيخ محمد الكتاني رضي الله عن عمه الشيخ عبد الحي الكتاني بأسانيده إلى ابن حوط الله عن الخطيب أبي جعفر أحمد بن علي بن حكم عنه.

وأيضا من طريق العزفي عنه.

ومن طريق ابن الزبير عن القاضي أبي عبد الله محمد بن غاز الأنصاري السبتي وعن أبي الخطاب محمد بن واجب بن أبيه أحمد بن خليل بن واجب وهو ابن غاز عن القاضي عياض.

وبأسانيدنا إلى الحافظ بن حجر عن أبي إسحاق التنوخي عن محمد بن جابر الوادياشي عن عبد الله محمد بن هارون عن أبي الحسن سهل بن مالك عن أبي جعفر أحمد بن علي حكم الغرناطي (ح) قال الوادياشي : أخبرنا به أبو المواهب ربيع بن أبي عامر يحيى بن عبد الله ربيع إجازة عن الحسن بن علي الغافقي عن القاضي عياض.

إن هذا ما جعل عياض إماما كبيرا من أئمة العلم وشيخا فريدا من شيوخ الحديث وجعل أقواله وبحوثه وكتبه مرجعا أصيلا ونبعا فياضا يستقي منه العلماء والباحثون وجعل بعض مشايخ الشرق يعتبرونه شمس المغرب المشرقة (66) وجعل آخرين يعتبرونه في مقام الإمام البخاري والأئمة الأربعة من حملة الشريعة وعلمائها وصدورها (67) ومعجزة من مفاخر المغرب وآية عز جلالة أهله (68).

نسأل الله تعالى أن ينفعنا بما علمناه ويجعل سعينا في ذلك لما يرضاه يعصمنا بتوفيقه ويشعرنا تقواه.

---

66) النجم الثاقب لابن صعد.

67) المجد الطارف والتالد لأبي عبد الله محمد الأمين الصحراوي.

68) فهرس الفهارس 2 / 185.

الجانب الأَدبي في حياة عياض

الاستاذ : علي أبو العكيك

بسم الله الرحمن الرحيم

الجانب الأدبي في حياة عياض

تعد جامعة القرويين نقطة انطلاق كبرى، ومركزا هاما من مراكز الإشعاع الفكري والحضاري بالمغرب، وقد حقق الله فيها طموح مؤسس المدينة التي تحتضن الجامعة، حين قال : «اللهم إنك تعلم أني ما أردت بناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة، ولا رياء ولا سمعة ولا مكابرة، وإنما أردت أن تعبد بها، ويتلى بها كتابك، وتقام بها حدودك وشرائع دينك، وسنة نبيك «ص» ما بقيت الدنيا» (1) وقد استجاب الله دعاءه فكانت فاس كذلك حتى أصبح القول المأثور على كل لسان «يكاد العلم ينبع من حيطانها» وتحققت بفضلها الشخصية العلمية للمغرب، التي تميزت بمشاركتها العامة في جميع العلوم والفنون من لغة ونحو وأدب

1) الناصري : الاستقصا ج 1 / 167.

وتفسير وحديث وفقه وعقائد. غير أن هذه المشاركة تفاوتت بقدر اهتمامات الدول والأسر التي تعاقبت على حكم المغرب) ابتداء من الدولة الادريسية. وانتهاء بالدولة العلوية الشريفة الحاكمة. ولعل أهم ما يتميز به الوضع الثقافي والعلمي في عهد الأدارسة. هو ظهور مذهب الإمام مالك. الذي ساهم في تهدئة الأوضاع واستقرار الأحوال. والتف حوله المغاربة فتحققت بفضله وحدتهم العامة في جميع مظاهر الحياة. وبذلك استطاع أن يفرض وجوده في الساحة. ويهيمن على باقي المذاهب الأخرى التي كانت منتشرة بجهات مختلفة في المغرب. «كالمذهب الكوفي والخارجي والاعتزالي والشيعي» (2).

ولما قامت دولة المرابطين بدور القيادة السياسية. انطلقت من هذا الأساس وبه تغلبت على كثير من الصعوبات التي اعترضتها في بداية أمرها. واستطاعت أن تحقق وجودها السياسي فعلا. كدولة مسلمة رائدة ومن ثم كان تقديمها للفقهاء على غيرهم من أصحاب المعارف الأخرى هو الطابع العام الذي تميزت به الدولة. فواصل علم الفقه نشاطه في هذا العهد. وحظي أهله والمهتمون به بمكانة مرموقة لدى الأمراء وعلى الأخص علي بن يوسف الذي اشتد ايثاره لأهل الفقه والدين. حتى انه كان لا يقطع أمرا في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء الذين تحولت إليهم الأنظار «ولم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده. إلا من علم علم فروع مذهب الإمام مالك فنفقت في ذلك الزمن كتب المذهب. وعمل بمقتضاها. ونبذ ما سواها. وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث رسول الله» (3).

---

2) عبد الله كنون : النبوغ المغربي ج1 / 48.

3) عبد الواحد المراكشي : المعجب ص 171 ، 172.

ولا يفهم مما تقدم أن باقي العلوم والفنون، غير الفقه لم يكن لها وجود، وإنما غلب هذا الميل فقط على باقي الاتجاهات العلمية والفكرية وإلا فالمتتبع لمسيرة الحياة العلمية في هذا العهد يلاحظ اهتمام الناس بعلوم أخرى، كالادب والنحو واللغة، لذا كان اهتمام المرابطين في مجال علوم الدين يرافقه اهتمام آخر في مجال الأدب والشعر. يؤكد هذا احتضانهم لعدد من الأدباء الذين وفدوا عليهم من الأندلس وأسندت إليهم مهام في بلاط أمير المسلمين أو في دواوين الأمراء بالأقاليم (4) ومنهم الفتح بن خاقان صاحب كتاب «قلائد العقبان» الذي شجعه على تأليفه الأمير إبراهيم بن يوسف، وقد أشاد في مقدمته بمحاسن هذا الأمير وفضله وتشجيعه للادب، والأدباء يقول المراكشي : «فانقطع إلى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله حتى أشبهت حضرته، حضرة بني العبّاس في صدر دولتهم، واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة، مالم يتفق اجتماعه في عصر من العصور» (5) فلما انضوت الأندلس تحت لواء المرابطين، وجيء بالمعتمد بن عباد إلى المغرب نراه يذكر في شعره مدينة طنجة وشعراءها الذين قصدوه مستجدين فتعجب منهم كيف يقصدون جدواه وهو في الأسر، كما وجد في غير هذه المدينة من كانوا يستمعون لشعره ويتأثرون به، ويشاركونه في همومه وآلامه، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى التجاوب الحاصل بينه وبين شعراء المغرب الذين كانوا على حظ عظيم من فهم الأدب وتذوقه.

وقد ساعد على كل ذلك ما بذله أمراء الوقت من جهود لنشر اللغة العربية وتوطيد دعائمها، ومن مظاهر هذا أن يوسف بن تاشفين كان يعمل على ربط الاتصال الدائم بين المغرب وأهل المشرق، ويسعى إلى استقطاب أدبائهم وشعائرهم إلى المغرب، ولا تقل اهتمامات الابن (علي) في هذا المجال عن أبيه، وهكذا صارت الدولة المرابطية تقوي من عزم الأدباء وترفع راية الأدب وشؤونه مما جعل

---

4) عبد الله كنون : النبوغ ج 1 / 78.

5) عبد الواحد المراكشي : المعجب ص 163 : 164.

هذا الاتجاه ينمو ويزدهر . فتسابق الأدباء والشعراء وتفننوا في اضرب القول شعرا ونثرا وتركوا في ذلك من الكلام البليغ العبارة، البديع المعاني، ما يجده كل مهتم باحث في هذا الحقل .

ومن هؤلاء الأدباء، القاضي عياض الذي اشتهر بالفقه والحديث أكثر من اشتهاره بالأدب، وسنعلل سبب هذه الشهرة فيما بعد.

ولا شك أن الأوساط الفكرية والأدبية اثر مجيء دولة الموحدين استفادت من كل هذه الجهود المبذولة وحاولت أن تطبعها بطابعها الثلاثي المبني على «العظمة والدين والتجديد» (6) فازدهرت في عهدهم المعارف والعلوم «وكانت مجالسهم منتديات علمية وأدبية» (7) حتى اجتمع في فاس على حد تعبير صاحب المعجب «علم القيروان وعلم قرطبة» (8) وما قصة الندوة الأدبية بجبل الفتح «بغائبة عن الأذهان» إذ تعد معلمة كبرى من معالم الازدهار الفكري والأدبي الذي تميز به هذا العهد.

وتأثر الأدب المغربي في العهد المرابطي والموحدي بالأدبين المشرقي والأندلسي اللذين غلبت عليهما الصنعة والزخارف اللفظية، وكثير من المحسنات البديعية ويظهر أن الأدب في عهد الموحدين تحرر - نسبيا - من بعض الموضوعات التي كانت شائعة في الأدب العربي، وهكذا نجد شعر الخمريات وأدب التغزل المكشوف يختفيان في الميدان نسبيا، وذلك تأثرا بالطابع الديني الذي كانت عليه الدولة.

ولعل ما يبرر هذا ما فعله عبد المومن بشاعر، أنشده أبياتا تغزل فيها بشاب من أهل أغمات حيث هجره، ومنعه من الحضور في مجلسه، وما يذكر من شعر

---

6) محمد المنوني : العلوم والآداب والفنون : ص 16.

7) محمد الكانوني : آسفي وما إليه قديما وحديثا ص 138.

8) المعجب ص 238.

لعبد المومن في التغزل (بفتاة قدت فؤاده) ومساجلته المشهورة في هذا الموضوع مع وزيره «ابن عطية» فالغالب انه مفتعل (9).

تلك كانت نظرة مختصرة حول الاتجاهات الفكرية والأدبية التي تميز بها عصر «عياض» والتي لعبت دورها الأساسي في تحديد الشخصية الأدبية لهذا المفكر العظيم الذي لولاه لما ذكر المغرب.

ولعله أصبح من المسلم به، ان عياضا يمثل الشخصية المغربية النموذجية في أبرز مظاهرها الفكرية . وقمة عطاءاتها العلمية، ووحدتها المذهبية، حتى أصبحت شهرة بلده مقرونة باسمه، ويكفي الرجل فخرا هذا الخلود الزمني الذي أصبح مضرب الأمثال، ولعل الفضل في هذه الشهرة يرجع لعياض نفسه الذي أثبت وجوده على مسرح الحياة العلمية بمؤلفاته الهامة خاصة وانها تناصر المذهب المالكي الذي تشبث به المغاربة ؛ ومن مظاهر ذلك أن السلطان أبا عنان المريني أمر بتدريس كتاب «الشفا» بجامعة القرويين (10) كما أن الدولة العلوية الشريفة أظهرت من الاهتمام الزائد بالقاضي عياض وكتبه مالم يظهره غيرها يستوي في ذلك الأجداد والأحفاد وقد بلغ هذا الاهتمام قمته في عهد جلالة الملك **الحسن الثاني** الذي تعلق بآثار عياض وشخصيته، وآية ذلك أمره الشريف بتحقيق كتبه وطبعها لينتفع بها أهل العلم والناس، وإقامة ندوة علمية خاصة بشخصية عياض في إطار الندوات العلمية السابقة.

ولادته ونسبه :

ولد عياض بمدينة سبتة في منتصف شعبان سنة 476 هـ، وهي من المراكز العلمية المشهورة آنذاك، تحولت بفضل موقعها الجغرافي إلى قاعدة من قواعد المغرب، ونقطة انطلاق والتقاء لكثير من الشخصيات العلمية والحركات الفكرية

---

9) العلوم والاداب والفنون ص 130 : 140.

10) د : عبد الهادي التازي : جامع القرويين ج 2، ص.372.

والأدبية مما جعل مالك بن المرحل الشاعر المشهور يمدحها بقصيدة طويلة مطلعها :

سلام على سبتة المغرب   أخية مكة أو يثرب (11)

اما نسبه فهو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرون بن موسى بن عياض بن محمد بن عبد الله بن موسى بن عياض اليحصبي. ويضيف «المقري» «السبتي» نسبة إلى سبتة (12).

ويستنتج محقق المدارك «بالاستناد إلى بعض المراجع التي ذكرها في الهامش أن عياضا يمت بصلتين إلى الإمام مالك : صلة المذهب، وصلة القربى والانتساب إلى قبيلة حمير من عرب اليمن المشهورة.

وكان موطن أجداده واستقرارهم في القديم بالأندلس بجهة «بسطة» ثم انتقلوا إلى فاس. ومنها إلى سبتة، وتذكر مصادر ترجمة الأسرة العياضية. أنه كان لهم استقرار «بالقيروان» غير أنه لا يعلم هل كان هذا الاستقرار قبل الأندلس أم بعد (13). وكان بيت أجداده بفاس من البيوتات التي تستلفت الانتباه لما عرف عن أهله من صلاح وتقوى وخير وحفظ للقرآن. وتذكر مصادر الترجمة أن الجد «عمرون» حج إحدى عشرة حجة، وغزا غزوات كثيرة. وبعد انتقاله إلى سبتة اشترى بها أرضا وبنى في بعضها مسجدا. وحبس بعضها على المسجد، والبعض الآخر لدفن الأموات ولم يزل يتعبد في ذلك المسجد إلى أن مات سنة 397 هـ (14).

نشأته :

تذهب المناهج التربوية الحديثة وعلم النفس إلى أن الوراثة تلعب دورا هاما في توجيه سلوك الشخص الذي لا يمكنه أن يتحرر مطلقا من كل ماله ارتباط

---

11) المقري : أزهار الرياض ج 1 / 29 ط. ق.

12) انظر تعليق ابنه على هذا النسب في التعريف ص 2، ثم أزهار الرياض ج 1 / 23.

13) الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ص 232 التعريف ص : 2.

14) التعريف ص 2 : 3.

وثيق بالأسرة أو العائلة التي نشأ فيها. وان ذلك ينعكس على شخصيته في المستقبل. وهذا ما نلاحظه بالنسبة لعياض الذي بدأ حياته العلمية بالقرآن ولا تنتهي الا اليه. وهذه ملاحظة دقيقة سنرى كيف توجه سلوك عياض في المجـــال الأدبي. وانه لم يستطع أن يتحرر منها في بعض أشعاره التي تعبر عن عواطفه الخاصة. وتصفه مصادر ترجمت. بأنه ظل طالبا للعلم حريصا عليه مجتهدا فيه إلى أن برع في زمانه وساد جملة أقرانه. وبلغ من التفنن في فنون العلم ما هو معلوم وكان من أئمة وقته في الحديث وفقهه وجميع أنواع علومه... متمكنا من اللغة والنحو أديبا شاعرا مجيدا يتصرف في نظمه أحسن تصرف. ويستعمل في شعره الغرائب مليح القلم من أكتب أهل زمانه. خطيبا فصيحا» (15).

كان له اهتمام كبير بقراءة كتب اللغة العربية متنها وأدبها وخاصة منها «الفصيح» لأبي العباس ثعلب. و«الامالي» لأبي علي القالي. و«الكامل» للمبرد و«أدب الكاتب» لابن قتيبة.

وقرأ أصول الفقه. وأصول الدين وعلم الكلام على مذهب أبي الحسن الأشعري. يدل على ذلك احتجاجاته المتكررة في كتبه بآراء الأشاعرة. كما أن من مناقشاته لكثير من الفرق الإسلامية تطلعنا على معرفته الواسعة بالمذاهب الاعتقادية وآراء أصحابها (16) ويذكر محقق المدارك أن صلة عياض بعلم الكلام وما يتبعه من جدل ومناظرة ومعرفة بدقائق آراء المخالفين لأهل السنة. تبين أن المدرسة التي أخرجت عياضا كانت على علم تام بالجدل والمناظرة. وان تهمة «مهدي» الموحدين الموجهة إلى علماء المغرب الذين لم يستطيعوا أن يثبتوا في مناظرته. غير قائمة ولا أساس لها من الصحة (17).

---

15) نفس المرجع ص. 4 ـ 5.

16) مقدمة المدارك نقلا عن الفنية.

17) نفس المرجع.

في حين نجد المراكشي يذهب إلى ما يخالف هذا الرأي مستدلا على ذلك بأن أمير المسلمين علي بن تاشفين حينما دعا الفقهاء لمناظرة «المهدي» لم يكن فيهم من يعرف ما يقول، حاشا رجل من أهل الأندلس اسمه مالك بن وهب (18).

وسنفصل القول في هذه النقطة حينما نتناول عياضا في مجال النقد.

صفاته :

يصفه ابنه بما يلي (.. ممتع المحضر عذب الكلام، مليح المنطق، نبيل النادرة، حلو الدعابة، لين الجانب، صبورا حليما، موطأ الاكناف، جميل العشرة، حسن الأخلاق بساما يكره الاطراء والافراط في التصنع منه وله مبادرا لقضاء حوائج الناس، صغير النفس، غير متكبر، جوادا سمحا، من أكرم أهل زمانه كثير الصدقة والمواساة، عاملا مجتهدا، صواما، يقوم تلث الليل الأخير لتلاوة جزء من القران، متدينا ورعا، متواضعا، متشرعا هينا لينا من غير ضعف صلبا في الحق، لا تأخذه في الله لومة لائم.. (19).

هدفنا من ذكر هذه الصفات هو تتبع صاحبها في المجال الأدبي لنرى مدى التزامه بها في هذا الحقل الذي هو محل لكثير من المنافسات والمنازعات وإلى أي حد استطاع أن يوظفها في حقل المعرفة الأدبية كوسيلة للتأثير، أو التوجيه في ميدان السلوك الاجتماعي، أو السياسي بوجه عام ويظهر أن عياضا عرف كيف يستغل هذه الوسيلة استغلالا شريفا أدى بأهل بلده «سبتة» إلى الالتفاف حوله والاستنارة بآرائه في شؤون السياسة والاجتماع، (20) مما جعل أمراء الوقت يحلونه ويكرمونه ويصون به خيرا في حله وترحاله.(21) ويستفاد من المراجع التي تحدثت عن رحلته إلى الأندلس (22) انها كانت تعني في حياته العلمية أمرين :

---

18) المعجب ص 184 : 185.

19) التعريف ص 4 : 6.

20) الأنيس المطرب ص 191، الاستقصا ج 2 / 104 : 113.

21) انظر هامش 23 من ص 6 في التعريف.

22) انظر عن رحلته ص 7 من التعريف وأيضا أزهار الرياض ج 3 / 99 وما بعدها.

أولهما التأكد من سلامة المنهج النقلي ومن كماله. ويتطلب ذلك تصحيح المتون المروية. والبحث عن أصولها ووصل أسانيدها بأصحابها والبحث عن أعلى هذه الأسانيد وأقومها وأصحها.

وثانيهما : تصحيح منهج التفكير. وإقامة أسسه على قواعد ثابتة (23) كذلك نراه يتولى أمر الشورى في بلده. ويتقلد قضاءها من جديد فيبتهج به أهل بلده. ولما ظهر أمر الموحدين بادر إلى الدخول في نظامهم (24) خشية الفتنة الدنيوية والأخروية.

ولما اشتد الحصار بسبتة سعي في استعطاف الموحدين إلى أن عفوا عما كان. وأخذوا بالصفح والغفران فملكوا البلد. وهكذا استمر الحال إلى أن نهض عياض إلى مراكش التي وصلها والحال متغيرة عليه فأقام بها. إلى أن توفي رحمة الله عليه سنة 544 هـ. ودفن بها بباب (ايلان).

الجانب الأدبي في حياته :

اشتهر عياض بالفقه والحديث والتفسير أكثر من اشتهاره بالأدب. غير أن هذه الشهرة العلمية لاتبعده عن مكانته الأدبية التي استطاع أن يحققها بين أدباء عصره. الذين تطبق عليهم نفس الشهرة. وذلك يرجع للدولة نفسها التي ظهرت بنفس المظهر. رغم ما حظي به الأدب من تشجيع ولذلك نجد صاحب «القلائد» يترجم لعياض بقوله : الفقيه الحافظ (25) كما يترجم لابن زنباع الشاعر المشهور المعاصر لعياض بـ : الفقيه الحافظ (26) وبهذا أصبحت نظرة الناس للأديب لاتوازي نظرتهم للفقيه حتى أن عياضا نفسه عكس هذه النظرة التي سادت في عصره لأنه كان لايحب أن يؤثر عنه قول الشعر. رغم أنه أنتجه. (27) وحينما

---

(23) عند مقدمة المدارك.

(24) التعريف ص 112 : الأنيس المطرب ص 191.

(25) القلائد ص 232.

(26) نفس المرجع ص 235.

(27) التعريف ص 29.

نتساءل عن مجال حدود هذا الشعر عنده في مرحلة الشباب أو الشيخوخة وموقفه من تدوينه وتسجيله كأثر أدبي يعبر عن موقف خاص، أو عام. فإننا نجد مجال حدود هذا الإنتاج الشعري يكاد لا يتجاوز مرحلة الشباب من حيث الكم لامن حيث الكيف أن هذا الحكم يبقى غير تام لأن ما وصل إلينا من شعره قليل، لا يكون إطارا عاما وشاملا نستطيع به التجربة الشعرية لعياض. ولعل إشارة ابنه لهذه النقطة بالذات، تؤيد ما نذهب إليه «كان شعره - رحمة الله عليه - في شبيبته كبيرا، لكني لم أجد منه بخطه إلا يسيرا.. لأنه لم يدونه ولا قيده، ولا أرى أن يؤثر عنه، ولا أعتقده» (28) وجل ما اجتمع لابنه من شعر أبيه، يعود إلى جهود الابن المبذولة في الاتصال بالأصحاب والأصدقاء الذين كانوا مولعين بالشعر بصفة عامة. ومنه شعر أبيه وفي التعريف وأزهار الرياض وغيرهما نتف متفرقة لاتتعدى البيت أو الأبيات الثمانية أو العشرة. ويظهر أن ما تركه عياض في مجال الشعرأقل بكثير مما تركه في باب النثر بقسميه، وهذا كما قلنا من حيث الكم لا من حيث الكيف، وإلا فانهما في مجال البلاغة أو البيان يفوزان بحظ وافر يتفاوت بينهما بقدر تفاوت طبيعة الشعر عن النثر. ومهما كان فإن صاحبهما الاتجاه السائد في عصره بما أضفى عليهما من صور بيانية ومحسنات بديعية مما جعل أحد معاصريه الذين اشتهروا بالبيان وحسن التصرف في الكلام يسجل له في أحد كتبه (القلائد) نماذج من الروعة بمكان مكين.

ويتضح مما خلفه انه لم يكن شاعرا بقدر ما كان كاتبا وناثرا لأن المعروف من شعره لا يرقى إلى نظام القصيدة. ولكنه على كل حال يكون فكرة عن عياض في مجال الشعر كشاعر يمثل الجدية في السلوك والاستقامة في الأخلاق (شرعية كانت أم سياسية) وتلك ميزة عامة يتميز بها أدب الفقهاء (29) الذي يعبر بصدق عن أعمق المشاعر الإنسانية، وأرق العواطف القلبية، تعبيرا صادقا

---

28) نفس المرجع.

29) عبد الله كنون : أدب الفقهاء ص 15.

يقف عند حدود اللياقة الأدبية، ولا يتجاوزها، مستعينا بالأسلوب الأدبي كأداة لخدمة الثقافة الإسلامية التي تهذب الأرواح والعقول ومن ثم يكون لمثل هذا الاتجاه الأدبي من الأثر في النفوس مالا يتحقق لغيره من الاتجاهات الأدبية الأخرى لأن الوسيلة الأدبية هنا استعملت كفاية لتحقيق هدف شريف، هوخدمة الثقافة الإسلامية، وتعميق مبادئها في سلوك الفرد والمجتمع، وهذا ما أشرنا إليه سابقا، حيث قلنا ان عياضا يستغل الأدب استغلالا شريفا كأداة للبناء لا للهدم، ونراه يؤكد هذا في شعره رغم ما يصاب به من أذى وهو في ذلك لا يتناقض مع شخصيته التي تميزت بصفات حميدة صاحبته حتى في شعره، وهذا ما دعانا لإبرازها آنفا.

إلى كم وكم أشياء منكم ترينـــي | أغمض عنها لست عنها بذى عمـــى
احاذر ان الحاف عنها بمثلهـــا | تكون لأسباب القطيعة سلمـــا
ساصبر عنها حتى يبلغ الموت بي | ولم أخنك ولو جرعتني الدهر علقما

استطاع عياض في بعض أبياته الشعرية القليلة ذات الطابع العاطفي الخاص انه يتحرى - نسبيا - من الصنعة، ولكنه لإبراز معانيه، ومن نماذجه الشعرية التي يمكن الاستدلال بها على إظهار براعته البلاغية وتطلعه فيها، هذه القطعة الجميلة التي تدخل في إطار شعر (الغربة) الذي عرفه شعراء العرب قديما وحديثا، وهذه الأبيات نظمها عياض عند توجهه لمراكش في طريقه ببلدة (داي) وهي ناحية بتادلا تولى القضاء بها سنة 541 هـ (30).

أقمرية الأدواح بالله طارحـــي | أخا شجن بالنـــوح أو بغنـــاء
فقد أرقتني من هديلك رنـــة | تهيج من برحي ومن برحـــاء
لعلك مثلي يا حمام فإننـــي | غريب (بداي) قد بليـــت بـــداء
تصفق فيها للرياح لواقـــح | كمـا ضعضعتنـي زفـــرة الصعداء

(30) التعريف ص 98 نقلا عن أزهار الرياض.

يذكرني سح المياه بأرضها   دموعا أريقت يوم بنت ورائي
ويعجبني في سهلها وحزونها   خمائل أشجار ترف رواء
لعل الذي كان التفرق حكمه   سيجمع منا الشمل بعد تنائي

وهي قطعة جميلة تعكس تجربة ذاتية، ومأساة خاصة، حلت بعياض أيام الموحدين ويظهر فيها تأثر عياض بالاتجاه الشرقي واستفادته على الخصوص من تجربة أبي فراس الحمداني صاحب الروميات المشهورة وخاصة منها تلك الأبيات التي ناجى بها حمامة وهو في الأسر لدى الروم، بعيدا عن أمه وأهله ووطنه والتي منها :

أقول وقد ناحت بقربي حمامة   أيا جارتا لو تعلمين بحالي

كما تذكرنا بغيرها من شعر الغربة وشعرائه من أمثال ابن زيدون وابن عباد وابن الخطيب، وابن عمار وغيرهم والأبيات تعبر عن شعور عياض بألم الفراق والغربة وحنينه إلى أهله وبلده فهي تصور بكل صدق وعاطفة لوعة صاحبها وحرقته، وهي بالإضافة إلى ذلك تبين عمق الثقافة اللغوية وحسن التصرف في الصور البيانية والألوان البديعية إلى جانب توفرها على عنصر الخيال الواسع المتجاوز للحدود الطبيعية التي تفصل بين المكانين : (داي وسبتة)،وقد استطاع أن يسبر اغوار النفوس التي تردد صداه، مشاركة إياه في مأساته التي يعكس فيها تجربة من التجارب المرة في حياة رجل عالم فاضل وعلم من أعلام الفكر له مكانته ووزنه في الأوساط الفكرية والعلمية كعالم جليل، وفقيه مقتدر، خدم الفكر والثقافة الإسلامية خدمة لا تنسى، أقر له بها الجميع، واعترف له بالفضل أهل الخير والصلاح والورع، ومع هذا كله فإننا نجد الرجل في نظمه يمثل التواضع التام والصبر والحلم والرزانة وهي من صفاته التي تبرز في نظمه وشعره كما يعترف أن الإنسان مهما بلغ من العلم والمعرفة والنضج الفكري فهو لا يصل إلى مرتبة الكمال ولا يتجاوز حدود طبيعته البشرية كإنسان يخطىء ويصيب، وهذا ما نلاحظه في النموذج الآتي الذي يدخل في باب الا بتهالات الربانية)والذي هو اعترافات صريحة يؤكد فيها عياض هذه الحقيقة البشرية التي لا يتجاوز معها

الإنسان قدره كبشر عاد مهما تبحر في العلم وتمكن من المعرفة وهي حقيقة لا تتناقض مع شخصية المعترف التي امتازت بتواضعها ولذلك نجد عياضا في جانبه الأدبي يلتزم التزامات مع تكوينه وشخصيته مسخرا هذا الجانب لتنمية روح الثقافة الإسلامية في نفس الفرد والمجتمع ومن ثم تجاوبت معه النفوس والأرواح.

إليـك بـؤت بذنبــي فاغفــر خطايــاي ربــي
وامنــن علــي بلطــف تجبــر بــه صــدع قلبــي
فقــد ركبــت ذنوبــا ســودت منهــن كتبــي
وطــال تقصيــر سعــي فــي كــل فــرض ونــدب
وقــد أســأت فأحســن فلــم تــزل محسنــا بــي
وجئــت أطلــب توبــا إذ ضــاق بالذنــب رحبــي
فاقبــل بفضلــك توبــي واغفــر برحمــاك ذنبــي
وعافنــي واعــف عنــي فأنــت يــارب حسبــي (31)

تذكر مصادر ترجمة عياض. أن أغلب شعره كان في مذاكرة الأدباء ومراسلة الشعراء والزعماء الذين سلموا له بالسبق. واعترفوا له بالعجز عن بلوغ مكانته الشعرية (32) وله في هذا المجال وغيره أشعار شهد له بالتفوق فيها معاصروه من شعراء وكتاب وأدباء وعلماء.

ولعل عياض يعد من طليعة هؤلاء الشعراء الفقهاء الذين مدحوا ورثوا ولكنهم لا يتخذون ذلك حرفة كما يفعل غالب الأدباء وتكتسي أمداحهم حلة خاصة من السمو الروحي لصدورها عن ايمان صادق بالممدوح ولهذا يتغنى بكثير في امداحهم ويكون لها من الوقع والقبول ما ليس لأمداح فحول الشعراء. (33) ومن هذا القبيل ما نظمه عياض في مدح الرسول الأكرم «ص» ذاكرا فضله على الإنسانية ومبديا حنينه وتشوقه لزيارة مدينته المنورة وتلك الأماكن المقدسة.

---

(31) نفس المرجع ص 97.
(32) نفس المراجع ص 98.
(33) أدب الفقهاء ص 15 : 16 بتصرف.

يا دار خيـر المرسليـن ومـن بـــه   هدي الأنام وخص بالآيـــــات
عندي لأجلـــك لوعـة وصبابـــة   وتشـوق متوقـــد الجمـــرات

والقطعة يبلغ عدد أبياتها ثمانية تمثل صدق العاطفة ونبل المشاعر. خصوصا وهي تذكرنا بتلك الأماكن المقدسة التي تعلقت بمحبتها همة الشاعر. وهذا ما جعـل المقـري يقول بعد قراءته لها ما نصه (برد الله ضريحه وقدس في الجنـان روحه. لقد أحكم في هذا الفصل المقال ووجد مجالا للمدح فقال (34).

ونظرا لما امتاز به عياض من أخلاق عالية. وفضائل سامية وشيم حميدة قلما تتوفر في غير أمثاله. فقد كانت محبة الناس له تعظم بقدر عظمة هذه الأخلاق في شخصيته ولذلك نراه أينما حل وارتحل يقع منهم موقع الأخ لأخيه والصديق لصديقة. فكانت المحبة متبادلة وصادقة. وكان الود والإخاء يرتفعان ارتفاعا يتجاوزان حدود الإقليمية ولا يقفان عندهاوهذه الأبيات الشعرية التي قالها في وداع أهل قرطبة عند رحيله منها من أصدق الأمثلة على ما نذهب إليه. وبذلك يوظف عياض الأدب كوسيلة للاتصال بين الإنسان وأخيه وهي فضيلةإسلامية يستغلها عياض في شعره ويستثمرها أحسن استثمار إذ يذكر فيها بما لأهل قرطبة من صفات حميدة وأخلاق نبيلة وانه كان فيها مستراح البال. كأنه بين أهله وأقاربه مما جعله لا يستطيب فراقها.

أقول وقد جد ارتحالي وغـــردت   حداتي وزمت للفراق ركائبـــي
وقد غمضت من كثرة الدمع مقلتي   وصارت هواء من فؤادي ترائبـــي
ولم تبق إلا وقفة يستحقهـــــا   وداعـــي للأحبـــاب لا للحبائـب

إلى أن يقول :

غدوت بهم من برهم واحتفائهـــم   كأنـــي فـي أهلـي وبيـن أقاربـي

يعلق الأستاذ عبد الله كنون على هذه الأبيات بقوله : (ولست بحاجة إلى التنبيه على ما في هذه الأبيات من دقة الوصف لحركة السفر. وشدة اللوعة لفراق

---

34) أزهار الرياض ج 4 / 179.

الأحبة وهذا الاستدراك الجميل والحذر في قوله : للأحباب لا للحبائب «خشية أن يفهم ما لا يليق بكرامته العلمية وهو في دار الغربة مما يدل أعظم الدلالة على حسن تصرف الشاعر وتملكه لناصية البيان والتعبير عما في ضميره وأدائه للمعنى المراد بكل سهولة وبكل براعة أيضا وتلك هي الغاية التي يتطلع إليها فحول الشعراء من غير أصحابنا الفقهاء» (35).

ونكتفي بما قدمناه في قسم الشعر محيلين من أراد المزيد على بعض المراجع والكتب التي أتت له بنماذج شعرية متنوعة (36).

وقيل فيه شعر كثير وتذاكر مع الأدباء والشعراء والزعماء الذين اعترفوا له بالتفوق. فمن ذلك ما خاطبه به الشيخ المسند أبو طاهر السلفي من ثغر الأسكندرية بعد أن كتب إليه عياض بقصيدة مطلعها :

أبا طاهر خذها على البعد والنوى　　تحية مشتاق لذكراك شيق

فأجابه الشيخ المذكور بقصيدة رائعة أثنى فيها عليه ورفع مكانته الأدبية منها :

أتاني نظم الألمعي الموفق　　يميس اختيالا بين غرب ومشرق
فطالعته مستبشرا فوجدته　　نتيجة فهم في البلاغة مشرق

إلى أن يقول :

فشعرك در والذي قد نظمته　　فمختلب قولا بغير تملق (37)

عياض الناثر :

تظهر مكانة عياض الأدبية في مجال النثر من خلال ما خلفه من آثار قيمة ومؤلفات هامة. كتب لها من الذيوع والشهرة ما لم يتحقق لغيرها حتى قيل في

---

35) أدب الفقهاء ص 62.

36) انظر التعريف ص 99 القلائد ص 232، المطرب ص 87، 92، أزهار الرياض ج 4 / 239 : 253. وفيات الأعيان ج 3 / 485، النبوغ ج 3 / 717.

37) انظر بقيتها في التعريف ص 103.

بعضها «لو وزن بالجوهر وكتب بالذهب لكان قليلا في حقه» (38) وحتى لا نخرج عن الإطار الذي رسمناه للبحث، نحيل على بعض المراجع التي رفعت من قيمة مؤلفات عياض بواسطة الشعر والنثر. (39)، وحسبما اهتدينا إليه فإن أغلب من تحدثوا عن تآليفه أثنوا عليها خيرا إلا ما كان من شيخ الإسلام «ابن تيمية» الذي تحفظ حينما رأى كتاب «الشفا» فوصف صاحبه بالغلو وحط من قيمته بقولته المشهورة «غلا هذا المغيربي» (40).

وقد أورد ابنه في التعريف نماذج من خطبه وتراسيله، وجملة من أخباره ونوادره تدل على مكانته الأدبية في باب النثر. كما أن «المقري» أتى بنماذج من نثره، وذكر أن له كتابا فيه سؤالات وتراسيل يقع في نحو أربعة أسفار. (41) بالإضافة إلى ما في «القلائد» من نثره البديع.

ونقصد بالنثر هنا «الفني» أي المسجوع الذي تتوفر فيه أدوات الصنعة الأدبية من محسنات بديعية، كالجناس والطباق والتورية والمقابلة وغيرها (42) حيث تطغى الألفاظ على المعاني وتصبح آلة مسخرة لتصيد الموضوع وتتحول الألفاظ إلى أهداف فتتقلص في ظلها المعاني حتى تصبح كأنها غير مستهدفة ولذلك قال أبو هلال العسكري في كتاب الصناعتين : «وليس الشأن في إيراد المعاني، لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي، وإنما الشأن في جودة اللفظ وصفائه وحسنه وبهائه ونزاهته ونقائه وكثرة طلاوته ومائه» (43).

---

38) المقصود به : «مشارق الأنوار» انظر مقدمة الجزء الأول منه.

39) انظر ثناء الناس على مؤلفات عياض في أزهار الرياض ج 4 / 343 وأيضا ص 273، 348 من نفس الجزء ثم الجزء الخامس ص 7.

40) أزهار الرياض ج 5 / 9 ونشير بالمناسبة إلى أن ابن عرفة رد عليه بأبيات شعرية في نفس المرجع كما أن فضيلة الأستاذ عبد الرحمن الفاسي كتب مقالا مفيدا في الموضوع في 37 صفحة بمجلة المناهل عدد 19.

41) أزهار الرياض ج 5 / 5.

42) التوسع في الموضوع انظر زكي مبارك : النثر الفني في القرن الرابع ج 1 / 49.

43) المرجع السابق ج 2 / 88، 129، ثم انظر رأي قدامة بن جعفر في السجع نفس المرجع ج 1 / 111 : 118.

ونخلص من هذا كله إلى أن طريقة ابن العميد (44)كانت متمكنة من أدباء الأندلس والمغرب على حد سواء في عصر المرابطين ومنهم عياض (45) وهي طريقة معروفة بقصر الفقرات. والاعتماد على سجعات خفيفة متنوعة تنتهي بها الجمل. كما اشتهرت بالاقتباس والتضمين والمحسنات البديعية التي عرفها الأسلوب العربي «بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد» (46) ونشير هنا الى أن الباحثين المحدثين مختلفون في نظرتهم الى ابن العميد (47) وقد تحكمت مقاييس الذوق الأدبي التي تأثرت بما ذكر في شخصية عياض الناثر. لذلك نراه يسير في نفس الاتجاه ويعكس تلك المدرسة البديعية بكل تعقيداتها الزخرفية. سيرا مع الميل العام والمناخ الأدبي السائد في العصر فمن ذلك هذا النموذج الحافل بأوجه الصنعة الذي التمس فيه عياض من صديقه «الفتح» ابلاغ سلامه وتحيته إلى الرئيس أبي عبد الرحمن محمد بن إسحاق بن طاهر (48) عمادى أبى نصر مثني الوزارة ووحيد العصر هل لك في منة تفوت الحصر تخف محملا وتبلغ أملا وتشكر قولا وعملا شكرا تترنم به الحداة ثقيلا ورملا. إذا بلغت العلية مستلما. ولقيت الطاهر بن الطاهر فخر الوزارة مسلما وحللت من فنائه الارحب حرما. ولمست بمصافحته ركن المجد يندى كرما فقف شوقي بعرف تلك. بكعبة ذلك الجلال سبعا. وبوئ لودادي في مقر ذلك ربعا. وابلغ تلك الفضائل سلاما يلتئم بصريح الحب التئاما. ويحسن عني بظهر الغيب مقاما ويسير بأرج الحمد انجاد واتماما (49).

ويظهر من النص السابق مدى التزام صاحبه باتباع مقاييس المدرسة البديعية التي سادت في عصره وكيف استطاع أن يطبق عناصر النثر الفني؛ التي

---

(44) نفس المرجع ج 2 / 235.

(45) القلائد : ص 233.

(46) الثعالبي : يتيمة الدهر : ج 3 / 2.

(47) النشرج ٢, ق 4 هـ : ج 2 / 245.

(48) ترجمته في القلائد ص 56.

(49) نفس المرجع ص 233.

تحكمت في اتجاهه الأدبي على مستوى هذا النثر، وما يستلزمه من زخارف لفظية نشرت وارف ظلالها البديعية على النص بكامله.

* فالمتني تعبير نحوي وقولا تعبير أصولي. وثقيلا ورملا. تعبير موسيقـــي. ومستلما تعبير فقهي.. إلخ وهذا كله يطلعنا على ثقافة صاحب النص وسعة إطلاعه وتحكمه في معارفه التي يوجهها توجيها حكيما على مستوى النص الأدبي شعرا ونثرا ليؤدي وظيفته التي يهدف إليها صاحبه في إطار خدمة الثقافة الإسلامية. يظهر ذلك جليا في اقتباساته من مناسك الحج وشعائره وتعلقه الشديد. بتلك الأماكن الحجازية والنجدية المقدسة التي تهفو إليها أفئدة المومنين.

ونحيل على نص آخر (50) يظهر بحق عمق الثقافة العياضية في حقل المعرفة الأدبية وسعة إطلاع عياض على أخبار الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام. وبعض الشخصيات المذكورة من خطباء وكرماء وأمجاد وفيه أيضا بوطن عياض الأسلوب الأدبي كوسيلة لخدمة الثقافة الإسلامية التي تشبع بها، ورأيناه في الشعر والنظم كيف يستغل هذه الوسيلة لنفس الهدف. وبذلك يكون اتجاهه الأدبي في قسميه الشعر والنثر متكاملا لانهما يتحركان في اتجاه واحد وفي ظل مبادىء وتصورات هادفة، تلتقي في مميزاتها وغاياتها مع ما امتاز به عياض من صفات نبيلة وغايات شريفة تعمقت في نفسه فظهر أثرها واضحا في اتجاهه الأدبي ومن هذه النصوص وغيرها مما يدخل في قسم الإخوانيات نجد رسائل عياض تتميز على الخصوص بقصرها، فهي لا تشبه رسائل عبد الحميد الكاتب من حيث الطول بل انها تختلف حتى عن بعض الرسائل التي كانت معروفة في الأندلس مثل رسائل ابن شهيد (51) وابن دراج وابن خفاجة (52) التي تتميز بطولها وبعد خيالها (53).

---

50) انظر النص الذي ذكر فيه عياض بعض شعراء الجاهلية والإسلام في القلائد ص 233، أزهار الرياض ج 4 / 1.

51) النثر الفني في ق 4 هـ : ج 2 / 368.

52) القلائد ص : 241.

53) انظر فقرات من الاخوانيات في النثر الفني في ق 4 هـ ج 1 / 201 .

بهذا أدركنا أن مساهمة عياض في الجانب الأدبي كانت متنوعة وهادفة ما بين شعر ونظم ونثر إلا أنه يبقى مع ذلك ناثرا أكثر من كونه شاعرا وأن الاتجاه الأدبي يكتسي صبغة خاصة في حياته وبذلك يكون منعطفا واضحا في مسيرته الثقافية لم يتجاوز به حدود الشاعر الفقيه وبهذا تظل شهرته العلمية قائمة أكثر من شهرته الأدبية لأنها تشكل في حياته من حيث العطاء العلمي إطارا أقوى وأوضح من الأدب.

عياض في مجال النقد :

لا شك أن من قرأ كتبا ك : «الفصيح» و «الأمالي» و «الكامل» و «أدب الكاتب» وغيرها من أمهات الكتب إلى جانب تمكنه من كتب الحديث، ومصطلحه وعلومه (54) لا بد أن يتكون عنده ذلك الحس النقدي وتلك الملكة التي يستطيع بها أن يوازن ويعقد المقارنات - التي منها الأحكام - في إطار معارفه النظرية من لغة ونحو وأدب وبلاغة وغيرها مما يدخل في تخصصه.

وإذا كان عياض اشتهر بالنقد في علوم الحديث أكثر من غيره فإن هذا لا ينفي كونه ناقدا في الحقل الأدبي وذلك لسببين اثنين :

أولهما : أن الناقد في مجال الدراسات الحديثية لا يمكن أن يكون ناقدا إلا اذا كان متمكنا من مادته اللغوية على مستوى التنظير والتطبيق ولا يتم له ذلك إلا بالاطلاع على الشعر والأدب وهذا ينطبق على نقاد الحديث الذين قيمهم الشعراء والأدباء ومنهم عياض.

وثانيهما : أن الناقد في الحقل الأدبي يبدأ من اللغة وينتهي إليها فلماذا إذن لاننظر بنفس الرؤية لعياض. وغيره من علماء نقاد الحديث وهذا ما جعل أحد الباحثين المعاصرين يخطىء من يعتقد من النقاد المعاصرين أن علوم الحديث لاصلة لها بالنقد (55).

---

(54) انظر ما قاله الحافظ السيوطي في أنواع علوم الحديث في تدريب الراوي ص 9.

(55) د. عبد الله الطيب المناهل عدد 19، ص 200.

وسأنظر لعياض في مجال النقد من زاويتين :

إحداهما ـ وهي الأهم ـ تمثل نقده على مستوى التطبيق كممارسة. وثانية ـ وان كانت ضيقة ـ تمثل مشاركته في مجال نقد الشعر حيث كانت له مواقف مما قرىء عليه، أو سمعه من أبيات شعرية أو عرض عليه من كتب أو تذاكر في شأنه.

وتظهر مكانته النقدية على مستوى التطبيق كممارسة من خلال بعض مؤلفاته كا : «الغنية» و «الشفا» و «المشارق» و «المدارك» والتنبيهات» و «بغية الرائد» التي تعد بحق من أهم رسائله الخالدة في حقل الدراسات النقدية وللغوية في المجال التطبيقي ونأخذها كنموذج عملي لأن عياضا تعرض فيها لما اشتمل عليه حديث أم زرع من الفوائد في مستويات أربع مبتدئا في ذلك بسند الحديث ومنتهيا إلى تفصيل الكلام في محاسن الحديث مقارنا وموازنا ومتنهيا إلى حكم. وقد أشار إلى هذا المنهج قبل ذكر سند الحديث (56).

وهكذا يظهر في المستوى الأول الذي تناول فيه سند الحديث وروايته مطبقا ما تعلمه من نظريات على ضوء مصطلح الحديث بقدر أمكن لعياض معه اظهار براعته وعمق ثقافته في هذا الميدان (57).

أما المستوى الثاني ففيه يستغل عياض معارفه اللغوية والنحوية مستعينا بها على فهم المعاني وما تحمله من دلالات وإشارات لا يمكن إدراكها إلا بالاعتماد على علوم الآلة وفي هذا الميدان أثبت عياض جدارته وحنكته وقدرته على التمكن من اللغة التي عرف كيف يستعين بها على ادراك المعاني وفهمها (58).

وفي المستوى الثالث تعرض لشرح الحديث شرحا وافيا بالمقصود موضحا معانيه بعد أن فسر غريبه وما تعلق بشؤون العربية وقضاياها في هذا الباب وكل هذا بطبيعة الحال داخل في صميم النقد الأدبي لأن التوصل إلى المعاني وابرازها

---

56) بغية الرائد ص 2، ط، ق.

57) انظر المرجع السابق حيث تعرض فيه لسند الحديث ص 2 ثم تفسير ذلك السند في ص 18.

58) نفس المرجع ص 26 : 31.

بعد تبسيطها وتقريبها إلى الفهم لا بد أن يكون شديد الارتباط بعملية تذوقها (59) وينتهي في المستوى الأخير إلى تفصيل الكلام في حديث «أم زرع» مستعينا في ذلك بما له من إمكانيات نقدية جعلته يبرز معاني الحديث موضحا منهج نظمه وما اشتمل عليه من صور بيانية وألوان بديعية كما يظهر في النص الآتي :
«ونحن الآن نفي بما وعدنا من ذكر ما اشتمل عليه هذا الحديث من ضروب الفصاحة وفنون البلاغة والأبواب الملقبة بالبديع في هذه الصناعة من لفظ رائق ومعنى فائق ونظم متناسب وتأليف متعاضد متناسب وبالجملة فكلام هؤلاء النسوة في الروايات المشهورة من الكلام الفصيح الألفاظ الصحيح الأغراض، البليغ العبارة... وبعضهن أبلغ قولا وأعلى يدا... فأنت إذا تأملت كلام أم زرع وجدته مع كثرة فصوله، وقلة فضوله، مختار الكلمات واضح السمات، بين القسمات... (60).

وهكذا يستمر في عقد هذه المقارنات بين كلام هؤلاء النسوة مبرزا كلام كل واحدة منهن مرة محكما معارفه اللغوية والنقدية وأخرى محكما ذوقه ومهارته في فن البلاغة منتهيا في كل هذه الموازنات إلى حكم تفضيل كلام «أم زرع» على غيرها من النسوة لما قدمه في النص من تعليلات علمية في إطار مقاييس النقد الأدبي من بلاغة ولغة (61).

أما الرؤية الثانية التي تمثل مواقف عياض النقدية في إطار الشعر وغيره فيمكن الإستئناس فيها ببعض النماذج التي تبين قدرة صاحبها وسعة إطلاعه فمن ذلك أن عياضا دخل على أحد أصدقائه في المسجد، وفي يده سفر فقال عياض ما بيمينك، فقال صاحبه : «اليتيمة». فقال عياض : فما تقرأ منها ؟ فأجابه : شعر محمد بن عبد الله السملالي، فقال عياض : فما تقرأ منه : فقال صاحبه : قصيده التي يقول فيه :

(59) نفس المرجع : ص 32 : 41.
(60) نفس المرجع ص 186 وما بعدها.
(61) نفس المرجع ص 190.

وقد ضاق العناق فلو فطنا دخلنا في المناطق والجيوب

فقال عياض : لو قال قدرنا لكان اشعر (62).

فهذه المحاورة بينه وبين صاحبه ونوعية الأسئلة تبين أن صاحبها على اطلاع كبير بشعر الشعراء وأخبارهم كما تبين معرفته «لليتيمة» وما تتضمنه وانه قرأها قبل صاحبه مما جعله يوجه اللفظ في البيت للغرض المقصود.

ومن هذا القبيل ايضا أنه كان جالسا بالمسجد بسبتة مع بعض أصحابه مدة حصارها حيث القطائع في البحر والعساكر في البر فقال صاحبه هذا البيت متمثلا به :

تكاثرت الظباء على خداش فما يدري خداش ما يصيد

قال الصاحب، فقال لي : بل :

تكاثرت الأسود على خداش فما يدري خداش ما يصيد

ومن أهم رسائله التي يمكن إلحاقها بهذا الباب تلك الرسالة التي تبارى فيها مع أهل الأدب الذين تعاطوا بينهم كأس الأدب وتباحثوا في شؤونه وتسابقوا فيه إلى أن قصدوا التعجيز فتطاول لها عياض وقال : انا لها. ولكل أمرهم» فعينت له الرسالة وكتبها (63).

وما دمنا في إطار مواقف عياض النقدية أشير إلى موقفه من بعض كتب الغزالي فقد تذاكر مع شيوخه كتاب «الاحياء» وقال : «لو اختصر هذا الكتاب واقتصر على ما فيه من خالص العلم لكان كتابا مفيدا» فقال له الشيخ فاختصره إذن فقال عياض أنت أخلق لذلك فقال الشيخ : أحقا يا أبا الفضل لئن لم تختصره فما في بلدنا من يختصره (64).

---

62) نفس المرجع ص 110.

63) التعريف ص 91.

64) المرجع السابق : ص 106.

وهذه نقطة هامة لا بالنسبة لعياض فقط ولكن بالنسبة للمرابطين الذين كان لهم موقف خاص من هذا الكتاب وهذا جدير بالبحث في نيتنا الإقدام عليه بعون الله (65).

عياض في نظر أهل العلم والأدب :

1) الفتح بن خاقان : «.. وهو على اعتنائه بعلوم الشريعة واختصاصه بهذه الرتبة الرفيعة يعني بإقامة ود الأدب. ويسل اليه أربابه من كل حدب..»(66)رأي الفتح بن خاقان الذي أقام عليه عياض حد شارب الخمر حين قصد مجلس قضائه مخمرا والقصة مشهورة (67).

2) الملاجي : «.. أشرف على مذاهب الفقهاء وأنحاء العلماء وأغراض الأدباء (68).

3) ابن عبدون الشاعر : أقسم حين لقي عياضا بسبتة انه ما قصدها إلا للقياه (69).

4) أبو الحسن بن سراج : لما أراد عياض الرحلة إلى بعض الشيوخ بالأندلس للأخذ عنه قال له أبو الحسن المذكور : «لهو أحوج إليك منك إليه» (70)

5) ابن فرحون : «.. عالما بالنحو واللغة وكلام العرب. وايامهم وانسابهم كاتبا شاعرا مجيدا. ريان من علم الأدب. خطيبا بليغا..» (71).

6) ابن الأبار : «كان جمال العصر ومفخرة الأفق وينبوع المعرفة ومعدن الافادة وإذا عدت رجالات المغرب فضلا عن الأندلس حسب فيهم صدرا» (72).

---

65) انظر ما يتعلق في التعريف ص 107، المعجب ص 178. طبقات الشعراني : ج 1 / 15 ثم الاتحاف : ج1 / 87 وما بعدها ومقدمة المدارك الجزء الأول التي أعيد نشرها في المناهل عدد : 19.

66) القلائد : ص 232.

67) التعريف : ص 112 القلائد ص : 232.

68) أزهار الرياض : ج 4 / 7.

69) مقدمة المدارك.

70) التعريف ص 106.

71) ابن فرحون : الديباج ص : 289.

72) أدب الفقهاء نقلا عن ابن الأبار.

7) محمد الفتحي المراكشي «.. من أهل العلم تضرب بعلمه وسعة حفظه الأمثال.. رزقه الله من الهيبة والوقار عند العلماء والأمراء.. والـولاة ما أوجب له قبول قوله » (73).

8) محمد فريد وجدي : «كان إمام عصره في الحديث وعلومه والنحو واللغة وكلام العرب وايامهم وانسابهم صنف التصانيف المفيدة له شعر حسن ذكره العماد في الخريدة ثم قال : كبير الشأن غزير البيان. مدحه أبو الحسن ابن هارون المالقي المتوفى سنة 621 هـ. بقوله :

ظلموا عياضا وهو يحلم عنهم   والظلم بين العالمين قديم
جعلوا مكان الراء عينا في اسمه   كي يكتموه وإنه معلوم
لولاه ما فاحت أباطح سبتة   والروض حول فنائها معلوم (74)

(73) السعادة الأبدية ص 32 : 34.
(74) محمد فريد وجدي : دائرة معارف القرن العشرين - المجلد السادس ص 703 والأبيات في أزهار الرياض ج 5 / 81.

صفحات من تاريخ أبي الفضل عياض

عبد الكريم التواتي

بسم الله الرحمن الرحيم

صفحات من تاريخ أبي الفضل عياض

ومسرى ركاب للحيا وقت ونت به ... نجائب سحب للتراب نزوعهـــــا
تعرضـــن غربـــا يبتغين معرســـا ... فقلت لها : مراكش وربوعهـــــا
لنسقي اجداثا بها وضرائحــــــــا ... عياض إلي يوم المعاد ضجيعهـــــا

«ابن زمرك»

تناول شخصية من طراز عياض، ذات الأبعاد الموسوعية علميا، وفي مختلف مجالات الفكر والثقافة، قضية صعبة للغاية، إن لم يكن أمر الإحاطة بها مستحيلا.

واذا كان الأمر هو ذلك، وكان لابد مما ليس منه بد، فإننا نرى أن يتوخى تناولنا لهذه الشخصية التركيز - وبعمق ما أمكن.. على دراسة عدة نقاط مهمة لها اتصال وثيق بكل الأنشطة التي شغلت الرجل، وكونت منه تلك الموسوعة المستوعبة وأبرزته معلمة على عصره دون سواه. وأهم هذه النقاط في نظرنا هو :

1) البيئة الاجتماعية التي رأى فيها النور أول وروده الدنيا. والوسط الأسروي الخاص الذي نشأ فيه وترعرع وتلقى أول العلوم. فإن دراسة من هذا النوع مع معرفة غير سطحية لجغرافية هذه البيئة مناخا وتربة وبشرا وحضارة وعمرانا وموقعا استراتيجيا. كفيلة بالتعرف ما أمكن على :

2) الروافد التي أسهمت في تكوين هذه الشخصية. والمسارب أو القنوات التي تلقت منها أوصبت هي فيها. ما جعلها تتمحور حول هذا النوع من العلوم والثقافات دون تلك أو تتوسع وتستوعب عديدا من الثقافات والعلوم في آن واحد. دون ملاحظة نتوآت أو ثغرات. ودون تهافت أو تعثرات. وانما مع الإتقان والإجادة والتوثيق والإفادة.

3) وعلى مواقفها من أحداث عصرها اجتماعيا وسياسيا. ثم مدى تأثرها بتلك الأحداث أو تأثيرها هي فيها... وعلى :

4) التعرف على الآثار الفكرية والثقافية المتخلفة عنها والتي هي مستندنا الأكثر ابتعادا عن التجديف والتهويمات الغيبية لدى محاولتنا معرفة أبعاد تلك الآثار. وما كانت تمثل حقيقة أوضاع واهتمامات الحقبة التاريخية التي عاشتها أو ما إذا كانت لم تمس منها إلا الظواهر والهوامش. ويعني كل ذلك أن دراسة الشخصيات التي من نمط عياض يجب أن تتوخى بالدرجة الأولى - ودائما في نظرنا - دراسة المجتمع بكليته. وعلى فكرة أنها تستقطب تاريخ تلك الفترة. وتوشك أن تكون آثارها تجسيما واقعيا لها.

وعياض. بما عرفته حياته من تقلبات عديدة. وما باشره من مهام متنوعة سياسية واجتماعية ودينية. وان حوول من طرف مؤرخيه القدماء. سواء منهم مؤلفو الطبقات. أو مؤلفو التراجم الأدبية أو العلمية عامة - أن يحصروا وصفه في القضاء بما يعنيه من علوم خاصة متمايزة. ومن مجالات الافتاء في النوازل والاحكام. لا يمكن - في نظرنا - لبحث مبتسر وتناول ضحل أن يلم بأهم الجوانب المتباينة في حياته أو ان يحيط بمواقفه المتعددة بل والمتمايزة عن بعضها البعض. وما

اكتنفها من ردود الفعل من مجتمعه الخاص يوم كان لا يزال يتقوقع ضمن محيط دائرته أو من المجتمع المغربي العام يوم أصبح يساهم في أنشطته واهتماماته ويتحمل قسطا من أعبائه ومسؤولياته. كما لا يسمح بحث من هذا النوع بتفهم تام لما أحيط بتلك الحياة. وبالأخص إذا اقتصرنا فيه على تناول نشاطه القضائي بعيدا عن أنشطته الأخرى.

والادعاء. بأن الاعتماد على فحص وفرز آثاره خاصة كاف لاستشفاف تلك المواقف واستكناه ما كان يراوده من أهداف. أو كاف حتى لمعرفة ما إذا كانت تلك الآثار إنما وضعت وأنشئت لمجرد إلهاء النفس وقتل الوقت أو حتى استعراض العضلات العلمية . لا يتساوق والبحث العلمي الذي يقرر أن الإنسان هو أولا وقبل كل شيء ابن بيئته وافرازات منه. ومن الرسوبات التي خلفتها الأطوار التاريخية المتعاقبة على تلك البيئة منذ نشأتها الأولى. أو على الأقل. منذ بدأت تعي نفسها عقلانيا وفكريا. ومن ثم فآثار الشخصيات هي تصوير لاهتمامات تلك البيئة وما كان يعتمل في نفوس وعقول أبنائها من غايات وأهداف وراء كل ما يأتون وما يذرون.

ولكل ذلك. فأراني مضطرا للقيام بدراسة عميقة عمودية لا أفقية للنقاط الأربع قبله. لمحاولة ابراز ما إذا كانت القولتان «لولا عياض لما ذكر المغرب» و «المغرب كله حمى لأبي الفضل» صادقين أم لا. والى أي حد صح لقائل هذا البيت - وهو يحاول اظهار خطورة الرجل في مجتمع مدينته سبتة - أن يكون أمينا.

لولاه ما فاحت أباطح سبتة والروض حول فنائها معدوم

ثم انني اعترف - انه لدى إقدامي على محاولة القيام بهذا البحث - وموضوعه كما قلنا ليس بالسهل فيرتقى. ولكنه سمين دسم ينتقي - انتابتني حيرة حين واجهت هذا العدد الضخم من الآثار التي خلفها الرجل في مختلف ميادين العلوم الإسلامية المعروفة لعهده... خاصة والعصر الذي نبغ فيه. كان في ظواهره الاجتماعية والثقافية العامة. عصر خرافات وتعلق بالغيبيات. واعتقاد في

المكاشفات. واشتغال بالتبركات ضدا على الكفر بالنبوءات. مما حمل عياضا رحمه الله أن يدلي هو الآخر بدلوه بين الدلاء حين وضع كتابه الشفا. والذي أغرق بعضهم في الادعاء. فاتهم عياضا بأن غرضه من تأليف ذلك الكتاب هو تأييد تلك الخرافات ودعم لتلك الضلالات. خاصة. وقد أحيط الكتاب من مستقبليه المؤيدين بغير قليل من الهالات وبأمور بعيدة مما قصده مؤلفه : من مثل الاستشفاء بتلاوته أو بوضعه تحت وسادة المريض. أو بين يديه. وتساءلت. كيف صح لهذا الرجل أن يجمع - في موضوع واحد تقريبا : السيرة النبوية والحديث - بين ما عد من صميم الخرافات والغيبيات في نظر من لا يسبر أغوار الأمور ولا يتقصى خلفياتها. ولا يفري أبعادها. وبين ماهو جديد وعبقري. حتى في نظر غير مؤيديه كصنيعه في كتاب «مشارق الأنوار على صحيح الآثار» وفي كتاب «الإلماع في ضبط الرواية وتقييد السماع » وكتاب «بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد» حين فحص ما ورد في هذه الكتب من موضوعات فحص الناقد البصير والصيد في الخبير.

ولذلك فقد توقفت كثيرا لدى محاولتي تناول تاريخ حياة الرجل بالبحث ولدى محاولتي تقصي حياته من خلال ذلك العدد الضخم من الآثار والأفكار. فلم أعرف من أين أبدأ ولا أين أنتهي. ثم قلت : لنبدأ بالتعرف على الرجل بالجملة أي : محتدا وعرقا ومنشئا وموطنا.

عياض بالجملة :

هو عياض أبو الفضل بن موسى بن عياض بن عروة بن موسى بن عياض بن محمد بن عبد الله بن موسى بن عياض اليحصبي. نسبة إلى يحصب بن مالك. قبيلة من حمير من قبائل جزيرة العرب. ويحصب - فيما يذكر أبو القاسم بن المجلوم وابن عياض أبو عبد الله محمد - هو: يحصب ابن مالك بن زيد الذي ينتهي إليه نسب إمام دار الهجرة مالك بن أنس الأصبحي إمام المذهب

المالكي. ولعل هذه الوشيجة بين الرجلين مما قوى مناصرة عياض لمذهب مالك، ويتبنى آرءاه العقدية والى الدرجة التي جعلته يقدم على تأليف كتاب من أهم كتبه في فن تاريخ الطبقات . وان إفراغ القاضي عياض أكبر الجهود في تدوين وتأليف كتاب المدارك للتعريف بمالك وأنصار مذهبه ليقيم الدليل القطعي على اقتناعه بصوابية هذا المذهب. وباتباع إمامه حتى فيما يخص التحرز من الخوض في مسائل علم الكلام. وتجنب المباهلة فيه إلا عند الضرورة القصوى أو عند نازلة.

وحتى لدى تحقيقه الروايات والأسانيد. يبتدىء بالأحاديث التي رواها مالك ويجعلها في المرتبة الأولى. وعليها يبني استنتاجاته الفقهية. وهو لكل ذلك يتخذه قدوته حتى في معاشرة الرجل أهله. معتمدا على حديث رواه مالك في الموضوع. وكان مالك يعلق عليه كلما ذكره بقوله «ان في ذلك مرضاة لربك ومحبة في أهلك ومثراة في مالك ومنشأة في أجلك. وقد بلغني ذلك عن أصحاب النبي. ويضيف عياض بدوره كلما عاوده هذا الحديث. وكان مالك ـ رحمه الله ـ من أحسن الناس خلقا مع أهله وولده. وكان يحدث ويقول : «يجب على الإنسان أن يتحبب الى أهل داره حتى يكون أحب الناس اليهم».

ولعل هذه التبعية والاقتداء بمالك هي التي حملته ـ لدى تأليفه كتاب المشارق ـ على أن يخصص بحثه ذاك بتسليط الأضواء على خصوص الصحيحين وكتاب مالك الموطأ. وأن يبتدىء دائما بمرويات مالك. وأن يكن اعتماد الصحيحين على هذه المرويات نفسها في أكثر ما اعتمدوه من حديث. إحدى الأسباب الاخرى القوية التي حثت عياضا على تقديم مرويات مالك ونحن لانعني بهذا أن الاقتداء بمالك جاء تقليدا وبدون دراسة متفحصة متمعنة ولدت عند عياض اقتناعا بصوابية ما اقتدى به... وانما نحاول أن نربط بين الرجلين أعراقا وعلما وأن نبرز تأثير العلاقات العرقية في بلورة اتجاهات كثير من الناس.

والانسياحات العربية من الجزيرة إلى الخارج شهدت موجات عديدة في أحقاب تاريخية مختلفة. كان من بينها . عدا الموجة الإسلامية.

الموجة الأكادية. وموجة الكنعانيين. وموجة الأشوريين. وموجة الأرابيين. وموجة اليمنيين (1) لأن بلاد العرب ـ كما يقول الدكتور جواد علي في كتابه تاريخ العربي قبل الإسلام «كانت خزانا هائلا يفيض في حقب متعاقبة تبلغ الواحدة منها زهاء ألف عام بما يزيد على طاقته من البشر إلى الخارج. يقذف بهم في صورة موجات قالوا لها الموجات السامية».

وما تزال الموجات العربية من الجزيرة إلى الخارج متواصلة حتى الآن. وان اتخذت شكلا مغايرا لما كانت عليه قديما. نظرا لتقدم وسائل المواصلات. ولما أصبحت تتوفر عليه الجزيرة العربية من خيرات الذهب الأسود الذي جعل مدخول أفرادها أعظم مدخول فردي في العالم. وربما أكثر حتى من سويسرا وأمريكا كما هو الشأن في دول الخليج على ما نشرته الصحف أخيرا (2).

وهذه الانسياحات لم تكن في جميعها تستهدف الإثراء الدنيوي. وانما كان منها ما يهدف للدنيا وما يهدف للآخرة أو لهما معا..

وكانت الأندلس في العهد الإسلامي. وبعد ان استطاع الأمويون أن يكونوا فيها دولة مستقلة عن بغداد عاصمة المسودة العباسيين. تضارع دولة الشرق عظمة وجاها وسلطانا. كانت هي المجهر الأثير للمهاجرين العرب في العهد الإسلامي سواء منهم أولئك الذين يهاجرون من أجل البحث عن المال والثراء. أو أولئك الذين يبحثون عن الشهرة العلمية والدينية.

وأسرة عياض عرفت بدورها هذه الانسياحة. وغادرت مساقط رؤوسها في الجزيرة في اتجاه المغرب العربي ثم الأندلس. وان يكن القدر كان يخبىء لها غير ذلك حين وجدت نفسها في النهاية تستوطن سبتة وينتهي بها المطاف. بعد تجوال عبر مدن مراكش ووجهات مختلفة في المغرب والقيروان والأندلس. إلى

---

1) انظر كتابنا (مأساة انهيار الوجود العربي في الأندلس) ص 22.

2) انظر جريدة العلم العدد 11231 سنة 55 بتاريخ 22 فبراير 1981 صفحة 5.

هذه المدينة التي كانت يومئذ من أهم المراكز الثقافية بالمغرب مع ما يكون موقعها على البحر من استراتيجية عسكرية واستيطانية.

وكانت رحلة أجداد عياض من الجزيرة العربية ـ كما يبدو ـ إلى مدينة بسطة أو بالتحديد إلى مشارفها كما يقول ابن الابار وابن عياض.

وقد يكون أولئك المهاجرون في طريقهم إلى مهجرهم مروا عبر القيروان، حيث استمرأوا الحياة زمانا ما، استطاعوا خلاله أن يؤثلوا فيها مجدا ويؤسسوا مركزا مرموقا سجله قائل هذا البيت :

وكان لهم بالقيروان مآثر عليها لمحض الحق أوضح برهان

وهذا البيت الشعري منسوب لعبد الله بن حكم أو حكيم، الذي يقول عنه الدكتور بنشريفة في هامشه على كتاب التعريف : انه قد يكون المدعو «ابن قرقوب» معاصر عياض وشريكه في الأخذ على أبي علي الغساني وأبي علي الصدفي (3).

واذ كانت الإقامة بالقيروان مجرد استراحة بدليل استئناف القافلة رحلتها، فقد واصل أولئك الجدود المهاجرون رحلتهم الطويلة.. ثم ماكان لمن يقصد الاندلس، عبر المغرب الأقصى أن لا يمر بحاضرته الفيحاء فاس، وقد كانت يومئذ مهوى أفئدة الوافدين من القيروان، أولئك الوافدون الذين أسسوا بها أعظم جامعة مسجدية قام فيها للعلم أسواق، وتلك هي القرويين، فما كان لأسرة، اشتهرت بانتمائها العلمي ان لاتزور هذه المدينة ومسجدها العظيم ولو للتبرك والاستجمام.

ويتحدث التاريخ عن أن جدود عياض المهاجرين لم يكونوا في ترحالهم متعجلين ولا مسرعين أو هذا على الأقل ما يفسر طول مكثهم واقامتهم بالحضرة الفاسية إقامة تركت بصماتهم بها وكانت لهم بها نباهة ملحوظة جعلت ابنين من أبنائهم وهما : عيسى والقاسم أخوا عمرون، يوخذ ان ضمن الرهن التي أخذها ابن

---

3) التعريف الهامشي ص 2.

أبي عامر أو ابنه عبد الملك المظفر من أهل فاس ضمانا لولائهم وطاعتهم حتى لا يعودوا إلى الانتقاض على السلطة المركزية العامرية بالأندلس.

ولعل الحنين الدموي والعرقي إلى تلك النباهة هوالذي سيحمل حفيد هذه الأسرة القاضي عياضا لرحلة جديدة إلى فاس كما سيمر بنا لدى إشارتنا لرحلاته..

واذا كان التاريخ يسكت عن مصير الرهينين ولا يحدثنا عن مالهما، فانه على العكس من ذلك يحدثنا عن نهاية مطاف اخيهما عمرون وأسر هذه الأسرة بسبتة ومؤسس وجودها هناك، حيث يقول عن هذا : إنه ارتحل إلى هناك حيث اقتنى أملاكا بما حمله معه من مال، وكان من جملة ما اشتراه قطعة أرضية أقام عليها مسجدا، انقطع به للعبادة إلى حين وفاته سنة سبع وتسعين وثلاثمائة هـ 397 هـ.

وكان عمرون هذا رزق ابنا أسماه عياضا، واسم هذا الجد الذي تكرر لفظه في شجرة نسب أبي الفضل، هو الذي أطلق على صاحبنا ومترجمنا لدى وفادته على الدنيا في النصف من شعبان سنة سبع وسبعين وأربعمائة 476 هـ كما يقول ابنه في التعريف . وفيما رآه بخط أبيه.

ونرى قبل تناول آثاره الفكرية ومركزه الثقافي والعلمي، أن نلقي نظرة مقتضبة ولكنها مركزة على مدينة سبتة مسقط رأسه، وما أسهم به في أحداثها وحوادثها مما كان له الآثار الواضحة في تكوينه وبلورة حياته الاجتماعية والسياسية، ثم ما أدت إليه تلك الآثار من نتائج كانت محنة عياض ابرزها وأوضحها دلالة بما انتهت إليه من تغريبه إلى مراكش حيث لفظ أنفاسه بسبب تورطه في الثورة على الموحدين كما تتحدث بعض الروايات التاريخية.

سبتة ومحنة عياض :

نحب في بداية حديثنا عن سبتة أن نثبت كلمات تحاول إبراز قيمة هذه المدينة موقعا وتاريخا وحضارة وثقافة وعمرانا.

«مدينة سبتة عروس المجلى، وثنية الصباح الأجلى، تبرجت، تبرج العقيلة ونظرت وجهها من البحر في المرآة الصقيلة، واختص ميزان حسناتها بالأعمال الثقيلة وهي خزانة كتب العلوم، والآثار المنبئة عن أصالة الحلوم» (4).

حييت يا مختط سبت بن نوح ... بكل مزن يغتدي أو يروح

مغنى أبي الفضل عياض الذي ... أضحت برياه رياض تفوح

وقبل قالة لسان الدين تلك قال مالك ابن المرحل في سبتة :

سلام على سبتة المغرب ... أخية مكة أو يثرب

ويقول شهاب الدين المقري - لدى حديثه عن استيلاء البرتغال عليها - :
«وبقيت آمنة من شرور الدنيا وأهوالها، وأطلعت في سمائها نجوما، كانت علومها رجوما، كعياض المؤلف فيه هذا الكتاب».

وبعد فتلك كلمات قيلت في سبتة، وان لم تكن تفي بالغرض، فهي بعض مما لها عرض.. والمتقصي لوضعية مدينة سبتة تاريخيا وجغرافيا وحضاريا يلاحظ بادىء بدء - وطيلة تاريخها الإسلامي - ان المكانة العلمية التي اكتسبتها عبر تاريخها الطويل، حتى منذ نشأتها على يد سبت بن يافث بن نوح أخي أندلش - كما يقول الحجاري في المسهب - إلى حين فتحها إسلاميا على يد موسى بن نصير صلحا لقاء جزية يؤديها حاكمها يوليان الغماري، هذه المكانة ولدت لدى سكانها عقدا نفسية تجاه الدخلاء والأجانب عنها، وكان منشأ برز صورها عقدة العظمة والاعتداد بالنفس ومن ثم رفض أية تبعية كانت لأي حكم مركزي يفرض عليها من الخارج.

وقد كانت السلطتان الإسلاميتان اللتان ظلتا تتحاوران السيادة السياسية على هذه المدينة أعني سبتة، أي السلطة الأندلسية أو السلطة المغربية، تعترفان إلى حد ما بهذه العقد النفسية التي تجدها سبتة من كراهيتها للخضوع الأجنبي، حتى ولو

---

4) كلمات للسان الدين بن الخطيب في سبتة.

تبطن بالاخوة الدينية إلا في حدود. فكانت تلك السلطتان ـ مراعاة لتلك العقد تمنحان الجزيرة شبه استقلال داخلي بأكبر مفهوم تدل عليه لفظة داخلي سياسيا واجتماعيا واقتصاديا.

وفي هذا الإطار أفهم أنا أسباب الثورات والانتقاضات ـ إلا في فترات ـ التي ما انكفت تشهدها هذه المدينة وبالأخص في عهد الموحدين. حيث كان عياض بلغ أشده وأصبح شخصية يشار إليها بالبنان في المجتمع السبتي؛ ففي هذه العهد الموحدي ـ وقبل استتاب الأمر لهم في عموم المغرب ـ شهدت هذه المدينة أربع ثورات أخذ بعضها بخناق البعض فقد حاصرها أول مرة عبد المومن حيث كانت أغلقت أبوابها في وجهه رغم حصارها من طرفه فيما أسمي بحرب السنوات السبع من 534 هـ إلى 541 هـ 1140م إلى 1147... ولم تذعن له إلا بعد وفاة أمير المسلمين تاشفين بن علي سنة 539 هـ وإلا بعد دخول الموحدين تلمسان وتمكنهم من فاس التي كانت بدورها استعصت عليهم خمس سنوات كاملة حاصروها فيها. ولم تستسلم إلا بعد أن أغرقوها بالطوفان الاصطناعي الذي كونوه بإحداثهم سدا أقاموه لهذا الغرض.

ثم انتفضت سبتة مرة أخرى. وبعد عودة وفدها الذي كان توجه برئاسة عياض نفسه لمبايعة عبد المومن الذي استقبلهم بسلا سنة 540 هـ. 21 ماي 1144م. وفي هذه المرة احتدت ثورتها إلى الدرجة التي أجهزت فيها على كل من كان بها من الموحدين.

وهدأت حينا لتعود للثورة حين رأت حرج الموحدين أمام صمود البرغواطيين في وجههم وكانت الثورة هذه المرة بزعامة ابن هود.

وكانت هذه المدينة تهتبل كل فرصة تتاح لها لإعلان عصيانها. وتمردها. فقد تخلى البرغواطيون عن ابن هود وانضموا الى يحيى ابن أبي بكر الصحراوي الذي كان فر من فاس أثناء حصارها قاصدا طنجة لمحاولة إقامة دولة مرابطية في الشمال. فما كان من السبتيين الآن اظهروا كامل استعدادهم للانضمام إلى الثورة والعصيان.

وازاء هذه النفسية التمردية للسبتيين التي لاتسكن ثائرتها حينا إلا لتفور أحيانا كانت السلطتان الزمنيتان اللتان أشرنا إليهما سابقا تشعران بحاجتهما الملحة والدائمة إلى تملق ولاء هذه المدينة بمختلف الوسائل باللين حينا وبالعصا والقوة حينا آخر. تفاديا لحدوث المزيد من الانتفاضات والثورات. وحفاظا على سلامة ما تمثله من معبر استراتيجي. وصلة وصل بين الصقعيين أولا. وضمانا لولائها كقاعدة حربية استراتيجية للدفاع الشمالي عن المغرب والجنوبي عن الأندلسي.

واذا أضيف إلى كل ذلك اعتبار أن المدينة تكون نقطة وصل بين الصقعيين : المغرب والأندلس وبين إفريقيا مع بقية العالم الإسلامي الممتد شرق المغرب. علمنا مدى الخطورة التي تكونها هذه المدينة على مصائر الأحداث في هذه البقعة في العالم. مما أكسبها وضعا خاصا. لعله هو وحده الذي ما يزال يحول بين قيام تفاهم حقيقي لتسوية مصير هذه المدينة بين المغرب الذي هو صاحبها الشرعي وبين اسبانيا التي ما تزال تصدر في مواقفها تجاه هذه المدينة من النظرة الاستراتيجية العسكرية والجغرافية لجزيرة ايبيريا واسبانيا.

وايمانا من المغاربة بأهمية سبتة في مختلف الميادين كانوا يعتبرونها وفاسا إقليما واحدا لما بينهم من وحدة حضارية وثقافية. ومن ثمة فهم يعتبرون انه مادامت هاتان المدينتان تحت السلطة المركزية فإنه لاخوف على هذه السلطة من أية ثورة أو انتفاض. وبهذه النظرة عاشت المدينتان لفترة تاريخية جزأين لإقليم واحد يخضع لإدارة موحدة فقد نقل الدكتور التازي عن قلائد العقيان أن الظهير الذي عين بموجبه أبو زكرياء يحيى ابن أبي بكر واليا. على فاس نص في نفس الوقت على كونه - وبنفس الظهير - واليا على سبتة بوصفها جزءا من إقليم فاس. والظهير من انشاء أبي القاسم بن الجد (5).

---

5) المناهل : العدد 19 ص 473.

ونظرا لهذه الاستراتيجية التي تحتلها هذه المدينة تحولت مع مرور الأيام - وبفضل كثرة من كان يعبرها ذهابا وإيابا من الشرق العربي إلى الأندلس، إما للغزو، والفتح ونشر الدعوة الإسلامية، وإما طلبا للرزق والشهرة في مختلف الأنشطة العلمية والفنية، إذ كانت قاعدة الأندلس - قد أصبحت في نظر أولئك القوم - وكما أشرنا سابقا - بنفس المكانة التي تمثلها أمريكا في العصر الحديث لكل المهاجرين الأوربيين الذين ينشدون الإثراء وتجربة حظوظهم في مختلف الميادين المالية والعلمية والفنية.

وبفضل هذا العبور، تحولت مع مرور الأيام - كما قلنا - إلى قاعدة لاستقبال أقطاب الفكر من العلماء والمفكرين والفلاسفة والأدباء، خاصة وقد تحولت كذلك إلى شبه محطة استراحة لتلك الجيوش الغازية التي كانت تمثل المد والجزر بين الصقعين مما كون منها مركزا من المراكز الأولى للثقافة الإسلامية في هذا المغرب الكبير إلى جانب مركز القيروان، وهكذا احتضنت غير قليل من الجهابذة الذين كان لهم فضل السبق لتكوين المجتمع السبتي ثقافيا وفي مختلف الميادين المعروفة لعالمئذ.

وقد تكونت بجانب ذلك - وبفضله - مجتمعات متحضرة متمايزة، صبغت المدينة صبغة خاصة وأحدثت في أهلها طموحات علمية وسياسية، وكونت لها شبه ذاتية مستقلة عن بقية المقاطعات المغربية اعترفت بها - تقريبا - جميع السلطات الزمانية التي تعاقبت على هذه المدينة.

وكانت سبتة عبر تاريخها الطويل محط أطماع الغزاة والفاتحين للصقعين المغرب والأندلس ولكل العابرين منها إلى أحدهما أو إلى أوروبا - وكانت استراتيجيتها تلك وموقعها الجغرافي الشبيه بالجزيرة - إذ يحيط بها البحر تقريبا من جميع الجهات هو السبب المباشر لتلك الأطماع التي ما انفكت تتحكم في مصيرها.

وفي نفس هذا الإطار يجب أن يفسر الوجود الاسباني الحالي في هذه المدينة والذي تمخض عن انهزام البرتغال أمام اسبانيا حين قتل الملك «سيباستيان»

رابع غشت 1578م ذلك أن البرتغال كانت منذ سنة 819 هـ 1415م قد تمكنت من الاستيلاء على هذه المدينة في محاولة لصد المغاربة عن العودة إلى الجزيرة الأندلسية. وفي نفس الوقت للتربص بالمغرب والإيقاع به في شباك استعمارها. ونعرف جميعا أنها كانت قد استطاعت بسط نفوذها على بعض الثغور في محاولة للإطباق كلية على المغرب. وأن السلطان محمد بن عبد الله العلوي كان قد حرر تلك الثغور وأعادها إلى المغرب. وكانت البرتغال حفاظا على وجودها في هذه المدينة استعانت بملك غرناطة سنة 1410م.

وقد ظلت سبتة تحت النفوذ البرتغالي ـ كما قلنا قبل ـ إلى رابع غشت 1578م حين قتل الملك «سيباستيان» بوقعة وادي المخازن فاستغلت اسبانيا تفوقها العسكري حينئذ على البرتغال وانتزعت منها عدة مناطق كانت سبتة من بينها. وذلك على يد فليب الثاني سنة 1580م هذا الملك الذي كان امتد نفوذه حتى إلى بعض الأجزاء في التراب البرتغالي نفسه.

وحين استرد البرتغاليون بعض أنفاسهم. واستطاعوا إرغام الاسبان على الاعتراف لهم بالاستقلال عام 1640م بمقتضى معاهدة لشبونة التي أبرمت بين البلدين في 19 فبراير 1668م. طالب البرتغاليون بمقتضى البند الثاني من هذه المعاهدة التي نص ـ نظرا لما أشرنا إليه من الاستراتيجية التي تتمتع بها سبتة ـ على إجراء استفتاء شعبي بين سكان هذه المدينة يختارون فيه بين البقاء تحت الاحتلال الاسباني أو العودة إلى المواطنة البرتغالية. ولكن بما أن الحق للأقوى دائما وأبدا. فقد كان ذلك البند من تلك المعاهدة مجرد ذر للرماد في العيون ولجعل البرتغاليين ـ حفاظا على ماء وجوههم ـ يستسيغون النتيجة المنتظرة من وراء استفتاء يجري تحت أسنة الحراب. إذ احتفظت اسبانيا بالمدينة إلى الآن ولم يجر أي استفتاء.

ولم يجهل العلويون استراتيجية المدينة ولا قيمتها على المحافظة على استقلال المغرب ووحدته الترابية بقطع النظر عما تمثله المدينة من قوة اقتصادية بفضل وقوعها على البحر المتوسط وفي مقابلة جبل طارق وقربها من المضيق.

ولهذا فقد قام المولى إسماعيل العلوي ـ رحمه الله ـ بمحاصرتها مرتين أملا في استردادها إلى حظيرة الوطن. المرة الأولى سنة 1693م والثانية 1701م وفي هذه المرة الثانية دام حصار المولى اسماعيل لها سبعا وعشرين سنة.

وتابع الملوك العلويون الذين جاءوا بعد المولى اسماعيل نفس الموقف من هذه المدينة. وخاصة السلطانين المولى عبد الله الذي ضرب الحصار عليها سنة 1732م والمولى يزيد الذي ضرب عليها الحصار هو الآخر سنة 1790م.

ومن يومئذ. وجميع المغاربة مع تفاوت درجات ثقافتهم التاريخية والجغرافية ينظرون إلى أن بقاء هذه الميناء في أيد أجنبية يهدد وحدة الوطن. ويضربها في الصميم ويحمل جميع المغاربة مسؤولية افتكاك المدينة من الأسر وإعادتها إلى الوطن الوالد.

ونحن إذا رحنا نتعقب تاريخ هذه المدينة وموقف السلطات الزمانية التي تعاقبت على ادارتها منذ أقدم العصور إلى الآن. سنلاحظ أن معاملتها للسكان السبتيين تراعي دائما قيمتها الاستراتيجية وما ولدت هذه الاستراتيجية في نفوس أبنائها من عقدة العظمة والاستنكاف من الخضوع المطلق للأجنبي. فكانت كل تلك السلطات تقدر آثار هذه العقدة النفسية بمنح المدينة وسكانها ـ كما قلنا ـ شبه استقلال داخلي يتجلى الآن ـ كما هو الشأن في أختها مليلية ـ بمنحها استقلالا ذاتيا باعتبارها شبه منطقة حرة. وإن اضمحلت الآن في هذه المدينة أي سبتة كل مظاهر الثقافة والحضارة والعمران التي شهدتها أيام القاضي عياض ومن سبقه من الأسر الإسلامية التي صبغت سبتة لعدة قرون من الزمان. وما تزال بصبغة خاصة. يمثل القاضي عياض نموذجها الممتاز.

وكان طبيعيا ـ إزاء تلك الوضعية الخاصة التي امتازت بها هذه المدينة ـ أن ترفض منها الطبقة الواعية من أبنائها. ـ كلما وجدت الفرصة سانحة ـ فرض أية وصاية أو حماية أجنبية. بل وتحاول انتزاع ما يتمتع به الأجانب عنها من امتيازات ويختصون به من اعتبارات.

ثم ينبغي أن لاننسى أن الظروف التي نؤرخ فيها لسبتة والتي خاض غمارها عياض هي ظروف كانت تتسم فيها الحياة السياسية والاجتماعية في كل الأصقاع الإسلامية تقريبا بالفوضوية والانتفاضات على السلطة المركزية ومحاولات اقتطاع الجزء أو الأجزاء من ممتلكاتها الشاسعة أو الأطراف لإقامة امارات وبناء دويلات.

وكان المغرب - يومئذ - بين كماشتي كلابين. كلاب الفاطميين العبيديين في تونس الذين انطلقوا كما نعلم من سجلماسة يؤسسون دولتهم الشيعية على أنقاض دولة المرابطين المنهارة ودولة الموحدين التي لما تفرض بعد سيادتها الكاملة. على مجموع أقطار الشمال الإفريقي الإسلامي مع ما كان يحدثه الخارجون عن القانون من الهلاليين وبني سليم من فوضى وعدم استقرار في هذا الجزء من المعمور. ثم كافة دولة الأمويين في الأندلس التي كانت تحتضر يومئذ. ومع ذلك فهي تتمخض عن ثورات انفصالية وانتقاضات يؤج لهيبها ملوك الطوائف ويحرض عليها الأعداء التقليديون للوجود الإسلامي هناك. على أن ماكانت تشهده الساحة المغربية نفسها من حركات ثورية. ومن مذاهب عقدية منحرفة عما اعتاده الجمهور المغربي من مذاهب خارجية والحادية مما كان يجسمه البرغواطيون طيلة الفترة الممتدة ما بين انهيار دولة الأدارسة إلى قيام المرابطين.

ان ما كانت تشهده تلك الساحة عرض المغرب إلى انقسامات وتجاذب بين مختلف التيارات السياسية والعقائدية التي كانت تزخر بها تلك الساحة مما سهل لكل متصيد في الماء العكر أن يجد له فرصة المحاولة إما للاستبداد بالحكم لنفسه سافرا أو لمحاولة الاستبداد به تحت غطاء وشعار إحدى الدولتين اللتين كانتا يومئذ تتعاوران الرقعة الإسلامية وتتنازعان السلطة الزمنية على الشمال الإفريقي والأندلس.

فكان طبعيا - والحالة تلك - أن تراود السبتيين - وهم من عرفنا حبا في الانعتاق مع ما تتمتع به مدينتهم من مركز جغرافي مهم. تحميهم من الغزو الأجنبي ما لم يكن مدعما بقوة بحرية هائلة. ومع مايمدهم به وجودهم الحضاري

والعلمي من روافد جد مهمة وأساسية لتكوين دولة مستقلة إقليميا عن مجموع تلك الأصقاع وتلك القوى المتنازعة عليها ومن أجلها. والتي قد يكون تنازعها لصالحهم. أقول كان طبيعيا أن يفكر من يجد القدرة على العمل. ويجد السند الشعبي على التحرك أن يحاول قيام حكم ذاتي مستقل في سبتة.

وحيث أنه لم يكن في الميدان يومئذ ـ كما يثبت التاريخ ـ من كان يضارع القاضي عياض، إذ كان هو رجل الساعة غير منازع. دينيا واجتماعيا وسياسيا، وربما اقتصاديا أيضا إذ كان ذا ثروة ضخمة مما ورثه عن أبيه ـ كما سنذكر ـ فقد يكون فكر أن من حقه أن يتطلع لاحتلال مركز القيادة الوطنية. ومحاولة الانفراد بحكم مدينته بعيدا عن التبعية والاحتواء الأجنبي

وفي هذا الإطار أدرج أنا ما اكتنف حياة ومواقف عياض من تقلبات السلطة الزمانية وبالأخص منها الموحدية. ما بين الولاء والانتقاض أو محاولة الانتقاض. إذ كان يمثل أصدق تمثيل نفسية السبتيين إزاء كل سيطرة أجنبية مطلقة.. فقد لوحظ انضواؤه تحت لواء الموحدين مرتين وانتقاضه عليهم مرتين في ظرف وجيز بالنسبة لقيام ثورة أو إعداد للانتقاض. وكانت انتقاضته ضدهم في إحدى المرتين قد تجاوزت الحدود الضيقة والداخلية لسبتة إلى الاستنجاد بالخارج بيحيى بن غانية المسوفي الذي حاول الاستبداد بحكم قرطبة تحت غطاء التمسك بدعوة المرابطين. بل وحاول عياض اللحاق بركب ابن غانية مما شجع هذا على تعيين يحيى بن أبي بكر الصحراوي واليا جديدا على مدينة سبتة. حين تمكن ـ كما قلنا ـ من فك حصار فاس وفر إلى شمال المغرب أملا في استعادة دعوة المرابطين أو إنشاء مملكة خاصة به تستظل بدعوة المرابطين.

ويبدو أن السبتيين لم يرتاحوا لولاية هذا الصحراوي. فما أن وجدوا الفرصة سانحة لتخيل إمكانية إقصائه حتى بادروا لمباشرتها. فقد انتقضوا ضده. وحاولوا الإيقاع به كما أوقعوا ببعض ولاة الموحدين قبله. وقد كان هذا الصحراوي في بداية ولايته مع السبتيين وابن غانية. فلما رأى السبتيون تراجعه ودخوله في طاعة الموحدين قلبوا له ظهر المجن وتدخل القاضي عياض هذه المرة لإنهاء

غضب الموحدين على السبتيين. وقد قبلت شفاعته ووساطته فعفا الصحراوي عن السبتيين وشملهم بعطفه.

وهكذا نلاحظ أن القاضي عياضا. كان لا يجاهر الموحدين بالعداء. ولكنه لا يكن لهم عطفا ولا تأييدا. وانما هو يتقلب في دائرة المحافظة على مصالح بلدته وقومه. وعلى مركزه الاجتماعي وهذا ما يفسر استعداده لممالأتهم حين يرى أن لافائدة في المعارضة. فحين رأى أن محاولات انفصال سبتة باءت بالفشل دائما. وقد كان توفي تاشفين بن علي وانفرطت خلافة المرابطين تحت ضربات الموحدين. وان تكن فلول المقاومة ما تزال تواصل في لهاث وأنفاس متقطعة النضال لإنقاذ ما يمكن إنقاذه. وبالأخص حين ثار ابن هود وابن غانية والبرغواطيون أقول : حين رأى فشل كل هذه المحاولات الانتقاضية أبدى عياض كامل استعداده للاعتراف بالأمر الواقع وهكذا اندفع بنفسه إلى لقاء عبد المومن بسلا لإعلان الولاء أثناء توجهه أي عبد المومن لمحاصرة مراكش.

ولا شك أن حركة عياض هذه هي بدورها كانت بدافع الحرص على ماتتمتع به مدينته من مركز خاص مرموق. ومن ثمة الحفاظ على مكانته كمسؤول - أو كالمرشح الدائم لتحمل المسؤولية ولو أدبيا عن مصير هذه المدينة. التي كانت أسرته كونت لها فيها امتيازات دنيوية بفضل مركزها العلمي والاجتماعي. هذا المركز الذي كان عياض يومئذ يمثل أوجه ويجسم خطورته. خاصة وقد كان مركزه كقاض - والقضاء يومئذ يضاهي أكبر مركز سياسي في الدولة. ولا يعلو عليه إلا مركز السلطان حين لايتعارض هذا مع الدين أو ما يعتقد أنه دين - يتيح له أن يكون على علم بالأحداث وما يدبر أو يخطط في الخفاء...

فنحن نعلم أن الرجل كان تولى سلطة القضاء في هذه المدينة لمدة طويلة جدا جاوزت الخمس عشرة سنة. وهي مدة كفيلة بمنحه مزيدا من التفوق والمكانة. مع ما كان عرف عنه من علم واسع وثقافة لاتدافع. وما اشتهر عنه وظهر

من صلابة شديدة في الحق لا يخشى في المحافظة عليه والذود عن حياضه لومة لائم مع وقوف تام وتطبيق كامل لحدود الشريعة. حتى انهم ليذكرون عنه في هذا الموضوع - ايمانا بضرورة قيام العدالة واحترام حدود الله - إقدامه وعدم إحجامه عن إقامة حد السكر على أديب العصر وكاتبه الكبير مؤلف قلائد العقيان والمطمح : الفتح بن خاقان أمام الجمهور حيث جلده حين استنكهه فشم فيه رائحة الخمر... ورجل من هذا القبيل ما كان ليتورع - باسم ماكان يمثله من صيانة الشريعة - عن الخوض في الأحداث السياسية متى رأى أن تدخله ضروري لتقويم المعوج منها وتصحيح الخطأ فيها. وبما يناسب طموحاته ومركز مدينته. مستغلا ماكان يموج به العصر من محاولات انفصالية ومن ثورات ضد الحكومات المركزية أملا في اقتطاع صقع أو أصقاع لإقامة إمارة أو إنشاء دولة.

وهكذا نلاحظ أن عياضا هو وديع مع الموحدين عندما يتأكد ان لاجدوى من مقاومتهم ولكنه ما ان يحس أن هناك إمكانية ما للتخلص منهم. حتى يبادر إلى استغلالها دون تلكؤ أو تباطؤ. حتى ولو كان بالاستنجاد بالثائرين على السلطة المركزية. وقد أوشك مع ابن هود أن يزعزع أركان الدولة الموحدية عندما قلب لها ظهر المجن. وكون مع ابن هود هذا جبهة مؤلفة من الدين الذي كان يمثله هو ومن الدنيا التي كانت تتشخص في ابن هود.

وما كان للموحدين من جهتهم أن ينسوا هذه المواقف المترددة من عياض. وان تغاضوا عنها إلى حين. وهذا ما جعلهم - بدون شك - يسحبون منه ثقتهم ويقررون في هدوء ومنه زمن مبكر قبل تنفيذ وعيدهم - ودون إثارة ضجة ما - يقررون الانتقام منذ متى تمكنوا من ذلك.

ولو قدر لنا أن نقف على ثبت صحيح لتواريخ تآليف القاضي عياض لأمكننا أن نتعرف بدقة أعمق وبصورة أوضح على أهدافه الحقيقية. وعلى أغراضه من تآليفه تلك. وماذا كانت لاتعني شيئا وراء الرغبة العلمية المجردة والعلم لوجه العلم. أم انها كانت دعما للموقف السياسي والاجتماعي الذي يتخذه إزاء الأحداث.

وتثبيتا للنفوذ المعنوي الذي كان لا بد منه في تلك العهود لكل من يحاول الوصول إلى دسوت الحكم.

ونحن نميل بل ونعتقد - وفيما يخص هذه النقطة بالذات - أن تآليفه كتاب الشفا بالخصوص إنما كان تسجيلا لايديولوجيته العقائدية التي كان يستدرج بها أولئك الذين أشربوا حب النبي وآل بيته. والذين هم على الدوام مستعدون لإراقة دمائهم في سبيل الذود عن كرامته صلى الله عليه وسلم وتقدير منزلته النبوية. فهو بمثل هذا التآليف يهيىء الجو لما كان يريد القيام به. والدعوة إليه.

والكتاب مع ذلك. بالإضافة إلى كونه ردا مفحما لأهل البدع كافة : غلاة الشيعة والفاطميين والخوارج الذين استحر بينهم الخلاف السياسي مبطنا بالخلاف الكلامي والعقدي والى درجة عدم التحرز من لعن بعضهم بعضا من فوق المنابر. كان ذلك الكتاب دعوة لحركة سياسية مضادة للموحدين. فقد رأى عياض - وهو السني عقيدة والمالكي مذهبا وفقها، ثم هو المرابطي سياسة وسلوكا - أن يستغل ما وطده المرابطون من عقيدة السنة وعلى أساس المذهب المالكي، وأن يتخذ ذلك جنة . وهو في نفس الوقت بما كتب وألف يهاجم المذاهب العقلانية المجردة عن النقل. ويحارب المذاهب الفلسفية والتصوفية الاستسلامية وبوصفها تزهد الناس في شؤون الدنيا وبالأخص ما يتصل بالحكم والسلطة. وهذا شيء لا ينبغي أن يبتناه أو يسلم به من كان يحلم بالحكم والسلطة. فأراد وراء الرد على تلك الفرق المبتدعة والضالة والمتطرفة إفراطا وتفريطا أن يحقق غرضه. وأن يكون ذلك من وراء ستار الدفاع عن السنة. ووراء الدفاع عن الفكرة أن لا عصمة لبشر أو مخلوق سوى من عصمهم الله من الملائكة والأنبياء وبالأخص سيدنا محمد عليه السلام.

وعياض من وراء كل ذلك يحاول أن يضرب عصافير لا عصفورين بحجر واحد.

أولا : أن يناهض انغلاق المذهب الشيعي دون مهاجمته صراحة. وانما من طريق الدعوة إلى التمسك بالسنة وبها فقط دون غيرها مهما تسربل

هذا الغير بالانتمائية الدينية وبهذا التمسك بالسنة يعارض كذلك المذاهب الكلامية الأخرى من اعتزال وقدرية واباضية ومشبهة وقرامطة ومجسمة وأصحاب الحلول القائلين بالتناسخ أو أولئك المتأولين لصفات المعنى وللصفات المعنوية.

ثانيا : يعارض الموحدين بمناهضته لمذهب العصمة المخصوص بها سيدنا محمد عليه السلام.

ثالثا : أن يكون لنفسه زعامة دينية وسياسية من وراء التمسك بما كان عليه أهل السنة والمرابطون. مستعينا على ذلك بالإشادة صراحة بأعلام هذه السنة من أمثال : الباقلاني. وابن فورك. والأشعري. والجويني... ثم بالتصدي صراحة لدحض وإبطال أهم نقطة خلافية بين أهل السنة الذين يتبنى قضيتهم وبين مناوئيهم من مختلف الفرق والطوائف الأخرى.

ونعني بذلك قضية التأويل لما ورد في القرآن من آيات لا تليق نسبة ظاهرها للخالق جل شأنه وتقدست أسماؤه. فقد درج أهل السنة على التسليم بما جاء في القرآن من تلك الآيات مفوضين أمر مدلولها الحقيقي للبارىء تعالى. أي يتبنون مذهب التوقيف أو قل انهم لا يستعملون عقولهم وبإطلاق في فهمها واخضاعها لمجهر العقل والاجتهاد حتى تدخل في بوتقة الأفهام البشرية بما لا يتعارض والإدراكات العقلانية للبشر. كما حاول أن يفعل ذلك غير أهل السنة.

وكان قد تولد عن هذا الموقف المتباين ـ كما نعرف ـ خلاف مذهبي خطير بين الفرق الإسلامية وبين علمائها المهتمين خصوصا بتناول علم الكلام والعقائد. حتى لقد أريقت دماء وأزهقت بسبب ذلك أرواح وقامت على أساسه : تأييدا ومناهضة ـ دول ودالت أخرى.

وبما أن الغزالي في كتابه الإحياء ـ كما سنشير فيما بعد ـ تبنى بدوره قضية المتأولين ومن خلال ذلك ـ وقد يكون عن غير قصد ـ قد حاول أن يتبنى

نظرة الموحدين. ولو بآرائه التي اعتمدوها تكأه لما أطلقوه اسما على أنصارهم ومؤيديهم حين وصفوهم بالموحدين على أن هؤلاء الموحدين يعتبرون - إن صح التعبير - الأعداء التقليديين للمرابطين. ولكل من ينافح عنهم أو يحاول إطالة وجودهم بأي نوع من المحاولات. فقد وجد عياض نفسه أمام خصم عنيد مسلح بسلاح قوي التأثير في نفوس الشعب وهو علم العقائد والكلام الذي كان له يومئذ أو كما قلنا - حساسية خاصة في نفوس الناس وعقولهم ومعتقداتهم فقد وجد عياض نفسه مرغما لمجاراة الغزالي ومجابهته بنفس السلاح أي القلم والكتابة. وكانت شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرته أحسن مجال لنفث أفكاره والرد على من يحاول إلصاق تهمة التشبية والتجسيم بالمرابطين. ولا ينبغي أن نتغافل في هذا المكان عما ذكره ابن خلدون لدى تناوله بعض ما كان يغمز به الموحدون المرابطين فقد قال : إن الموحدين كانوا يصمون هؤلاء المصامدة بالتجسيم والافراط في التأويل. وانهم إنما أطلقوا على أنفسهم وصف الموحدين غمزا للمرابطين المجسمين والمشبهين.

وازاء هذا التحدي لم يجد عياض بدا من الرد عليهم. مما عرضه لسخط أولئك الموحدين الذين كانوا - وما يزالون - يتربصون به الدوائر ويحاولون الإيقاع به. وان حاولوا قبل توطيد سلطانهم استمالته إلى صفهم باللين والعطف حينا. وبالإغضاء عما يصدر منه ضدهم. ومن قومه من انتقاضات وثورات. وغالبا بزعامة عياض. بل حاولوا تلك الاستمالة بتمتيعه بالمناصب التي كانت له قبل وجودهم. مما جعله هو بدوره يبادلهم نفس العواطف. بما أظهره من ولاء حينا وما ظل ينتابه من تذمر منهم. وتحرش بهم. فكانت هناك من الطرفين تجاه بعضهما حركة مد وجزر ما بين الولاء والعداء. حتى إذا اطمأنوا إلى أن ملكهم وطد وثبت وان سلطانهم استقر وتمكن سحبوا من تحته الوطاء بدون ضجة ولا إثارة انتباه... وبقرار إبعاده نهائيا إلى الحضرة مراكش مشردا به عن بلده - كما يعبر النبوغ عبد الله كنون.

وقد حبس هناك. أو فرضت عليه الإقامة الجبرية بتعبير ألطف كما يعبر المعاصرون لنا إلى أن التحق بالرفيق الأعلى سنة 544 هـ هناك حيث دفن بضريحه الحالي بباب ايلان.

ونحن من وراء تحليلنا ذاك نحاول إبراز مدى الالتحام الذي كان قائما في المجتمع الإسلامي الأول بين الدين والدولة. وكيف كان علماء الإسلام لتلك العهود يشعرون بمسؤولياتهم السياسية نفس الشعور بالمسؤوليات الدينية والاجتماعية. لأن الدول ـ كما أشرنا في بداية هذا الفصل ـ إنما كانت تعتمد أساسا... خاصة في منطلقها على الدين. مما أوجد شبه اتفاق أو ربما تواطوء بين رجال الدين والسياسة في هذا الباب. مع فارق وحيد. ولكنه جوهري بين تواطوء من هذا النوع بين نظرية علماء الإسلام. وبينه وبين الدول الغير إسلامية من زاوية غير علماء الإسلام.

ذلك أنه في الحالة الأولى يعتبر ذلك التواطوء نفسه دينا أو من واجباته ومستلزماته من حيث أن قيام تفاهم تام وحقيقي بين الطرفين. الطرف الذي يمثل السلطة التشريعية والقضائية وهم العلماء. والطرف الآخر الذي يمثل السلطة التنفيذية وهم أرباب السلطة. هو تفاهم ضروري لإيجاد وقيام المجتمع الإسلامي المتكامل والمتكافل. كما انه لازم لضمان ومراعاة المصالح العليا والأساسية لكل مواطني أو رعايا الدولة الإسلامية. بما فيهم رعاياها غير المتدينين بالإسلام.

أما في الحالة المعاكسة. فإن التواطوء فيها إنما يقوم على مراعاة المصالح الشخصية والظرفية الآنية. مما يؤدي بالدولة في النهاية إلى ما شاهده التاريخ الأوروبي من انفصال أو انقصام. وربما عداء بين الكنيسة والدولة أو بين هذه والكنيسة.

وهكذا فمتى كان التواطوء للصالح العام كان صلاحا مفيدا. ناهيك ـ وكما يقول الدكتور محمد زنيبر ـ إذا كانت الدولة قائمة على أساس دعوة دينية. فإنه حينئذ. مهما كان رجال الدولة متشبعين بالفكرة مقبيلين عليها. فإنهم لا يستغنون

عن مشاركة العلماء لأسباب وجيهة. فيكفي أن نذكر كمثال على ذلك التعاون بين السياسة والعلم. تلك الصلة التي كانت قائمة بين عالم مثل مالك بن وهيب ورئيس دولة مثل علي بن يوسف بن تاشفين أو بين ابن رشد الجد وعلي بن يوسف المذكور. أو ابن طفيل ويوسف بن يعقوب الموحدي (6).

ويحاول ابن عياض في كتابه التعريف - بعد أن أشار إلى مبادرة أبيه الدخول في نظام الموحدين. باقرارهم إياه في مهامه ومناصبه يحاول أن يبري ساحة والده من المشاركة في تلك الفتن التي كانت تشهدها مدينة سبتة. وانه لم ازاءها الحياد دون تعاط إلى الإمرة في قول أو فعل. ويضيف ابن عياض يقول : «والله يعلم ان ذلك كان على غير رضى منه. كراهية في الفتنة الدنيوية والآخروية».

ويرى ابن ان الموحدين قدروا موقفه السلبي ازاء تلك الفتن. وانه بفضل ذلك الموقف عفا القائد الموحدي يحيى بن أبي بكر الصحراوي عن السبتيين بعد استسلامهم إثر ما فرضه عليهم من حصار. ويزيد ابن عياض : بأن إنهاض أبيه إلى مراكش كان بمحض إرادته. إذ كان لقي من يصلاتن بن المعز العرغي المصلوب سنة 546م 548م بسبتة أو مراكش . كان لقي منه البر العام والتأنيس التام. وانه إكراما له صاحبه أبو بكر الصنهاجي واستقبله بظاهر مكناسة أبو حفص وعمر ابن يحيى الهنتاتي استقبالا استغربه كل من شاهده. واستبعده كل من سمعه وأصحبه كتابا إلى الحضرة».

إلا أن العبارات التي أنهى مؤلف التعريف وصف هذه المرحلة تنبىء بخلاف ما حاوله وتذكر صراحة أن الموحدين كانوا ناقمين على عياض إذ يقول مؤلف التعريف بعد تلك الأوصاف الجميلة مباشرة... فوصلها - أي مراكش - والحال متغيرة عليه . فأقام بها تحت رقبة إلى أن اجتمع بسيدنا أمير المومنين. وكان منه

---

6) المناهل : العدد 19 ص 417.

أي عياض، من الكلام المنظوم والمنثور ما استعطفه به حتى رق له وعفا عنه وأمره بلزوم مجلسه (7).

ولا شك أن عبارة «والحال متغيرة عليه مع ما كان منه من منظوم ومنثور ما استعطفه به حتى رق له وعفا عنه وأمره بلزوم مجلسه» تفيد أن سفره كان إنهاضا من الموحدين وانه نفي له من سبتة، وفرض إقامة جبرية عليه في العاصمة حيث تتسنى مراقبته ومراقبة حركاته وسكناته، وبذلك تنقطع حباله عن مؤيديه وأنصاره، خاصة وقد جاء في بعض الروايات انه حين ودع سبتة في طريقة إلى مراكش كان يلتفت بين الحين والآخر إلى مسقط رأسه يبكي ويقول : «جعلني الله فداكم» (8).

بل نحن لا نستبعد أن يكون رجوعه من دكالة، - حيث كان رافق السلطان الذي توجه إلى هناك في حرب تهدئة - رجوعه إلى مراكش حيث يقال إنه قضى وهلك بعد ثمانية أيام من عودته، كان تعبيرا عن خيبة الأمل أو إحساسا بالذنب الذي لم يغتفر إلا ظاهرا.

على أن بعض الروايات التاريخية كذلك تتحدث عن كيف أن نقله إلى مراكش أتى بعد أن كان نصب قاضيا بتادلة، وبمكان يدعى «داي» أشار له هو نفسه في هذه القطعة الشعرية التي تفوح منها رائحة التذمر من وضعيته وما آل إليه مصيره حين أصبح مجرد مواطن عادي بسيط يراد التخلص منه بإبعاده عن مركز قوته السياسية والاجتماعية والدينية، يقول عياض في منفاه الأول «داي» :

أقمرية الأدواح بالله طارحي	أخا شجن بالنوح أو بغناء
فقد أرقتني من هديلك رنة	تهيج من برحي ومن برحائي
لعلك مثلي يا حمام فإنني	غريب بداي قد بليت بداء
فكم من فلاة بين داي وسبتة	وخرق بعيد الخافقين قواء

7) التعريف : ص 12 - 13.

8) مقدمة التعريف.

تصفـق فيهـا للريـاح لواقـــــح كمـا ضعضعتنـــي زفـرة الصعـــداء
يذكرنـــي سـح الميـاه بأرضهـــا دموعـا أريقـت يـوم بنت ورائـي
ويعجبني في سهلها وحزونهـــا خمائـل أشجـار - ترف - رواء
لعل الذي كان التفرق حكمـــه سيجمـع منـا الشمـل بعد تنـــاء

وحتى إذا أردنا أن نبرىء ساحة عياض من الخوض فيما شهدته مدينته من ثورات ضد الموحدين وبالأخص تبرئته من ثورة ابن هود ومن محاولته للحاق بركب ابن غانية المسوفي كما أشرنا سابقا. فلن يتأتى لنا ذلك إلا على فكرة افتراض أن الرجل كان ذا مبدأ قار من السلطة الزمانية بإطلاق وليس بوصفها موحدية. وان هذا المبدأ ينبثق عن ثقافته الدينية وعقيدته الخالصة ويقوم على مراعاة الحق حيث كان دون اعتبار أو خوف لومة لائم. ويتفق ذلك المبدأ مع ماعرف عنه من صرامة في الحق. وصلابة في الدين. ووقوف مع حدود السنة والشرع حسب مذهبه المالكي فقهيا . وعقيدته الأشعرية اعتقادا. فهو مع تلك السلطة الزمانية متى كانت هي متمشية مع ما يراه الدين ويتساوق والعقيدة السنية. فإذا انحرفت رأى واجبا عليه أن يقلب لها ظهر المجن كما فعلت هي حين لم تتمسك بما توجبه العقيدة الصحيحة إذ لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق. ولا مهادنة أو ولاء إذا انتهكت حرمات الله وأحلت محرماته.

ولعل هذا الموقف المبدئي هو ما يفسر لنا ما يبدو في مواقفه من تلك السلطة الزمانية من تقلب وتناقض. ويبين لنا اسراعه إلى تأييد الموحدين ضدا على المرابطين أولياء نعمته. والذين شهد في عهدهم أنصع صور حياته السياسية والاجتماعية. إذ كان يومئذ من أبرز قضاتهم. بل إن عياضا بحكم تكوينه العلمي والثقافي ليعد من رجالات الدولةالمرابطية ومن نبغائها فإنه وان يكن عاصر الموحدين. فإن نبوغه وظهوره كان في عصر المرابطين كما يؤكد عبد الله گنون (9).

9) النبوغ : ج 1 ص 76.

ومما قد يستدل به على مذهبه ذلك ـ أو على الأقل قد يستأنس له ـ قصته مع تاشفين ابن علي اللمثوني المرابطي الذي كان صرفه عن قضاء غرناطة ولما يمض على تقليده هذه المهمة عام واحد إذ كان عين فيها في شهر صفر سنة 531 هـ. ثم أبعد عنها في رمضان من عام 532 هـ.

ذلك لأن إبعاده عن هذه المهمة كان ـ وكما يتحدث عنه ابنه في التعريف ـ «لأن تاشفين ضاق به ذرعا وغض بمراقبته له في الحقائق. وصد أصحابه عن الباطل وخدمته عن الظلم وتشريدهم عن الأعمال».

وبالإضافة إلى ذلك ينبغي أن لانغفل موقف عياض من الوجود الموحدي أساسا إذ من المقطوع به تاريخيا أنه حاربهم في بداية ظهورهم. وربما كان ذلك بسبب ما صدمه من عقائد وأفكار كانت لاتتفق وما يتمذهب به ويعتقده. فقد صدمه بدون شك مبدأ الموحدين حول الإمامية وعصمتها من الوقوع في الخطأ. وادعائها معرفة إمامها للغيبيات قبل حدوثها. وان هذا الإمام معصوم لا يجوز أن تصدر عنه ولو معصية صغيرة. ولا يجوز أن يحصل منه سهو في الدين ولا يجوز أن ينسى شيئا من الأحكام. ثم هذا الإمام يعرف ضمائر الناس وما يكون قبل كونه.

ولا شك أن هذه الأفكار ما كانت لتلقى من متذهب بالمذهب المالكي السني وبالعقيدة الأشعرية ما كانت لتلقى عطفا أو مساندة بدون قيد ولا شرط. وبدون مبررات. ويتجلى هذا فيما تبنته الدولة المرينية. حين آل الأمر إليها بعد الموحدين. مباشرة. إذ أعادوا بناء قبر عياض بمراكش ومعلموه بهذه العبارة «المالكي المذهب» مما يفسر لنا أولا مدى تغلغل المذهب المالكي في عقول الناس ومعتقداتهم. وثانيا أن تلك العبارة كانت إشعارا للهيئة المثقفة من الفقهاء الذين كانوا يومئذ القوة الشعبية الحقيقية. المسيطرة على توجيه أفكار الشعب المغربي وبلورة مواقفه تجاه الاحداث بأن الدولة تتبنى مذهبهم وتؤيد معتقداتهم وآراءهم وأراد المرينيون ثالثا بذلك الوصف التشنيع على الموحدين بأنهم اضطهدوا الفقه والفقهاء في اضطهاد شخصية القاضي عياض. كان متمسكا بهذا المذهب الذي

ذهب ضحيته، والذي يعتبره المغاربة المذهب المفضل والمختار لديهم، وما يزالون يفضلونه حتى الآن. وبهذا الموقف يستميل المرينيون أولئك الفقهاء إلى جانبهم، وأرادوا رابعا إدانة الموحدين وإشارة لهم ـ بالأصابع إلى أنهم ـ على العكس مما كانوا يدعون ـ عملوا على تغيير عقيدة الناس وتشويه معالمها عن طريق الإرغام والإرهاب الفكري.

ولهذا فقد عارض عياض لظهور الموحدين، وجودهم وسعى لوقف تياره، ولكن لما أخذت الأمور تستقر وحين اطمأن عياض إلى أن الموحدين قد بدأوا يراجعون بعض مواقفهم من قضايا معينة حساسة كقضية عصمة المهدي ـ مثلا ـ أظهر عياض ليونة وتعاونا مع الدولة القائمة تمشيا مع الفكرة القائلة : إمام جائر خير من فتنة قائمة فقد تحدث التاريخ عن كيف أن. بعض الأمراء الموحدين عندما تمكنوا من الأمر وأصبحت السلطة الزمانية تحت إمرتهم راجعوا أو حاولوا أن يراجعوا فكرة العصمة بل وسفهها بعضهم، وقالوا إن المأمون إدريس بن يعقوب المنصور كان أول من عارض الفكرة، وقام بحركة جريئة في الموضوع، حين أمر بإزالة إسم المهدي من الخطبة والسكة ومن جميع رسوم الموحدين، في عبارته الواردة في الرسالة التي وجهها إلى عماله في الأقاليم آمرا إياهم (أن يسقطوا من اعتباراتهم «إسم من لم تثبت له عصمة»).

ولعل هذه الصدمة العنيفة التي كانت أحدثتها في نفس عياض فكرة العصمة للإمام المهدي والتي هزت الرجل فيما يعتقده دينيا هي التي جعلته يتخذ من كتب الغزالي وبالأحرى من كتابه (الإحياء) بالخصوص، ذلك الموقف المتحفظ نوعا ما، وكأنه يريد من وراء ذلك، الطعن في الوجود الموحدي عن طريق ادانة هذا الكتاب الذي كان يلقى من الموحدين العطف والتأييد بل ربما كانوا يحاولون أن يتخذوه سندا دينيا لحركتهم الدنيوية، إذ كان اعتماد السلطات الزمانية لتلك العهود وربما إلى العهود الحاضرة ولدى بعض الدول والجهات، على الجانب الديني فيما يزعمون لأنفسهم من حق سياسة الناس، وتوجيه عقولهم وأفكارهم إلى ما يعتقدونه هم منفعة ومصلحة وصلاحا.

وإذا كان الموحدون من جهتهم ـ بعد أن أظهر عياض الولاء لهم ولو ظاهريا ـ غضوا الطرف عنه وأقروه في مناصبه كما قلنا. فإنهم من جهة أخرى لم يتغافلوا ـ وما كان لهم أن يفعلوا ـ ولم يغضوا الطرف عن تتبع حركات عياض فيما يخص اتصالاته مع مختلف التيارات القائمة في مدينة سبتة. ولم يكن لهم أن يتغاضوا بالخصوص عن عدم إدانته صراحة لحركة ابن هود وثورة السبتيين ضدهم. ولم يكن لهم أن ينسوا له طعنه وجودهم عن طريق طعن آراء الغزالي.. وهذا ما قد يفسر بعض الإشاعات الغير عادية عن أسباب وفاة القاضي عياض ومكان هذه الوفاة. حيث حيكت أساطير حولها ونسب فيها للموحدين قولهم بالخصوص أن الغزالي لما بلغه موقف عياض من كتبه دعا عليه فمات فجأة في الحمام يوم الدعاء عليه (10).

ويعجبني في هذا الموضوع تعليق الأستاذ العربي الخطابي على هذه الأسطورة حيث قال «كيف يتأتى هذا وقد وقعت مسألة إحراق الكتاب سنة 503 هـ. والإمام الغزالي توفي سنة 505 هـ. وأبو الفضل بقي حيا إلى سنة 544 هـ. فهل كان لا بد أن تنصرم أربعون سنة قبل أن تصيبه دعوة الغزالي بسيفها القاتل» (11).

ؤ أسفت بعض دعاياتهم حول وفاة عياض وذهبت إلى القول بأن المهدي قتله لأمر نربأ نحن أن نصف به رجلا قد يقال كل شيء عن خوضه في أتون السياسة ومشاركته في بعض الانتقاضات على الحكومة المركزية إلا أن يوصف بما حاولت هذه القولة الشائنة أن تصفه بها. وهو الرجل الذي أجمع الكل على وصفه عقيدة وسلوكا من الوجهة الدينية بأنه كان متدينا مجتهدا كثير الصوم قوام الليلة تاليا لجزء من كتاب الله في الهزيع الأخير من الليل. لم يتركه ما قدر على تلاوته في أية حالة. ملتزما لحدود الشريعة. سنيا في عقيدته. شديد التمسك بها إلى حد التعصب مقدمة المدارك ص (يه) عن شذرات الذهب).

---

10) انظر طبقات الشعراني.

11) المناهل : العدد 19 صفحة 189.

وهكذا نوشك أن نجزم بأن المواقف المتباينة لعياض إزاء السلطات الزمانية إنما كان يمليها ما تكون عليه تلك السلطات من تمسك بالدين أو انحراف عنه وعن مصلحة الناس ومصلحة بلده. سبتة إذ من لم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم.

ثم إذا كان قد يعاب عليه أنه تخلى عن المرابطين في النهاية لينضوي تحت لواء الموحدين. فإنه من المحقق تاريخيا - مما يحل عياض من اتهامه موقفه - أن الصفحات الأخيرة من تاريخ المرابطين لم تكن مشرقة ولا نظيفة. ولم تكن بالتالي تتطابق والمبادىء الأولى التي قام عليها وجودهم مما يدل على أن الرجل أي عياض كان متذمرا مما انزلقوا إليه من ابتعاد عن السنة ومن إغراق في البدع مما لا مجال لذكره هنا. وكتب التاريخ طافحة به.

على أننا لا نبرىء ساحة عياض من مناوأة الموحدين انزلاقا مع الأطماع السياسية التي قد يحققها له القضاء عليهم. مادامت غايته هي الإبقاء على ما كان يعتقده. ويعتقد معه أهلوه ومواطنوه أنه الحق والدين.

وبالمناسبة لا نوافق الأستاذ العربي الخطابي في استدراكه على مقالة ابن أبي زرع في الموضوع. فعندما قال ابن أبي زرع إن ثورة السبتيين على الموحدين حين أجهزوا على عاملهم على سبتة كانت بزعامة قاضيهم عياض بن موسى. استدرك الخطابي قائلا : «من المستبعد عندي أن يكون أبو الفضل قد حمل السلاح بنفسه وسار على رأس الثوار. ومن المرجح أن موقف عياض إنما كان يمليه عليه وفاؤه للمرابطين بحكم ما في عنقه من البيعة لهم». أقول : لا نوافق الخطابي على استدراكه :

ذلك لأن القاضي عياضا بحكم مركزه الإجتماعي الذي لم يكن القضاء الشرعي الا صورة من صور حياته العديدة كان يتوجب عليه في نظرنا أن يتخذ موقفا إيجابيا من الثورة ضد الموحدين ما دام - وكما يقول الدكتور محمد زنيبر -

(12) «مغربيا في اهتماماته والتزاماته السياسية والمجتمعية وما دام العصر الذي عاش فيه قد جعل مصير الإسلام والمسلمين بالغرب الإسلامي عامة والأندلس خاصة بيد الدولة المغربية سواء كانت مرابطية أو موحدية». فهو كعالم مسلم كبير ملتزم بالدفاع عن الإسلام لابد أن يكون له اهتمام وثيق بالسياسة والرجال القائمين عليها. ولذا كان على اتصال وثيق بالمرابطين في نفس الوقت الذي كان يتقلد فيه زعامة علمية سياسية روحية ببلده سبتة مع إشعاع على عموم المغرب ظهر أثره حين أقدم على معارضة الموحدين لما هبوا لمحاربة المذهب المالكي.

أي فما دام قد اختار الجانب الشعبي وجانب الحق لله وفي الله فقد توجب عليه أن يكون على رأس الثورة... والثورة لا تعني فقط حمل السلاح. فإن المشاركين في حرب ما أو ثورة ما. لابد أن يتوزعوا المراكز القيادية، ومنطلقات المسؤولين. كل حسب اختصاصه والميدان الذي يبرز فيه. ولا يمكن أن يقال بحال للذين يديرون دفة الثورة من وراء ستار بتوجيهاتهم الصائبة وإرشاداتهم النيرة، أنهم إذا لم يحملوا السلاح فلن يعتبروا مساهمين ولا مشاركين. ولن يعتبروا رأسا ولا قادة بل الغالب أن القادة لا يحملون السلاح عمليا ولكن يقررون ويخططون كيف يستعمل السلاح ومتى يستعمل وكيف يوجه ومتى يستخدم هذا النوع منه دون ذاك. ولهذا فإن الإسلام فيما يخص موقفه من الرهبان والأحبار المنقطعين في صومعاتهم للعبادة قرر أن يتركوا وما حبسوا أنفسهم له إلا أن يشاركوا في الحرب أي نوع من المشاركة فإنهم حينئذ يعاملون معاملة المحاربين.

ولعل العربي الخطابي تنبه أخيرا للمنزلق الذي أوشك أن يقع فيه. فذيل استدراكه ذاك بقوله «سيما وأن الموحدين كانوا يعتقدون أفكارا عقدية وسياسية لم يكن ليرضى عنها القاضي عياض المالكي السني. وإنما وجبت طاعته للموحدين بعد انتهاء أمر المرابطين بمقتل تاشفين ابن علي».

---

12) المناهل : العدد 19 ص 404.

هذا التذييل هو قطعا استدارك على الإستدراك الأول وتقرير للأمر الواقع الذي أثبته ابن أبي زرع، ذلك الواقع الذي يتفق وما كان يتصدره القاضي من مراكز اجتماعية ودينية في مجتمعه السني..

على أن اتهام الموحدين بالتخلي الكامل عن المذهب المالكي لا يخلو من تهافت، إذ يتتبع أمالي المهدي بن تومرت «أعز ما يطلب» وهو ـ إن صح التعبير ـ كتاب ثورته الثقافية الذي أصدره بقرون قبل إصدار «ماو» كتابه عن الثورة الثقافية للصين ـ يقنع القارىء له بما يلاحظه من اقتباس كثير من الأحاديث النبوية التي اعتمدها من موطا الإمام مالك ـ أنه لم يتخل كلية عن المذهب المالكي، كما أن اعتماده آراء الأشعري فيما يخص علم الكلام والعقائد، والأشعري مالكي المذهب، يؤكد عدم التخلي الكلي ذاك..

وعلى أن إقدام الموحدين على حرق كتب الفروع الفقهية لم يكن في بداية قيامهم الذي صحب حملتهم الشعواء تحت شعار محاربة البدع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومحاربة الفقهاء الذين يتخذون فقههم بضاعة للكسب والإتجار والإسترزاق، وانما كان بعد أن استتب لهم الأمر وأصبحوا أصحاب الكلمة النافذة في البلاد.

ثم ألم يكن القاضي فقيها بالدرجة الأولى ؟ فلم لا يحاربهم والحالة أنهم حاربوا الفقهيات، ولو للإبقاء على هيبة الفقهاء الذين كان هو صدرهم ورمزهم ؟ أو ليس سكوته على إدانة هذه الجهود الفكرية التي بذلها الفقهاء لقيام ذلك الهرم الشامخ من العلوم الفقهية ـ وان لو كان صدر منه هذا السكوت ـ أمرا مشينا في حقه، وعيبا لا يناسب مقامه ؟ بل قد يعتبر سببا وجيها لما فعله الموحدون بتلك الفروع ؟

فكان لزاما على عياض أن يناوىء من بدأوه أول مرة، فلا يخشاهم إذ الله أحق أن يخشاه وهو المومن.

إلا أن من الإنصاف للتاريخ الإعتراف بأن محاربة الموحدين للفروع الفقهية وجدت آذانا صاغية من بعض كبار الفقهاء أمثال القاضي ابن العربي الذي نقل عنه صاحب الإستقصا في الموضوع من كتابه (القواصم والعواصم) هذه الكلمة المعبرة «وتماطت المبتدعة منصب الفقهاء وتعلقت أطماع الجهال به. فنالوه بفساد الزمان ونفوذ وعد الصادق (ص) في قوله : «واتخذ الناس رؤساء جهالا فأفتوهم بغير علم فضلوا واضلوا» وبقيت الحال هكذا. فماتت العلوم إلا عند آحاد الناس وجعل الخلف يتبع منهم السلف حتى آلت الحال إلى أن لا ينظر في قول مالك وكبراء أصحابه». إلى أن يقول ابن العربي : «ولولا أن من الله بطائفة تفرقت في ديار العلم. وجاءت بلباب منه كالقاضي أبي الوليد الباجي وأبي محمد الأصيلي. لكان الدين قد ذهب».

والشكوى والتذمر من التفريعات الفقهية التي انتهى إليها الإشتغال بعلوم الفقه لم تزل قائمة منذ زمان والى الآن. حتى إن أبناءنا زهدوا إطلاقا في هذه العلوم نظرا لهذه التفريعات التي غطت على الأصول والأمهات. وأصبحت أساس الفتوى والأحكام مما أغرق المجتمعات الإسلامية في دوامة من الآراء والأفكار التي قد لاتمت إلى الدين بصلة.

وكان ابن خلدون هو الآخر قد رفع عقيرته وجأر بالشكوى من تلك التفريعات التي آل إليها فقه علماء المغرب حتى أصبحت سمة خاصة بفقهائنا وشغلتهم. ـ كما يقول ابن خلدون ـ عن الإهتمام بغيرها من العلوم والدراسات.

ثم إننا بكل هذا التحليل نرمي لإثبات أمرين اثنين من حياة عياض وتاريخه.

الأول : أن عياضا لم يكن بعيدا عن الميادين السياسية التي كانت تخوضها مدينته سبتة وأنه لم يكن من صف أولئك الذين ينزهون العلماء عن الخوض في الشؤون السياسية ما قل منها أوجل وإنما هو على العكس من ذلك من الذين يعتبرون الإشتغال بتلك الشؤون من البدهيات في أوليات الإهتمام بالشؤون

الإسلامية لأن الرجل عالم سني يومن ويعتقد صدق مقالة الرسول (ص) «من لم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم».

وبالمناسبة نذكر أننا لسنا متفقين مع ابن خلدون في دعواه أن العلماء أبعد الناس عن السياسة إلا إذا كان يقصد أولئك الذين ليسوا بالعلماء حقيقة.

وادعاء الدكتور التازي صدق ابن خلدون، بدعوى أن هناك تمييزا بين حاسة الإنسان كعالم وبين حاسته كسياسي، لأن مفاهيم العلم لها صفة الدوام بخلاف الأخرى فإن لها طابع التوقيت كل حالة سياسية تقتضي حلا، قد يكون غير الحل الذي يختار في اليوم الموالي لنفس الحالة نظرا لتغير الشخص والزمان والمكان «هو ادعاء يقوم على أساس الفصل بين الواقع المعيش وبين الحقائق العلمية المجردة الثابتة إن وجدت، وبقطع النظر عن خطإ فكرة العلوم الثابتة إذ النسبية هي الأساس في وجود كل الموجودات سوى الله، فإن العلم بالمفهوم الإسلامي هو الحياة بجميع تناقضاتها، وما وجد العلماء إلا ليكونوا النبراس والضوء في المدلهماة، وليتدارسوا الأوضاع ويضعوا لكل حالة ما يناسبها من أحكام، ويقفوا منها مع ما يتلاءم والواقع مع مراعاة الصالح العام أولا وقبل كل شيء شريطة أن لا يتجافى والقواعد الأساسية للعقائد الإسلامية.

لهذا فإن اشتغال القاضي عياض بالسياسة التي تقرر مصير بلده ومسقط رأسه أولا ثم السياسة العامة لدولة عهده ثانيا، كان من هذا المنظور، فهو حقيقة كون لنفسه مركزا مرموقا في مجتمعه خول له التحدث بلسانه، وكون منه رجل الساعة كما يقال، وتناقضت مواقفه إزاء الوجود الموحدي بين الولاء والإنتقاض وإلى درجة مد يده لابن غانية بل ولكل من ظن أو توسم فيه عمل أي شيء إيجابي لإنقاذ بلده من السيطرة الموحدية..

ثم لا مانع يمنع القاضي عياضا من الجمع بين الأمرين السياسة والدين، فإنه لا تعارض بين الأمرين ولا تناقض بينهما في المنظور الإسلامي إلا عند الجامدين من الفقهاء أو المتحللين من كل أخلاقية العلماء، أمام الذين يومنون بأن الإسلام

دين ودولة ـ وهذا معتقدنا ودينننا ـ فإنهم يرون أن من أول واجباتهم الإشتغال بالسياسة بمفهومها العام بوصفها أعظم مظهر لتجسيم مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أفيعاب على القاضي عياض إهتمامه بهذا الجانب الخطير من حياة المسلمين وهو العالم الأريب الذكي الذي شاركت أسرته في إقامة دعائم هذه المدينة الدينية وفي ترصيص أسس الوجود الإسلامي بها أم يعاب عليه أن يتطلع إلى أخذ نصيبه في الحكم والسلطة والمسؤولية بها ؟ وهل يلام من أجل بلوغ ذلك ـ على التفاته ذات اليمين وذات الشمال مادامت الغاية التي ينشدها شريفة والموقف نبيلا. ويتوخيان تطبيق الحدود الشرعية والدينية. ويناوئان كل انحراف مذهبي أو عقدي ؟ فهو لم ينخدع أمام عفريت السياسة. كما يحلو للدكتور للتازي أن يعبر ويصف القاضي عياض. كما أنه لا تناقض في موقف عياض حين جمع بين مناهضة دعاوى المهدي بن تومرت فيما يدعيه من عصمة وبين ربط حباله سياسيا بالوجود الموحدي. لأن الجهة منفكة كما يقولون.

على أن الفرق اللغوي بين مفهوم رجال السياسة إنما هو فرق عرفي بدأت بوادره تلوح في الأفق الإسلامي. حين تحول الحكم إلى مجرد ملك عضوض وأصبح بعض الفقهاء ـ بدل أن يخوضوا معركة البقاء واثبات الذاتية. ـ يفضلون الإبتعاد عن الحياة العامة للانزواء في أبراجهم العاجية حبا في السلامة واقتناعا بالفتات وهروبا من تحمل المسؤوليات مع أن مقامهم هو الصدارة والكون على أهبة تحمل أضخم التبعات وجليل التكاليف.

على أن الظروف والملابسات الزمانية والمكانية بل والنفسية كانت تدفع بالقاضي عياض إلى خوض ميادين السياسة. فهو ربيب بيت علم وتحتل أسرته مكانة مرموقة ممتازة في مجتمعها بل لا نذهب بعيدا إذا قلنا أن بيته يومئذ كان وحده المؤهل لتحمل تبعات تقرير المصير لهذه المدينة. فله رصيد أي رصيد في بني قومه «ومدينته سبتة كمدرسة ودار فكر. وموقعها ـ كما قلنا ـ على مضيق

جبل طارق وكنقطة اتصال هامة بين أوروبا وافريقيا والشرق العربي، وكملتقى لمختلف التيارات الأندلسية والمغربية على السواء كل ذلك جعله يمسي قمة من قمم الفكر، وفصلا بارزا من فصول التاريخ، «كان عظيما وهو طالب، وكان حجة وهو يناقش، محلقا وهو يفسر، عميقا وهو يدرس ويمارس النوازل والأحكام، أمينا نزيها وهو يتقصى ويبحث ثم بعد هذا كله تقلد وظائف سامية في الدولتين : السابقة واللاحقة وعلى مستوى جعله يختلف من قضاء سبتة إلى قضاء غرناطة، وهو في كل هذه الحالات يتعرف على القوم وكبرائهم» (13) وتلك تعابير التازي في حقه.

أفليس من حقه، وقد رأى أن الأمور أخذت تنحرف مع التيارات الخاطئة مذهبا وعقيدة، ورأى أيضا أن لا طريق للإصلاح والعودة بالناس للجادة إلا عن طريق السياسة والإشتغال بها. أقول : أفليس من حقه بل من الواجب الأكيد عليه أن يعمل على رد الأمور إلى نصابها وأن يعارض هرطقة المهدي ـ في نظره ـ ومن زاوية نظرته للأمور في عهده، عن طريق السياسة ؟ وأمر من هذا القبيل لا يعد عدم ضبط للأعصاب، ولكنه في الحقيقة لا يعد وأن يكون مجرد وسيلة لتحقيق طموحات شخصية مشروعة، ولو بالتعاون مع جهات بعيدة عن بلاده خاصة وموقف عياض من عقيدة المهدي كما بينا مرارا هو نفس الموقف الذي وقفه أو حاول أن يقفه آخرون من إضرابه، فلم يتمكنوا من الجهر به، إما لأنهم لم يكونوا يتوفرون على الجرأة الأدبية وقوة الشخصية التي كانت لعياض، واما لأنهم لم يكونوا يتوفرون على الإمكانيات الشعبية أي أنهم لم يكونوا مدعمين في حركاتهم وأفكارهم بقوة شعبية دافعة ضاغطة تستطيع أن تحفز وتفعل وأن تلبي متى دعيت للعمل الإيجابي الحاسم، واما لأنهم يفضلون حياة السلامة والإبتعاد عن المعارك.

---

13) الدكتور التازي في المناهل.

يذكرون أن العالم المغربي الجغرافي الإدريسي، كان يمقت الموحدين وأن مقته لهم ذاك هو الذي جعله يرفض حتى تسميتهم بهذا الإسم : الموحدين، وإنما كان يطلق عليهم المصامدة أي بربرا لأن نعرة قبلية ربما كانت تجتاحه ضدهم، أو لأنه لما رأى عجزه عن مناهضتهم عمليا فضل النيل منهم عن طريق الحط من قيمتهم وقيمة منابتهم، ناسيا في بحران غيظه قوله تعالى «ولا تنابزوا بالألقاب» وناسيا ما توجبه الأخلاق الإسلامية من التسامي عن هذه المباذل التي لا تمت إلى تلك الأخلاق بصلة. قالوا إن الشريف الإدريسي هذا وامام عدم توفره على العناصر الإيجابية لخوض المعركة السياسية أو الحربية ضد الموحدين أمثال تلك التي كان يملكها عياض، فر من الميدان وفضل الانضواء تحت لواء بلاط روجار الثاني ملك صقلية. وما نظن أن مثل هذا الموقف كان يشرف القاضي عياضا أن لو اتخذه، ونعتقد لذلك أن الشريف الإدريسي بفراره إلى بلاط صقلية إنما يسجل به على نفسه وصمة التخلي عن رسالته حين احتاج إليه قومه ومواطنوه، وهذا ليس بمستغرب ممن يفرقون بين العلم والسياسة إذ كثيرا ما يتخذ العلماء المتخاذلون تلك الفكرة وتلك المواقف الشائنة كذريعة لهروبهم من تحمل مسؤولياتهم.

ولهذا فإن عياضا في نظرنا لم يقف إزاء الموحدين موقف المتفرج أو موقف المعارضة السياسية والعسكرية فحسب ولكنه فعل ذلك وفي نفس الوقت كان يقدر رسالته العلمية ومدى فعاليتها في تضخيم إظهار فساد المعتقدات الضالة التي كانوا يحاولون بها طمس ما آمن به الشعب من حقائق دينية وعقدية وسلوكية، فكان أن سل سيف قلمه في ذات الوقت الذي كان سيفه الحديدي مصلتا على أعناق من كان يجافي ما يعتقده دينا. ونعود للتأكيد هنا بأن تأليفه كتاب الشفا بالخصوص لم يكن إلا للرد عليهم، أي على الموحدين ومن يعتقدون صلاح مذهبهم عن طريق إدانة من يعارض ما اتفق عليه أهل السنة الذين يصدرون في أرائهم ومعتقداتهم عن هذا الرسول الكريم الذي ألف فيه وفي سيرته وأخلاقه وشمائله هذا الكتاب، فكان عمله محاولة لدرء خطر ما جاء به الموحدون من معتقدات منحرفة، ولتعميق الإتجاه السني ودحض ما عداه ثم ـ وكما يقول الدكتور محمد

الكتاني ـ (14) ألفه لمقاومة ما شاب إيمان الناس وأفكارهم عن خلال النبوة من شوائب حملتها إليهم تيارات الإنحراف والعقائد المضللة كالدعوة الفاطمية من ناحية والدعوات الإلحادية من ناحية أخرى، وكذا الدعوة الباطنية بجميع فروعها والتي من جملتها تلك التي رفعت الإمام المعصوم إلى مقام النبوة وطالبت الأتباع بالخضوع الروحي المطلق للأئمة المهديين سيما وعياض نفسه في مقدمة هذا الكتاب يقول :

«إنه يتضمن التعريف بقدر المصطفى عليه السلام وما يجب له من توقير وإكرام وماحكم من لم يوف واجب عظيم ذلك القدر أو قصر في حق منصبه الجليل قلامة ظفر، وأن أجمع فيه ما لأسلافنا وأئمتنا في ذلك من مقال، وأبينه بتنزيل صور وأمثال».

فهو إذن دعوة للسلفية واقتداء بالأئمة وهو في الوقت نفسه تحذير من مغبة الإنحراف عن هذه السنة، وما قرره حولها وعنها أولئك الأئمة... ومعنى هذا الطعن فيما جاء به هؤلاء الموحدون الذين يحاولون ـ بأضاليلهم ـ تهديم ذلك الهرم الشامخ الذي شيده ورفعه أهل السنة وحماه المرابطون.

وربما استهدف نفس الهدف من تأليف كتابه (الإعلام بقواعد الإسلام) كما يقدمه هو بنفسه، ويعني به ويريد ـ فيما نرى ـ إبعاد الطبقات الشعبية عن مجالات الخلافات العقائدية والكلامية التي كان يزخر بها الميدان، فأراد بتأليف هذا الكتيب توحيد صف تلك الطبقات وراء عقيدة واحدة، وجعلهم يتخذون مواقف معينة واضحة تجاه تعاليم الدين ومن ثمة يقولون بما يتساوق والهدف الأسمى للدولة.

وكنتيجة لذلك وكتمهيد له، يسد باب الإجتهاد في وجه غير الأكفاء وغير المؤهلين له لأن «الواصل إلى هذا الطريق، طريق الإجتهاد والحكم به في الشرع

---

14) المناهل : عدد 39 ص 369.

قليل. وأقل من القليل بعد الصدر الأول والسلف الصالح والقرون المحمودة الثلاثة» (15).

وهو بدعوته التقليدية هذه يحاول إعداد الأفكار لتقليده هو فيما يراه ويقرره دينا ثم ما يراه سياسيا.

أما الأمر الثاني الذي نحاول إثباته من وراء ذلك التحليل. فهو أن عياضا كان وحده يتزعم قيادة بلدته أو جزيرته سبتة. وفي نفس الوقت كان مواطنوه يعترفون بهذه القيادة ويقدرونها ويسلمون له بها. الشيء الذي حمل الموحدين من جهة على أن يلاطفوه. ويعاملوه باللين وأن يستجيبوا لمطالبه ويقبلوا استعطافه إياهم لصالح بني بلدته. ولكنهم في نفس الوقت - وكما بينا - كانوا يحذرونه ويراقبون تحركاته. حتى إذا أيقنوا أن الرجل طلعة موشك على القيام بحركة مناهضة لهم أقدموا على ما لم يكن يخطر ببال عياض. أعني إبعاده عن مسقط رأسه. إضعافا لتلك القيادة وتوهينا لتلك الزعامة. وكي لا يثيروا مشاعر السبتيين بل وكل المغاربة بما قد يدفعهم إلى الإحتجاج الثوري أو الثورة الدموية. وهم معروفون كما بينا بعدم تورعهم عن امتشاق السلاح إذا وجدوا ذريعة لذلك - أحاطوه خلال رحلته التغريبية. - إن صح التعبير. - بما ذكره ابنه في التعريف من هالات التبجيل وضروب الإستقبالات الباهرة الفخمة..

عياض وكتاب الإحياء للغزالي :

ومما يتصل بموضوعنا هذا اتصالا مباشرا. ونرى أن من الواجب أن نخصص له كلمة لما لها من الدلالات على حياة عياض. ومواقفه السياسية والعلمية. موقفه من كتاب الإحياء لأبي حامد الغزالي الطوسي. وما حيك حول أسباب معارضة المرابطين لما جاء فيه من أفكار ونظريات لدى بداية قيامهم..

15) المدارك : الجزء الأول صفحة 60.

قامت دولة المرابطين كدولة الموحدين وكسائر الدول الإسلامية التي نعاقبت على أخذ زمام السلطة الزمنية في هذه البلاد على الدين أساسا. ومن ثمة تبنت العلوم الدينية في منبعيها : القرآن والحديث أولا. ثم ما تفرع عنهما من تفسير ومصطلح وفقه ثانيا.

وإذا كان الفقه هو القانون العام الذي بمقتضاه تباشر الأحكام بين الناس وعليه تسير الأمور الخاصة والعامة للدولة والجماعات والأفراد..

وإذا كانت المحافظة على الشعائر الدينية والمظاهر الإسلامية في يد القضاة بوصفهم الساهرين عمليا على تلك المحافظة وتطبيق القوانين.

لذلكفقد انصرفت الإهتمامات العامة والخاصة في ميادين التعليم إلى علوم الفقه. مما تحولت معه الدولة المرابطية - حيث نشأ ونبغ عياض - والتي انطلقت في مبدإ وجودها وقيامها من بساطة العقائد. فقواعد الإسلام وشعب الإيمان هي ما ورد في حديث جبريل. والزهد والتقشف هما شعار الدولة وطابعها الخاص. تحولت إلى دولة للفقهاء.

يقول عبد الله گنون. لقد كان أساس دعوة المرابطين العلم. وعليه قامت دولتهم وأن رحلة يحيى بن ابراهيم الكدالي التي تمخضت عن دخول عبد الله بن ياسين إلى الصحراء لأعظم دليل على ذلك. وكانت نزعة عبد الله إلى علم الفقه والدين أقو منها إلى أي علم أخرى. لأنه كان عالما دينيا. فغلب هذا الميل على الدولة. ومن ثم كان تقديمها للفقهاء واختصاصها لهم دون من عداهم من أرباب المعارف المتنوعة ولم يكن العلماء يطمعون في القرب من الدولة قرب خطوة إلا أن يلتبس أحدهم بلباس الفقهاء وعلماء الدين. كما فعل مالك بن وهيب فرقي إلى منصب وزير لعلي بن يوسف بن تاشفين الذي كان ولي الأمر بعد وفاة أبيه سنة 500 هـ وعمر علي حينئذ ثلاث وعشرون سنة 23 (16).

16) النبوغ : ج 1 ص 68.

ولذلك فلم يكن من القرابة في شيء أن يسود الفقهاء، ومن ينتسب إليهم في ميدان السلطة الزمنية ومختلف أنشطتها ومجالاتها وبالأخص ما يتصل بالجماهير. ولا أشد اتصالا بهم من القضاة في تلك العهود.

وهذه الوضعية أدت إلى سيطرة هذا العلم وحملته على حياة الناس. بل ربما على مصائرهم وأفكارهم وأرزاقهم. ومنحت الفقهاء نفوذا واسعا مكنهم من إصدار الأحكام بما يتفق ومواقفهم الفقهية صلابة ولينا، قوة، وضعفا، تفتحا وانغلاقا.

ومع مرور الأيام تكونت طقوس وأعراف فقهية أصبح الناس يخضعون لها، وعلى فكرة أنها دين سماوي لا يقبل الجدل ولا النقاش.

فكان طبعيا ـ والحالة تلك، ـ أن ينظر إلى أي شيء جديد في الساحة لا يتماشى مع واقع الفقهاء الذي هو واقع الناس، وهو مراد الدولة أيضا. نظرة تحفظ وتحرز. هذا إذا كان لا يمت إلى ما يعتبر عقيدة ودينا بصلة. أما عندما يتعلق الأمر بهذين المبدأين، فإن النظرة إلى ذلك الشيء الجديد تختلف وقد تتسم بنفس الخطورة والدسامة اللتين تجرأ بهما أولئك الذين أظهروه وحاولوا به تحويل الناس عن معتقداتهم وأعرافهم وتقاليدهم.

وهذا تقريبا ما حدث لكتاب الغزالي ـ الإحياء ـ غداة وروده المغرب. لقد استقبل الأمر بالإكبار والإجلال نظرا لما كان سبقه من سمعة صاحبه العلمية ومكانته الدينية. ولكن عندما تصفحه الفقهاء والمعنيون بالشؤون العامة ووجدوا أنه قد جاء بأشياء لاعهد للناس بها إذ رآه رجال الدين والفقهاء محشوا بما لاعهد لهم به من آراء المتكلمين ومذاهب الصوفية تحفظوا منه.

وبالإضافة إلى ذلك، أخذوا عليه، كما يقول الأستاذ زمامة «خروجه في قضية الفكر العلمي من الإيجاب إلى السلب، ومن المواجهة إلى الاستسلام. فالغزالي في نظر العلماء الأندلسيين ـ وكانوا أول من نادى بمحاربة الغزالي. وبالطبع قلدهم

علماء المغرب ـ اعتبر التصوف علما وهدفا، وغاية فكرية للإنسان (17)» بينما غمط ـ في نظرهم ـ العلوم الأخرى حقها بل وحث على الا بتعاد عنها.

ويعلل بن تاويت رفض علماء المغرب لكتاب الإحياء بالإضافة إلى ما سبق ويقول : «ان رفض تلك الأوساط لذلك الكتاب، هو لما عرض البحث فيه من «علوم المكاشفة» وما بناه عليه من نتائج وأحكام» (17).

إلا أن مراجعة لما أورده ابن عياض في التعريف من أحاديث أبيه ومنتقياته لا يتفق وما قاله ابن تاويت عن موقف علماء المغرب من علوم المكاشفة، فقد أورد عنه أكثر من حديث في الموضوع مثل حديثه عن ابن وهب في الأحلام، وأحاديثه عن التصوف المروية عن الصدفي وعن أبي علي بن خالد، والأحاديث عن الخوارق والكرامات التي رواها عن أنس بن مالك حول الشاب الذي مات ثم عاد للحياة بدعاء أمه، وحديثه عن أبي تراب الخشني، وحديثه عن أبي أحمد العابد (19).

كما أورد عياض في كتاب الشفا حكايات مماثلة عن بعض المريدين (ص 143.) وما حكاه عن سعدون الخولاني (ص 44) وعن استفتاء شيخه أبي منصور اللخمي (ص 145).

ونحن نعتقد أن الغرض الأساسي للغزالي من تأليفه كتاب الإحياء هو الذب عن الإسلام والعقيدة الدينية الحقة، فهو من هذه الوجهة ـ في نظرنا ـ يشبه إلى حد ما الغرض الذي من أجله ألف عياض كتابه الشفا.

فقد اجتاحت الشرق في تلك الأزمان دعاوى باطلة ومغرضة ومنحرفة حول العقيدة الدينية للإسلام وبالأخص دعاوى الباطنية في عهد السلاجقة التي كانت

---

17) المناهل : العدد 19 ص 641.

18) المدارك : ص يو من المقدمة.

19) انظر التعريف : صفحات 40 ـ 41 ـ 42 ـ 43 ـ 45 ـ 50.

تهدف تلك الدعاوى مبدئيا وأساسا، للقضاء على هذه الدولة السلجوقية لإقامة أخرى أو أخريات مكانها.

وحيث أن أصحاب هذه الدعاوى ـ وهم أعداء السلاجقة في نفس الوقت ـ لم يشهروا في وجهها السلام ولم يحملوا الرماح وإنما تحصنوا وتترسوا بالخوض في العقائد وتشكيك الناس في صحتها أو على الأقل في سلامتها منطقيا وتساوقها مع العقل السليم، فقد رأى الوزير السلجوقي المشهور بنظام الملك إشهار نفس السلاح في وجه مروجي تلك الدعاوى، وبنفس الوسيلة والطريق أي تجنيد الأعلام الكفاة، وفتح المدارس التابعة للدولة من أجل التصدي لدحض مفتريات أعدائها ومحاربتهم بالمثل، أي قرع المحجة بالحجة المماثلة.

وكان أجدر من يستطيع القيام بهذه الرسالة وتلك المهمة، هناك في الشرق يومئذ هو بدون شك الإمام الغزالي غير مدافع لما كان يحتله في مجتمعه بل ربما في عموم العالم الإسلامي، من مكانة علمية سامية مرموقة، وربما تماما كنفس المكانة التي كان يحتلها في المجتمع المغربي لا يومئذ أبو الفضل القاضي عياض.

وقد أورد الدكتور التازي ما يوحي بأن الغزالي هو الآخر كان ذا طموحات سياسية فقد قال : «وردت علي وأنا أعيش ظروف عياض في المغرب قصة مماثلة حدثت في المشرق عندما طلب الخليفة العباسي من الغزالي الالتحاق بالنظامية للتدريس بها تقربا إلى الله فأجاب الغزالي بقوله : «طريق الوصول إلى الله من طوس أو من بغداد متساوية (20).

إلا أن الظروف المكانية لم تكن متشابهة تماما لدى الرجلين الغزالي وعياض ولم يكن المواجهون بفتح الجيم بردود الغزالي في نفس المستوى العلمي والفكري الذي كان يوجد عليه أولئك المواجهون المتواجدون من طرف عياض وأضرابه، فالمستوى متباين مختلف.

---

20) - المناهل : العدد 19 ص 482.

وكان هذا التباين والاختلاف مما أحدث في نفوس المسؤولين عن التوجيه الديني والسياسي في هذا الجزء من العالم الإسلامي بعض التحفظ إزاء ما أورده صاحب كتاب الإحياء من حجج عقلية وبراهين فلسفية سيقت لتحدي أعداء الدولة العباسية السلجوقية، ولم تكن تتساوق والواقع المغربي.. ثم تحول التحفظ إلى توجس فنفرة في نفوس بعض العلماء ومفكري الأندلس والمغرب كابن حمدين القاضي ثم تلميذه القاضي عياض.

ثم تضخمت تلك النفرة بسبب قيام دولة الموحدين وانتصار الغزالي لهم.. ويؤكد رأينا في أن هذا التضخم إنما كان لهذا السبب أن عياضا أول اطلاعه على كتاب الغزالي لم يكن موقفه مناوئا ولم يتخذ منه موقف العداء الصريح بل كل ما فعله انه اقترح اختصاره - كما رأينا قبل - وليس من المقبول من رجل مثل عياض أن يقال عنه انه أصدر حكمه بالاختصار للكتاب قبل أن يقرأه كله قراءة متأنية فاحصة، ولا يمكن أن يقال عنه انه لما أحيط علما بتهجم وعداء ابن حمدين أعاد قراءته ليصدر حكم الاعدام عليه، وإن يكن عياض أخذ وسمع من ابن حمدين حين تتلمذه عليه ردوده على الغزالي والرسائل النقدية التي حبرها ضد ذلك الكتاب - إذ أن عياضا أشار إلى تلك الردود والرسائل في فهرسته الغنية (21)... كما لا يمكن أن يقال أن عياضا في موقفه العدائي من كتاب الغزالي إنما كان استجابة لابن حمدين أو مسايرة للتيار السياسي الحاكم.

فاختلاف الزمنكية أي الزمان والمكان أدى إلى اختلاف تناول الرجلين لموضوع واحد وإلى اختلاف نظرتهما إلى ما ينبغي أن يقال، وما لا ينبغي أن يقال ثم إزاء غزو كتاب الإحياء للمجتمعات المغربية وما يهدد به ذلك الغزو، الوجود السياسي ريء إعدام الكتاب. تماما كما يفعل الآن في العصر الحديث إزاء كل كتاب أو نشرة لاتتساوق والسياسة العامة للدولة التي يصدر فيها هذا الكتاب أو تلك النشرة.

---

21) الغنية : ص 114 طبعة تونس.

وكان كتاب الإحياء قد تناولته خاصة الناس وعامتهم، كما قلنا، فخيف إفلات الزمام السلطوي والديني من أربابهما، فقرروا مجافاته «لظاهر الشريعة وساذج العقيدة» فحذروا الناس من مطالعته والنظر فيه وارجع ابن تاويت محاربة المغاربة لكتاب الغزالي إلى أمرين اثنين بالإضافة إلى ما أشرنا إليه سابقا وهما :

1) المواقف السلبية التي يقفها الغزالي من الاشتغال بالعلوم الإسلامية غير التصوف.

2) ماذكره فيه من علوم المكاشفة وما بناه عليها من نتائج وأحكام. وإذا كانت مقاومة الأفكار أكبر داع لانتشارها، كما يقول الكاتب الفرنسي «فيكتورهوجو» فقد ارتأى أولئك الفقهاء - وهم يشاهدون كيف أن الكتاب يغزو المجتمع - استعداء السلطة الزمنية ضده.

وإذ كانت هذه السلطة لا تملك حرية الاختيار أمام رأي الفقهاء الذين كانوا يمثلون بل ويتحكمون في الرأي العام بل ويعتبر رأيهم الدين، فقد اضطرت، استجابة لاستعداء الفقهاء - أن تتجاوز موقف أولئك الفقهاء، وتتخذ خطوة أكثر جرأة وأقوى حسما للأمر، فأصدرت أوامرها بمصادرة الكتاب وجمعه في الأسواق ومنع تداوله ثم إحراقه، يقول ابن القطان في «نظم الجمان» :

«في أول عام ثلاثة وخمسمائة عزم علي ابن يوسف - عن اجماع قاضي قرطبة أبي عبد الله محمد بن علي بن حمدين وفقهائها - على إحراق كتاب أبي حامد الغزالي رحمه الله تعالى والمسمى بالإحياء، فأحرق في رحبة مسجدها على الباب الغربي على هيئته بجلوده بعد إشباعه زيتا وحضر لذلك جماعة من أعيان الناس، ونفذت كتبه إلى جميع بلاده آمرا بإحراقه حيثما وجد، وأخذت منه نسخ من أيدي أصحابها كان معول الغزالية عليها، منها كتاب ميمون بن ياسين توعده علي ابن يوسف على إحضاره فأحضره له، ومنها كتاب ابن العربي حمله مع نفسه إلى الجزيرة الخضراء ثم أمر بحله في الماء فحل معظمه وفقد سائره، وتوالى الإحراق على ما اشتري منه ببلاد المغرب بقية ذلك العام».

والحق أن هذا العمل مهما بحث له عن أعذار فهو غير لائق إذ أقل ما فيه أنه عدم وفاء بصداقة الغزالي وموقفه الإيجابي من سلطان المرابطين وتناس للمكاتبات والرسائل المتبادلة بينه وبين يوسف بن تاشفين.

والقاضي عياض ـ مهما قيل عنه أو فيه فيما يخص موقفه من هذا الاحراق ـ فهو تلميذ أولئك الذين أدانوا الكتاب واعتبروه تنطعا على المألوف ومخالفة للواقع وطعنا في الدين. وهو حتى إذا كان كون لنفسه رأيا خاصا إزاء المعارف والعلوم التي جاء بها الغزالي مما جعله لا يبادر سريعا إلى تأييد مافعله العلماء قبله من ادانة صريحة وعامة، حيث اقترح اختصاره ليكون مفيدا. ـ كما سنذكر بعد ـ فقد وافق في النهاية على ما سبق أن قرره زمرة من العلماء ومن شيوخه كالمازري ومحمد بن عبد العزيز الثغلبي المتوفى سنة 508 هـ. والذي قرأ عليه عياض بالخصوص ردوده على الغزالي... أقول وافق هؤلاء على إدانة الكتاب. هذه الإدانة التي أوشكت أن تعم بلواها لولا موقف أبي الحسن البرجي فقيه المرية الذي لم يكتف فحسب بادانة فتيا إحراق الكتاب، وإنما أوجب تضمين من أحرق نسخة قيمتها لأنها مال مسلم وأوجب تأديب من أحرقها. وهو يعني بذلك ابن حمدين قاضي قرطبة الذي تولى كبر هذه الفتيا.. وعندما قيل له أي للبرجي.. أتكتب بما قلته خط يدك ؟ قال : سبحان الله كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون. ثم كتب السؤال في النازلة وكتب فتياه بعقبه.

قال التاريخ : فوافق علماء المرية ووقعوا كلهم بهذه العبارة. وبه يقول فلان : «ولعل هذا الموقف من البرجي وعلماء المرية بلدته هو الذي دعا عليا بن حرزهم من علماء فاس ـ الذي كان وافق أولا على فتيا الإحراق ـ إلى الرجوع عنها...

أقول : إذا كان القاضي عياض لم يبادر إلى اعلان رأيه أول الأمر متأثرا بما قد يكون كونه من رأي خاص متماش مع الغزالي ولو نسبيا. فإن مجرد اقتراحه اختصاره دليل على تحرزه من اغضاب السلطة الزمنية أو التصدي بوضوح لمعارضة ابن حمدين. حين رأى ـ وقد تكون أطماعه السياسية ومركزه كقاض حاملة له

على ذلك - أن لا بد مما ليس منه بدا أعلنها كلمة مسايرة لرأي السلطة الزمنية وأدان هو الآخر كتاب الإحياء وأفتى بإحراقه. فقد حكى عنه العماد الحنبلي في الشذرات والشعراني في طبقاته القول بوجوب إحراق كتاب الإحياء قال ابن تاويت تأييدا لذلك : «وليس غريبا ما حكياه عنه فلعياض في كتاب الشفا حكم على أبي حامد الغزالي في غاية القسوة وكان لعياض رأي في كتب الغزالي وآرائه مماثلا لما رآه شيوخه ومعاصروه فيها» (22).

ويحاول العربي الخطابي تبرئة عياض من المشاركة في فتوى إحراق كتاب الغزالي اعتمادا على أن عمر عياض - ايام حرق الكتاب - كان لما يتجاوز السابعة والعشرين ربيعا. وقد كان يومئذ ما يزال طالبا. ولم يكن بعد سافر إلى الأندلس للأخذ عن علمائها ومنهم ابن حمدين قاضي قرطبة الذي تولى كما هو معروف كبر هذه الفتوى وتزعم حركة مناهضة الغزالي. إذ لم يرحل عياض إلى الأندلس إلا سنة 507 هـ. ولم يتول خطة القضاء في بلده إلا سنة 515 هـ. ثم أورد الخطابي نص ابن القطان مؤرخ الدولة الموحدية في كتاب «نظم الجمان» عن حادثة الإحراق التي أوردتها سابقا وعقب على كل ذلك قائلا : «ان هذه الرواية ليس فيها ذكر للقاضي عياض ولا لعلماء سبتة» ولكن الذي فات الأستاذ الخطابي - في نظرنا - هو الانتباه لبعض فقرات مما نقله عن ابن القطان في الحادثة. وبالأخص الفقرات التي تقول (ونفذت كتبه - أي علي ابن يوسف - إلى جميع بلاده أمرا بإحراقه حيثما وجد) (وأخذت منه نسخ من أيدي أصحابها...) وتوالى الإحراق على ما اشترى منه ببلاد المغرب بقية ذلك العام).

فهل كتب علي ابن يوسف لم ترسل إلى سبتة أم أن هذه المدينة يومئذ كانت خارج طاعته ؟ أم هل إن أمر الإحراق لما اشتري منه ببلاد المغرب بقية ذلك العام لم يصل خبره للقاضي عياض ؟ أم أنه وصله ولم يتخذ هو ازاءه موقفا ؟

---

22) مقدمة المدارك صفحة «يز».

على أن السن السابعة والعشرين لمن كان في مركز عياض علميا واجتماعيا ودينيا ليست سن المراهقة العلمية أو عدم اهتمام بالشؤون العامة. ولا سيما بقضية من هذا الصنف وبهذه الدرجة من الخطورة الدينية. إذ ليست قضية عادية قطعا وليست بسيطة لاتثير الاهتمام.

أما رحلة عياض للأندلس في السنة تلك فقد أوشك متناولو تاريخه - كما سنذكر بعد - على انها لم تكن لتلقي العلوم عن شيوخها أو للتتلمذ عليهم وإنما كانت للقيام بمقارنات. بين ما حصله من معلومات وما يحمله من فقه وحديث رواية ودراية. وبين ما يوجد عند أولئك الذين قام بالرحلة إليهم وزيارتهم. خاصة وقد نقل ابنه في التعريف. كيف أن القاضي أبا عبد الله بن حمدين كان يقول له وقت رحلته إليه : (وحقي يا أبا الفضل. ان كنت تركت بالمغرب مثلك). وحكى ابنه أيضا عن أبي الحسين بن سراج انه قال له : - وقد أراد الرحلة إلى بعض الأشياخ - «لهو أحوج إليك منك إليه».

ويقول ابن تاويت. بعد أن تحدث عن ثقافة عياض الموسوعية : «بهذا المحصول العلمي الرائع رحل عياض إلى الأندلس. والرحلة في طلب العلم تعني في ميدان التربية العلمية وتقويم أسس الفكر في الإسلام أمرين :

1) التأكيد من سلامة المنهج النقلي ومن كماله. ويتطلب ذلك تصحيح المتون المروية والبحث عن أصولها ووصل أسانيدها بأصحابها والبحث عن أعلى الأسانيد وأقومها وأصحها.

2) تصحيح منهج التفكير وإقامة أسسه على قواعد ثابتة.. ولم يكن غرض عياض الأساسي من رحلته أن يرى وجوه الشيوخ وانما كان يعني - بعد أن سلم له المنهج النقلي - أن يقابل أفكارهم فيزينها بما تعلمه في بلده من أفكار. وقديما قيل : إذا أردت أن تعرف مقدار شيخك فجالس غيره. وبعملية الاختيار والمفاضلة والتنقيح والتلقيح تم لعياض بناء الجهاز النقدي وتكاملت له أصول التفكير على أساس من المقارنة والاختيار. (مقدمة المدارك).

وحيث أن الاجماع منعقد على أن رحلته إلى الأندلس لم تكن قبل هذه السن، ولم تدم لأكثر من سنة. بل ونعلم بالإضافة إلى ذلك أن توجهه بالخصوص للقاء أبي علي الحسين ابن محمد الصدفي إنما كانت لمقابلة كتبه أي عياض بأصول الحافظ أبي علي هذا. وأنه إذ وجده مختفيا لما كان من رفضه خطة القضاء. فقد سعى أبو علي للقاء عياض بعد خروجه من مستخفاه. وأنه قال له : «لولا أن الله يسر خروجي بلطفه لكنت عزمت أن أشعرك بموضع يقع عليه الاختيار من بلاد الأندلس لا يؤيه لكوني فيه ترحل إليه. وأخرج مختفيا إليه بأصولي فتجد ما ترغب، لما كان في نفسي من تعطيل رحلتك واخفاق رغبتك» (23) فقد بان بما لا يحتاج إلى برهان ان رحلته إلى الأندلس لم تكن للتلقي ومن ثمة فقد كان كمل علمه وصقل فهمه يومئذ.

على أن اهتمام أمير المسلمين علي بن تاشفين وأصحاب دولته في مراكش بهذه الرحلة اهتماما حمل أمير المسلمين على توجيه كتاب توصية به - كما سنشير إلى هذا الكتاب، لدى ذكرنا لرحلاته - يدل دلالة قاطعة على أن رحلة الرجل إلى الأندلس لم تكن لاستكمال علمه وفهمه وانما كانت للتجربة أو للحصول على اعتراف علماء الأندلس الذين كانوا يمثلون يومئذ علماء مكة والمدينة وبغداد لعلماء الأندلس أيام بداية الوجود الإسلامي بالأندلس. وتدل كذلك على أن الرجل كان قد استكمل عدته العلمية وكون له مركزا معترفا به من طرف رئيس الدولة وكبرائها وانما رحل كما قلنا لأن العادة يومئذ كانت تقضي بضرورة حصول الاعتراف لعلم الرجل الحق رواية ودراية عن طريق الارتحال إلى الشرق أو الأندلس.

ونحن نعني بكل ما ذكرناه ان إمكانية مشاركة عياض في إدانة كتاب الإحياء غير مستبعدة مع كلمته حول الكتاب أساسا ومنذ بداية ظهوره في الحوار الذي جرى بينه وبين شيخه أبي محمد بن منصور اللخمي النكوري المتوفى سنة

---

(23) التعريف : ص 8.

513 هـ والتي جاء فيها «لو اختصر هذا الكتاب واقتصر على مافيه من خالص العلم لكان كتابا مفيدا» ويضيف ابنه أن أباه عياضا استحيى أن يتولى مهمة اختصاره نيابة عن شيخه رغم تشجيع هذا له حين قال له : «لئن لن تختصره فما في بلدنا من يختصره...» (24) وتأكيدا لما نلمع إليه وراء هذه النصوص من أن عياضا كان علما من أعلام الفقهاء قبل رحيله إلى الأندلس نورد ماذكره أزهار الرياض عن موقف الأندلسيين في عياض حين قام بزيارتهم. يقول القاضي ابن البركات ابن الحاج التلفيقي : لما قدم أبو الفضل عياض على قرطبة ولقي القاضي أبا الوليد ابن رشد الجد ورأى نبله وفضل ذكائه قال إعجابا : عجبا لرجل ينشأ في البلاد البحرية على أكل السمك من أين يكون له هذا النبل والذكاء ؟ (25).

فهل يمكن الادعاء بأن كل هذه المكانة العلمية إنما حققها عياض في خصوص السنة الواحدة التي قضاها في رحلته إلى الأندلس، حتى نبعد عنه تهمة المشاركة في إدانة كتاب الإحياء وتهمة الإفتاء بما أفتى به بعض العلماء. ومن أبرزهم ابن حمدين ؟ خاصة والرجل كما قررنا طلعه ذو اطماع سياسية لم تنفك تراوده طيلة حياته حتى ساهمت في حتفه ؟

على أن الأستاذ الخطابي - استدرك فيما أظن - حين عقب بحثه بموقف عياض من كتاب الغزالي أثناء احتجاجه لأحقية إجماع أهل المدينة. وأثناء تعرضه لمسائل التأويل والمتأولين واختلاف الفقهاء والمتكلمين في حكم من يضيف إلى الله تعالى مالا يليق به عن طريق التأويل والاجتهاد من تشبيه أو نعت بجارحة أو نفي صفة أو ما يقرب ذلك. واحب أن أنبه هنا إلى بحث الدكتور محمد الكتاني في نفس النقطة. فهو بعد أن ركز على الهدف السياسي لعياض وراء تأليفه كتاب الشفا عاد يذكر بأن عياضا لم يطلق العنان لمعارضة أصحاب التأويل إطلاقا . ولم يكن متمسكا بحرفية النص التي تؤدي إلى التشبيه والتجسيم وإنما

(24) التعريف : ص 106.

(25) المناهل : ص 258 نقلا عن أزهار الرياض ج 5 ص 79.

دعا إلى فهم العقيدة انطلاقا من فهم مقاصد العرب من استعمال كلامهم وقال : «فالأخذ بالنص الشرعي إذن لم يكن يعني حتما انكار التأويل بقدر ما كان يعني اعتبار النص الشرعي مقدما على حكم العقل في المسائل التي يأتي بها الشرع مما هو فوق طاقة العقل» (26).

ولهذا فنحن لانعدو الحقيقة إذا قلنا أن عياضا كان له موقف عدائي ضد مجمل الأفكار التي رواها الغزالي مما لا يتفق والعقيدة الأشعرية والسنة والمذهب المالكي، وان اقدامه على تأليف كتاب الشفا، هو من جهة رد على مالا يوافق عليه الغزالي، ومن جهة هو رد عام على مزاعم من سبقه ممن ألفوا في ميدان العقائد وعلم الكلام وشاءت أريحيتهم أن ينسبوا للمغرب والمغاربة مزاعم لاتمت إلى الدين وحقيقته الناصعة ـ كما يراها علماء المغرب ـ بصلة، فرأى عياض التصدي لدحض تلك المزاعم وإظهار ماتخفي وراءها من تعاظم لا مبرر له، ومن تشنيع على المغاربة بقصد إثارة السلطة الزمنية ضدهم، فقد حلا مثلا للقاضي عبد الجبار الهمذاني المتوفى سنة 415 هـ أن ينسب للمغرب والمغاربة في تأليفه أقاويل عن انتشار الباطنية في المغرب وظهور دعاتها، وان يدعي أن روايات عن رسول الله وأهل بيته فيما يخص المهدي والمهدوية يروجها المغاربة.. وكانت هذه الأقاويل تجديفا بدون سند، كما يحدث في العصر الحديث من بعض إخواننا الشرقيين الذين يحلون ببلادنا في فترات قصيرة ثم يأخذون أقلامهم لدى عودتهم إلى مواطنهم بالشرق يصدرون أحكاما اعتباطية وربما عشوائية عن الأوضاع الثقافية والعلمية والسياسية والاجتماعية بالمغرب دون تعمق أو دراسة مركزة لحقيقة ما هناك، فكان تأليف عياض لكتاب الشفا يقصد به وبما ورد فيه من انتقاد أمرين :

الأول : ابطال تلك المزاعم من أمثال ماذكر الهمذاني وما حاول الغزالي اعتباره وحده دينا أي التصوف، والأفكار الفلسفية العقلانية التي

---

26) المناهل : عدد 19 ص 379.

احتاج لها هو لدحض ترهات الباطنية في الشرق وقد سلك لا بطال ذلك إظهار العقيدة السنية الصحيحة التي يتمسك بها المغرب والمغاربة ويدينون بها وانهم في سبيل المحافظة عليها يعارضون كل دعوة تخالفها وانهم لأجل ذلك لن يتورعوا عن امتشاق الأسلحة وشن الحروب.

الثاني : وهو مجرد افتراض ـ الايماء إلي ان هذه الموجة من اختلافات الروايات عن مهدي المغرب وما يدعيه من عصمة إنما كان يحركها من الخلف ساسة الشرق ويقصد بها أولئك أو الدولة العباسية بالتدقيق إثارة عواطف الناس هنا وهناك ضد الدول المغربية التي انفصلت عن الدولة العباسية وكونت لنفسها وجودا ذاتيا تمكن من فرض احترامه ومن مد حركة الفتح بروافد حية كان فتح الأندلس باكورتها وكان الاحتفاظ بتلك الأندلس رغم كل المحن والصعوبات دليلا حيا على وجود هذه الروافد. وكأن المسودة العباسية يحاولون من وراء تلك الدعايات إيجاد مبرر يحمل رعاياها على الانتقاض علينا تحت شعار الذود عن العقيدة الإسلامية والحفاظ على الملة والدين.. فأراد عياض رحمه الله بتأليفه الشفا : أن يثبت من جهة الاستقلال المغربي السياسي عن الشرق العباسي وانه استقلال لاتراجع فيه. ومن جهة أخرى التأكيد للجميع بما فيهم المنحرفون من المغاربة على أن الانفصال السياسي لا يعني التراجع عن السلفية الصالحة والعقيدة السنية كما لا يعني التهاون مع الذين قد يفكرون في التراجع عن تلك المبادىء الأساسية التي أصبحت أهم المقومات الذاتية لوجود الكيان المغربي لا الديني فحسب ولكن القومي أيضا حتى ولو كان من يحاولون التراجع ممن في أيديهم السلطة الزمنية وما تتوفر عليه من قوة وعتاد.

عياض الرحالة المدرس :

كانت رحلات العلماء في العهود الإسلامية الأولى إلى المدينة المنورة مدفن الرسول عليه السلام ومهجره من مسقط رأسه مكة. بحكم أن يثرب كانت يومئذ عاصمة الدولة الإسلامية الناشئة ومقام الصحابة الكبار وتابعيهم. فكانت بذلك مصدر أصول التشريع الإسلامي. ومأوى جهابذة ذلك التشريع. ثم بامتداد الفتوحات الإسلامية إلى الرافدين والشام وما وراء الجزيرة من افريقيا والشرق الأقصى وبلاد فارس وخراسان تفرق الصحابة في هذه الأمصار المنضوية تحت الإسلام أو الداخلة فيه. وحملوا معهم من بين ما حملوا السنة : أقواله صلى الله عليه وسلم وأفعاله واشراته وما هم بفعله مما أتاح للعلوم الإسلامية وخاصة علوم الرواية والحديث مزيد الانتشار. وادى إلى حدوث المدارس العلمية التي تحولت فيما بعد. وبفعل التيارات العقائدية التي واكبت حروب الردة. ثم حروب الفتنة الكبرى. إلى مذاهب سنية واعتزالية وشيعية ثم إلى مذاهب شخصانية إن صح التعبير. وذلك فيما عرف بمذهب مالك بن أنس. وأحمد وأبي حنيفة والشافعي والأوزاعي وأبي ثور الخ..

ولكن بقي كل العلماء في مختلف الأصقاع الإسلامية يعتبرون أن المدينة المنورة هي مصدر الإشعاع. وان علماءها هم العلماء الذين يرجع إليهم القول الفصل في الرواية والحديث خاصة فكان علماء إفريقيا والأندلس وسواهما لا يشهد لهم بالتبريز والحفظ إلا إذا نشأوا هناك. ودرسوا وتلقوا على علماء المدينة أو ارتحلوا إليها للاستماع والأخذ. وأنت إذا تصفحت كتب الطبقات والتراجم ستلاحظ هذه الظاهرة التي لم يخل منها صقع إسلامي. وكان الاندلسيون بالخصوص مع الأفارقة يعتبرون الرحلة إلى الشرق عامة والمدينة ومكة خاصة شرطا أساسيا للاعتراف بمكانتهم العلمية. واصرار الأندلسيين على القيام بهذه الرحلات وبما كانت تفرضه رغبتهم في مضارعة الشرق علميا بعد أن استقلوا عنه سياسيا. فقد كان الأمويون هناك يحاولون في استماتة واصرار الظهور بمظهر الندية للمسودة العباسيين في

ميدان، التباري فيه حسن وجميل وكفيل بتحقيق الخلود الحقيقي لمن يسعى للعزة والافتخار. فكان أولئك الامويون لا يقنعون بتلقي العلم عن أولئك الذين يزورونهم ويحلون بينهم من وفود الشرق طلبا للانتجاع أو الشهرة أو بث العلم لوجه العلم. وانما أصروا على أن يأخذوا هذا العلم من معينه الأول، وأن يشهد لهم بتفوقهم فيه من يعتبرون مصادره وذويه. فكانت هذه الرحلات العديدة والطويلة التي كان يقوم بها علماء الأندلس إلى المشرق مما ذكر المقري بعضه في نفح الطيب.

ولما تمركزت السلطة الزمنية للإسلام في الأندلس، وأصبحت قاعدة إسلامية عربيا ودوليا. واستطاعت بفضل ما كانت تزخر به من افذاذ العلماء وجهابذة الحكماء وما يؤمها من كل صوب وحدب من رجالات الفكر.. تحولت الأندلس إلى مركز إشعاعي عظيم. فقامت فيها للعلم أسواق. وللآداب أذواق وللفن الموسيقي أجواق وأصبحت محجا لرواد العلوم وضارعت في ذلك أهم العواصم الإسلامية : المدينة - ومكة - و بغداد - ودمشق - ومصر - والقيروان.

فكان أن أخذ الأفارقة على العموم. وبالأخص المغاربة منهم يحجون ويرحلون إلى الأندلس بدل الشرق ينقلون الروايات والأسانيد ويصححون مروياتهم. ويتأكدون من سلامة نقلهم بتصحيح المتون المروية والبحث عن أمهاتها، وربط أسانيدها بأربابها ثم البحث عن أعلى وأصح وأقوم أسانيدها، ثم للقيام بمقارنات بين فهومهم واستنباطاتهم وفهوم واستنباطات أولئك الذين سعدوا بالأخذ عنهم والتلقي منهم بصفتهم أساتيذ لهم مكانتهم الممتازة في مجالات اختصاصهم ولهم شهادة من أقرانهم وشيوخهم بأنهم أهل للتلقين والتحمل والأخذ والعطاء، قبل أن يتصدى أولئك الرحالة بدورهم للقيام بنفس الدور ونفس المهام أي التلقين والدرس.

ومن هذا الإطار كانت رحلة عياض إلى الفردوس المفقود، وكانت بداية رحلته الى هناك - كما يقول ابنه في التعريف - يوم الثلاثاء منتصف جمادى

الأولى سنة سبع وخمسمائة 507 هـ فوصل قرطبة يوم الثلاثاء مستهل جمادى الأخيرة. ثم خرج منها إلى مرسية يوم الاثنين لخمس بقين من المحرم سنة ثمان أي 508 هـ. وعاد إلى بلده ليلة السبت السابع من جمادى الأخرة من هذه السنة وهو ابن اثنتين وثلاثين سنة أو نحوها أي أن رحلته تلك لم تطل لأكثر من سنة مما يدل على أنها لم تكن أساسا للتعلم أو التلقي. بقدر ما كانت لتوسيع الرواية وربط الصلة بأعلام عصره. ولما أشرنا إليه سابقا من تحقيق شرط من الشروط الأساسية لاستحقاق مركز الأستاذية وأحقية التصدر للتلقين والافتاء ولكل المناصب ذات الاعتبار دينيا وسياسيا. أي الارتحال للحصول على شهادات التبريز...

وقد زار في رحلته تلك غير قرطبة من حواضر الأندلس التي قضى بها بالضبط ثمانية أشهر ابتداء من جمادى الأولى إلى خمس بقين من المحرم. زار مرسية وغرناطة وهذه الرحلة أحيطت بغير قليل من هالة الأبهة. وبكثير من العناية والاعتبار من الجانبين : المغربي الذي اعتبرها تدشينا للريادة المنتظر لها عياض حين يعود إلى بلده ليكون به مركزا علميا يوازي من حيث قيمته ومكانته المراكز العلمية في الأندلس والقيروان ومكة ويثرب وبغداد . وكذلك من الجانب الأندلسي حيث رأى فيه علماء ذلك البلد أن رحلة مثل عياض إليهم - وكان قد اشتهر بعلمه وذكائه - ليست عادية. وكأنهم يمهدون لربط صلات مع فرد فرد من أفراد هذه المدينة المعبر التي تحتل مكانة خاصة عند الصقعيين المغربي والأندلسي.

فمن الجانب المغربي يتجلى الاهتمام والعناية بهذه الرحلة من خلال ما أحاطها به رئيس الدولة حينذاك أمير المسلمين علي بن تاشفين من تقدير خاص حين راسل في شأن الاعتناء بصاحبها. قاضي الجماعة بقرطبة محمد بن علي بن حمدين وأوصى به قائلا : «عياض - أعزه الله بتقواه وأعانه على مانواه. ممن له في العلم حظ وافر. ووجه سافر. عنده دواوين اغفال. لم تفتح لها اقفال. وقصد تلك الحضرة ليقيم أود متونها. ويعاني رمد عيونها. وله إلينا ماتة مرعية أوجبت الاشادة

بذكره. والاعتناء بأمره. وله عندنا مكانة حفية تقتضي مخاطبتك بخبره وانهاضك إلى قضاء وطره. وأنت إن شاء الله تسدد عمله وتصل أسباب العون له» (27).

أما من الجانب الأندلسي ؛ فقد اعتبرت رحلات عياض إلى هناك حدثا تاريخيا حافلا. واستقبل استقبال البعثات الرسمية أو السفارات التي تكون بين الدول والإمارات. يقول عن احداها شاهد عيان وهو أبو زيد عبد الرحمن بن القصير أحد علماء غرناطة : «لما ورد علينا القاضي عياض غرناطة خرج الناس للقائه وبرزوا تبريزا. ما رأيت لأمير مؤمر مثله حزرت أعيان البلد الذين خرجوا إليه ركابا. نيفا على مائتي راكب. ومن سواد العامة مالا يحصى كثرة. وخرجت مع أبي رحمه الله في جملة من خرج فلقينا شخصا بادي السيادة. منبئا من اكتساب المعالي والإفادة».

ورحلات القاضي عياض خارج مسقط رأسه محدودة . إذ لم يفارق سبتة إلا في رحلته الأولى للأندلس لتلقي العلماء. والثانية لولاية القضاء بغرناطة. ثم ثالثة - ولكنها خاطفة - للاتصال بابن غانية يوم رفع راية العصيان ضد الموحدين. وكان عياض - فيما يبدو - يحاول ربط حباله بالرجل حتى يعترف له بإمارته على مدينة سبتة. ثم رحل عياض إلى سلا حين بدا أن علاقات سبتة بالحكم القائم قد بدأت تميل إلى المصالحة والانضواء تحت لواء الجماعة... ثم كانت - فيما أظن - رحلته الأخيرة إلى مراكش التي على إثرها انطفأت شعلة حياته... وأثناء هذه الرحلة عبر تادلة أو قرية داي قاضيا بها لفترة ثم عبر فاسا إحدى مراتع أجداده يوم كانوا في طريقهم إلى أو من الأندلس للاستقرار بسبتة. يقول أبو القاسم بن الملجوم عن زيارة عياض هذه لفاس : «اجتاز علينا بمدينة فاس القاضي عياض عند انصرافه من سبتة قاصدا إلى الحضرة. زائرا لأبي عشية يوم الاثنين الثامن لرجب سنة ثلاثة وأربعين وخمسمائة.

---

27) هامش التعريف : ص 6 نقلا عن قلائد العقيان.

وقالوا : وكان نزل يومئذ بدار آل الغرديس التواتيين بزنقة حجامة حيث ما تزال هذه الدار موجودة حتى الساعة ومعروفة بنسبتها لآل الغرديس.

ومن رحلته الأولى إلى الأندلس، عاد عياض إلى مدينة سبتة، حيث وجد كل شيء مهيئا لاستقباله أو بتعبير أدق لاختبار نتائج سفرته، وما استفاده منها علميا. فبمجرد دعوته يقول ابنه : أجلسه أهل بلده للمناظرة عليه في المدونة، وكأنهم بذلك يعدونه لما قلدوه فيما بعد من مهام ومناصب خطيرة إذ كانت مهام الدولة أيامئذ لا تسند إلا لمن تثبت جدارته علميا ويسلم له فيها من أقرانه وأنظاره بالرئاسة.

واذا كان تدريس كتاب المدونة يومئذ من أخطر الكتب التي لا يقدم على المناظرة فيها إلا من أوتي حظا غير يسير من الثقافة فقهيا وأصوليا ولغويا ونحويا، وأوتي معرفة خاصة بالمذهب المالكي وتفريعاته وتشعباته، فقد كان هو المجال الذي أظهر فيه عياض استحقاقه لما رشح له بعد من مهمة الشورى التي أجلسه إليها أهل بلده حين لمسوا بأيديهم وأبصروا بعيونهم الرجل رجل الساعة.

وقد قضى في هذه المهمة زهاء سبع سنوات، قبل إسناد منصب القضاء إليه، وكان هو أثناء هذه الفترة الطويلة منهمكا في التدريس والمناظرة، إذ لم يعين قاضيا إلا سنة 515 هـ.

ويقول ابنه عن شغف أبيه بالتدريس : «انه لم يفارق رسالة التدريس حتى في أحلك الظروف السياسية التي شاهدتها مدينة سبتة، وحتى عندما ثار ابن هود، وحوصرت سبتة من طرف الموحدين كان عياض ـ رحمه الله ـ بعيدا عن الخوض في شؤون الثورة ـ كما يحاول ابنه أن يثبت، إذ نحن لانوافقه على ادعاء هذا الابتعاد ـ يسمع حديث رسول الله صلى الله عليه عليه وسلم، ويدرس الفقه.

ولم يصرفه واجبه الديني والاجتماعي ـ يقول ابن تاويت ـ عن الواجب العلمي المقدس فكان دائم الصلة بعلمه، لا يفارق كتبه، يقرأ ويدرس ويبحث ويؤلف.

واستقر عياض ببلده ـ كما يقول العلامة كنون ـ معززا يخدم العلم بالدرس والتأليف وكان حسن الإلقاء للمسائل، كثير التحرير للنقول، كثير الاعتناء بالتقييد سريع الوضع، كتب كتبا كثيرة بيده دون إغفال المشاركة في الأعمال الاجتماعية بالإقبال على المساكين . وسؤالهم عن أحوالهم والإكثار من الصدقة عليهم حتى أنه مات وعليه دين خمسمائة دينار، رغم الأموال التي ورثها عن أبيه، نحو السبعة عشر ألف دينار، أنفق كل ذلك في وجوه البر، وطلب العلم والمشاركة في إقامة المعاهد والمباني الدينية، حيث أضاف لجامع سبتة الزيادة الغربية فيه وبنى في جبل المنيا الرابطة المشهورة فيه، كما اشتهر بالذب عن مصالح وحوائج الرعية لدى الأمراء، واستقضاء حوائجهم عندهم بلطف ما استجابوا، فإن امتنعوا عن الحق تقوى عليهم غير هيوب لهم، مقداما عليهم في صدهم عن الباطل.

وبتتبعنا للمحات والإلماعات كما سمى ما أورده في كتابه «بغية الرائد» نستطيع أن نستشف طريقته المثلى ومنهجيته في التدريس، فهو يقرر أولا ما عند الآخرين مما رواه أو أخذه أو سمعه ثم يتعقبه بتعقبات الآخرين لينتهي بتذييل ذلك بما يراه هو رأيا صائبا وحكما مقبولا.

وفي كتابه «بغية الرائد» هذا بالخصوص نستطيع أن نقف على صور من منهجيته تلك وإذا كنا قد نقلنا بعض صوره في مكان آخر من هذا البحث، فإننا هنا ـ ولو للاستئناس ـ ننقل هذا النموذج، والذي يحلل فيه مفهوم لزوم ما يلزم فبعد أن ساق أمثلة له مثل «يتنقل ويتوقل» و «لا الجبل سهل فيرتقى»، و «لا اللحم سمين فينتقى» لالتزام التاء والقاف والألف المقصورة، أولا للتزام القاف المدغمة واللام انتقده، بكونه إغراقا في جودة تشابه الكلام وتناسبه، ونوع زيادة في تحسينه وتماثله، ثم قال : وأولع به المتأخرون، فمن مجيد ومن مقصر «وأضاف بأنه لا يحسن منه إلا ما ساقاه الطبع، وقذف به الخاطر دون تكلف ولا مساقاة، ووجد لفظه تابعا لمعناه منقادا له موضوعا عليه غير مرغم ولا منافر له».

وتعتمد منهجية عياض على تحقيق النصوص وتوثيقها بتصحيح الأسانيد وضبط الألفاظ وتفسير الغريب والتنبيه على المختل أي يشترط في كل عمل

علمي أن يتوفر على حدين : حد علوم اللسان وحد علوم الدين (الودغيري - المناهل : 433. العدد : 19).

وهذه خصيصة العالم المسلم الذي يمثل الثقافة الإسلامية في أنصع صورها كما نلحظ ذلك عند ابن حزم وابن عبد البر وأبي بكر المعافرى وغيرهم من أفذاذ علمائنا (هراس المناهل : عدد 19، ص : 614).

يقول أحمد صقر عن منهجية عياض في العرض والتأليف «لو انتشر منهج عياض هذا ونهج نهجه فيه الدارسون لأساليب القرآن والحديث لغنيت الأبحاث النقدية. وتجدد شباب البلاغة العربية ورفت نضارتها ودامت غضارتها».

ويمكن أن نطلق على منهجية عياض تلك منهجية المدرسة المسجدية. وهي طريقة تعتمد أساسا على إتقان ما يطلق عليه بين أصحابها «علوم الآلة» أي النحو والصرف واللغة والبلاغة والمنطق والعروض والأصول. واطلاق هذا الاسم على هذه الفنون جاء من حيث إنها في بداية تدوينها لم تكن مقصودة لذاتها ولا تعلق بها غرض عيني وانما دونت وخصص لها ما أدركته من تمحيص واتقان بوصفها معينا وسندا أساسيا لفهم أصول التشريع أي الكتاب والسنة. فهي إذن آلة وأدوات للتمكن من تدبر ما جاء في تلك الأصول الشرعية. ومن ثم كان إتقانها ضروريا لمن يريد التصدي للتدريس في المدارس المسجدية. ولا ندعي مالا حجة لنا عليه إذا قلنا بأن الدراسة في المعاهد الدينية والأصلية. القرويين وابن يوسف ثم تطوان كانت إلى ما قبل المحاولات الوحدوية بين مختلف المناهج والبرامج التعليمية تتتبع نفس منهجية عياض. حتى ان الشيوخ الذين درسنا عليهم رحم الله من قضى منهم وأطال عمر من لا يزال منهم على قيد الحياة لدى تدريسهم التفسير والحديث خاصة. كانوا ينهجون المثال التالي : التأكد من صحة المتن والسند - في الحديث - ومعرفة درجته من حيث المصطلح وترجمة جميع رواته بدون استثناء. واعطاء نبذ مقتضبة عن حياتهم ومآثرهم. والتعليق على الألفاظ الغامضة لغويا واستعمالاتها في الموضوع الحقيقي أو مجازا أو كناية أو استعارة - ثم إيراد بعض مترادفاتها

وأضدادها والاستشهاد على ذلك بآيات قرآنية وأحاديث نبوية صحيحة ما أمكن أو من الأشعار العربية المعتبرة في هذا المجال. ثم تصريف ما يكون هناك من أفعال غير واضحة الأساس مثل «تترى» وتتالى ثم إعراب النص كاملا إن كان قرآنا أو شعرا والتنبيه على ما يجب في الحديث. ثم تحليل المضمون العام للنص حتى إذا استقر في أذهان الطلبة وهضموه فتح باب المناقشة الحرة والكامل دون اقتسار أو ابتسار وأشير إلى مافي الموضوع من مراجع للتصحيح والمقارنة والتصويب. ثم في النهاية : محاولة استخراج ما في النص من أحكام إن كان شرعيا ومن فوائد وقواعد أيضا إن كان غير شرعي مع عدم إغفال مختلف النقول وراء العلماء القدماء مع فحصها وعرضها على محك النقد المجرد النزيه. ويعني كل هذه الإحاطة بالموضوع من جميع جوانبه. وإذا لم يكن الدرس في هذا المستوى وصف بأنه فج مبتسر. وأن صاحبه لم يبلغ بعد درجة الأستاذية المعترف بها علميا...

وقد تكون هذه المنهجية التي اتبعت بالمعاهد الدينية بالمغرب من وضع أولئك الفطاحل الأولين من أمثال صاحبنا عياض... وليست هذه المنهجية متنافرة ولا مختلفة متباعدة ولا مختلفة المناهج والاتجاهات. ولا متباينة الأهداف والغايات. ولهذا فلا حاجة للادعاء بأنها شيء مخترع جديد أو تبني الدعوة إلى تطبيقها أو اتخاذها في عصرنا منهجا في دراسة النصوص لإيفائها حقها من التحليل والنقد والدراسة والاستفادة منها في جملة مباحث (28) لأنها هي الطريقة التي تلقينا بها الدروس في أطوار المعاهد الدينية الثلاثة الابتدائي والثانوي والنهائي مع اعتبار فوارق السن والمدارك...

وأما منهجيته في التأليف فأستسمح الأستاذ زمامة أن ننقل عنه هذه الفقرة الجامعة قال : «ويظهر التتبع والاستقصاء لتراث القاضي عياض أن التدوين والتقييد لشتى الموضوعات خطة سار عليها منذ بواكر شبابه حيث كانت تراوده فكرة

---

28) انظر بحث الأستاذ الدكتور ابتسام مرهون الصفار المناهل عدد 19 - ص 262.

التأليف فيعد لها المادة من تلك المذكرات. ومن أجل ذلك لا نستطيع أن نؤرخ تاريخا دقيقا لكل مؤلفاته ولا أن نرتبها حسب سنوات تأليفها لأن كلا منها كان أمامه يعطيه من وقته وفكره ما وسعه أن يعطيه ثم يعيد النظر فيه ليستكمل أبوابه وفصوله حسب الفرصة المتاحة» (29).

ثقافته العامة :

كان ميلاد عياض بسبتة سنة 476 هـ كما قلنا. ومدينة سبتة يومئذ حاضرة علمية تعج بفطاحل المفكرين وأفذاذ المثقفين. وكانت رحابها تشع منها أضواء الفكر وساطع العرفان. وتحتضن جنباتها ما تزخر به الثقافة الإسلامية من شوامخ ونوابغ العدوتين المغرب والأندلس.

وفتح عينيه وحواسه على المرابطين يوطدون سلطانهم على تلك الربوع وقد انتهوا أو كادوا من القضاء على محاولات البرغواطيين حجاب الحموديين الذين كانوا يحاولون إقامة وجود لهم بطنجة وسبتة وجبال غمارة والمناطق المحيطة بها.

وعايش بحكم مركز مدينته ومحيط أسرته قعقعة السيوف وأهوال الثورات والفتن وشاهد زحوف المرابطين العابرين إلى الأندلس. توطيدا لوجوده أو تهدئة للأوضاع. أو قضاء على فتنة أو ثورة. أو استعدادا لمزيد من الفتوح. ولخضد شوكة مقاومي الاسبان والجنود الايبيريين. أو لتأديب ملوك الطوائف الذين كانت غارت في نفوسهم كل نخوة وأصبحوا مجرد متهافتين على فتات الامبراطورية الأموية المنهارة يقتطعون من ممتلكاتها أجزاء يقيمون عليها دويلاتهم المتناحرة ويستعدون على بعضهم الأعداء غير عابئين بما كان يصيب الإسلام من تصدع وانهيار ولكنهم كانوا مع الأعداء ضالعين ولكل مشاغب ثائر ناصرين ولا شك أن

---

29) المناهل : ص 643.

كل هذه الصور المتعاقبة على أنظاره وحواسه تركت بصماتها في نفسه وحفرت انطباعات في مخيلته وشحنته بغير قليل من التطلعات المعتمة ورسبت في أغواره كذلك غير قليل من التساؤلات مما سيتناوله هو نفسه فيما بعد. وعندما تأخذ تلك الرسوبات تطفو على السطح بالدرس والتحليل ولكن السمة الأكثر وضوحا. والأعظم اعتبارا في سبتة العائمة بين البحرين هي أنها منار عرفان وصومعة إشعاع ومنبع علم وبيان وكانت ممرا مفتوحا في وجه كل إنسان. ومعبرا أمينا للقاصدين لإحدى العدوتين للسلم أو للعدوان. وكانت مع كل ذلك وقبله وبعده محط رجال العلماء الذين لم يكن يشغلهم في الحياة الدنيا غير ما يضيفون به إلى معلوماتهم من معلومات أو يستزيدون من تجاربهم إفادات أو يقدمون لمن يرغب دراسات ومعلومات.

وكانت الساحة العلمية بالمغرب. حيث بدأت أدواح العلم تتفرع. وتزهر أغصانها وبراعيمها تنفتح وتؤتي أكلها. تغري العابرين بالإقامة. وتزودهم بروافد من العلوم هامة. فامتلأت هذه الساحة بشتى أنواع العلوم وفروعها وزخرت بضروب من الثقافات المتعددة المشارب والمنابع الثرة العطاء. الزاخرة الارفاد. من علوم التفسير والحديث رواية ودراية وعلوم الفقه والأصول واللغة والنحو والبلاغة إلخ...

وشاهد صاحبنا وهو يدرج في هذا الوسط. كيف كان الناس يعبون من منابع العلم وينهلون ولا يرتوون. وإنما كانوا على ورود حياضها يتهافتون وبما حملوا منها وحصلوا يباهون ويتفاخرون.

وكانت الغاية القصوى لطلاب العلم أن يربطوا برجالات العلم أوثق الأواصر وأن يغرفوا من بحورهم الطامية مآثر. وأن يستوعبوا أكبر قدر ممكن مما ينشرونه من معلومات. ويبثونه من فنون وآداب وإرشادات ويستزيدونهم مما عندهم من إفادات. على اختلاف منازعها ومنابعها ومشاربها المتباينات. لأن المغرب كان وظل وما يزال مصب مختلف التيارات. مما شاهده الشرق الإسلامي من ثقافات وما استنبته واستقاه عن طريق النقل أو الترجمة والاقتباس.

فكانت همة علماء المغرب استيعاب ما عند الشرق أولا، ثم هضمه بعدالفحص والفرزبين غثه وسمينه ثانيا، ثم تدجينه ومغربته بإضافة ما ابتكروه إليه ثالثا. فلم يكونوا مجرد مجترين، ولكن كانوا مبتكرين، وبما استنتجوه واستخلصوه وأضافوه معتزين، ولمختلف الثقافات النافعة منفتحين غير منغلقين متأثرين ومؤثرين ومتقبلين وفاعلين، ولمناخهم وبيئتهم مبلورين وعلى أصولهم ومنابعهم في الشرق مقبلين وعن جيرانهم الأندلسين والاورسيين غير مدبرين.

وفي هذا المناخ الزاخر بالفطاحل من العلماء والمائج بعديد من التيارات الفكرية والطوائف الدينية التي كانت تزخر بها المجتمعات الإسلامية، والعائم في بحور من المعرفة العديدة الروافد والمنافذ والمصبات، والمختلفة الفنون والاتجاهات : ولد وعاش عياض، وشاهد ما كان يتدارسه كبار العلماء من أمثال أبي بكر الطرطوشي وأبي حامد الغزالي الطوسي وجار الله الزمخشري وابن العربي المعافري وأبي الوليد بن رشد وأبي الطاهر السلفي والفقيه المازري... وأضرابهم.

وإذ كانت تلك صورة تقريبية للجو العام والبيئة العلمية التي فتح عياض عينيه عليها وشارك في وضع لبنات لها، وأسهم في بلورة اتجاهاتها فإننا نعتقد أن على من أراد أن يقف على معالم من ثقافة الرجل العامة أن يستشف ذلك من خلال سرد، ولو سريع، لثبتين اثنين : ثبت شيوخه الذين كان لهم أثر ما على توجيهه أو تثقيفه . وثبت آثاره ومؤلفاته وهذا ما سنحاوله في هذا الفصل إن شاء الله.

وسأرتب كلا حسبما اشتهر به وعرف من علم أو فن : فقه - تفسير - شعر إلخ..

ثم من خلال سرد سريع لشيوخه الذين بلغوا حسبما نقله عنه ابنه أبو عبد الله محمد قاضي دانية المتوفى سنة 575 هـ في كتابه : التعريف بالقاضي عياض - هذا الكتاب الذي هو في الحقيقة مقتبس من كتاب لأبيه عياض نفسه بعنوان

«الغنية» فهرس فيه أشياخه. وذكر فيه «من خبر كل واحد منهم ما يعطي الحال وفقه بطرف من الإختصار والإيجاز. بحكم ما أدت إليه الحال من الرحلة والانحفاز» كما هو تعبير القاضي في مقدمة غنيته ـ بلغوا ستة وتسعين 96 شيخا.

1) ممن درس أو قرأ عليهم.
2) أو سمع منه خاصة.
3) أو سمع منه وأسمع.
4) أو أخذ عنهم.
5) أو لقيهم.
6) أو جالسهم.
7) أو ناظرهم.
8) أو ناولوه بإنشاد أو بدونه.
9) أو أخبروه بحكايات.
10) أو ممن أجازوه.
11) أو أذنوا له.

من خلال ذلك يلاحظ أن مقروءاته ومعلوماته كانت موسوعية أو بالتعبير القديم كانت مشاركة وكان هو مشاركا في كل العلوم والمعارف التي كانت معروفة أو متداولة أيامئذ...

وكذلك سنلاحظ لدى سردنا لأسماء أولئك الشيوخ أن من بينهم المفسرين والمحدثين والمتكلمين والمقرئين. والأصوليين. والفقهاء والنحاة. واللغويين. والأدباء والكتاب. والشعراء والمؤرخين والخطباء والوعاظ.

(أ) فممن درس أو قرأ عليهم نقف على : (5) هم :

1) محمد بن عبد الله بن البراء الجزيري.
2) أبو عبد الله محمد بن داوود العكى القلعي «القاضي»

3) أبو محمد عبد الله بن محمد بن منصور اللخمي السبتي النكوري الأصول والمسائل.

4) محمد بن عبد الله المعروف بالموروري.

5) أبو محمد عبد الله بن ادريس الأموي المعذور السرقسطي القرآن.

(ب) وممن سمع منه خاصة نقف على :

(أ) على من سمع منهم يسيرا (8) وهم :

6) أبو العباس أحمد بن عمران الأنصاري الطليطلي.

7) أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن القرطبي ، النحوي المقرىء.

8) أبو محمد عبد الله بن محمد النفزي المعروف بالمرسي الخطيب.

9) عبد الرحمن بن عبد الله الأموي القرطبي.

10) أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد الكتامي السبتي المعروف بن العجوز.

11) أبو الحسن يونس بن محمد بن مغيث القرطبي المعروف با بن الصفار.

12) أبو عبد الله محمد بن مسعود «المكتب».

13) أبو الوليد هشام بن أحمد القرطبي المعروف با بن العواد.

(ب) سمع منه كثيرا وأجازه (17) وهم :

14) أبو إسحق إبراهيم بن جعفر اللواتي السبتي المعروف با بن الفاسي.

15) أبو علي الحسين بن محمد الصدفي السرقسطي المعروف با بن سكرة القاضي .

16) أبو علي الحسن بن علي بن طريف التاهرتي السبتي «النحوية

17) أبو القاسم خلف بن إبراهيم المعروف با بن النحاس «المقرىء الخطيب»

18) أبو عبد الله محمد بن عيسى التميمي السبتي «القاضي».

19) أبو عبد الله محمد بن علي بن حمدين الثعلبي القرطبي «القاضي».

20) أبو عبد الله محمد بن أحمد التجيبي القرطبي المعروف بابن الحاج «القاضي».

21) أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي «القاضي».

22) أبو عبد الله محمد بن سليمان النفزي ابن أخت غانم المالقي.

23) أبو بكر محمد بن عبد الله المعافري الاشبيلي المعروف بابن العربي «القاضي».

24) أبو عبد الله محمد بن علي الأزدي الطليطلي المعروف بالريوطي «الخطيب».

25) أبوعمران موسى بن عبد الرحمن بن أبي تليد الشاطبي.

26) أبو محمد عبد الله بن محمد الخشني المعروف بابن أبي جعفر المرسي.

27) أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن عتاب الجذامي القرطبي.

28) أبو الحسين سراج بن عبد الملك بن سراج الأموي «اللغوي».

29) أبو بحر سفيان بن العاصي الأسدي البلنسي القرطبي.

30) أبو الوليد هشام بن أحمد القرطبي المعروف بابن العواد.

(جـ) سمع منه وأسمعه (2) وهما :

31) أبو عامر محمد بن أحمد بن اسماعيل الطليطلي المعروف بالقوطة «القاضي».

32) أبو بكر محمد بن خلف بن فتحون الأريولي.

(د) سمع منه فوائد (4) وهم :

33) أحمد بن طاهر بن علي بن عيسى الأنصاري الداني.

34) أبومحمد عبد المجيد بن عبدون الفهري اليابري الكاتب سأله بسبتة وسمع منه قصيدته.

35) أبو بكر غالب بن عطية المحاربي الغرناطي (سمع من لفظه فوائد بسبتة وقرطبة).
36) أبو الحسن يحيى بن النحوي الأستاذ (حضر مجلسه وأخذ عنه فوائد).

(هـ) سمع منه وذاكره (1) وهو :

37) أبو جعفر أحمد بن محمد اللخمي المعروف بابن المرخي.

(و) سمع منه بعض تاليفه (4) وهم :

38) أبو عبد الله محمد بن خميس الصوفي «سمع منه بعض مؤلفه المنتقى».
39) أبو عبد الله محمد بن عمر بن قطري الزبيدي الاشبيلي (سمع منه بعض كتب الخطيب أبي بكر).
40) أبو عبد الله محمد بن أحمد الأموي المقرىء (سمع منه كتاب الهداية للمهدي).
41) أبو الحجاج يوسف بن موسى الكلبي المتكلم النحوي الضرير (سمع منه أررجوته وأجازه بسبتة).

(ز) سمع منه شيئا خاصا (1) وهو :

42) أبو العباس أحمد بن قاسم الصنهاجي (سمع منه حديث سبتة بها).

(د) من اجازه (29) وهم :

43) أبو جعفر أحمد بن سعيد بن بشتغير اللخمي.
44) أبو العباس أحمد بن عثمان بن مكحول المعروف بابن الحدرة.
45) أبو الطاهر أحمد بن محمد بن أحمد السلفي.
46) أحمد بن خليفة الخزاعي المكي.
47) أبو علي الحسين بن محمد الغساني المعروف بالجياني.

48) أبو سعد حيدر بن يحيى الجيلي المجاور بمكة

49) أبو بكر محمد بن الوليد الفهري الطرطوسي المعروف با بن رندقة.

50) أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر المازري التميمي المهدوي.

51) أبو عامر محمد بن الحبيب الأموي الشاطبي.

52) أبو عبد الله محمد بن أحمد الرازي المصري المعروف با بن الحطاب.

53) أبو عبد الله محمد بن الفرج.

54) أبو محمد عبد الله بن محمد السيد البطليموسي النحوي.

55) أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الصمد النيسابوري الشافعي المعروف بالأكافي.

56) أبو زيد عبد الرحمن بن عبد الله بن منتيل السرقسطي الخطيب.

57) أبو المطرف عبد الرحمن بن سعيد الفهمي السرقسطي المقرىء.

58) عبد الواحد بن أحمد الفهري البغدادي.

59) أبو نصر عبد المالك بن أبي مسلم الهمذاني النهاوندي الشافعي.

60) أبو الحسن علي بن المشرف بن مسلم الاسكندري.

61) علي بن قاسم المهدوي ثم المكي المعروف با بن البناء.

62) أبو الحسن شريح بن محمد الرعيني الاشبيلي القاضي الخطيب المقرىء.

63) أبو الحسن خليص بن عبد الله بن أحمد العبدري.

64) أبو الحسن علي بن أحمد الربعي المقدسي الشافعي التاجر (حدثه بأشياء وأجازه).

65) أبو الطيب سعيد بن أحمد الصفاقسي الينوشي (قرية من قراها لقيه بسبتة).

66) أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن طريف.

67) أبو عبد الله أحمد بن محمد بن غلبون الخولاني الاشبيلي المعروف با بن الحصار .

68) أبو علي الحسين بن عبد الأعلى الكلاعي الصفاقسي.
69) أبو الحسن علي بن أحمد الأنصاري الغرناطي المعروف بابن البيذش.
70) أبو الأصبغ عيسى بن محمد بن مومن الشنتريني.
71) أبو نصر سهل بن علي النيسابوري الشافعي، التاجر.

(ء) ناوله وأنشده (5) وهم :

72) أبو عبد الله محمد بن مفرج الصنهاجي الطنجي.
73) أحمد أبو القاسم ابن بقي.
74) أبو عبد الله بن عقال السرقسطي المقرىء (ناوله كتاب السمرقندي).
75) أبو محمد عبد الغالب بن يوسف السالمي المتكلم (ناوله بعض تآليفه بسبتة).
76) سليمان المعروف بابن البيغي (ناوله وسمع منه غير شيء).

(هـ) ناظر عليه في المدونة (1) وهو :

77) أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد البصري السبتي الفقيه القاضي.

(و) أذن له (1) وهو :

78) أبو محمد عبد الله بن محمد بن أيوب الفهري (أذن له في الحديث المسلسل في أخذ اليد).

(ز) أخبره بحكايات (1) وهو :

79) محمد بن علي الشاطبي المعروف بابن الصيقل.

(حـ) لقيه وأخذ بيده (2) وهما :

80) أبو إسحاق إبراهيم بن محمد المعروف بابن الإمام «الخطيب».
81) أبو الأصبغ عبد العزيز بن عبد الله بن جزمون القرطبي «الفقيه».

(ط) جالسه وأخذ عنه (3) وهم :

82) أبو القاسم خلف بن يوسف بن فرتون الشنتريني «النحوي».

83) أبو محمد عبد الله بن أحمد الأزدي المعروف بابن شبونة من حفاظ سبتة للمسائل.

84) أبو محمد عبد الله بن محمد النفزي المعروف بالمرسي «الخطيب».

(ي) لقيه وجالسه وسأله : (دون الإشارة إلى سماع أو أخذ أو مناولة أو قراءة) (3) وهم :

85) أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز بن أبي الخير الأنصاري السرقسطي.

86) أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن بقي الأموي القرطبي الحاكم بها لقيه بها وجالسه .

87) أبو عبد الملك مروان بن عبد الملك بن سمجون اللواتي الطنجي.

(ك) جالسه ولم يأخذ عنه : (5) وهم :

88) أبو العباس أحمد بن محمد الشارقي الواعظ.

89) أبو العباس أحمد بن محمد الجذامي المعروف بالرنقي.

90) أبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن الخزرجي «المقرىء».

91) أبو الوليد هشام بن أحمد بن أحمد الهلالي الغرناطي المعروف بابن البقوا «القاضي».

92) أبو الحجاج يوسف بن عبد العزيز بن عبدس الطليطلي.

(ل) كتب إليه يجيزه (2) وهما :

93) أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن شبرين الاشبيلي «القاضي».

94) محمد بن مسلم القرشي المخزومي الصقلي (من مصر) (30)..

30) راسل عددا من فطاحل العلماء في مصر وبغداد والقيروان ومنهم هؤلاء السبعة حيدر بن يحيى الجيلي - وأبو الطاهر السلفي - والمازري - والطرطوشي وابن الحطاب - والمخزومي الصقلي وعبد الرحمن بن أحمد الفهري البغدادي إلخ...

وإذا نحن حاولنا التعرف على اختصاصات هؤلاء الشيوخ والميادين العلمية التي برزوا فيها فإننا نجد - تقريبا - أنهم أحاطوا بجميع أنواع المعرفة والعلوم التي كانت متداولة ايامئذ. ونلاحظ بالخصوص أعلاما وشوامخ في أهم العلوم مثل :

من بين الفقهاء والمحدثين :

1) أبو عبد الله محمد بن عيسى التميمي : الذي يتحدث عنه عياض بقوله : لازمته كثيرا للمناظرة في المدونة والموطأ وسماع المصنفات وأجاز لي جميع رواياته للكتب التي قرأها : موطأ مالك، والصحيحين وسنن أبي داوود، وغريب الحديث للخطابي، وكتاب الطبقات لمسلم بن الحجاج، وشرح غريب الحديث للقاسم ابن سلام، وكتاب الضعفاء والمتروكين للنسَاء، وكتاب إصلاح الغلط لابن قتيبة - والمدونة لابن القاسم، وكتاب علوم الحديث لأبي عبد الله الحاكم، ومسند الموطأ لأبي القاسم الجوهري، والتقصي لمسند الموطأ لابن عبد البر، والملخص لمسند الموطأ للقابسي، والرسالة لابن أبي زيد القيرواني.

2) أبو علي الصدفي :

الذي سمع منه الصحيحين، والمؤتلف والمختلف، ومشتبه الشبه وأوهام الحاكم لعبد الغني والشهاب للقضاعي، والإشارة للباجي، وأدب الصحبة للسلمي، وشيوخ البخاري لابن عدي، وعوالي أبي الفوارس الزيني، والناسخ والمنسوخ لهبة الله، وكتب الدارقطني : الاستدراك على البخاري والسبع والالتزامات لهما، وجامع الترمذي ورياضة المتعلمين لأبي نعيم وللشيباني والأربعين لهما ومع الصدفي هذا كائن قصة بروزه من مخبئه للاتصال بعياض وقد أشرنا إليها سابقا.

ومن بين شوامخ الأدباء الذين تتلمذ عليهم أو سمع منهم :

1) ابن أخت غانم الراوية أبو عبد الله بن سليمان النفزي : وقد أخذ عنه كتاب الكامل للمبرد ويذكر عياض أنه درس هذا الكتاب مرات عديدة، منها مرة

على أبي بكر الجزيري صاحب شرطة سبتة سنة 493 هـ كما سمع منه كثيرا على أبي علي التاهرتي.

2) عبد الواحد بن يوسف البغدادي الفهري المتوفى سنة 527 هـ.

3) الوزير الكاتب أبو بكر عبد المجيد ابن عبدون اليابري. الذي يقول عنه عياض فيما يخص لقاءه به وسماعه منه قصيدته الرائية ذات المطلع :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر   فما البكاء على الأشباح والصور

يقول لقيته بسبتة في انصرافه. وأقسم لي أنه ما قصد سبتة إلا للقائي والاجتماع بي. ثم سألني عن أشياء في نفسه. وجرت بيننا مذاكرات. أنشدني أثناءها رائيته التي رثى بها ملوك بني الأفطس.. قال عياض : وأنشدني لبعض شعراء الأدب الأبيات التالية :

وزاد وضعت الكف فيه تأنســـــا   وما بي إلا أنسة الضيف من أكــل
وزاد رفعت الكف عنه تكرمـــــا   إذا ابتدر القوم القليل من النفـــل
وزاد أكلناه ولم ننتظر بـــــــه   عدا أن بخل المرء من أسوإ الفعــل

4) الوزير اللغوي الحافظ أبو الحسن بن عبد الملك :

وقد اشتهر باعتنائه كأبيه. بدراسة كتاب سيبويه. وتقييد الغريب. ويقول عنه عياض :

قرأت عليه كتاب عبيد القاسم بن سلام. كما أخذت عنه كتاب الغريبين لأبي عبيد الهروي. وصححته عليه. ثم روى عنه عياض هذين البيتين :

بث الضنائع لا تحفل بموقعهـــا   في آمـل. شكـر المعروف أو كفــرا
كالغيث ليس يبالي حينما انسكبت   منه الغمائم تربا كان أو حجـــرا

5) خلف بن فرتون :

يقول عنه عياض جالسته كثيرا وذاكرته، وتلقيت منه فوائد جمة، ومن رواية عياض عن ابن فرتون، أبيات أبي وهب القرطبي التي يقول فيها :

أنا في حالة كما قد تراهـــــا	إن تأملت أسعد الناس حــــالا
ليس لي كسوة أخاف عليهـــا	من مغيــر، ولم تر لي مـــالا
أضع الساعد اليمين وســـادي	ومتى ما أشا وضعت الشمـــالا
قد تنعمت حقبــة بأمـــور	ثم دمرتها فكانـــت خيـــالا

6) أبو علي بن طريف التاهرتي النحوي المتوفى سنة 501 هـ :

وقد درس عليه عياض النحو في كتاب الواضح للزبيدي، وجمل أبي القاسم الزجاجي - والكافي لأبي جعفر النحاس - والإيضاح للفارسي، والفصيح لثعلب.

● وهكذا نلاحظ من خلال ذلك الجرد لشيوخه ولبعض من تلقى عليهم مختلف العلوم أن الرجل كان موسوعي الثقافة، وانه لم يترك ميدانا من ميادينها إلا وجاس خلال دياره.

● وقد كان من بين ذلك العدد من الشيوخ باعتبار اختصاصاتهم ما يلي - من شيوخه الفقهاء القضاة ثلاثة وعشرون - ومن النحاة واللغويين ثمانية، ومن المقرئين سبعة ومن الخطباء ستة، ومن الفقهاء الأصوليين أربعة ومن المؤرخين ثلاثة ومن الحفاظ أربعة ومن المتكلمين إثنان ومن الوعاظ إثنان ومن الشعراء إثنان ومثلهما من الكتاب، ومن الولاة واحد.

... وتلخيصا لموسوعية عياض وثقافته العامة التي كونت منه هذا العملاق الشامخ نحب أن نسوق هنا العبارات الموجزة والبليغة التي كتبها في الموضوع المغفور له ابن تاويت الطنجي في مقدمته لكتاب المدارك حيث قال :

«ففي بلده حفظ القرآن بقرااته السبع، برواية نافع، وابن كثير وأبي عمرو بن العلاء وابن عامر وقد أخذ هذه الروايات بطرقها المختلفة المعروفة عن عبد

الله بن ادريس بن سهل المقرىء المتوفى سنة 515 هـ. وبرواية حمزة بن حبيب الزيات عن عبد الله بن محمد النفزي المتوفى سنة 528 هـ.

وقرأ اللغة العربية متنها وأدبها في كتاب الفصيح لأبي العباس ثعلب وكتاب الأمالي لأبي علي القالي. والكامل لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد. وأدب الكتاب لأبي محمد بن قتيبة ودرس قواعدها في كتب الجمل للزجاجي. والواضح لأبي بكر الزبيدي والكافي لأبي المحاسن والمقتضب للمبرد. والإيضاح لأبي علي الفارسي وشرح الجمل لابن فضال.

أما أصول الفقه وأصول الدين وعلم الكلام على مذهب أبي الحسن الأشعري والجدل والمناظرة. فقد قرأ أصول الدين على قاضي سبتة عبد الله بن محمد ابراهيم بن قاسم اللخمي المتوفى سنة 458 هـ وقرأ رسالة ابن أبي زيد القيرواني على محمد بن عيسى التميمي وصحب عبد الغالب بن يوسف السالمي المتكلم على مذهب أهل السنة والمتوفى سنة (516 هـ) مدة إقامته في سبتة. وأرجوزة يوسف بن موسى الكلبي المتكلم على مذهب الأشعرية. وقرأ كتاب المنهاج في الجدل والمناظرة لأبي الوليد الباجي.

اثـــــاره :

أما الآن فلنلق نظرة على ثتبت آثاره ومخلفاته الفكرية لنقف على المدى الذي حققه في إتقان تلك العلوم التي درسها ومدى استيعابه وهضمه لها وما هي التأثيرات التي خلفتها في نفسه وعقليته حتى اثمرت هذه الاكلات اليانعة التي ضمها كتبه التي ألفها في مختلف العلوم والفنون وسنرتبها حسبما وصل إليه حدسنا على ترتيب فترات وضعها وبحسب موضوعاتها ولكن قبل ذلك لا بد أن نثبت في بداية الحديث عن تلك المؤلفات ملحوظتين اثنتين.

الأولـى : تأكيده دائما على أن تآليفه تلك جاءت تلبية لرغبة الطلبة والسائلين.

والثانية : ما حيك حول خطه من روعه أو تثييج.

وفيما يخص الملحوظة الأولى نجد دائما التأكيد على ابرازها بكيفية مستمرة فيما يضعه من مقدمات لتلك التآليف.

1) ـ يقول في كتابه «الاعلام بحدود قواعد الإسلام» : أيها الراغب في الخير، الحريص على تدريب المتعلمين لوجوه البر، فإنك سألتني في جمع فصول سهلة المأخذ قريبة المرام مفسرة قواعد الإسلام، فاعلم إلخ...

2) ـ وفي كتاب الشفا يقول : «فإنك كررت على السؤال في مجموع يتضمن التعريف بقدر المصطفى عليه الصلاة والسلام، وما يجب له من توقير وإكرام، وما حكم من لم يوف واجب عظيم ذلك القدر، أو قصر في حق منصبه الجليل قلامة ظفر، وان اجمع لك ما لأسلافنا وأئمتنا في ذلك من مقال وابينه بتنزيل صور وأمثال إلخ...

3) ـ وفي مقدمة التنبيهات يقول : «فإن أصحابنا من المتفقهة ـ اسعدنا الله واياهم بتقواه ـ رغبوا في الاعتناء بمجموع يشتمل على شرح كلمات مشكله وألفاظ مغلطة مما أدخل على «الكتب المدونة والمختلطة» اختلفت الروايات في بعضها ومنها ما ارتج على أهل درسها وحفظها إلخ»...

4) ـ وصدر فهرسته الغنية بهذه العبارة : «وبعد أيها الراغبون في تعيين رواياتي وإجازة مسموعاتي، ومجموعاتي، فقد تعين ـ بحكم إلحاحكم علي ومدكم أيدي الرغبات إلي ـ أن أنص لكم من ذلك على عيون وأخص أوراقي هذه بما لعله يفي بالمضمون إلخ..

5) ـ وفي مقدمة كتاب اكمال المعلم، يذكر أن طلبته رغبوا إليه في كتابة شرح إلخ...

6) ـ ويفهم من خطبته في المشارق أنه سئل أن يضع كتابا «يجمع شواردها ـ أي صحاح الآثار ـ ويسدد مقاصدها، ويبين مشكل معناها، وينص على اختلاف الروايات فيها ويظهر أحقها بالحق وأولاها إلخ..

● وأما الملاحظة الثانية فهي ماحيك حول خطه من وضوح وبيان أو تعمية وتشبيج ذلك لأنه إذا كنا نحن في العصر الحديث نعتبر الفنون التشكيلية والرسم بمختلف فروعهما وأنواعهما الشمسي والزيتي والنحت من مكملات الثقافة العامة. فإن من أهم الفنون التي كانت ذات قيمة خاصة. ولها صلة وثيقة بالثقافة لتلك العهود. الخط.

وفي هذا الصدد تتضارب الروايات عن جمال ورداءة خط عياض. فبينما يصفه ابن خاتمة في كتاب «المزية» فيما نقله عنه المقري في أزهار الرياض بأنه جميل رائع حيث يقول : «وقفت على خطه رحمه الله فرأيته خطا رائعا» (31).

إذا بصاحب الديباج لدى حديثه على مسودة «مشارق الأنوار» من تآليف عياض يصف خطه بأنه «في أنهى درجات التشبيج» التعمية وعدم الوضوح في الخط. والادماج والاشكال واهمال الحروف» (32).

● وقد تبنى ما في الديباج كل من الأستاذين المرحومين ابن تاويت الطنجي في مقدمته على كتاب المدارك. وعبد القادر الصحراوي في مقال له في مجلة دعوة الحق ص 137 العدد (9 ـ 10) السنة 10. بينما تبنى الرأي المقابل العلامة عبد الله كنون في مقاله المنشور كذلك بمجلة دعوة الحق العدد 9 ـ السنة 18. صفحة 110 ثم مادمنا لانتوفر على سرد تاريخي لتأليف هذه الآثار والكتب التي خلفها : الموجود منها والمفقود أو الضائع.

إذ لو وقفنا على ذلك السرد. لربما أمكن فهم السر في نوعيتها فإننا نستطيع أن نبدي الملاحظة الآتية. على أنها مجرد فرض فيما يخص تسلسل بعض تلك

---

31) دعوة الحق : العدد 9 السنة 18 صفحة 110.

32) الديباج : ص 292 والمدارك المقدمة ص (كط).

المؤلفات... وترتيب وضعها وهكذا نظن أن كتابه «ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك» هو نتيجة لكتابه «الشفا بتعريف حقوق المصطفى»، أي بعد أن وضع الشفا. فكر في وضع المدارك يوصف أن كثيرا من الأحاديث المروية في الشفا هي من أسانيد الرجال المترجم لهم في المدارك فكان تراجمهم حجة على صحة وقيمة ما رووه ... ثم أردف ذلك بتأليف كتبه التاريخية. وقد يكون وضعها على الترتيب التالي :

1) العيون أو الفنون الستة في أخبار سبتة.
2) كتاب الغنية في ذكر شيوخه.
3) كتاب المعجم في شيوخ ابن سكرة.
4) تاريخ طبقات القرطبيين.
5) **تاريخ المرابطين** : الذي انتهى فيه إلى سنة 504 هـ أي قبل وفاته بأربع سنوات.

6) كتاب الجامع في التاريخ. الذي قيل فيه : إنه كتاب أربى على جميع المؤلفات أي التاريخية فيه أخبار الملوك بالأندلس والمغرب منذ دخول الإسلام إليهما. واستوعب أخبار سبتة وقطانها وفقهائها. وجميع ما جرى من الأمور فيها واذا كنا غير متيقنين بذلك الترتيب فيمكن على كل حال في نظرنا تجزئة تآليفه. تبعا لموضوعاتها واختصاصها إلى ما ياتي :

1) كتب الفقه والنوازل.
2) كتب العقيدة.
3) كتب التاريخ والطبقات والتراجم.
4) كتب الحديث.
5) كتب مصطلح الحديث.
6) في الأدب : الشعر والنثر والترسل.

ففيما يخص **الفقه والنوازل** يمكن إدراج الكتب الآتية :

1) الأجوبة المحبرة عن المسائل المتخيرة (مفقود) (33)

2) أجوبته فيما نزل في أيام قضائه من نوازل الأحكام.

3) أجوبة القرطبيين (34)

4) التنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة والمختلطة : ويوجد مخطوطا بالخزانة العامة تحت رقم 384 وفي خزانتي القرويين والملكية تحت رقم 534 (35)

5) مطامح الأفهام في شرح الأحكام.

6) نظم البرهان على صحة جزم الأذان.

7) مسألة الأهل المشترط بينهم التزاور.

وفيما يخص **كتب العقائد** يمكن إدراج الكتب الآتية :

1) اختصار شرف المصطفى : وهو فيما أثبته ابن تاويت رحمه الله تلخيص لكتاب «شرف المصطفى» لأبي سعيد عبد الملك بن محمد الواعظ النيسابوري الخركوشي المتوفى سنة 406 هـ (36).

2) الشفا في التعريف بحقوق المصطفى :

3) السيف المسلول فيمن سب أصحاب الرسول (37) :

---

33) قال عنه ابنه وجدت منه يسيرا فضممته إلى ما وجدته في بطائقه أو عند أصحابه من معان شاذة في أنواع شتى سئل عنها فأجاب، جمعت جميع ذلك في جزء.

34) قال عنه ابنه رأيت هذه الترجمة بخطه ولم أجد لها عنده مبيضة غير أني وجدتها في بطائق فجمعتها مع أجوبة غيرهم وأجوبته مما نزل في أيام قضائه من نوازل الأحكام في سفر بعنوان «مذهب الحكام في نوازل الأحكام» قال الدكتور بنشريفة والمرحوم عبد القادر الصحراوي انها توجد في الخزانة الملكية تحت رقم 4042 وانها تقع في مائة وستة وخمسين صفحة، وان ابن عياض قال بعد حديثه عن جمع تلك النوازل «وربما ذيلت تلك النوازل بما تقدم فيها أو في نوعها للقرويين والأندلسيين وغيرهم والله يعصم بمنه» وانظر التعريف تحقيق بنشريفة ص 118.

35) التعريف بنشريفة ص 116.

36) ترتيب المدارك ص «كب» من المقدمة.

37) ذكره كشف الظنون، وهدية العارفين ومقدمة المدارك : ص «كد».

4) الإعلام بقواعد الإسلام : (38)... أو العقيدة أو القواعد.

وفيما يخص كتب الحديث ومصطلحاته : نقف على

1) اكمال المعلم بفوائد مسلم : تمم به شرح أبي عبد الله محمد بن علي المازري (وقد شجب المرحوم عبد القادر الصحراوي قول ابن تاويت بوجود نسخة منه في الخزانة العامة وأشار إلى وجود ثلاث نسخ منه في الخزانة الملكية تحت الأرقام الآتية :

(560) في مجلد واحد من مائة وخمسين صفحة. ورقم (4037) وتقع في مجلدين. يضم الأول سبعة أجزاء من الكتاب ويضم الثاني سبعة أجزاء أخرى من الثامن إلى الرابع عشر. ورقم (6411) قال عبد القادر الصحراوي : وهذه نسخة تصعب الاستفادة منها إلا مع الاستعانة بغيرها» ثم لعل إشارة الرقمين الاخيرين إلى عدد ما يضمانه من أجزاء الكتاب يؤكد أن المقصود. بالتسعة والعشرين من أجزائه الفصول. كما نبه لذلك الصحراوي رحمه الله : هذا وتوجد نسخة مخطوطة منه بالخزانة العامة تحت عدد (1829).

2) مشارق الأنوار على صحاح الآثار : قال ابن تاويت بعدالإشادة به : أن عياضا ترك هذا الكتاب في مبيضته. ووصف خط القاضي فيه بأنه غاية في التشبيج والادماج والاشكال واهمال الحروف وجاء الحافظ المحدث أبو عبد الله محمد بن سعيد الغرناطي المعروف بالطراز فجمع أصولا وأمهات حافلة من كتب العربية واللغة واستعان بها على إخراج نص هذا الكتاب من مسودته (39).

---

38) طبعته وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بتحقيق ابن تاويت الطنجي ويقول عن كتاب العقيدة «أنه قد يكون هو نفس كتاب الأعلام. وذكره الذهبي في تذكرة الحفاظ. كما ورد اسمه في هدية العارفين قال ابن تاويت وفي فهرس دار الكتب المصرية القديم بعنوان «شرح بالقول لبعض الفضلاء على عقيدة الإمام الأجل القاضي عياض» قلت وهذه التسمية قد تفهم أن لعياض رأيا في العقائد. ويقول ابن تاويت عن كتاب القواعد المذكور في هدية العارفين : «وهو فيما أرجح كتاب الاعلام بحدود قواعد الإسلام» ومما قد يؤيد هذا الرأي عمل ابن المؤلف حين اقتصر على ذكر كتاب الإعلام دون الإشارة إلى الكتابين الأخرين، حتى فيما لم يكمله أبوه أو فيما تركه في مبيضاته.

39) مقدمة المدارك ص «كو».

3) **الإلماع في ضبط الرواية وتقييد السماع :** قال عنه بنشريفة : إنه طبع في مصر بتحقيق الأستاذ أحمد صقر. وقال ابن تاويت بعد الإشارة إلى أنه من أكثر الكتب التي اعتمدها المهتمون بمصطلح الحديث...

«وصلنا. ففي مكتبة الاسكوريال، وأياصوفيا. نسخة منه».

4) **بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد :** ذكره غير واحد. وقال ابن تاويت «ان بالخزانة العامة نسخة منه دون الإشارة إلى رقمها، وفي برلين نسخ منه. وقال بنشريفة : إن دار التراث في القاهرةأعلنت على أنه تحت الطبع. بينما أشار الصحراوي إلى نسخة منه في الخزانة الملكية برقم (6392).

5) **غريب الشهاب :** ذكره كشف الظنون وهدية العارفين.

وفيما يخص **التاريخ والطبقات** نقف على :

1) **العيون الستة في أخبار سبتة :** ذكره كشف الظنون وهدية العارفين (40)

2) **تاريخ المرابطين :** وقد ذكره ابن خاتمة في (مزية المرية)، وأزهار الرياض وذكره الجامع في التاريخ.

3) **الجامع في التاريخ.**

4) **الفنية في أسماء شيوخه :** ذكره ابن خير في فهرست ما رواه عن شيوخه وذكرته الإحاطة. والتعريف. وكشف الظنون. وهدية العارفين وأشار إليه الدكتور عبد الهادي التازي في تحقيقه لكتاب (المن بالإمامة لابن صاحب الصلاة) وذكر المرحوم عبد القادر الصحراوي أنه وقف على ثلاث نسخ من هذا الكتاب في الخزانة العامة تحت الأرقام.

---

40) **أو الفنون الستة في أخبار سبتة «وهو مفقود» مما لايستبعد معه أن يكون هذان الكتابان كتابا واحدا ، فإن حرفو الكلمتين الفنون والعيون متقاربة في الخط. فليس من المستبعد أن يكون حدث تحريف في التسمية مما ظن معه أن الكتاب كتابان إثنان ـ بدليل أن أحدهما مفقود.**

(أ) (حـ 1807) وهي نسخة خطية في مائة وإحدى وثلاثين صفحة.

(ب) (د 2640) وهي مصورة ومنقولة عن النسخة السالفة الذكر.

(ج) (1732) وهي خطية. قال الصحراوي : وقد وجدت في صدر المجلد الذي يحتوي على هذه النسخة بامضاء «محمد العابد» ما يلي : «كتاب الغنية الذي اشتمل عليه هذا المجلد للقاضي عياض اشتمل على تصحيف فادح، وقلب كثير، وتحريف واضح، في كثير من أوضاعه وأسمائه فلا يمكن الاعتماد عليه في شيء، إلا بعد مراجعة المصادر الصحيحة. وقد وقفت على نسخ من هذا الكتاب، وكلها متفقة على التصحيف الكثير. وقد أعملت جهدي في تصحيح إحدى النسخ» قال الصحراوي : ولكن لانعلم من هو هذا المصحح المدعو محمد العابد.

ثم من غير المستبعد أن يكون الكتابان كتابا واحدا.

5) **المعجم في ذكر أبي علي الصدفي وأخباره وشيوخه وأخبارهم :** وهو يتضمن نحو المائتي شيخ ذكره عياض نفسه في الغنية. وابنه في التعريف والإحاطة. وهو غير كتاب ابن الأبار الذي يحمل تقريبا نفس العنوان أي (المعجم في أصحاب أبي علي الصدفي).

6) **كتاب المعجم في تاريخ ابن سكرة** (مفقود).

7) **أخبار القرطبيين :** ذكره كشف الظنون. وهدية العارفين.

8) **ترتيب المدارك :** وقد ظهر منه حتى الآن فيما وصلني عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية سبعة أجزاء قال بنشريفة : انه طبع طبعة رديئة في لبنان. ويقع الكتاب حسب تجزئة بعض نسخه الخطية في سبعة أجزاء. ويقول عنه مستشرق إسباني فيما نقله عنه عبد القادر الصحراوي : إنه يعتبر أوسع مؤلف في طبقات المالكية «وقد ترجم فيه عياض لألف وخمسمائة وتسعة وستين (1569) من علماء المذهب المالكي.

وفيما يخص **اللغة والادب** نقف له على :

1) **كتاب سوالات وترسيل .**

2) **غنية الكاتب وبغية الطالب في الصدور والترسيل :** قال الدكتور بنشريفة عن هذا الكتاب : إنه مفقود. وقال ابن تاويت : «المصادر في إيراد هذا الإسم، ففي الكشف» : في صدور الرسائل «وفي الإحاطة» في الصدور والرسائل » وقال ابن خاتمة : كتاب في سوالات وترسيل له في نحو أربعة أسفار وقال المقري : وانظر هل هذا الذي قاله ابن خاتمة هل هو غنية الطالب المذكور أو غيره بمعنى أن الكتابين شيء واحد تعدد اسمه.

3) **المقاصد الحسان فيما يلزم الإنسان :** قال ابن خاتمة : إنه يقع في سفرين وقد ذكره ابنه فيما لم يكمله أبوه. وقال عنه بنشريفة : إنه مفقود.

4) **سر السراة في آداب القضاة :** قال ابنه عن هذا الكتاب : رأيت أيضا هذه الترجمة بخطه، ولم أجد من هذا الكتاب شيئا، ولا وقفت له على خبر.

5) **كتاب خطبه :** ويعتبر كتابا مفقودا، ويظهر أنه جمع فيه ما كان ينشئه من خطب فنية كهوى أدبي أو كنت نفيس أو ربما كان مما يضعه لخطباء الجمع. وقد أورد له ابنه في كتاب التعريف صورا منها.

6) **ديوان شعره :** يقول ابن عياض عن موقف أبيه من شعره بعد ما أورد له مقطوعات وأبياتا سنحاول فيما بعد إيراد بعضها : «وفيما أثبته من نظمه دليل على حذقه في صناعة الشعر وعلمه. وكان شعره رحمه الله في شبيبته كثيرا لكني لم أجد منه بخطه إلا يسيرا، وأكثر ما عندي منه إنما اتخذته عن أصحابه. لاعنه لأنه لم يدونه ولا قيده ولا رأى أن يؤثر عنه ولا اعتقده. ومع ذلك فأكثر شعره إنما كان في مذاكرة الأدباء ومراسلة الشعراء والزعماء. فلم يكن منهم إلا معترف، بالعجز عن مداه ومنصف. مما دفع أمثال الشيخ المسند أبا الطاهر السلفي أحد شيوخه بالمراسلة أن يخاطبه وهو بثغر الأسكندرية بمنظومة كتقريظ لما بعث به عياض إليه من منظومه ومنها وهي تسعة عشر بيتا :

أتاني نظم الألمعي الموفـــــق يمس أختيا لا بين غـرب ومشـرق
وثق بوداد لا يزال مجـــــددا يزيد على مر الزمان ويرتقــــي
ونحن، وإن لم يقض ياقاضي بيننا لقاء، فبالأرواح ندنـو ونلتقــــي
ولا زلت تبقى في النعيـم وظلــــه على وفق ما تهوى وعز محقـــق
وتلقى الذي عادى علاك معذبــا بطرد وتشريد وطول تفـــــرق
فما إن يعادى عصبة الدين والهدى سوى مائق أو ملحد متزنـــــدق

ومما يدل على أن عياضا لم يكن يحب أن يقال عنه إنه يقرض الشعر ولا أن ينسب إلى الشعراء وخاصة بعد أن تسنم خطة القضاء التي كانت يومئذ ذات شأن عظيم لا يقوقها إلا الامارة. وبعد أن أصبح في مجتمع قومه علما ممتازا علميا وسياسيا واجتماعيا، قوله في إحدى مقطوعاته التي أوردها له ابنه ضمن إحدى رسائله الاخوانيات :

قل للأماجد والحديـــث شجـــون ما ضر إن شاب الوقار مجـــون
ولئن غدوت من العلوم بموضــــع تومي إلي أصابع وعيــــــــون
فلدي للآداب نفس صبــــــــة فيها إلى ملح الظـــروف ركـــون

على أنه من الثابت تاريخيا أن عياضا كان على اتصال وثيق بشعراء عصره وبغيرهم ممن سبقهم، مطلع على إنتاجهم، متتبع لخطواتهم، ناقد لما يراه هو مخالفا للدين ولما يعتقد أنه الصواب والأحوط. ويدل على هذا أنه أثناء الرد، في كتاب الشفا على بعض المنحرفين لم ير أن يستثني من أولئك الشعراء الذين رأى في كلامهم مالا يتفق ومذهبه وعقيدته فشهر بهم وندد بمواقفهم وكان من بين هؤلاء ابن هانىء الأندلسي متنبىء المغرب وحسان المصيصي . وابن سليمان المغربي ويحيى ابن حكم الغزالي.

عياض العالم الناقد الأديب :

قد يكون فيما سقناه من مؤلفات عياض، وما كتبناه عن رحلاته الدراسية، وما تناوله في كل ذلك من المناظرات والروايات مايوهم أن الرجل كان مقتصرا

على نوع من العلوم خاص. وفي الأدب الذي أشار إليه ابنه فيما سبق حين قال تعليقا على شعر أبيه : ومع ذلك فأكثر شعره في مذاكرة الأدباء ومراسلة الشعراء والزعماء» مما يعني انه لم يهتم بالشعر كفن أو كرغبة ذاتية. ولم يتصل بالأدب في غير مجال المجاملات وتبادل التحيات وفي غيره ما وضعه من خطب وأنشاه وأنشده من شعر ونظم قليل أو حبره من مراسلات وترسيل ان مشاركة القاضي عياض لم تكن أبدا مقتصرة على ذلك وانما تعدته إلى الإسهام في الحركة النقدية المركزة والقائمة على كل علوم الآلة وبالأخص منها علوم البلاغة بيانا وبديعا ومعاني. وكانت مشاركته تلك في وقت مبكر جدا مما سجله النقاد المعاصرون وبالأخص في هذا الجزء من العالم الإسلامي.

ان كتاب «بغية الرائد» الذي طبع أخيرا يوضح بكل جلاء مدى اهتمامات الرجل بهذا الجانب العلمي والأدبي العام الذي كان أيام عياض تجذر أو أخذ يتجذر في الشرق وأورق وأينع على يد فطاحل عديدين من جهابذة العلم أمثال : الباقلاني والرماني والآمدي والخفاجي والأخفش وابن قدامة والمعري وعبد القاهر الجرجاني وابن شرف القيرواني والجاحظ وابن جني ومحمد ابن الحسين الفارسي إلخ..

ولكن إذا كان هؤلاء قد ركزوا نقدهم وتصحيحاتهم وتصويباتهم على نوع معين من العلوم. وهو في الأعم إلا على الأدب نثرا ونظما وبعض أبواب علوم البلاغة حين تتصل بالأدب من حيث الكل أو المضمون فإن صاحبنا عياضا أبدى فيما تخصص فيه أولئك القوم قدرة إن لم تفق ما حققوه. فما عجزت عنه ولا ناءت فإنما زاد عليهم بأن وجه نقده البناء لعلوم الحديث وعن طريق شرحه والتعليق عليه. فسلط مشرطه على ما ارتآه مستقيم من تعابير أدبية واستعمالات لغوية في غير موضعها فالنقد عنده ذو شعبتين النقد الأدبي والنقد العلمي الذي يعني بالدرجة الأولى الحديث الذي نقده متنا وسندا ومصطلحا وكان تمكنه الموسوعي

من المادة مما أضفى على أعماله الإتقان والإحكام وجعل كتبه في هذا المجال تعتمد ويعتبر ما جاء فيها هو القول الفصل.

ونحاول أولا أن نتحدث عن أسلوبه النقدي في الأدب هذا الذي يتلخص مع التذكير بأن النقد لم يكن يوجه إلى المضمون الأدبي بقدر ما كان يوجه إلى الشكل والأساليب التعبيرية مما جعله يوشك أن ينحصر في نقد تلك الأساليب التعبيرية من الوجهة البلاغية فحسب، استعارة وكناية وتشبيها وبديعا - يتلخص تقريبا في التشبيه وتسليط الأضواء على مافي الأساليب التعبيرية منه ومن علم البديع.

وهو في موقفه هذا ينطلق من الفكرة القائلة في هذا المجال . إن المعاني أرواح والألفاظ أشباح . أي فهذه تجسيم لتلك، أو هي صورتها المرئية فبقدر نصاعتها ووصوحها وجلائها وروعتها تزداد المعاني في الأفهام بيانا وتجد من النفوس لذة وإقبالا ومن العقول تفهما متزايدا وإدراكا عميقا ولذلك فالفصاحة والبلاغة في الكلام ما ساقه الطبع وقدف به الخاطر دون تكلف ولا مساقاة وما كان وجد لفظه تابعا لمعناه منقادا له موصوعا عليه غير مرغم فيه ولا منافر له أي مع مراعاة الجرس الموسيقي ومن ثمة فهو لدى جسه النص الأدبي لا يرى ذلك او ينظر إليه فحسب من جهة مواكبته أو مخالفته لما قرره النحاة من قواعد وأصول ولما تتوخاه معاني النحو المجردة إذ يقول في هذا اني لم أر ذلك من جهة مذهب النحاة وتقويم الألفاظ ولكن من جهة المعنى وتصحيح الأغراض التي سيق النص من أجلها ويراه من جهة ترتيب الكلام ونظامه ورد أعجازه لصدوره وتفصيل أقسامه مع مراعاة الفصاحة في الألفاظ وصحة المعاني وتكوين العبارة بما يتفق وتباين الموصوعات المطروحة ولهذا فهو ينتهي إلى القول بأن أحسن أسلوب هو ما كان تشبيها أو بديعا على أن يكون ذلك في مفهومه الخاص على غرار ما يقوله ويضعه في عباراته هذه فهو يقول عن التشبيه المقبول :

ان أحد أنواع البلاغة وأبدع أفانين هذه الصناعة وهو موضوع للجلاء والكشف والمبالغة في البيان والوصف والعبارة عن الخفي بالجلي والمتوهم بالمحسوس والحقير بالخير والشيء بما هو أعظم منه وأحسن أو دونه وعن القليل الوجود بالمعهود والمألوف وكل هذا لتأكيد البيان والمبالغة في الإيضاح.

ثم يورد لهذا التشبيه الذي يرتضيه ويصفه بتلك الأوصاف الرائعة أمثلة له من القرآن والسنة والأشعار وأمثال العرب وهو من وراء كل ذلك يرمي لغاية دينية : هي إظهار إعجاز القرآن وما يتوفر عليه أسلوب الرسول من جوامع الكلم إثباتا أصدق رسالته وأحقية ما يدعو إليه. فالإشادة بالأسلوب ليست مقصودة لذاتها بقدر ما هي إحدى وسائله لإظهار ذلك الإعجاز الذي تحدى به القرآن فصحاء وبلغاء العرب فما قدروا على التحدي ولا استطاعوا الإتيان بما جاء به كما يشيد بالاستعارة حين يقول : «والاستعارة باتفاق من أهل البلاغة أرفع درجات البديع وأعلى محاسن الشعر وأنق منظر الكلام وأعجب تصرفات البليغ ولها موقع في الإبانة لايقفه سواها ومنزع في الإيجاز والإختصار لا يوجد في غير بابها ثم لها فضل بيان وإبلاغ وحسن طلاوة وإبداع وجودة اختصار في بعض المواضع وإيجاز».

ثم يستدل لهذه المكانة التي تحتلها الاستعارة عن طريق المقابلة بين تعبيرين لمعنيين في أسلوبهما العربي المطلق والقرآن وذلك قول القرآن الكريم اشتعل الرأس شيبا في مقابل «كثر شيب رأسي» وقول القرآن **«واخفض لهما جناح الدل من الرحمة»** وبين «تذلل لهما» ويقول عن البديع من كلماته في حديث أم زرع «لفظ رائق ومعنى فائق ونظم متناسب وتأليف متعاصد متناسق».

ويقول في السجع هو يرد على المشنعين على مرتكبيه «الأسجاع تحتاج إلى تقدير ويكره فيها التطويل فإن وقع في أول فقرة من الفقرتين كان عيا. وخرج عن حد البلاغة وتخاذل به الكلام ويعد في آخر الفقرتين غير معيب بل ربما جاء مستحسنا ولا سيما إن توالت الفقر على سجع واحد وجاءت على تقدير متعاصد.

فالخروج من آخرها بعد زيادة فيها على تقدير اخواتها أحسن في السجع واوقع في السمع وهذا مالا ينكره حسن الدوق في الكتابة ولا يجهله إلا طبع الطبع في الخطابة .

ولذا قيل في أسلوب عياض وفي معرض الحديث عن أساليب علماء الأندلس البلاغية وذلك فيما نقله المقري في أزهار الرياض هذه الفقرة «وأما أهل الأندلس فالغالب عليهم فيهقة البلاغة في حسن رصف الكلام وانتقائه مثل عبارات القاضي عياض في تآليفه التي لاتسمح القرائح بالاتيان بمثلها والنسخ على منوالها».

ويجمع عياض المراد والمطلوب من العلوم الثلاثة. البيان والمعاني والبديع عندما ينتهي من شرح وتحليل حديث أم زرع في كلمته التالية : «فأنت إذا تأملت كلام أم زرع وجدته مع كثرة فصوله وقلة فضوله مختار الكلمات واصح السمات بين القسمات درت ألفاظه قبس معانيه وقررت قواعد وشيدت مبانيه وجعلت لبعضه في البلاغة موصعا وأودعته من البيدع بدعا. وإذا لمحت كلام التاسعة صاحبة العماد والنجاد ألفيتها لافانين البلاغة جامعة ولعلم البيان رافعة وبعصا الايجاز والقصد قارع.. واعتبر كلام الأولى فإنه مع صدق تشبيهه وصقالة وجهه قد جمع من حسن الكلام أنواعا وكشف عن محيا البلاغة قناعا. وقرن بين جزالة الألفاظ وطلاوة البديع. تفاريق المناسبة والمقابلة والمطابعة والمجانسة والترتيب والترصيع».

ثم إن عياضا في نقده لايكتفي بمجرد انتقاد مالا يراه ملائما أو غير متماش مع ما قرره من هدف عندما يتصفح بعض التعابير التي رأى فيها غيره إدراجها في الفصاحة والبيان على شرطه وإنما يأتي بعد الانتقاد بالبديل مع الحجة والبرهان.

فعندما تحدث عن بعض أنواع البديع كالترصيع والتجنيس والمضارعة والمقابلة ولزوم مالا يلزم وانتقد ما حاوله بعضهم من اعتبار وبعض الأقوال والعبارات تطبيقا لذلك انتقد عملهم وبين بما لا يترك مجالا للتراجع عما قال مبلغ صحة ما يراه.

فقد رفض أن يكون قول بعضهم «النار في الفتيلة كالتعادي للقبيلة» والصب مع الطب تجنيسا. قال إذ لاحظ في هذين التعبيرين للفصاحة وقال : «ان أمثال هذه التعابير ليس عندي في هذا الباب» أي باب التجنيس.

ثم اردف قائلا : ولكنه من باب ما أسماه ابن قدامة بالمضارعة أي ما لم يكن مشتقا من أصل واحد : كسرى مع شرى - وعجر مع بجر وفساح وفياح...

وأضاف : وأما التجنيس الحقيقي فهو أن يكون في الكلام لفظتان : إحداهما مشتقة من الأخرى. أو تكون لفظتان على صيغة واحدة مختلفتين المعاني مثال النوع الأول قوله تعالى : **«انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لايفقهون»** (41) ومثل **«وما أتيتم من ربى لتبربوا في أموال الناس فلا يربو عند** (42) ومثل **«يخافون يوما تتقلب فيه القلوب الأبصار)** (44) ومثل **«إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين»** (41).

ثم أفاض عياض في ذكر أنواع التجنيس التي احدثها - بحسب تعبيره - المتأخرون مثل قول الميكالي »

تمت محاسنه فما يزري بهـــــا	مع فضله وسخائـــه وكمالـــــه
إلا قصـور «وجـوده عـن جـوده»	لا عون للرجـل الكريـم كمالـــه

ونحن لا تعنينا بالذات إفاضة عياض في ذكر أمثال ما ذكره عن التجنيس مما أصبح الآن عندنا نحن من بدهيات ومسلمات هذه الفنون التي يتدارسها طلبة المدارس الثانوية ولكن الذي يعنينا من ذلك هو طريقة تناوله لها يوم لم يكن هذا الفن قعد بعد ولم يتخذ الصورة الكاملة تبويبا وترتيبا التي اتخذها ويوجد عليها الآن.

(41) سورة التوبة : الآية 127.

(42) سورة الروم : الآية 39.

(43) سورة النور : الآية 38.

(44) سورة النمل : الآية 44.

على أنني عندما قرأت ما كتب والطريقة التي عالج بها ما أورده في هذا الحديث من إحاطة بعلوم البلاغة تقريبا قدرت أن عياضا كان مدفوعا لمعالجة هذا النوع من الكتابة بدافع داخلي قد يكون - وهذا افتراض خاص - أنه لمز وغمز في معرفته لهذه العلوم التي كان يطلق عليها في المدارس المسجدية «علم المعقول» وكانت تلك المدارس حتى أواخر عهدها عندنا بالمغرب تعتبر تلك العلوم المعقولية من ميزات وخصائص المراتب العليا للعلماء. وكانت بالإضافة إلى ذلك تعتبر المشتغلين بالعلوم الفقهية والدينية طفيفي الزاد في هذا المواد حتى لقد كان بعض المعقوليين في العهود الأخيرة وهو المرحوم مولاي عبد الله العلوي رئيس جامعة القرويين - فيما حدثني به الفقيه ح محمد الزيزي - يصف المشتغلين بالنوازل والفقهيات بعلماء «فإن قلت قلت» وكأن عياضا نفيا لجهله بهذه العلوم وإثباتا لتضلعه فيها عمد إلى هذا الحديث يشرحه من وجهة علماء البلاغة مستعرضا فيه عضلاته ومبرزا فيه ان هذه العلوم من مروياته ومسموعاته. وانه فيها بنفس المرتبة والمكانة التي يحتلها من العلوم الفقهية والحديث والتفسير وقد حقق من هذا - والحق يقال - الشيء الكثير ا بان انه بالتقدير جدير...

وغاية العلم عند عياض هي إبراز ما يراه حقا أو مايعبر عنه هو بالعلم الصحيح ولهذا فهو رغم أنه مالكي المذهب - لم يساير المالكية في موقفهم وأرائهم على الإطلاق. لا أولئك الذين انتهجوا التقليد بالإطلاق ولا أولئك الذين أعملوا رأيهم فيما عن لهم من مسائل وقضايا واجتهدوا فيما بين أيديهم من نقول صحيحة...

وإنما وقف موقفا وسطا تبعا للعلم الصحيح. فاختار النقل الصحيح حين لا يعارضه عقل واعمل الفكر والاجتهاد. غيما يتضارب فيه النقل. إما لوهين في سندأ وفي متن أو لمخالفة لنقل آخر...

وهو للوصول لهذا العلم الصحيح يضع منهجية ويفرض شروطا. فالتضلع التام والكامل في اللغة وقواعدها. والمعرفة الواسعة والدقيقة لمختلف الأسانيد : بضبط

الألفاظ. ومعرفة الغريب منها. والمتقدم منها والمتأخر والناسخ والمنسوخ. ومختلف الروايات والنقول والأسانيد المتوفرة في الموضوع أمور أساسية وضرورية لمن يشتغل بالعلم ويبحث فيه لتجنب الخطأ وعدم مجانبة الصواب.

ولهذا فهو لا يسمح لكل من هب ودب أن يتصدى التدريس للعلوم الصحيحة ويتحامل على الذين يتصدرون مجالس الرواية والسماع والقراءة إذا كانوا «ممن تساهلوا في الأخذ والأداء حتى أوسعوه اختلالا». وينكر على من لا يحفظ حديثه ويتقن أداءه وتحمله. وعلى من يجلس للقراءة عليه وهو في غفلة عما يقرأ. أو أنه لم يقرأ هو هذا الكتاب المقروء أصلا أو إنما يقرأه للمرة الأولى. كل هؤلاء يحذرهم عياض من مغبة نتائجهم السلبية. لأن ذلك ـ وكما يقول ـ هو الذي كثر في المصنفات التغيير والفساد وإشباع التحريف والتصحيف إلى أن تعدى منثور الروايات إلى أصول الدواوين مع فروعها «ولولا اعتناء صبابة أهل الاتقان والعلم ـ وقليل ماهم ـ بإقامة أودها. لأصبح أمرها في خبر كان. وان لم يكن على الكافة تغييرها جملة. لأخبار الرسول عليه السلام بأن عدول هذه الأمة مكلفون بالذب عن سننه. يبقون عنها شبه المبطلين وتحريف الجاهلين».

وتمشيا مع هذه المنهجية كان من القائلين بسد باب رواية الحديث بالمعنى «وسدد المحققون باب الحديث على المعنى. وشددوا فيه ـ وهو الحق الذي اعتقد ولا امتريه ـ إذ باب الاحتمال مفتوح التأويل. وإفهام الناس مختلفة. والرأي ليس في صدر واحد. والمرء يفتن بكلامه ونظره. والمغتر يعتقد الكمال في نفسه».

على أن منهجية النقد عند عياض تعتمد ـ على العموم ـ مراعاة النقاط الآتية :

المجمع بين العقلانية والنقل ـ الوضع اللغوي للكلمة واستعمالاتها عربيا ـ عدم مجافاة التاريخ اعرافا وأنسابا.

ولهذا فالعلم عنده ليس مجرد للروايات والأسانيد ولكن هو بالإضافة إلى ذلك معرفة دقيقة لمختلف الاستعمالات اللغوية قواعد نحوية وبلاغية ومعرفة بأصول المذاهب وفقهها.

ولهذا أيضا فعند اختياره موقفا ما، أو رأيا في إحدى القضايا ضدا لرأي أو موقف مخالف لا يرسل الكلام جزافا أو على عواهنه بدون حجة أو برهان وإنما يرجح هذا على ذاك أو العكس لما تقتضيه رواية أخرى أصح، أو يتماشى وأساليب لغوية مضبوطة مشهورة، أو مراعاة للأسلوب والسياق أو لقواعد النحو واللغة أو للتاريخ والاعراف لعهد القضية أو الحاديثة...

ففيما يخص النقد اللغوي، نقف على عدة استدراكات، منها مثلا :

1) تعليقه على قول البخاري «مايحوز من اللو» بقوله : يريد ما يحوز من قول لو كان كذا كان كذا، ويستدرك «فادخل لو، الالف واللام التي للعهد، وذلك غير جائز عند أهل العربية، إذ لو حرف، وهما لا يدخلان على الحروف.. وزاد وكذا عند بعض رواة مسلم» فإن (لوا) تفتح عمل الشيطان، منون، والصواب ما للجمهور.. وورودها في قول الشاعر :

«ان ليتا وان لوا عناء إنما نؤنت لضرورة الشعر»

2) وكنقده أبا سعيد النيسابوري في دعواه أن جمع رطب - وعاء للبن حقيقة، ولا وعية غيره مجازا - على أوطاب منكر في العربية، فقد رد عليه عياض بحكاية النبي لها أو حكاية عائشة امامه ص، وأن ابن دريد حكاه في الجمهرة.. على أن دعواه ان فعلا بفتح أوله وسكون ثانيه لا يجمع على أفعال، قال عياض انه غير مسلم، فقد ورد على هذا الوزان في حروف معلومة مثل : ازناد، وأناف وأفراخ - وأفراد - واجداد وارافاع واراد....

وفي الحديث الصحيح «على انقاب المدينة ملائكة» ثم يذيل نقده ذاك بقوله : وليتنا وجدنا مثل هذه الطرق في أكثر اللغة. ولهذا فلا يقال في مثل هذا منكر. ولكن يقال : نادر.

3) وكما ناقشه أبا سعيد هذا أيضا في إنكاره أن تكون كلمة المزهر الورادة في كلام المرأة العاشرة من حديث أم زرع لأن العرب لم تعرف هذا النوع من آلات الطرب. فقد فند عياض إنكاره ذلك.

أولا : بأن الذين رووا هذه القصة كلهم ذكروا لفظة المزهر ففشو السماع دليل يضاف لدليل آخر هو ورودها في إشعار العرب.

ثانيا : ناقش النيسابوري اجتماعيا حين تساءل من ابن له أن زوج هذه المرأة لم يخالط الحضر. مع ان اجتماع النسوة كان في قرية. والقرى يومئذ هي الحواضر.

ثالثا : ان للفظة المزهر عند العرب مفهوما مغايرا للمراد بها عندنا الآن. وهو الدف المربع بوجهين.. قال عياض : وعلى هذا فلا ينكر ضرب الاعراب لها وعادتهم اطراب الضيفان بها.

وفيما يخص النقد التاريخي نقف له على كذلك على عدة استدراكات منها مثل :

1) رفضه رواية العذري والسمرقندي للفظة «أبي» بفتح الهمزة وكسر الباء في حديث جابر ابن عبد الله «إذ قال» والصواب «أبي» بضم الهمزة وفتح الباء بدليل الحديث الذي قبله.. وساق الحديث ثم أضاف : ولأن والد جابر. لم يدرك يوم الأحزاب. استشهد باحد في خبر مشهور ومثل.

2) تصحيحه «اللهم عليك بقريش». الذي ورد فيه اسم عمارة بن الوليد.. وعبارة «فلقد لقيتم صرعى يوم بدر». فقال عياض : ذكر عمارة بن الوليد غلط ووهم بين والمعروف عند أهل الأمر و السير أن عمارة لم يحضر بدرا. وأنه توفي

بجزيرة بأرض الجشة. وكان النجاشي سحر له ونفخ في احليله سحرا لتهمة لحقته عنده.

وفيما يخص النقد من حيث السند نورد للتمثيل له :

موقفه من قصة المرأة التي زوجت إحدى عشرة ابنة في ليلة واحدة. فد فند كون جميع القصة حديثا بقوله : «ويشبه انه حديث موضوع. فإن ألفاظه تنبىء عن ذلك. ركب على بعض حديث أم زرع. ولا يصح أن يكون هو هذا لصحة سند حديث أم زرع وضعف هذا».

وفيما يخص النقد من حيث اختلاف أسماء الشخصيات وكنها :

نستطيع أن نقف على الشيء الكثير منه عنده. وأن مراجعة خاطفة لمشكل الأنساب الذي عقده في احد فصول كتابه مشارق الأنوار. كاف للوقوف على منهجيته في ذلك. فقد أورد في هذا الفصل أسماء عدة. مثل الأيلى بالهمزة والياء بنقطتين . والأزدي أو الأسدي. والاودي إلى آخره... ثم يظهر ذلك في تصحيحه ما جاء في حديث الايمان والإسلام عند مسلم. حين ورد فيه ان راوية هو أبو زرعه كوفي من اشجع وفي بعض النسخ من النخع وان اسمه عبيد الله. فقد قال عياض والصحيح كما عند البخاري أن الراوي هو هرم بن عمرو بن جرير البجلي... قال يحيى بن محين «ولا يجتمع لا مع اشجع ولا مع النخع.

وفيما يخص النقد من حيث المجتمع والتقاليد والأعراف نورد للمثيل :

رده على أبي عبيد تأوليه لفظة «اشرب فاتقمح» التي وردت في قول المرأة الحادية عشرة من نسوة أم زرع. فقد علق عليها أبو عبيد بقوله : «انه لا يراها قالت ذلك إلا من عزة الماء عندهم» قال القاضي عياض : «والعجب منه. وما اضطره إلى هذا التأويل. وكانه لاشراب إلا الماء. فأين أنواع اللبن والخمر والنبيذ والسويق.

وسائر أشربة العرب التي كانوا يستحلونها ويستعملونها من صريف وضريب إلخ وعدد أنواعا من المشروبات التي كانت معروفة لدى العرب. ثم انهى كلامه قائلا : بل كانوا يذمون بشرب الماء ويهجون به.. ثم استخلص أن مراد المرأة : هو اشرب اللبن».

على أن عياضا في نقده المضامين يتوخى الازدواجية بي النقل والعقل ما أمكن. وعلى محكها يعرض ما يعن من نقط الخلاف بين الأئمة ونستطيع أن نتبين خطته تلك في القضايا الآتية :

1) قضية اعتبار عمل أهل المدينة إجماعا ووجوب العمل به..

وكان قد أثير حولها وما يزال يثار - جدل كبير بين مختلف أئمة الفقه. ما بين مؤيد ومعارض. وقابل ورافض...

أما عياض فلم يقبلها باطلاق. ولا رفضها باطلاق وإنما نظر إليها انطلاقا من تقريران اجماع أهل المدينة **نوعان** :

إجماع نقلي متواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم قولا أو فعلا أو اقرارا أوهما - ويطلق على كل ذلك في علم الأصول كما هو معلوم : السنة - وهذا يجب اتباعه وترك ما خالفه من قياس أو من خبر الواحد. لأن تواتر من هذا القبيل موجب للعلم القطعي. فلا يترك لما توجبه غلبة الظنون... قال وإلى هذا رجع أبو يوسف صاحب كتاب الخراج وغيره من المخالفين - أي للمالكية في عمل أهل المدينة - ممن ناظر مالكا وغيره من أهل المدينة في مسألة الأوقاف والمد والصاع حين شاهد النقل وتحققه.

واجماع اجتهادي استدلالي :

وحيث ان هذا موضوع خلاف بقبوله أو رفضه حتى من المالكية أنفسهم. فقد عالجه القاضي بطرق ثلاث.

1) أن يكون العمل مطابقا لأخبار الاحاد. فهذا آكد في صحتها ان كان من طريق النقل. أو في ترجيحها ان كان من طريق الاجتهاد. إذ لا يعارضه هنا۔ كما يقول عياض ـ الا اجتهاد آخرين أو قياسهم عند من يقدم القياس على خبر الآحاد.

2) أن يكون مطابقا لخبر، يعارضه خبر أخر، وفي هذه الحالة يقرر عياض أن عمل أهل المدينة أقوى ما ترجح به الأخبار إذا تعارض.

3) أن يكون مخالفا للاخبار : وأرى أنا في هذه الحالة أن يصار إلى عمل أهل المدينة لأن عملهم هو منبثق في أوله ـ ولو تقديريا ـ من النقل فهو كالنقل... وان كان يلاحظ شبه اضطراب في كلام عياض فيما يخص هذا الاحتمال الثالث. إذ عندما يكون العمل مخالفا للاخبار جملة فإن معنى ذلك أن لانقل هناك يعتمده العمل المديني. فقول عياض إذ لا يترك القطع واليقين لغلبة الظنون. وما عليه الاتفاق لما فيه الخلاف فيه انه لاقطع ولا اتفاق وإنما هو شبيه بالاجتهاد دعمه اتفاق أهل المدينة...

2) القضية الثانية مما اعمل عياض العقل والنقل :

الخلاف في معجزة الاسراء حول ما إذا كان بالروح فقط أو معها الجسد ؟ فعياض بعد ذكره الخلاف بين الأئمة والمذاهب. انتهى إلى القول بأن «الحق من هذا والصحيح إن شاء الله انه إسراء بالجسد والروح في القصة كلها. وعليه تدل الآية وصحيح الأخبار والاعتبار. ولا يعدل من الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة. وليس في الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة. إذ لو كان منا ما لقال . بروح عبده ولم يقل : أسرى بعبده».

3)الخلاف في إمكانية رؤية الله في الدنيا :

يقول عياض «والحق الذي لا امتراء فيه ان رويته في الدنيا جائزة عقلا وليس في العقل ما يحيلها وليس في الشرع دليل قاطع على استحالتها.. قال...

والدليل على جوازها في الدنيا سؤال موسى لها.. أي ولم يقل القرآن إن رؤيتي غير ممكنة وإنما قال : «لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني». قال عياض : والاستدلال على المنع بقوله تعالى في سورة الأنعام : «لاتدركه الأبصار» يمنعه اختلاف التأويلات لهذه الآية».

وإذا كان عياض يستعمل هذه العقلانية حتى في تقرير العقائد ولدى تحليله لمختلف معتقدات الطوائف الضالة في نظره، فإنه في نفس الوقت يفرق بين ماهو ممكن الخضوع للعقل وما ليس ممكنا إذ عند تعرضه لمعتقدات ومذاهب الطوائف الخارجة عن السنة ومحاولة تبيين ماهو من مقولاتها كفر وما ليس منها بكفر. نبه في النهاية إلى أن تحقيق مثل هذه الأشياء مورده الشرع ولا مجال للعقل فيه...

ثم اننا إذا أردنا أن نتعرف بالتحديد على الطريقة والمنهجية التي سلكها في نقد الحديث ومصطلحه، فقد نستطيع أن نتلمس سبيلنا لذلك عن طريق دراسة كتابه مشارق الأنوار... واختصارا نكتفي بنقل الملخص الذي وضعته لهذا الكتاب ومنهجية عياض فيه الدكتورة عائشة عبد الرحمن..

قال الأستاذة :

في الكتاب أبواب بعددها حروف المعجم... وفي باب كل حرف منها أربعة فصول رئيسية في أولها يتقصى ما في هذا الحرف من الكتب الثلاثة الأصول من ألفاظ تحتاج إلى ضبط أو شرح، وما وقع فيها من خلاف أو وهم، وتبين الصواب.

والثاني لما جاء في الحرف من أسماء بلدان وبقاع يضبط كتبها ويحدد مواقعها ويتعقب ما اختلفت الروايات فيه وما وقع من وهم أو تصحيف.

والثالث : في شكل الأسماء والكنى يضبط ما التبس واشتبه وما وقع من خلاف أو وهم.

والرابع : لما أشكل أو التبس من الأنساب وتجرى الصواب فيما اختلفت فيه الروايات ثم يبين الخلل أو الالتباس والوهم الذي وقع في الأسانيد أو المتون إلخ...

وهكذا فبتتبعنا لآثاره من هذه الوجهة التحقيقية نلاحظ أن اهتماماته النقدية لم تكن منصبة فحسب على علوم الآلة كالبلاغة التي أفرد لها تقريبا كتابه «البغية» وإنما شمل كل الميادين الثقافية التي عرفها ونالها بمبضعه الدقيق كجراح ماهر لبق.

ونعتقد أن اقدامه على اكمال كتاب شيخه المازري المعنون بالمعلم بفوائد صحيح مسلم. كان نقدا للكتاب بطريقة لبقة لطيفة لا تثير ضيقا ولا حرجا. لا للمازري كأستاذ قد يظهر عمله ناقصا لما أضافه أو حققه أو صوبه عياض. ولا لهذا كتلميذ لا يراعي حقوق أستاذه عليه حين يحاول نقد أو تصويب ما يراه في حاجة لذلك.

وتظهر هذه اللباقة العياضية إن صح التعبير - من اعتذاره بأن عمله إنما كان استجابة لطلبته الذين التمسوا منه ورغبوا كتابة شرح على كتاب المازري. يفصل مجمله ويبين غامضه. ويوضح شكله. لأنه لم يؤلف في شرحه سوى ماذكره شيخه أبو علي الجياني في تقييد المهمل في الكلام على مشكل أسانيده مع مشكل أسانيد البخاري. وغير كتاب المازري..

وقال مبرزا إكماله «ولكن الإحاطة على البشر ممتنعة. ومسارح الاذهان والالباب للبحث متسعة. وكثيرا ما وقفنا في الكتاب المذكور على أحاديث مشكلة لم يقع لها هناك تفسير. وفصول محتملة تحتاج معانيها إلى تحقيق وتقدير» وزيادة في التبرير أضاف «انه رأى أن تأليف كتاب جامع لشرحه لامعنى له مع ما تقرر في المعلم من فوائد جمة لاتضاهي» فليكن شرحا تذييليا لكلام شيخه ولضيف إليه ما زاده هو عليه وليسمه من أجل ذلك «إكمال المعلم».

وهذه اللباقة في النقد هي نفسها التي حاول بها انتقاد كتاب الإحياء للغزالي أول الأمر إذ لم يكن بعد اتخذ قرارا نهائيا بإدانة الكتاب أو كان لما يستكمل بعد شخصيته بالدرجة التي تسمح له لأن يتصدر هو أمر اتخاذ قرار خطير كهذا الذي أصدره شيخه ابن حمدين فارتأى وطموحات الغزالي وعياض من

حيث غرض التأليف لهذا النوع من الدراسات كان ـ كما سبق أن قلنا ـ واحدا أن لا يسرع في أمر له فيه مندوحة وأن يكتفي بإشارته المحتملة للادانة وغيرها : بأفضلية اختصاره والاقتصار على ما فيه من علم مفيد.

وحاسة النقد في عياض أصيلة تنبىء عن فهم عميق لما ينبغي التعبير عنه. وبالطريقة المثلى أي تلك التي يتساوى فيها التعبير عن المضمون مع الشكل أي أن يكون تجانس وتطابق شبه تام بين المضمون والجرس الموسيقي للألفاظ.

دخل المسجد مرة. فشاهد في يد أحدهم اليتيمة. فسال ذلك الأحد ما يقرأ منها. فقال قصيدة السلامي التي منها هذا البيت.

وقد ضاق العناق ولو فطنا دخلنا في المناطق والجيوب

فقال عياض لو قال بدل فطنا : قدرنا. لكان أشعر

ثم من تتبع آثاره إنشاء وترسلا وخطابة وتأليفا نلاحظ ظاهرة السجع أو النثر الفني كما كان يطلق عليه في تلك العهود في كتاباته الخطابية. حتى أن ظاهرة السجع هذه في خطبة لتكون لازمة أو موسيقى مزعجة : مع إقحام آيات قرآنية في نهاية أو وسط كل فقرة. كما يلاحظ التزامه السجع في مقدمات جميع كتبه تقريبا.

أما في كتاباته العلمية على اختلاف مجالاتها وتعدد موضوعاتها فتتسم بغير قليل من السلاسة وإن كانت ظاهرة السجع تستهويه أحيانا فينساب قلمه معها دون وعي شأن الأدباء المتضلعين والمتمكنين من الكتابات الأدبية الفنية الذين يستهويهم التعبير الرائق. ويخلب البابهم المعنى الفائق.

فمن نثره الخطابي نسوق هذا النموذج الذي لاندعي أنه أحسن ما عنده. ولكنه صالح للتمثيل لما أثبتناه وقررناه : يقول بعد الحمدلة والصلاة على الرسول.

أيها السامع قد أيقظك صرف القدر من سنة الهوى وسكراته. ووعظك كتاب الله بزواجره وعظاته. فتأمل حدوده وتدبر محكم آياته. (واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك لا مبدل لكماته ولن تجد من دونه ملتحدا)..

أين الذين عتوا على الله وتعظموا. واستطالوا على عباده وتحكموا. وظنوا ان لن يقدر عليهم حتى اصطلحوا «وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكم موعدا» غرهم الأمل وكواذب الظنون. وذهلوا عن طوارق الغير وريب المنون «وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون. حتى اذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من اضعف ناصرا وأقل عددا» الخ..

وتنبيه : للزنة الموسيقية التي ختمت بها الآيات الثلاث الواردة في هذه الفقرات. فقد جاءت كلها مختومة بالدال : ملتحدا ـ موعدا ـ عددا.. وتنبه كذلك لما راعاه في سوق هذه الآيات من التزام جزئها الأول الاشتمال على كلمة تختم بنفس الحرف والرنة التي ختمت بها إحدى فقرات السجع فآية لامبدل لكلماته في مقابل : زواجره وعظاته. مع محكم آياته. وآية «أهلكناهم لما ظلموا» في مقابل : على عباده وتحكموا مع حتى اصطلموا. وآية «وظنوا انهم إلينا لا يرجعون» في مقابل : وكواذب الظنون مع ريب المنون».

وهكذا يساوق بين معاني السجعات والآيات وبين ألفاظهما بما يجعل السامع أكثر استعدادا لتلقي هذه الموجات الموجبة من كهرباء أسلوبه الرنان وما يمتزج من ألوان وما يهتز به من أفنان.

وقد أورد له ابنه في التعريف خطبتين كلتاهما آية من آيات البيان والقدرة على تلوين الكلام بالسجع الرنان...

أما أسلوبه العلمي فنختار لتمثيله النماذج الآتية :

يقول في كتابه المدارك عن اعتناق افريقيا لمذهب مالك : «وأما إفريقية وما وراءها من المغرب فقد كان الغالب عليها في القديم مذهب الكوفيين إلى أن دخل علي بن زياد إلى أن يقول : وتشرق منهم قوم تقمنا لمسراتهم. واصطيادا لدنياهم وأخرجوا أضغانهم على المدنيين. فجرت على المالكية في تلك المدة محن. ولكنهم مع ذلك كثير. والعامة تقتدى بهم. والناشىء فيهم ظاهر. إلى أن ضعفت دولة بني عبيد بها. من لدن فتنة أبي زيد الخارجي فظهروا وفشوا عليهم. وصنفوا

المصنفات الجليلة وقام منهم أئمة جلة طار ذكرهم بأقطار الأرض. ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن خرجت القيروان وأهلها وجهاتها. وسائر بلاد المغرب مصفقة على هذا المذهب مجتمعة عليه لا يعرف لغيره بها قائم» المدارك ج 1 ص 26 مطبعة الشمال الإفريقي 83 هـ ـ 65م.

2) من مقدمته لكتاب مشارق الأنوار :

«.. وأما الإتقان والمعرفة. ففي الاعلام والأئمة. لكنهم كانوا فيما تقدم كثرة وجملة وتساهل الناس بعد في الأخذ والاداء. حتى أوسعوه اختلالا. ولم يالوه خبالا فتجد الشيخ المسموع بشأنه وثنائه المتكلف شاق الرحلة للقائه وتنتظم به المحافل. يتناوب الأخذ عنه ما بين عالم وجاهل وحضوره كعدمه. إذ لا يحفظ حديثه ويتقن اداءه وتحمله ولا يمسك أصله فيتعرف خطأه وخلله بل يمسك كتابه سواه. ممن لعله لا يوثق بما يقوله ويراه. وربما كان مع الشيخ من يتحدث معه أو غدا مستقثلا نووما. أو مفكرا في شؤونه حتى لا يعقل ماسمعه. ولعل الكتاب المقروء عليه لم يقرأه قط. ولا علم ما فيه إلا في نويته تلك. وانما وجد سماعه عليه في حال صغره بخط أبيه أو غيره ناوله بعض متساهلي الشيوخ ضبائر كتب. وودائع أسفار لا يعلم سوى ألقابها. أو أتته إجازة فيه من بلد سحيق بما لا يعرف وهو طفل أو حبل حبلة لم يولد بعد ولم ينطق.. إلخ..

ولاحظ في هذا النص شكواه من ادعياء العلم والمتطفلين عليه. وكيف أن ما يشاهد حاليا عند بعض حاملي الشهادات العليا من الجهل المطبق لما به يهرفون هو شنشنة قديمة ما يزال العلماء يجأرون بالشكوى منها ويضرعون إلى الله تعالى أن ينجيهم من بلواها.

3) ومن تعليقه ـ في حديث أم زرع ـ عن قول المرأة التاسعة في زوجها «رفيع العماد ـ طويل النجاد كثير الرماد : مبينا حسن النظم ومناسبة اللفظ أو ما يسمى الإرداف والتتبيع..

«... وعلة ذلك ما قلته من تغليب أحد الألقاب عليه لظهوره في أحد الأبواب أكثر من ظهوره في الآخر. فكذلك قول هذه «طويل النجاد» فإن طول النجاد من توابع الطول ولوازمه. فلن يطول نجاد أحد إلا إذا كان هو طويلا ـ إلا في باب المهرج ـ وكذا قولها : «عظيم الرماد» من توابع الكرم وروافده لأنه لا يكثر رماده إلا لكثرة وقوده النيران للضيفان.. إلى أن يقول : وكان قولها : «طويل النجاد» أكمل وأبلغ من قولها : (طويلا) إذ ثم طول دون طول فلما عبرت عنه بما هو من توابعه بقولها طويل النجاد بالغت في طوله وكأنها أظهرت طولها للسامع صورة يراها. مع مافي هذه الصيغة من طلاوة اللفظ مع الإيجاز. إذ لو أرادت تحقيق طوله المحمود لطال كلامها الخ..

وقد لا ينتهي حديثنا إذا نحن حاولنا الإحاطة بجوانب خطب عياض ومآثره النثرية. ولكن أجب التنبيه إلى أن المقري في نفح الطيب نسب لعياض خطبة على غرار «بديعية العميان» لأبي عبيد الله محمد بن أحمد بن علي الهواري المعروف بابن جابر الكفيف. والتي جاء في بدايتها «الحمد لله الذي افتتح بالحمد كلامه. وبين في سورة البقرة أحكامه. ومد في آل عمران والنساء مائدة الأنعام ليتم انعامه إلخ..

ثم عاد المقري في نهاية هذه الخطبة ليقول : «وممن نسبها للقاضي عياض الشيخ أبو عبد الله محمد بن الشيخ أبي العباس أحمد بن أبي جمعة الوهراني.. إلا أن في نفس شيء من سبة هذه الخطبة لعياض لأن نفسها يقصر عن بلاغته ولا يرقى لفصاحته...

اما آثاره الشعرية. فعلى الرغم مما أطلقوا عليه من أوصاف ونعوت تجعله في مصاف أجود الشعراء فنا وأكثرهم إنتاجا وأغزرهم مادة. فهم لا يوردون له من الأشعار إلا مقطوعات معدودة على رؤوس الأصابع وإن حاول ابنه كما سبق أن أشرنا ـ إلى خلق اعذار تفيد ان شعره تعرض للضياع بسبب ان أباه وقد أصبح ذا مركز مرموق دينيا واجتماعيا وسياسيا لم يعد يرى أن يكون الشعر احد اهتماماته

الجديرة بالثناء وحتى إثنا لنجد عياضا عندما تذاكر مع جلة زعماء وقادة علماء وسادة أدباء، تعالوا بينهم كأس الأدب حتى ذهبت بهم في التغلغل فيه كل مذهب فتسابقوا في ميدانه وجرى كل منهم ملء عنانه إلى أن قصدوا التعجيز وقالوا الغاية القصوى أن نكتب رسالة معربة المعاني رائقة.. وتطاول لها وأزهار آدابه تنم «والعبارات لا بنه في التعريف» وهم القاضي عياض بمباشرة ماتطوع لمباشرته. بدأ رسالة ببيت من الشعر. يومى إلى أن هذه الحرفة لم تعد تناسب مقامه. ولهذا فهو يعتذر إذا كان قد اضطر لنفث هذا الشعر اضطرار تصدور قال :

قل للأماجد والحديث شجون   ماضر إن شاب الوقار مجون

إلى آخر هذه الأبيات المتقدمة

ويحاول صاحب النبوغ ـ كغيره ممن تحدث عن عياض الأديب ـ أن يصفه وشعره كنثره بأنه «قد أخذ من البلاغة بحظ وافر. وقد استجاده دهاقنه الكلام وصيارفة النقد. وأثبتوه في مجموعاتهم ومختاراتهم. ونحن فيما وصلنا منه نتحسس نفسا عاليا ونتلمس ديباجة رقيقة.. «ولكن جنونا أضاف» ونكاد نميل إلى أنه من قبيل شعر الكتاب الذي يبلغ من الانطباع ما يجعله نموذجا يحتذى «المناهل العدد 19 صفحة 54 وقد كان وصفه في كتابه النبوغ بالجملة التي قالها عنه ابن فرحون في الديباج» كاتبا شاعرا مجيدا. ريان من علم الأدب النبوغ ص 87 ج 1 (45) ويقول عنه ابن خاتمة فيما نقله عنه المقري «الى اضطلاعه بالآداب وتحققه بالنظم والنثر» دعوة الحق ص 132 ع 9 ـ 10 س 10 ويقول الفتح بن خاقان يعنى بإقامة أود الأدب وينسل إلى أربابه من كل حدب » دعوة الحق ص 110 ع 9 س 18 ويقول عبد الله الجراري في مقاله الذي نشره في مجلة دعوة الحق عدد (9 ـ 10) ص 162 س 15 وأعاد نشره بنصه وفصه في العدد الرابع من هذه المجلة

45) وفي مقال له نشر أولا بالمجلة العربية التي تصدر بالمملكة الشعودية ونشرته دعوة الحق في عددها التاسع س 18 ص 112 يصفه بقوله : «وله قلم سيال في النثر الفني والمرسل والشعر البديع».

ص 78 السنة 18 «وكمثال خفيف يلقى هو الآخر أضواء على هذه الظاهرة الرائعة نلمسه ونحن نردد بيتين ارتفع فيهما إلى القمة بلاغة وتشبيها يذكرنا على التو بشعر ا بن المعتز. وقد ساعده محيطه وآنيته. ولكن على مسرح الطبيعة قال :

انظر إلى الـــزرع وخاماتـــــه   تحكـــي وقـد ماســت أمــام الرياح
كتيبـــة خضـــراء مهزومـــــة   شقائـــق النعمـان فيهـــا جـــراح

والآن لنحاول إثبات هذا الشعر الذى قبلت فيه تلك الكلمات المقتضبة والمركزة في آن واحد ولنحاول تقييمه : أما ا بنه في كتا به التعريف فقد أثبت له بالإضافة إلى تلك القطعة التي جاءت د يباجة للرسالة المشار اليها آنفا والتي بلغ عدد أ بياتها ستة. أ بت له ثماني قطع. يبلغ مجموع أ بياتها 36 بيتا موزعة على الشكل الآتي : قطعتان من ثمانية أ بيات. وأخريان من ثلاثة أ بيات. وأخريان من بيتين اثنتين وقطعة من ستة أ بيات. وأخرى من أر بعة أ بيات.

وهذه القطع من حيث موضوعاتها. يلاحظ أن قطعتين يغلب عليها جانب التصوف. بينما أر بع قطع منها يغلب عليها مسحة التسيب والتشبيب في حين تتحدث قطعة عن الشوق إلى الأوطان ومنا بت الخلان. و يمكن إدراج القطعة الباقية ضمن شعر الحكم والمواعظ. وقد سبق ان أوردنا البيتين اللذ ين يصف فيهما منظرا من مناظر الربيع وقد انتشرت بين خمائله ونباتاته الخضراء شقائق النعمان.

وقطعته التي يتشوق فيها إلى موطنه سبتة كانت نفثة مصدور ذى إحساس قوى متين برباطه بمسقط رأسه حيث الجاه والسلطان وحيث الأهل والولد والأوداء والخلان. يجد نفسه ملزما في شبه تغريب يقيم بمكان لا تربطه به صلة. ولا يجد له في نفسه حرمة ولا تقديرا. وجل من تحدث عن محنة عياض أورد هذه القطعة كصورة حية لما كان يعتمل في نفسه من إحساس بالغربة. وتنقيص من المكانة الإجتماعية التي كان يحتلها. وما آل اليه أمره في وقت كان يطمح فيه وقد انخرط في ولاء النظام القائم. أن يرد له اعتباره. وقد سبق أن

أثبتنا هذه القطعة التي جاء في مطلعها اقمرية الخ.. أما القطع الأخرى التي حاول فيها تصوير بعض ما كان يعانيه في شوق وهيام - وقد يكون من شعر الحداثة أو من الشعر الذى يحمله ما ينتابه من ذكريات أيام الصبا ولواعج شوقه - فلم يكتب لها الظهور إلا حين جمعها ابنه في هذا التعريف. ويقول في أطولها نفسا :

يا راحلين وبالفؤاد تحملوا	أيرى لكم قبل أغمات قفول ؟
أما الفؤاد فعندكم أنباؤه	ولواعج تنتابه وغليل
أترى لكم علم بمنتزح الكرى	عن جفن صب ليله موصول ؟
أودى بعزمة صبره وإبائه	طرف أحم ومبسم مصقول
ما ضركم لوجدتم بتحية	يحيى بها عند الوداع قتيل (46)
إن البخيل بلحظة أو لفظة	أو عطفة أو وقفة لبخيل

وسمات الصنعة على القطعة ظاهرة. وهي لا تقف ندا لما قيل في موضوعها من أمثال الشعراء : ابن القابلة السبتي - وابن زنباع وأضرابهما.

أما القطع الأخرى التشبيبية التي أوردها ابنه فهي :

يا من تحمل عني غير مكترث	لكنه للضنى والسقم أوصى بي
تركتني مستهام القلب ذا حرق	أخا جوى وتباريح وأوصاب
أراقب النجم في جنح الدجى سهرا	كأنني راصد للنجم أوصابي
وما وجدت لذيذ النوم بعدكم	إلا جنى حنظل في الطعم أو صاب

وقد تعمد في هذه القطعة حشو قوافيها جناسا : فأوصى بي في البيت الأول من الوصية وأوصاب في الثاني من الوصب أى المرض. وفي الثالث تخفيف صابىء أى الصابئون. وفي الرابع من الصاب وهو الصبر المر.

46) في رواية ابن المؤلف : بدل لوجدتم - أوضنكم -

وجاء في القطعة الأخرى :

الله يعلم أني مُنذ لم أركـم — كطائر خانه ريش الجناحين
فلو قدرت ركبت الريح نحوكم — فإن بعدكم عني، جنى حيني

وبين الجناحين في البيت الأول - وهما جناحا الطائر - ولفظتي جنى التي هي فعل ماض وحينى التي تعني هلاكي وموتي. أيضا جناس.

أما القطعة الرابعة فهي :

أذات الخال كم ذا تنتضيها — علي سيوف عينيك انتضاء !
بمظلك لي مواعد أقتضيها — من التوريد واللعس اقتضاء
فقضي وعد مطلك وانجزيه — خيار الناس أحسنهم قضاء

والصنعة البديعية في هذه القطعة أكثر من سابقاتها واضحة جلية، فإن القافية في جميعها روعي فيها أن تكون مختومة بضاد ممدودة. بينما روعي في البيتين الأولين وفي مصراعيهما معا أن يكونا مختومين بضاد وياء وهاء في الشطرين الأولين منهما. وبتاء وضاد ممدودة في الشطرين الأخيرين ولعل هذا التكلف الصناعي هو الذى أغرى ابن المؤلف بإيراد خصوص هذه المختارات من شعر أبيه، إذ كان ذلك العصر، عصر الاعتناء بالزخرف اللفظي، أكثر من أي شيء آخر.

أما قطعتا التصوف فقد جاء في أولهما :

إليك بؤت بذنبي — فاغفر خطاياي ربي
وامنن علي بلطف — تجبر به صدع قلبي
فقد ركبت ذنوبا — سودت منهن كتبي
وطال تقصير سعيي — في كل فرض وندب

وقد أسأت فأحسن ... فلم تزل محسنا بي
وجئت أطلب توبا ... إذ ضاق بالذنب رحبي
فاقبل بفضلك توبي ... واغفر برحماك ذنبي
وعافني واعف عني ... فأنت يارب حسبي

وجاء في الثانية :

أعوذ بربي من شر ما ... يخاف من الناس والجنة
وأسأله رحمة تقتضي ... عوارف توصل بالجنة
فما للخلائق عن ناره ... سوى فضل رحماه من جنة

وهذه القطعة كذلك روعى فيها

التجنيس في قوافيها الثلاث (47).

ووقفت في كتاب النبوغ المغربي على أربع قطع أخرى اثنتين في الشوق والتشبيب والأخريان في الحكم والوصايا.

والأولى التي في الغزل والنسيب هي :

رأت قمر السماء فأذكرتني ... ليالي وصلها بالرقمتين
كلانا ناظر قمرا. ولكن ... رأيت بعينها ورأت بعيني

والثانية هي :

أقول وقد جد ارتحالى وغردت ... حداتى وزمت للفراق ركائبى
وقد غمضت من كثرة الدمع مقلتي ... وصارت هواء من فؤادى ترائبى

---

47) أما القطعة التي جاء موضوعها في الحكم والوصايا فقد جاء فيها :

إذا الأخلاء لم تحمد غيوثهم ... وخان ميثاقهم في البعد أوحالا
فلي بأغمات خل لا أذم له ... من الحياة وإن شطت نوى حالا

ولم تبق إلا وقفة يستحثهـــــا وداعي للأحباب لا للحبائـــــب
رعى الله جيرانا بقرطبة العلـــى وسقى رياها بالعهاد السواكـــب
وحيا زمانا بينهم قد ألفتـــــه طليق المحيا مستلان الجوانـــب
أإخواننا بالله فيها تذكـــــروا معاهد جار أو مودة صاحـــب
غدوت بهم من برهم واحتفائهم كأني في أهلي وبين أقاربـــي

وهذه القطعة اعتبرها أنا هي الشعر الوحيد من بين هذه الأشعار المثبتة له. فيه نفس شعرى ويحرك النفس هزة وطربا وتحس له نشوة موسيقية خاصة.

أما القطعتان الأخريان التي أوردهما صاحب النبوغ المغربي فيقول في أولاهما :

وكأنه يرد على الشيخ يعلى أبي جبل دفين باب يصلبتن (48) من فاس المتوفى سنة 403 هـ الذى فيها يحث على السفر، بينما عياض يحث على ضده :

تقعد عن الأسفار إن كنت طالبـــا نجاة، ففي الأسفار سبع عوائـــق
تشوق إخوان، وفقد أحبـــــة، وأعظمها يا صاح سكنى الفنـــادق
وكثرة إيحاشر، وقلة مؤنـــــس وتبذير أموال، وخيفة ســـــارق
فإن قيل في الأسفار كسب معيشة وعلم وآداب وصحبة واثـــــق
فقد كان ذا دهرا تقادم عهـــده وأعقبه دهر شديد المضائـــق
فهذا مقالي، والسلام كما بـــدا وجرب ففي التجريب علم الحقائق

وياليته لم يأت بهذا البيت الأخير الذى كان نشازا في القطعة.. وبالمناسبة لا بأس من إثبات قطعة الشيخ يعلى المضادة وفيها :

سافر لتكسب في الأسفار فائـــدة فرب فائدة تلفى مع السفــــــر
ولا تقم بمكان لا تصيب بـــــه نصحا ولو كنت بين الظل والشجـر
فإن موسى كليم الله أعـــوزه علم تكسبه في صحبة الخضـــر

---

48) تدعى حاليا «عين إزليتن».

أما القطعة الثانية في الوصايا والحكم التي أوردها صاحب النبوغ لعياض فهي :

إذا ما نشرت بساط انبساط فعنه، فديتك، فاطو المزاحا
فإن المزاح كما قد حكى أو لو العلم قبلي عن العلم زاحا

وقال محمد بن تاويت لدى إيراده هذين البيتين الأخيرين في بحثه المنشور في مجلة المناهل عدد 19 ص 311 إنهما البيتان اليتيمان اللذان استشهد بهما القاضي عياض في كتابه بغية الرائد الذى لم يستشهد فيه بغيرهما من شعر المغرب أو القيروان أو الأندلس ووهم الدكتور التهامي الراجي الذى قال : أن القاضي عياضا استشهد - وهو يشرح هذا الحديث - أى حديث أم زرع - بـ 978 شاهدا من الشعر العربي نصفه تقريبا منسوب لأصحابه والباقي جله لشعراء جاهلين أو شعراء في العهود الإسلامية تعود اللغويون الإستشهاد بشعرهم من أمثال الفرزدق وأبى تمام وأبى العلاء والمتنبى.. ثم قال الراجي والذى يثير الإنتباه هو أنه لم يستشهد بشاعر أندلسي أو مغربي أبدا » (49).

وبعد فتلك صور خاطفة ولمحات مقتضبة من حياة وتاريخ هذا العملاق القاضي عياض حاولنا فيها أن تقرب بها الرجل للتناول فعسى أن نكون وفقنا...

ونحب أن نختم بحثنا عن عياض بإثبات بعض ما قيل فيه وفي أهم كتبه.

الخاتمـــــة

وبعد فتلك صور خاطفة ولمحات مقتضبة من حياة وتاريخ هذا العملاق الذى رفع رأس المغرب عاليا وجعل أقطاب العلماء في الشرق، أمثال : ابن تيمية، وجار الله الزمخشري، يتهيبون قوة عارضته، ويتخوفون أن يزاحمهم فيما بنوه لأنفسهم من أبراج وما أحاطوها به من هالات التفوق.. حاولنا فيها أن ننبه

---

49) انظر المناهل العدد 19 ص 612.

المهتمين بالتراث الإسلامي في هذا الجناح الغربي من عالم الإسلام إلى ما يزخر به تراثنا من عظائم. وما يضمه من مآثر وإذا كنا نحن اليوم نحاول أن نبرز في هذه الجهود المتواضعة ما كان اشاده القاضي عياض من مفاخر علمية. وحققه في تفوق أرغم حتى من أساء إليهم - صيانة للحق ودفاعا عن الشريعة - أن يشيدوا به ويعترفوا بفضله. فما عملنا إلا اعتذار لروح عياض عن تقصيرنا في حقه وأن يكن التاريخ قد أوفاه هذا الحق وما غمطه حين أطلق السنة المورخين من الأدباء والفقهاء بالثناء والإعتراف بالفضل لأبي الفضل.

فقد قال **فيه الفتح بن خاقان** معاصره - رغم موقف عياض المشهور منه - في قلائد العقيان - «جاء على قدر. وسبق إلى نبل المعاني. واستيقظ إليها والناس نيام. وورد ماءها وهم صيام. وتلا من المعارف ما أشكل. وأقدم على ما احجم عنه سواه ونكل. فتحلت به للعلوم نحور. وتجلت له منها حور. كأنهن الياقوت والمرجان. لم يطمئن أنس قبله ولا جان. قد ألحفته الأصالة رداءها. وسقته أنداءها وألقت إليه الرياسة مقاليدها. وملكته طريفها وتليدها. فنبذ على فتائه الكهول سكونا وحلما. وسبقهم معرفة وعلما. وازرت محاسنه بالبدر اللياح. وسرت فضائله سرى الرياح. فتشوقت لعلاه الأقطار. ووكفت - تحكى نداه - الأمطار. وهو على اعتنائه بعلوم الشريعة. واختصاصه بهذه الرتبة الرفيعة. يعنى بإقامة أود الأدب. وينسل إلى أربابه من كل صوب وحدب. إلى سكون ووقار كمارسا الطود وجمال مجلس كما جليت الحود. وعفاف وصون. ما علمنا فسادا بعد الكون. وبهاء لو رأته الشمس ما باهت بأضواء وخفر ولو بأن للصبح مالاح ولا أسفر».

- وقال ابن خاتمة مؤرخ الموحدين :

«وكان لا يبلغ شاوه. ولا يدرك مداه. في العناية بصناعة الحديث وتقييد الآثار وخدمة العلم مع حسن التفنن فيه. والتصرف الكامل في فهم معانيه. إلى

اضطلاع بالأداب وتحققه بالنظم والنثر، ومهارته في الفقه، ومشاركته في العربية، وكان سريع الوضع، وتدل على ذلك كثرة أوضاعه» (50).

وقال ابن فرحون في الديباج المذهب :

«كان إمام وقته في الحديث وعلومه، عالما بالتفسير وجميع علومه، فقيها، أصوليا، عالما بالنحو واللغة العربية وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم، بصيرا بالأحكام، عاقدا للشروط، حافظا لمذهب مالك، شاعرا مجيدا ربان من علم الأدب، خطيبا بليغا، صبورا حليما، جميل العشرة، جوادا سمحا كثير الصدقة، دؤوبا على العمل، صلبا في الحق».

ـ وقال الذهبي في تذكرة الحفاظ :

«وحاز من الرئاسة في بلده، ومن الرفعة ما لم يصل إليه أحد من أهل بلده، وما زاده ذلك إلا تواضعا وخشية لله».

وقال ابن خلكان في وفيات الأعيان :

«كان إمام وقته، وكل تواليفه بديعة».

وقال ابن الأبار في المعجم :

«كان جمال العصر ومفخرة الأفق، ومعدن الإفادة، وإذا عدت رجال المغرب فضلا عن الأندلس حسب فيهم صدرا».

وقال ابن بشكوال في الصلة :

«هو من أهل التفنن في العلم والذكاء واليقظة والفهم».

---

50) نسب هذه العبارات العلامة كنون إلى ابن الأبار انظر دعوة الحق العدد 9 ص 109 س 18.

وقال المقرى في أزهار الرياض :

كان حسن الإلقاء للمسائل، كثير التحرير للنقول، وقد انتفع به من العلماء من لا يحصى وكان وقورا ذا سمت حسن، وهدي مستحسن، وربما تقع منه دعابة كما تصدر من الفضلاء أمثاله» **وقال العلامة جنون في مجلة** دعوة الحق السنة 18 عدد 9 ص 112.

«بجنب الأصيلي وأبي عمران الفاسي، يذكر القاضي عياض، فيكون ثالث ثلاثة رفعوا رأس المغرب عاليا في ميدان الدراسات الإسلامية العليا ولا سيما علم الحديث رواية ودراية، والفقه والخلاف على مستوى المذاهب والأئمة... وله قلم سيال في النثر الفني والمرسل والشعر البديع».

وقال المرحوم عبد القادر الصحراوى في العدد 9 ـ 10 من دعوة الحق السنة 10 ص 132 «إن القاضي عياضا في غنى عن كل شهادة أو تنويه، فقد ترك مؤلفاته تشهد له وتنبىء عليه وتعلن تفوقه وأستاذيته وعلمه».

على أننا نكتفى في هذا المجال، للإستدلال على قيمة الرجل وما خلفه من أثر وتأثير في العالم الإسلامي ـ بالدعوة إلى إلقاء نظرة على لائحة بمراجع ترجمته أوردها الأستاذ بن تاويت الطنجي رحمه الله في نهاية مقدمته على كتاب المدارك، فقد ذكر هناك واحدا وثلاثين مرجعا للمترجمين له، ابتداء من ترجمة ابنه في التعريف إلى أربعة عشر مرجعا مغربيا، وأربعة عشر مشرقيا مع تنوع هذه التراجم موضوعا وتباينها تناولا، ومن حيث المجالات الدينية والتاريخية وعلى اختلاف تنوع معارف الرجل ومداركه الثرة المعطاء.

أما ما قيل في كتبه وما نالته من تقريظ واطراء، فشتى ينؤ به العد ولا يتناوله الإحصاء، ولكن إذا كان ما لا يدرك كله لا يترك كله، فإننا نقتصر على إيراد هذه الإعترافات الصادقة الصادرة من بين العديد ممن عرفه أو تعرف عليه قديما أو حديثا، مع ملاحظة أن كتابه الشفا، نال من الإعجاب والتقدير حظ

الأسد مما نالته بقية مؤلفاته وآثاره. فبالإضافة إلى عديد من كلمات الاطراء والمديح نظم كثيرون فيه قصائد ومقطوعات تفيض رقة وعذوبة وتنطق إعجابا وإكبارا ومن هاته القصائد الكثيرة التي قيلت فيه نذكر قصيدة لسان الدين بن الخطيب التي يقول فيها :

حييت يا مختط سبت بن نـــوح ... بكل مزن يغتدي أو يـــروح
وحمل الريحان ريح الصبـــا ... أمانة فيك إلى كـــل روح
دار أبي الفضل عياض الـــذى ... أضحت برياه رياضا تفـــوح
يا ناقل الآثار يعنى بهـــا ... وواضلا في العلم جرى الجمـــوح
طرفك في الفضل بعيد المـــدى ... طرفك للمجد شديد الطمـــوح
كفاك إعجازا كتاب الشفـــا ... والصبح لا ينكر عند الوضـــوح
روض من العلم همى فوقـــه ... من صيب الفكر العمام السفـــوح
ومعلم للدين شيدتــــه ... فهذه الأعلام منها تلوح الـــخ

وله فيه قصيدة أخرى يقول في مطلعها :

شفاء عياض للصدور شفـــاء ... فليس بفضل قد حواه خفـاء الخ

كما له قصيدة أخرى في نفس الكتاب مطلعها :

أأزاهير ريـــاض ... أم شفاء لعيـــاض ؟

ولابن زمرك أبي عبد الله محمد بن يوسف الصريحى أحد تلامذة لسان الدين بن الخطيب في الإشادة بكتاب الشفا قصيدة نظمها بمناسبة شرح أبي عبد الله بن مرزوق لهذا الكتاب وهي طويلة منها :

ومسرى ركاب للصبا قد ونت بـــه ... نجائب سحب للتراب نزوعهـــا
تعرضن غربا يتغين معرســـا ... فقلت لها مراكش وربوعهـــا
لنسقي أجد اثابها وضرائحـــا ... عياض إلى يوم المعاد ضجيعهـــا
فكم من يدفى الدين قد سلفت لـــه ... يرضى رسول الله عنه صنيعهـــا

ولا مثل تعريف الشفاء حقوقه فقد بأن فيها للعقول جميعها
بمرآة حسن قد جلتها يد النهى فأوصافه يلتاح فيه بديعها
نجوم اهتداء والمداد يجنها وأسرار غيب واليراع تذيعها
لقد حزت فضلا يا أبا الفضل شاملا فيجزيك عن نصح البرايا شفيعها الخ (51)

وأحسن ما قيل في هذا الكتاب وأحلى، قول بعضهم فيه :

وقالوا أراك تحب الشفا وتخبر فيه عن المصطفى
فقلت لأني عليل الفوام د. وكل عليل يحب الشفا

ويقول ابن فرحون عن الشفا :

«ابدع فيه كل الإبداع، وسلم له إكفاؤه فيه، ولم ينازعه أحد في الإنفراد به، ولا أنكروا مزيته في السبق إليه، بل تشوفوا للوقوف عليه، وانصفوا في الإستفادة منه حمله الناس وطارت نسخه شرقا وغربا».

وقالوا عن كتابه مشارق الأنوار :

«هو كتاب لو كتب بالذهب أو وزن بالجوهر لكان قليلا في حقه (ابن فرحون).

«القاضي عياض ممن اتقن في التصنيف، وتجويد الضبط، فليس بحيث يفوته أن يقيد مظان الإشتباه والايهام بما يؤمن معه اللبس، وإنما يفوت ذلك على من لا دراية له بأسلوبه في الشمارق... وفي الحق أن هذا الكتاب من المضنون به على غير أهله، فمن يكون أهله إذا ضاع» (52).

عائشة عبد الرحمن المناهل.

---

(51) انظر نفح الطيب الجزء العاشر صفحة 19.

(52) المناهل : العدد 19 ص 154.

«هو من ألقوم ما خلفه القاضي عياض رحمه الله (ا بن تاويت المدارك المقدمة).

هذا وقد أثار هذا الكتاب ضجة في الشرق. شأن ما حدث إزاء كتاب الشفا. واستعظم بعض المشارق ـ شنشنة نعرفها من أخزم ـ صدور مثل هذا التأليف عن مغربى. حتى قال أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن النصرى الكردى المعروف بالشهرزوري وبابن الصلاح صاحب كتاب «علوم الحديث» وقد وصلته نسخة من هذا المولف بيته المشهور الذى أثار ردود فعل لدى المغاربة.

قال ا بن الصلاح :

مشارق أنوار تجلت بسبتـــــــة ومن عجب كون المشارق في الغرب

وقد انتالت عليه ردود المغاربة. بنفس الأسلوب النظمى. وكان من جملة الردود هذه الأبيات :

فما شرف الأوطان إلا رجالهـــــا وإلا فلا فضل لترب على تـــــرب

ثم تتابع تقريظ الكتاب من طرف المغاربة فانشدوا :

لقد شهدت حقا جميع المهـــــارق بما حاز من فضل كتاب المشـــارق
حزى الله عنا كل خير ومنــــــه عياضا بما أسدى لنا من مشـــــارق
به أشرقت شمس الغريب بغربنـــا فدانت له تهفو شموس المشـــــــارق

ومن جملة الأبيات التي قيلت في نفس المؤلف وردا على ا بن الصلاح هذا البيت :

عياض لك الخيرات أطلعت للـــورى مشارق أنوار الهدى بالمغـــارب

وقالوا عن كتاب الألماع إلى معرفة أصول الرواية والسماع التي تقول عنه الدكتورة عائشة عبد الرحمن :

إنه من حيث تاريخ وضعه. صنف قبل تصنيف كتاب المشارق (53).

---

53) المناهل : العدد 19 ص 65.

«هو في علوم الحديث فريد في بابه، جمع ما في كتب الفن قبله، وأضاف إليه نكتا غريبة من مقدمات كحم الأثر وأصوله، وفصولا هامة في أقسام الرواية والتحمل مع مزيد من الضبط والإتقان والتحرى في السماع والأداء» عبد الله جنون (54).

«على الرغم من مرور سبعة قرون على تأليفه فإنه ليس بإمكان رجال التاريخ لا في أوروبا ولا في أمريكا أن يكتبوا أحسن منه، وأن ما جاء فيه من مظاهر الدقة في التفكير والإستنتاج في باب تجرى الرواية والمجيء باللفظ يضاهي أدق ما ورد في الموضوع نفسه في أهم كتب الافرنج في ألمانيا وفرنسا وأمريكا وأنجلترا» الدكتور أسد رستم.

«هو من أهم المراجع في علم الحديث» وقد انتفع به وسار على نهجه وصرح بأنه قد قلده صاحبنا المذكور موقفه عن كتاب المشارق، أبو عمر وابن الصلاح المتوفي سنة 642 هـ. ولكنه كان في أكثر الأحيان يذكر قوله ولا يصرح باسمه ولا يشير إليه وكذلك استقى منه كل المؤلفين الذين داروا في فلك مقدمة ابن الصلاح وجعلوها كعبة يطوفون بها كالعراقي والزركشي والبقاعي وابن حجر. والسخاوي والسيوطي والبلقيني وابن جماعة وغيرهم أحمد صقر مقدمة الألماع ص 30.

وقالوا عن كتاب المدارك :

«... انه أتى فيه بالعجب العجاب سالكا في ذلك المنهج العلمي النقدي متبعا قواعد النظر المتبعة عند أئمة الحديث في الرواية توثيقا وتوهينا وهم وتصحيح خطأ، وما إلى ذلك» عبد الله كنون : دعون الحق العدد 9 السنة 18 ص 112.

---

(54) دعوة الحق : ص ١١١ عدد 9 س 18.

وقالوا عن كتاب التنبيهات المستنبطة :

«صار المعول في شرح المدونة على هذا الكتاب لأنه جمع بين طريقة أهل العراق الذين يجعلون مسائل المدونة كالأساس. ويبنون عليها تفريعات المذهب من غير نظر في تصحيح الروايات ومناقشة الألفاظ. وبين طريقة النقل لدى القيروان الذين يبحثون الألفاظ ويحققون الروايات. وذلك لقوة عارضته وسعة اطلاعه. فوضع لذلك منهجا جديدا للفقهاء والباحثين في أصول المذهب ممن أتى بعده » المصدر السابق.

«كتاب التنبيهات المتنبطة لبنة من تلك اللبنات التي وضعها أسلافنا في سبيل العناية بالألفاظ الدينية والإسلامية» الودغيري : المناهل العدد 19 ص 461.

● وقالوا عن كتاب البغية :

«استخلص فيها منهجا أدبيا خاصا جمع بين منهج المحدثين واللغويين والنقاد والبلاغيين والفقهاء والمؤرخين. استخلاصا مما يقوله مؤلفه في مقدمته :

«ورأينا أن نبتدىء بالحديث وسياق متنه مع اختلاف ألفاظ نقلته وزيادة بعضهم على بعض في سرده. ثم نذكر بعد ذلك اسناده وشرح غريبه وعويص إعرابه ومعاني فصوله. وما يتعلق به من فقه. وتنقدح فيه من فائدة. ويتجه فيه من وجه بحول الله» مرهون الصفار ـ المرجع قبله ص 262 «ان الفصل الأخير من فصول بغية الرائد يعتبر في نظري من أروع فصول البلاغة التطبيقية في الكتب العربية. وهو يكشف عن ناحية مجهولة من مناحي عياض. وهي الناحية البلاغية التي تجلت فيها شخصيته وبرز فيها رأيه. وتجلى ذوقه الرقيق ونقده الدقيق» أحمد صقر في مقدمة الألماع.

● وقد يطول بنا الحديث إذا نحن مضينا نتقصى ما قيل في كتاب عياض. إلا أننا نرى ضرورة الإشارة إلى موقف ابن تيمية من عياض وقالته التصغيرية فيه. حين بلغه كتاب الشفا «غلا هذا المغيربي وايم الله.. وموقف جار الله الزمخشري الذي رفض منحه الإجازة وما إلى هذين الموقفين إلا ما أشرنا إليه قبل من عقدة

الاستعلاء التي يجدها المشارقة أمام كل عمل لا يصدر عنهم ويأتي من المغرب. وقديما اشتكى الإمام ابن حزم من هذه العقدة.. وأصاب الأستاذ عبد الرحمان الفاسي في مناقشته قاله ابن تيمية تلك. أما موقف جار الله الزمخشري فتكفى ادانة عياض نفسه له. فقد قال لما بلغه رفض الزمخشري فيما حكاه المقري «الحمد لله الذي لم يجعل على بدا لمبتدع أو فاسق».

وأخيرا. فإن كان أحسنا صنعا فيما بذلناه من جهود فذاك ما نود أولا فيكفي أننا اسهمنا. بلبنة في هذا الهرم الشامخ. ولله الحمد رب السماوات ورب الأرض رب العالمين وله الكبرياء في السموات والارض وهو العزيز الحكيم . وهو حسبنا ونعم الوكيل.

القاضي عياض مفسرا

الدكتور حسن الوراكلي

بسم الله الرحمن الرحيم

القاضي عياض مفسرا

ظهرت آثار القاضي أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي (476 هـ - 1083م ، 544 هـ - 1149) ، على مدى القرون والأعصار، باهتمام العلماء . وعناية المتعلمين، يرويها أولئك ويقرأونها في حلقاتهم، ويكب هؤلاء على استنساخها ويجتهدون في درسها، ومن ثم كان لتلك الآثار، على تنوعها، هذا الذكر الذي لم ينقطع منذ أن أخرجها مؤلفها لطلبة العلم وأهله في النصف الأول من القرن السادس الهجري وأذاعها في تلامذته الذين سعدوا بالتحلق حوله في مجلس للدرس والتحصيل، ثم تولى العلماء، من بعده، جيلا بعد جيل، إذاعتها، معرض نبوغ ومجتلى عبقرية، لم يملك معهما الذين دأبوا جهلا أو تجاهلا - استصغار الاسهام المغربي في إغناء حياة المسلمين العقلية والفكرية إلا أن يذعنوا ويقروا. وما أحسب إلا أن هذا الذكر سيتصل ما حرصت أمة القرآن الكريم والسنة العطر على استيعاب تراثها الغني بالقيم السامية، والمثل العليا، تتمثله، وتأخذ منه قبسا تنور به واقعها، وتصوغ في هديه مستقبلها.

وفي العقدين الأخيرين توفر بعض الباحثين في المغرب والمشرق على دراسة آثار القاضي عياض ونشرها، محققة متونها، معلقة هوامشها، وكان من نتيجة ذلك ان اشتدت العناية بعياض وبتراثه بين طلبة الأقسام العليا في جامعتنا وفي جامعات الشرق والغرب وانصرف غير واحد من هؤلاء إلى إنجاز دراسات (1) في فكر عياض وأدبه. نحن نجهل حظها من الجدة، والطرافة والأهمية. ولعلها حين تعرف طريقها إلى النشر، أن تحقق للبحث العلمي حول عياض بعض ما يسعى إليه من أهداف.

كما كان من نتيجة نشر بعض آثار عياض، موثقة، محققة، أن نشط غير قليل من الباحثين لإعداد دراسات في اهتمامات عياض وإنجازاته المتنوعة في أهم مجالات الثقافة الإسلامية المعروفة على عصره. غير أننا لم نكد نجد في مجموع ما نشر من هذه الدراسات (2) دراسة تفتح باب البحث في اهتمام عياض بالقرآن الكريم في مجالي الدرس والتفسير، وهما مجالان ليس يمكن بحال فصلهما عن المجالات العلمية الأخرى التي نذر عياض حياته لها.

ولا شك أن دراسة تستهدف تقديم عياض للناس مفسرا من شأنها أن تملأ فراغا في الدراسات العياضية، وهذا أقصى ما تطمح إلى تحقيقه هذه الدراسة.

٥ ٥ ٥

نبدأ بطرح هذا السؤال :

هل ألف القاضي عياض في التفسير ؟

الحقيقة أن ما نعرفه لعياض من صفات علمية كانت جميعها تؤهله لأن ينهض للتأليف في ذلك، فقد استطاع، وهو في العقد الثالث من عمره ، أن يحصل على المعارف التي كان القدامى يشترطونها فيمن يتصدى لتفسير القرآن من استظهار له، وإتقان لقراءاته ومعرفة بعلومه، وتعمق في درس مجاميع الحديث

---

1) منها ما قدم لنيل شهادة الماجستير أو الدكتوراه في آداب برشلونة، وغرناطة، والقاهرة، والأزهر، ودار الحديث الحسنية. وقد أحلنا عليها جميعها في البيوبليوغرافيا التي أعددناها عن القاضي عياض.

2) انظر مجلة الإيمان (عدد خاص عن القاضي عياض) السنة الثامنة. العدد 72 ـ 73 (صفر وربيع النبوي 1398 ـ يناير وفبراير 1978).

وانظر المناهل (عدد خاص بالقاضي عياض) العدد 19 ـ السنة السابعة. صفر 1401 ـ دجنبر 1980.

ومسانيده، واطلاع واسع على علوم اللغة من نحو، وصرف، واشتقاق، وعلوم البلاغة من معان، وبيان، وبديع، وتضلع في الفقه وأصوله، وعلم الكلام ومذاهبه، وتمكن من التاريخ والاخبار، والسير، هذا إلى ما عرف به من إحساس مرهف، وذوق رفيع، وقدرة بالغة في سبر النص الأدبي واستبطانه.

كما أن ما نعرفه عن النشاط الذي تميزت به حركة التأليف في التفسير، والقراءات وعلوم القرآن في المغرب الإسلامي ولا سيما الأندلس على عصر عياض (3) كان من شأنه أن يستحثه، وهو من نعرف سعة اضطلاعه في علوم الالة، والرواية، على التأليف في ذلك.

ومع هذا وذاك فلم يثبت لدينا أن عياضا خص التفسير بكتاب، أو أفرد علما من علوم القرآن بتصنيف.

والسؤال الثاني الذي نطرحه، هو :

هل خلق القاضي عياض للتفسير ؟

الحقيقة، أيضا، أن مواهب عياض العلمية، واشتغاله بالإقراء والتدريس، مما كان يؤهله قبل غيره من علماء سبتة في عصره، للجلوس لتفسير القرآن، لكننا لسنا نملك نصا صريحا بذلك، والذين ترجموا له يلوذون جميعهم بالصمت ازاء هذا التساؤل، ويكتفي ولده محمد فيما كتبه من تعريف بسيرة والده، وهي التي باتت مرجع الذين ترجموا به فيما بعد، بالإشارة إلى أن والده كان (من حفاظ كتاب الله تعالى، والقيام عليه، لايترك التلاوة له على كل حالة، مع القراءة الحسنة

---

3) إذا كانت الدراسات القرآنية قد بدأت تزدهر في الأندلس منذ فترة مبكرة من حياتها العلمية والفكرية فإنها قد بلغت أوجها في القرنين الخامس والسادس، ففي أولهما لم تعد العناية بالتأليف في تفسير القرآن وعلومه مقصورة على شيوخ العلم، بل شاركهم فيها بعض الرؤساء والولاة من أمثال محمد بن أحمد بن صمادح التجيبي (تـ 419 هـ ـ 1028م) الذي اختصر تفسير الإمام الطبري، ومجاهد العامري (تـ 436 هـ ـ 1055م) الذي نفقت بإمارته في دانية سوق القرأة لما كان هو من ألمتها كما يقول ابن خلدون (المقدمة : 365). أما في القرن السادس فقد عرفت المكتبة القرآنية في الأندلس إسهامات هامة على يد عصر أبي عياض، وفي مقدمتهم : أبو بكر الطرطوشي (تـ 520 هـ ـ 1126م) وابن عطية المحاربي (تـ 542 هـ ـ 1147م)، وابن العربي المعافري (تـ 543 هـ ـ 1148م) وقد استوعبنا صورة للاسهام الأندلسي في التفسير في دراسة مفصلة هي من جملة خطياتنا.

المستعذبة، والصوت الجهير، والحظ الوافر من تفسيره، والقيام على معانيه وإعرابه وشواهده وأحكامه وجميع علومه) (4). فإذا أضفنا إلى ذلك أن الرجل كان (محبا في طلبة العلم، محرضا لهم على طلبه، مسهلا لهم الطرائق) (5) لم نستبعد جلوسه لتفسير القرآن وتدريس علومه وأحكامه.

على أننا لسنا نقطع برأي في تاريخ جلوسه لذلك، هل كان قبل رحلته العلمية إلى الأندلس سنة سبع وخمسمائة (6)، أم بعد عودته منها في السنة الموالية (7).

المعروف أن عياضا كان، قبل أن يترك مسقط رأسه، استكمل ثقافته القرآنية، والحديثية واللغوية، والفقهية (8)، وهو أمر نتصور معه استواء شخصية عياض العلمية ونضجها، ومن شأن هذا الاستواء والنضج أن يحملا صاحبه على الجلوس للإقراء والتعليم. أما بعد عودته من الأندلس فالظن بهذا الجلوس يقوى ويترجح، وإذا كان أهل بلده قد سارعوا على اثر عودته من الأندلس فأجلسوه للمناظرة عليه في المدونة (9) فإننا لا نستبعد بأية حال أن يكون الرجل اتخذ له منذ ذلك التاريخ مجلسا بجامع سبتة لتدريس العلوم والمعارف التي كان تم له اتقانها وضبطها بلقاء شيوخ العلم بالأندلس، ويغلب على الظن أن يكون القرآن تفسيرا، وقراءة، وأحكاما، في مقدمة ما عني عياض بتلقينه للطلبة الذين كانوا يتحلقون حوله، ويجلسون للأخذ عنه.

وفي ضوء الإجابة عن السؤالين المتقدمين، وبعيدا عن الافتراضات والتخمينات، نلقي أنفسنا بإزاء حقيقتين لا مراء فيهما.

---

4) انظر، التعريف بالقاضي عياض : 4.
5) نفسه : 5.
6) نفسه : 6.
7) نفسه : 10.
8) انظر، مقدمة الأستاذ محمد بن تاويت لكتاب ترتيب المدارك، 1 : و - ز - ح.
9) انظر، التعريف بالقاضي عياض : 10.

أولاهما : أن عياضا لم يؤلف في التفسير أو في علوم القرآن الأخرى كتابا بعينه.

وثانيتهما : أنه لم يثبت لدينا، بصفة قطعية، جلوسه للتفسير ، وتلقين القراءات، ومعاني القرآن وأحكامه، في سبتة أو في غير سبتة من المدن الأندلسية أو المغربية التي قدر له الإقامة بها.

ومع ذلك فإن غير واحد من مترجميه نوه ببراعته في تفسير القرآن، وأشاد بتمكنه من علومه فهذا ولده يذكر ما كان لوالده من الحظ الوافر من تفسير القرآن (والقيام على معانيه واعرابه وشواهده وأحكامه، وجميع أنواع علومه) (10). وهذا ابن فرحون يقول عنه أنه كان (عالما بالتفسير وجميع علومه) (11)، بل إننا نجد بعض من عني من المؤلفين القدامى والمحدثين بتصنيف المفسرين والتأليف في طبقاتهم يدرج عياضا ضمنهم، فهذا الحافظ شمس الدين محمد الداودي (12) يترجم به في معجمه الذي جمعه في محدثي المغرب الأقصى ومفسريه وقرائه (13).

ومهما يكن من أمر فإننا مقتنعون بأن كتب الطبقات ومعاجم الرجال التي ترجمت لعياض لن تمدنا بنفع كبير فيما نحاوله من رسم لملامح عياض المفسر، ونحن مدركون بأنه ليس كنتاج الرجل نفسه مصدر نجمع ما تبعثر في صفحاته من ملامح صورة عياض المفسر وأجزائها، ثم نجتهد في تركيبها والتأليف بينها.

ولعل كتابه «الغنية» وهو معرض لمعارف شيوخه، ومقروءاته، ومروياته عنهم، أن يكون في طليعة مانفيد منه من انتاج عياض في استكشاف الموارد التي استقى منها ثقافته الواسعة في علوم القرآن من تفسير، وقراءات، وأسباب نزول، وناسخ ومنسوخ، وإعراب، وأحكام، وغير هذا وذاك من أنواع العلوم القرآنية، ونحن نتمثل هذه الموارد في شخصيات شيوخه الذين اشتهروا بحذقهم لتلك العلوم، وكان لهم،

(10) انظر، المصدر نفسه : 4.

(11) انظر، الديباج المذهب : 168.

(12) انظر، الداودي، طبقات المفسرين، 2 : (18 ـ 22).

(13) انظر، معجم المحدثين والمفسرين والقراء بالمغرب الأقصى : 28.

فيما نقدر، تأثير، تختلف نسبته من شيخ إلى آخر، في تكوين عياض العلمي في هذا الميدان، كما نتمثلها ـ أي الموارد ـ فيما قرأه عليهم من كتب التفسير، أو رواه عنهم من مصنفات في علوم القرآن.

أما شيوخ عياض وأساتذته في التفسير وعلوم القرآن من السبتيين والطرأة على سبتة أو من الأندلسيين فهم :

1 ـ محمد بن سليمان النفزي (توفي 525 هـ ـ 1130م)، كان من مشاهير مدرسي الأدب، والنحو، والحديث، والغريب (14) في العقود الأخيرة من القرن الخامس، والأولى من السادس. قرأ عليه عياض بعض تصانيف أحمد بن عمار المهدوي في القراءات من مثل : (الهداية)، و (التحصيل)، و (التفصيل) (15).

2 ـ القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله المعافري المعروف بابن العربي (توفي 543 هـ ـ 1148م) وهو أحد أعلام الأندلسيين الذين تألق بأسمائهم تاريخ التفسير في الأندلس خلال النصف الأول من القرن السادس الهجري، وله في المكتبة القرآنية، أحكام القرآن، وقانون التأويل، وناسخ القرآن ومنسوخه. ومع أن القاضي عياض لا يذكر فيما ذكر من الكتب التي حدثه بها ابن العربي وقرأها عليه سواء في سبتة أو في اشبيلية وقرطبة مؤلفاته حول القرآن، إلا أنه ليس من المستبعد أن يكون عياض انتفع بها، وأفاد منها سيما وأنه يشهد بما في مؤلفات ابن العربي من ملاحة، وحسن، وفائدة، مما يدل على أنه اطلع عليها، وذلك حين يقول : (وصنف ـ أي ابن العربي ـ في غير فن تصانيف مليحة كثيرة، حسنة، مفيدة) (16).

3 ـ محمد بن عبد الله الموروزي (توفي 500 هـ ـ 1106م)، كان ـ كما يصفه عياض ـ (قائما بعلم القراءات واختلاف القراء) (17)، وقد أمضى عمره يقرىء القرآن بسبتة، يقول عياض : (قرأت عليه القرآن عدة ختمات) (18).

---

(14) انظر، الغنية : 127.

(15) نفسه : 128.

(16) نفسه : 135.

(17) نفسه : 159.

(18) نفسه : 159.

4 ـ محمد بن عقال السرقسطي، يصفه عياض بـ (المقرىء) (19) مما يدل على حذقته للقراءات وبراعته فيها. ويذكر أنه جالسه كثيرا وحدثه بكتاب أبي الليث نصر بن محمد السمرقندي الواعظ المفسر، المسمى بكتاب «تنبيه الغافلين» (20).

5 ـ محمد بن أحمد الأموي (توفي 512 هـ ـ 1118م) وقد وصفه عياض بـ (المقرىء) كذلك مما يدلنا على اشتهاره بالاطلاع الواسع في هذا العلم. وذكر انه أخبره بكتاب أحمد بن عمار المهداوي المسمى بـ (الهداية) وهو في القراءات السبع (21).

6 ـ أحمد بن عبد الله بن أحمد بن طريف بن سعد (توفي 520 هـ ـ 1126م) كان من أهل البلاغة، عارفا بالأدب والنحو واللغة (22). لقيه عياض بقرطبة، وكان مما أخبره به كتاب «الفتاح» في القراءات من تأليف ابن عبد الوهاب (23).

7 ـ أحمد بن محمد بن غلبون الخولاني المعروف بابن الحصار (508 هـ ـ 1114م) لقيه باشبيلية وأجازه جميع رواياته وناوله بعضها. ومنها جميع روايات وتآليف أبي عمرو الداني رأس مدرسة القراء في النصف الأول من القرن الخامس بالأندلس (24).

8 ـ أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الحق الخزرجي (توفي 511 هـ ـ 1117م) قال عنه عياض : (أحد شيوخ القراء بجامع قرطبة المتصدرين. الأعلياء السند (25) ومن شيوخه : مكي بن أبي طالب الذي اثرى المكتبة القرآنية في الغرب

---

19) نفسه : 159.
20) نفسه : 159.
21) نفسه : 160.
22) نفسه : 172.
23) نفسه : 172.
24) نفسه : 173.
25) نفسه : 184.

الإسلامي في النصف الأول من القرن الخامس للهجرة بما ألفه في علم القراءات والتفسير. ولا يحدد عياض مقروءاته على هذا الشيخ أو مروياته عنه. فهو يكتفي بالقول (لقيته بقرطبة وجالسته (26) لكنها. على أية حال. لن تكون شيئا آخر غير ما يتصل بالتفسير والقراءات وخلافات القراء.

9 ـ أبو علي الصدفي (توفي 514 هـ ـ 1120م) وقد أورد عياض قائمة بمسموعاته عليه. وفيها كتاب «الناسخ والمنسوخ» لهبة الله بن سلامة البغـــدادي حدثه به عن الشيخ أبي محمد التميمي الحنبلي، عن مؤلفه (27) والغالب على الظن أن يكون عياض انتفع بما كان عند شيخه هذا من مروياته عن أساتذته الذين اشتغلوا بالتفسير وألفوا فيه من مثل : أبي بكر الطروطوشي (28).

10 ـ خلف بن ابراهيم بن خلف بن سعيد (توفي 511 هـ ـ1117م)، كان بعبارة عياض (زعيم المقرئين بقرطبة) (29) (وإليه كانت الرحلة في علم القراءات في وقته) (30) ويذكر عياض أنه حدثه بتفسير النقاش المسمى «شفاء الصدور». وناوله كتاب «طبقات القراء» لأبي عمرو الداني المقرى (31).

11 ـ عبد الله بن ادريس بن سهل المقرىء (توفي 515 هـ ـ 1121م)، قرأ عليه عياض القران برواية نافع. وابن كثير. وأبي عمرو. وابن عامر بطرقها (32).

12 ـ عبد الرحمن بن محمد بن عتاب (توفي 520 هـ = 1126م)، كان (قرأ القرآن بالسبع مقارىء على أبي محمد ابن شعيب، وجوده وأقرأه مدة) (33). وكان

---

26) نفسه : 184.

27) نفسه : 196.

28) نفسه : 193، هذا وللطرطوشي اثران في التفسير، هما : مختصر تنسير الثعالبي، وكتاب «المجالس» في التفسير. ونحن بصدد اعداده للنشر بحول الله.

29) نفسه : 209.

30) نفسه : 210.

31) نفسه : 210.

32) نفسه : 218.

33) نفسه : 223.

عالما بكثير من التفسير وغريبه ومعانيه (34). وعليه قرأ عياض كتاب «الناسخ والمنسوخ» لأبي محمد مكي المقرىء حدثه به عنه وسمع عليه جزءا من تفسير عبد الرزاق بن همام الصنعاني وأجازه باقيه وبعد ان ذكر عياض سنده في هذا السماع، قال : (ولنا فيه أي تفسير عبد الرزاق - أسانيد أخر) (35). وحدثه، كذلك بتواليف ا بن أبي زمنين (36). ومنها على ما هو معروف، تفسيره ومختصره لتفسير ا بن سلام (37).

13 - علي بن أحمد بن خلف الأنصاري المعروف با بن البيذش (توفي 523 هـ = 1133م). (قرأ القرآن والنحو على جماعة من أئمة هذا الشأن) (38). ومع تصدره وتقدمه لم (يقطع الطلب والسماع والرحلة، سمع معنا على الشيوخ، وكان يقرأ على المقرئين ما فاته من روايات (39) ومع أن عياضا لا يسمى ضمن مقروءاته علي ا بن البيذش من كتب القراءات، أو لغات القرآن، إلا أن اشتهار الرجل بضبط هذا العلم وإتقانه حتى رحل إليه الناس في طلبه (40)، وعد شيخ المقرئين والرواة في علم القرآن، والقراءات واللغات بغرناطة (41)، مما يقوي ظننا بانتفاع عياض به في هذه العلوم وإفادته منه.

14 - علي بن محمد بن دري الأنصاري (توفي 520 هـ = 1126م)، كان من المشهود لهم بالتقدم في القراءات والنحو، اشتغل بتدريس القراءات والتأليف فيها حتى انتهت إليه رئاستها بغرناطة (42). قرأ عليه عياض في سبتة القرآن برواية

---

34) انظر، الداودي، طبقات المفسرين، 1 : 285. ترجمة رقم 269.

35) الفنية : 224.

36) نفسه : 224.

37) انظر، الداودي، طبقات المفسرين، 2 : 161.

38) الفنية : 238.

39) نفسه : 239.

40) نفسه : 239.

41) نفسه : 238.

42) نفسه : 241.

ابن عامر، ثم عاد فلقيه بغرناطة وسمع منه بعض كتابه في مخارج الحروف، وحدثه بجميعه (43).

15 ـ عيسى بن محمد بن عبد الله بن عيسى بن مؤمل الزهري (توفي 530 هـ = 1135م)، لقيه عياض بسبتة مرات، وأخبره بكتاب (الوقف والابتداء لابن النعاس، وبكتابه الآخر المسمى «معاني القرآن» سماعا منه إلا ما فاته منه (44).

16 ـ غالب بن عطية المحاربي (توفي 518 هـ = 1124م)، تصدر في غرناطة للتدريس والاسماع والتفسير، وأخذ عنه الناس كثيرا، وانتفعوا به (45)، وقد لقيه عياض بسبتة، ثم تكرر لقاؤه به في قرطبة. يقول عياض : (وفاوضته كثيرا، وسمعت من لفظه فوائد) (46) أغلب الظن أنه كان منها ما يتعلق بالتفسير والقراءات.

والمتأمل في معارف هؤلاء الشيوخ جميعا يجدها تتمحور بالأساس، على القرآن وتفسيره، وقراءاته وناسخه ومنسوخه، وما يتصل بذلك أو يتفرع منه، ولا شك أن لقاء عياض لهؤلاء الشيوخ وجلوسه إليهم، أسهم في تكوين جانب من شخصيته العلمية، هو هذا الجانب الذي نحاول تجليته والكشف عنه في هذه الدراسة.

أما الكتب التي قرأها على هؤلاء الشيوخ أو حدثوه أو التي أجازه إياها بعض أعلام العلماء الأندلسيين (47) والمشارقة (48) ممن اشتهر بالتضلع في التفسير والقراءات فيمكن تصنيفها.

---

(43) نفسه : 241.

(44) نفسه : 249 ـ 250.

(45) نفسه : 254.

(46) نفسه : 254.

(47) من هؤلاء :

أ ـ أبو بكر الطرطوشي (توفي 250 هـ ـ 1126م) الذي كتب إليه بجميع رواياته وتآليفه ومنها : اختصاره لتفسير ابن سلام، وتفسيره المسمى (المجالس). (الغنية : 283).

أ ـ أبو سعيد حيدر الجيلي (توفي 530 هـ = 1135م) أجازه جميع روا ياته، وفيها تفسير الثعالبي، وتفسير الواحدي (الغنية 206 ـ 207).

ب ـ علي بن المشرف الأسكندراني (توفي 519 هـ = 1125م) كتب إليه بإجازة جميع روا ياته، ومن ذلك تفسير عبد الرزاق الصنعاني. (الغنية : 244).

على النحو التالي :

أ ـ القرآن بعدة قراءات.

ب ـ كتب القراءات وهي : كتاب «الهداية» في القراءات السبع من اختصار أحمد بن عمر المهدوي وكتاب «التحصيل» و «التفصيل» للمهدوي و «المفتاح» لا بن عبد الوهاب، و «طبقات القراء» لأبي عمرو الداني، و «مخارج الحروف» لا بن درى الأنصاري، و «الوقف والابتداء» لا بن النحاس، و «الجامع الكبير» المشتمل على ألف وخمسمائة روا ية لأبي معشر الطبري، و «التلخيص» للمؤلف نفسه.

ج ـ كتب التفسير وهي : «اختصار تفسير الثعالبي» للطرطوشي، و «تفسير القرآن» للواحدي، و «تفسير القرآن» عبد الرزاق الصنعاني، و «تفسير القرآن» لعبد المالك الثعالبي، و «تفسير القرآن» المسمى «شفاء الصدور» للنقاش و«معاني القرآن» لأبي جعفر النحاس.

د ـ كتب الناسخ والمنسوخ وهي : «الناسخ والمنسوخ» لأبي محمد مكي المقرىء و «الناسخ والمنسوخ» لهبة الله البغدادي.

ومن المؤكد أنه قد أتيح لعياض أن يقرأ في غير هذه الكتب من مصادر التفسير والقراءات وعلوم القرآن ويفيد منها فيما كتب وألف على نحو ما سنبين بعد، بل اننا قد نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول. بأن شغف عياض بالقرآن

ب ـ شريح بن محمد الرعيني المقرى (توفي 539 هـ ـ 1144م) كتب إليه بإجازة جميع رواياته ومقروآته، ومنها تصانيف أبيه في القرآن، وقد أثنى عياض عليها (الغنية : 273).

48) ومن هؤلاء :

ج ـ علي بن أبي القاسم المهدوي، أجازه جميع رواياته، ومن ذلك في القراءات : الجامع الكبير، وكتاب التلخيص لأبي معشر الطبري. (الغنية ـ 248).

وتفاسيره كان يحمله حملا على استقصاء ما كانت تعرفه المكتبة القرآنية إلى عصره من تراث في التفسير على اختلاف نزعة مؤلفيه، وتباين اتجاهاتهم، وذلك ما سنلمح جوانب منه في مواضع أخرى من هذه الدراسة.

على أننا يمكن أن نضيف إلى هذه الكتب، التي نص عياض في فهرسته أنه قرأها أو رواها عن شيوخه في القرآن وعلومه، مقروءاته من صحاح الحديث ومجاميعه، من مثل صحيح البخاري وصحيح مسلم، لما أفرده فيها مصنفوها من أبواب أدرجوا فيها كثيرا من التفسير المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (49)، بل لأن مجموع محتوياتها من أقواله صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريراته إنما هي تبيان لكتاب الله تعالى أو هي كما يعبر عنها ـ تفسير للقرآن بالسنة.

وبوسعنا أن نضيف إلى هذا وذاك من مقروء عياض في التفسير والقراءات وعلوم القرآن الأخرى ومرويه فيها، ما استوعبه الرجل من كتب في اللغة، والنحو، والصرف، والاشتقاق، والبلاغة وهي كما يفيد في الغنية. ومن آثاره الأخرى ك «بغية الرائد» من التنوع والتعدد، والكثرة.

بحيث يمكن القول بأنها تمثل جل الإسهامات الأندلسية والمشرقية وأهمها، إلى عصر عياض في ميدان الدرس اللغوي، والنحوي، والبلاغي.

ولعلنا من خلال هذا العرض الذي لا نزعم له الاستيفاء، لمعارف شيوخ عياض في التفسير والقراءات، ولما استوعبه على أيديهم من الأمهات المؤلفة في هذين العلمين أو فيما له مسيس اتصال بهما، نستطيع أن نتصور مبلغ ما كان لأولئك الشيوخ من أثر بعيد في ثقافة عياض القرآنية، ليس من قبل الافتراض في شيء القول بأنه ـ أي الأثر ـ كان هو الدافع لعياض على أن ينذر القرآن الكريم حظا غير يسير من وقته يقرأه ويقرئه، ويجرى قلمه بما فيه من معان، وبيان وأحكام، وفي ذلك جميعه بعض من هذه الملامح التي نريد أن نؤلف بينها في محاولة لتبين صورة عياض المفسر.

---

49) انظر صحيح البخاري : 146 وما بعدها. وانظر صحيح مسلم : 152.

وما سنحاوله من جمع لملامح أخرى في هذه الصورة إنما سنعتمد فيه، أيضا، تراث الرجل نفسه، والمعروف أن في هذا التراث كتبا لم يرد بها عياض حين ألفها إلى تفسير القرآن، ولكن طبيعة موضوعاتها من جهة، وهي إما في السيرة أو في الحديث أو في الفقه، وسعة ثقافة مؤلفها القرآنية، من جهة ثانية، جعلا لها حظا من القرآن وتفسيره وعلومه تتفاوت نسبته فيما بينها، على أن أحفل كتبه بذلك وأوفرها حظا هو كتاب «الشفا» وهو كتاب ـ كما لانحتاج أن نذكر ـ ماهدف به مؤلفه إلى اجتلاء الملامح العقدية، والخلقية، والنفسية، والاجتماعية لشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم. وحقا ان عياض توسل في إنجاز ذلك بما كان له من معارف متنوعة في الحديث، والسيرة، والمغازي، والأخبار، والكلام، والفقه . ولكن اعتماده بالدرجة الأولى لم يكن على أي من هذه العلوم، بل كان على القرآن، فمن خلال عشرات بل بضع مآت من أي الكتاب الكريم استطاع عياض أن يستكشف شخصية الرسول الأعظم في بعدها العقدي والخلقي، وفي أفقها النفسي والاجتماعي، ومن هنا فقد وقع لنا في (الشفا) شيء غير يسير من التفسير، لاشك عندنا أنه كان في طليعة مزايا الكتاب، وخصائصه العلمية التي لفتت إليه الأنظار، ومكنت له في حلقات الدرس، وإلى ذلك يلمح الشيخ أبو محمد عبد النور العمراني في بيت من جملة أبيات يشيد فيها بـ «الشفا» :

وقدم آيات الكتاب التي بها سما قدره فوق السماكين والنسر (50)

وكان السلطان أبو عنان المريني (توفي 759 هـ = 1357م) ممن استرعى انتباههم في «شفاء» عياض جانبه التفسيري فأصدر أمره بإدراجه ضمن كتب التفسير التي كانت تدرس بجامعة القرويين ومنها تفسير الثعالبي (51).

ومع إقرارنا بأن وفرة المادة القرآنية والتفسيرية المبثوثة في مختلف فصول «الشفا» جعلت الكتاب أشبه شيء بتفسير جزئي للقرآن فإننا ينبغي أن نبادر إلى القول بأن هذه المادة، على وفرتها، ليست تكفي فيتبين منهج عياض في التفسير

(50) انظر، أزهار الرياض : 281.

(51) انظر، عبد الهادي التازي، تاريخ جامعة القرويين 2، 372.

على نحو مفصل، مستوفى، ولكنها على أية حال مسعفة في تأليف صورة لعياض المفسر، مهما يلاحظ فيها من ثغرات فإنها لاتخلو، في تقديرنا من فائدة.

مصادر عياض المفسر :

إن مؤلفا مثل عياض في الاطلاع الواسع على مختلف المعارف والعلوم، والإحاطة الشاملة بما ألف فيها وكتب، حقيق بأن يكون نتاجه مرآة لثقافته ومعرفته، ومن يقرأ صفحات التفسير في «الشفا» يلف نفسه بإزاء مؤلف بقدر ما استوعب وتمثل ما كانت تحويه المكتبة القرآنية على عصره من كتب في التفسير، وتأليف في القراءات، وتصانيف في علوم القرآن، استوعب وتمثل كذلك ما كانت مختلف المكتبات العلمية تحويه من أمهات الحديث، وصحاح العربية وأصول الفقه والكلام وغير ذلك.

ونحب في هذه الفقرة أن نكشف عن بعض المصادر التي أفاد منها عياض في تفسيره ونقل عنها، وهي كثيرة، ومتنوعة بعضها في التفسير، والقراءات وبعضها في الحديث وبعضها في علوم أخرى.

أ ـ مصادر التفسير :

يمكن أن نميز في هذه المصادر أنواعا ثلاثة :

أولا ـ مفسرون عرفوا بكتب لهم في التفسير، ذكر أسماءهم، ونسب إليهم بعض منقوله من الأقوال والآراء، ولكنه لم يسم كتبهم التي رجع إليها في ذلك، وليس من تعليل لهذا، في رأينا، إلا أن عياضا كان يرى في ذكر أسماء هؤلاء المؤلفين ما يغني عن ذكر أسماء مؤلفاتهم لشهرتها بين جمهور العلماء والمتعلمين، وانصراف الفكر إليها كلما ذكرت أسماء أصحابها مقرونة بنقول في موضوعات كتبهم، وعلى هذا فإن عياضا لم يجد أي حرج في ذكر أسماء العلماء الذين ينقل عنهم وإغفال عناوين كتبهم، وكذلك نجده يفعل في مواضع متعددة من كتب له أخرى من مثل «مشارق الأنوار» و «بغية الرائد».

هؤلاء المفسرون هم :

1 ـ البصري وهو أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن البصري (توفي 110 هـ ـ 729م) ذكر ابن النديم في ترجمته أن له كتابا في تفسير القرآن قال : رواه عنه جماعة (52).

2 ـ بكر بن محمد بن العلاء، كنيته أبو الفضل (توفي 344 هـ ـ 955م) من كبار فقهاء المالكية بمصر في القرن الرابع. ألف كتبا جليلة. منها كتاب «أحكام القرآن» وكتاب «مافي القرآن من دلائل النبوة» (53).

3 ـ الثوري، وهو أبو عبد الله سفيان بن سعيد (توفي 161 هـ ـ 773م) له كتاب في التفسير روي عنه (54).

4 ـ الزجاج، وهو أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل (توفي 311 هـ ـ 923م) أحد مشاهير علماء اللغة والنحو ببغداد من كتبه «معاني القرآن» (55).

5 ـ زيد بن أسلم، وهو الإمام أبو عبد الله العمري (توفي 136 هـ ـ 755م) له تفسير يرويه عنه ولده عبد الرحمن (56).

6 ـ السلمي، وهو عبد الرحمن محمد بن الحسين (57) (توفي 412 هـ ـ 1021م) له كتاب سماه «حقائق التفسير» قيل فيه أنه ملأه بتأويلات ومحامل للصوفية ينبو عنها ظاهر اللفظ (58).

7 ـ السمرقندي، وهو نصر بن محمد بن أحمد بن ابراهيم (توفي 375 هـ ـ 393م) (1985 ـ 1002م)، من مصنفاته تفسير القرآن العظيم (59).

---

(52) انظر، الداودي، طبقات المفسرين، أ : 147 ترجمة رقم 144. وانظر الشفا، 2، : 34.

(53) انظر، طبقات المفسرين، 1، : 118 ـ 120 ترجمة رقم 112. وانظر، الشفا، 2، : 173.

(54) انظر، طبقات المفسرين، 1، : 186 ـ 190 ترجمة رقم 186، وانظر الشفا، 2، 14.

(55) انظر، طبقات المفسرين، 1 : 7 ترجمة رقم 10. وانظر الشفا، 1 : 25.

(56) انظر، طبقات المفسرين، 1 : 176. ترجمة رقم 175، وانظر الشفا، 1 : 20.

(57) انظر، طبقات المفسرين، 2 : 137 ـ 139. ترجمة رقم 484. وانظر الشفا، 1 : 14 ـ 25.

(58) انظر طبقات المفسرين، 2 : 139.

(59) نفسه ، 2 : 345. ترجمة رقم 658، وانظر، الشفا، 1 : 14، 2، 126، 170، 177، 194، 208.

8 ـ الضحاك، وهو أبو القاسم الضحاك بن مزاحم الهلالي، توفي بعد المائة من الهجرة، له تفسير روي عنه (60).

9 ـ الطبري، وهو أبو جعفر محمد بن جرير (61) (توفي 310 هـ ـ 922م) له كتاب في التفسير سماه «جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ضمنه تفسير الصحابة والتابعين والسلف الأول، كما ضمنه آراءه وترجيحاته.

10 ـ ابن عباس، وهو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي الصحابي الجليل (62) (توفي 63 هـ ـ 687م)، ومكانته في التفسير أشهر من أن يعرف بها. وينسب إليه كتاب في تفسير القرآن مطبوع باسم «تنوير المقياس من تفسير ابن عباس».

11 ـ ابن فورك، وهو أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك الأصفهاني (63) (توفي 406 هـ ـ 1015م)، ألف كتبا كثيرة في الحديث والتفسير، منها «معاني القرآن».

12 ـ قتادة، وهو أبو الخطاب بن دعامة البصري (64) (توفي 118 هـ ـ 737م)، وصفه ابن حنبل بالعلم في التفسير والفقه. وله تفسير روي عنه.

13 ـ القشيري، وهو أبو القاسم عبد الكريم بن هوزان (65) توفي 465 هـ ـ 1072م) صنف في الحديث، والتصوف، والتفسير. وقيل عن كتابه في التفسير انه من أجود التفاسير وأوضحها (66).

---

60) انظر، طبقات المفسرين، 1 : 216، ترجمة رقم 211، وانظر، الشفا، 2 : 106، 114، ترجمة رقم 463، وانظر الشفا، 1 : 73، 146، 2 : 58، 169، 173.

61) انظر طبقات المفسرين،

62) انظر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، 3 : 933 ترجمة رقم 1588.

63) انظر، طبقات المفسرين، 2 : 129، ترجمة رقم 478، وانظر الشفا، 1 : 171، 2 : 175.

64) انظر، طبقات المفسرين، 2 : 43، ترجمة رقم 415، وانظر، الشفا، 1 : 35.

65) انظر، طبقات المفسرين، 1 : 338 ـ 346 ترجمة رقم 302 وانظر الشفا، 1 : 198، 2 : 116، 169، 170، 171.

66) انظر، طبقات المفسرين، 1 : 344.

14 ـ الماوردي، وهو أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (67) (توفي 459 هـ ـ 1058م)، عنى بالتأليف في التفسير، وله فيه كتاب سماه «النكت».

15 ـ مجاهد بن جبر (68) (توفي في أول المائة الثانية) له تفسير مشهور، منه نسخة مخطوطة بدار الكتب العصرية، وهو من مصادر الطبري الرئيسية.

16 ـ مكي بن أبي طالب (69) (توفي 407 هـ ـ 1016م)، غلب عليه علم القرآن وصنف فيه كتبا هامة منها : «الإيجاز في اعراب القرآن» و «اللمع» و «الموجز» و «التبصرة» في القراءات و «الهداية» في التفسير، وكتاب «المأثور عن مالك في أحكام القرآن»، وتفسيره في عشرة أجزاء.

17 ـ النقاش، وهو أبو بكر محمد بن الحسن بن محمد الموصلي البغدادي (70) (توفي 351 هـ ـ 962م) معدود في كبار المقرئين والمفسرين، ومن آثاره في ذلك : «الإشارة في غريب القرآن» «وشفاء الصدور» في تفسير القرآن.

18 ـ الواسطي، وهو أبو معاوية هشيم بن بشير (71) (توفي 183 هـ ـ 800م) ألف في السنن والمغازي، وله تفسير يرويه عنه أبو هاشم زياد بن أيوب البغدادي.

هؤلاء هم المفسرون الذين نقل عنهم عياض في (تفسيره) دون تسمية مظان منقوله، وهم جميعهم كما رأينا، ذوو اسهامات معروفة في التفسير أو في علوم القرآن الأخرى، ونحن لانستبعد أن يكون عياض أفاد من أصول هذه المظان مباشرة، فمنها.

---

(67) نفسه، 1 : 423 ـ 425 ترجمة رقم 368، وانظر الشفا، 1 : 17، 34، 2 : 102، 107، 111، 126، 170، 171، 193

(68) انظر، طبقات المفسرين، 2 : 305، 308، ترجمة رقم 617، وانظر الشفا، 1 : 74، 2 : 34.

(69) انظر، طبقات المفسرين، 2 : 331 ـ 332 ـ ترجمة رقم 643، وانظر الشفا، 1 : 17، 36 2 : 102، 107، 111، 126، 170، 171، 193.

(70) انظر، السيوطي طبقات المفسرين : 29، وانظر الشفا، 1 : 116، 128.

(71) انظر، طبقات المفسرين، 2 : 352 ـ 353 ـ ترجمة رقم 669 وانظر الشفا، 1 : 32، 33، 45، 2 : 177.

أولا : طائفة كان أهل العلم في المغرب الإسلامي يروونها ويتدارسونها منذ القرن الثالث، ومن ذلك التفسير المنسوب للحسن البصري (72) والتفسير المنسوب لا بن عباس (73) وتفسير الطبري (74). ومنها أيضا تصانيف تأكد لدينا فيما سبق أن عياضا درسها على بعض شيوخه، ونعني بها تصانيف المقرىء المفسر مكي بن أبي طالب (75)، وآثار النقاش في التفسير وخاصة كتابه المسمى «شفاء الصدور» (76) وفيها كذلك طائفة أخرى لم يذكر عياض أنه درسها على شيوخه أو رواها عنهم، ولكننا لانستبعد ذلك لسببين، أولهما : ما نتصوره من حرص عياض على اقتناء مثل هذه التآليف وشغفه بقراءتها. وثانيهما : انها كانت مما يدرس في حلقات التفسير، والقراءات واللغة يومئذ في الأندلس، ويستجيز طلبة العلم شيوخهم فيها، وذلك من مثل معاني القرآن للزجاج (77) ومشكل القرآن لا بن قتيبة (78).

وليس من المستبعد، كذلك أن يكون عياض أفاد بطريقة غير مباشرة، من بعض هذه المصادر ولا سيما تلك التفاسير التي رويت عن بعض أعلام القرن الأول والثاني أمثال : الضحاك وقتادة، ومجاهد، وزيد بن أسلم، وانتهت إلينا، كما انتهت قبلا إلى عياض مدرجة في تفاسير القرون التالية كتفسير ابن جرير الطبري.

مفسرون لم تعرف لهم كتب، وعرفت لهم أقوال وروايات في التفسير، ضمت عليها التفاسير المتأخرة. ومن أكثر أسماء هؤلاء المفسرين وردوا في نقولات

---

(72) دخل هذا التفسير الأندلس مع مطلع القرن الثالث على يد بعض القرطبيين العائدين من الشرق أمثال أبي بكر يحيى المعروف باسم السمنة (توفي 237 : 851م). انظر، تاريخ علماء الأندلس، 2 : 186. ع . 1.

(73) نعرف من رواته في الأندلس أبا زيد عبد الرحمن بن سعيد الجزيري (توفي 265 ـ 878م). انظر، تاريخ علماء الأندلس 1 : 259. 2.

(74) كان من أوائل رواته في الأندلس أبو أيوب سليمان بن محمد بن سليمان الذي عاد من رحلته التي سمع فيها كتب الطبري سنة 337 هـ
انظر، تاريخ علماء الأندلس، 1 : 182. ع 1.

(75) انظر، ص 6، 947 من هذه الدراسة.

(76) انظر، ص 7، 9 من هذه الدراسة.

(77) انظر، فهرسة ابن عطية، لوحة 43 و. (مصورة خاصة).

عياض : علي بن أبي طالب (79) وكعب الأحبار (80) وجعفر بن محمد الصادق (81) والسدى (82) وابن الكلبي (83).

ثالثا ـ مفسرون لم يعين أسماؤهم. الغالب على عياض في (تفسيره) أن يعزو الأقوال والروايات لأصحابها. لكننا وجدناه في بعض الأحيان، يستشهد بأقوال، أو يورد آراء دون أن ينص على أسماء أصحابها. بل كان يكتفي بأن يقدم لها بقوله (قيل) (84) أو أكثر المفسرين على أن...) (85) أو (قال المفسرون) (86) أو (اتفق أهل التفسير ـ أو ـ قال أهل التفسير (87) أو (قال بعض المفسرين) (88). وليس من الميسور تعيين أسماء هؤلاء المفسرين الذين رجع إليهم عياض ولم يصرح بأسمائهم ولكنهم لن يكونوا، بأية حال، من هؤلاء الصحابة والتابعين الذين عنوا بتفسير القرآن وأثرت عنهم في ذلك بعض الأقوال والروايات، أو من مؤلفي التفاسير الجامعة التي كانت متداولة في عصر عياض.

وأياما كانت الحال فإن عياضا أفاد في (تفسيره) من تراث هؤلاء المفسرين، ويمكن تحديد طريقته في هذه الإفادة على النحو التالي :

1 ـ الاستعانة بقول أو رأي المفسر أو المفسرين في إضاءة جوانب الآية أو الآيات على النحو الذي يسهم في بلورة دلائل النبوة كما كان يؤمن بها عياض بوصفه مفكرا سنيا. ونكتفي من الأمثلة الكثيرة بهذا :

(78 نفسه، لوحة 49 ط.

(79 انظر، الشفا، 1 : 11 . 35.

(80 نفسه، 1 : 13.

(81 نفسه، 1 : 15، 25، 29، 41.

(82 نفسه، 1 : 35. 2 : 34.

(83 نفسه، 1 : 11.

(84 نفسه، 1 : 14.

(85 نفسه، 1 : 18، 159.

(86 نفسه، 1 : 35، 73، 74. 2 : 6، 127.

(87 نفسه، 1 : 24، 36، 44، 152.

(88 نفسه، 2 : 93، 125.

(... ومن هذا قوله تعالى : «ألم نشرح صدرك»، إلى آخر السورة. شرح وسع. والمراد بالصدر هنا القلب. قال قال ابن عباس رضي الله عنهما : شرحه بنور الإسلام. وقال سهل بنور الرسالة. وقال الحسن : ملأه حكما وعلما. وقيل : معناه ألم يطهر قلبك حتى لا يقبل الوسواس «ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك». قيل : ما سلف من ذنبك يعني قبل النبوة. وقيل : أراد ثقل أيام الجاهلية. وقيل : أراد ما أثقل ظهره من الرسالة حتى بلغها. حكام الماوردي والسلمي. وقيل : عصمناك ولولا ذلك لأثقلت الذنوب ظهرك. حكاه السمرقندي. ورفعنا لك ذكرك» قال يحيى بن آدم : بالنبوة. وقيل : إذا ذكرت ذكرت معي في قول لا إله إلا الله محمد رسول الله. وقيل : في الآذان والإقامة (89).

وفي ضوء هذه الأقوال والآراء. يصوغ عياض تفسيره للسورة :

(قال الفقيه القاضي أبو الفضل : هذا تقرير من الله جل اسمه لنبيه صلى الله عليه وسلم على عظيم نعمه لديه، وشريف منزلته عنده، وكرامته عليه، بأن شرح قلبه للايمان والهداية، ووسعه لوعي العلم وحمل الحكمة، ورفع عنه ثقل أمور الجاهلية عليه، وبغضه لسيرها وما كانت عليه بظهور دينه على الدين كله، وحط عنه عهدة أعباء الرسالة والنبوة لتبليغه للناس ما نزل إليهم وتنويهه بعظيم مكانه، وجليل رتبته، ورفعة ذكره، وقرآنه مع اسمه) (90).

ثم عاد ليضيء جوانب السورة بأقوال المفسرين :

(قال قتادة : رفع الله تعالى ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. وروي أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : اتاني جبريل عليه السلام، فقال : ان ربي وربك يقول : تدري كيف رفعت ذكرك ؟ قلت : الله ورسوله أعلم. قال : إذا ذكرت ذكرت معي. قال ابن عطاء : جعلت

(89) نفسه، 1 : 14.

(90) نفسه، 1 : 14 ـ 15.

تمام الإيمان بذكرك معي. وقال أيضا : جعلتك ذكرا من ذكرى فمن ذكـرك ذكرني. وقال جعفر بن محمد الصادق : لا يذكرك أحد بالرسالة إلا ذكرني بالربوبية وأشار بعضهم في ذلك إلى مقام الشفاعة) (91).

2 - إيراد أقوال وآراء المفسر أو المفسرين في الآية أو الآيات، ثم تعقبها بالنقد والمناقشة لردها ودحضها، وتقديم الرأي الذي يطمئن إليه لما يحققه من تأكيد لحقائق النبوة ودلائلها ممثلة في شخصية محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام. وهو الهدف الرئيسي الذي ألف عياض من أجله كتابه .

والأمثلة على ذلك غير قليلة. نجتزىء منها بهذا المثال من الفصل الذي عقده عياض حول رؤية النبي صلى الله عليه وسلم لربه عز وجل. وفيه نرى كيف يورد عياض، أولا آراء وأقوال المفسرين في الموضوع انطلاقا من قوله تعالى : **«ماكذب الفؤاد ما رأى، أفتمارونه على ما يرى ولقد رآه نزلة أخرى»**، ونقرأ فيما نقرأ :

(... قال أحمد بن حنبل : رآه بقلبه وجبن عن القول برؤيته في الدنيا بالأبصار. وقال سعيد بن جبير : لا أقول رآه ولا لم يره. وقد اختلف في تأويل الآية عن ابن عباس وعكرمة والحسن وابن مسعود. فحكي عن ابن عباس وعكرمة رآه بقلبه وعن الحسن وابن مسعود : رأى جبريل، وحكى عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه أنه قال : رآه، وعن ابن عطاء في قوله تعالى : ألم نشرح لك صدرك قال : شرح صدره للرؤية، وشرح صدر موسى للكلام. وقال أبو الحسن علي بن اسماعيل الأشعري رضي الله عنه وجماعة من أصحابه : انه رأى الله تعالى ببصره وعيني رأسه...) (92).

---

91) نفسه، 1 : 15.

92) نفسه، 1 : 155.

ثم نراه يتعقب هذه الآراء والأقوال وغيرها مما يجده القارىء في محله من «الشفاء» ينتقد ويناقش، ويرد، معتمدا في ذلك على قدرته العقلية، وثقافته النقلية وفي هذا التعقيب نقرأ فيما نقرأ.

(قال القاضي أبو الفضل وفقه الله : والحق الذي لا امتراء فيه أن رؤيته تعالى في الدنيا جائزة عقلا، وليس في العقل ما يحيلها، والدليل على جوازها في الدنيا سؤال موسى عليه السلام لها، ومحال أن يجهل نبي ما يجوز على الله وما لا يجوز عليه، بل لم يسأل إلا جائزا غير مستحيل، ولكن وقوعه ومشاهدته من الغيب الذي لا يعلمه إلا من علمه الله...) (93) ثم نقرأ :

(وليس في الشرع دليل قاطع على استحالتها ولا امتناعها إذ كل موجود فرؤيته جائزة غير مستحيلة، ولا حجة لمن استدل على منعها بقوله تعالى : «لاتدركه الأبصار» لاختلاف التأويلات في الآية، وإذ ليس يقتضي قول من قال في الدنيا الاستحالة، وقد استدل بعضهم بهذه الآية نفسها على جواز الرؤية وعدم استحالتها على الجملة...) (94) ثم ينتهي عياض إلى هذه النتيجة التي يطمئن إليها

(وأما وجوبه لنبينا صلى الله عليه وسلم والقول بأنه رآه بعينه فليس فيه قاطع أيضا ولا نص إذ المعول فيه على آيتي النجم (95) والتنازع فيهما مأثور والاحتمال لهما ممكن ولا اثر قاطع متواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم بذلك).

وبعد أن يبين ما في الأحاديث المروية في الموضوع والمفسر بعضها للآية من احتمال للتأويل، ومن اضطراب في الإسناد والمتن، ومن إشكال، يقرر في نهاية المناقشة والنقد :

(... فإن ورد حديث نص بين في الباب اعتقد ووجب المصير إليه، إذ لا استحالة فيه ولا مانع قطعي يرده، والله الموفق للصواب) (96).

---

93) نفسه، 1 : 156.

94) نفسه، 1 : 156.

95) يريد قوله تعالى : (ماكذب الفؤاد ما رأى، افتمارونه على ما يرى) النجم 11 ـ 12.

96) انظر، الشفا، 1 : 159.

ب ـ مصادر النحو واللغة والقراءات :

وأفاد عياض في شروحه اللغوية، وإشاراته إلى بعض أوجه الإعراب أو القراءات من أمهات الكتب في هذه العلوم. وهذه أسماء المؤلفين الذين نسب إليهم عياض تلك الشروح والإشارات وهو لم يذكر أسماء كتبهم التي نقل منها لاشتهارها وذيوعها : الأزهري . (97) وثعلب (98) وسيبويه (99) والفراء (100) والمبرد (101) والكسائي (102) ونفطويه (103).

ج ـ مصادر الحديث :

كما رجع عياض في (تفسيره) إلى مجاميع الحديث وصحاحه، وهي صحيح البخاري (104) وصحيح مسلم (105) ومسند أبي داود (106) والنسائي (107) والترمذي (108) وابن حنبل (109) وموطأ مالك بن أنس (110). فضلا عن كتب أخرى في الحديث لمؤلفين مشارقة أمثال أبي جعفر محمد بن عمرو العقيلي (111) وعبد الباقي بن قانع البغدادي (112)، وآخرين أندلسيين أمثال ابن عبد البر

---

(97) نفسه، 2 : 223.

(98) نفسه 1 : 243.

(99) نفسه، 1 : 243.

(100) نفسه، 1 : 76.

(101) نفسه، 1 : 232.

(102) نفسه، 1 : 63.

(103) نفسه، 1 : 204.

(104) نفسه، 1 : 183.

(105) نفسه، 1 : 183.

(106) نفسه ، 1 ، 177.

(107) نفسه، 1 : 66.

(108) نفسه، 1 : 172.

(109) نسفه، 1 : 172.

(110) نفسه، 1 : 154.

(111) نفسه، 1 : 224.

(112) نفسه، 1 : 183.

(113) وأبي الوليد الباجي (114) وأفاد كذلك من مروياته عن بعض شيوخه في الحديث، وفي مقدمتهم أبو علي الصدفي (115).

د ـ مصادر السيرة :

ونظرا إلى ان الآيات التي عني عياض بتفسيرها كانت في غالبيتها مما يتصل بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وشخصيته فإن عياضا كان يفيد في بعض الأحيان من مؤلفي السيرة مثل أبي عبد الله محمد بن إسحاق بن يسار (116) ومحمد بن عمر الواقدي (117) وغيرهما.

هـ ـ مصادر الكلام :

ولما كان الناظر في الآيات المتعلقة بالغيبيات وبالنبوياة مدعوا إلى التزود من علم أصول الدين فقد وجدنا عياضا يفيد من مؤلفات الأصوليين والكلاميين أمثال الأشعري (118) والباقلاني (119)، وابن فورك (120) والاسفرائيني (121) والجوريني (122).

منهج عياض في التفسير :

ليس من اليسير في شيء استخلاص صورة جلية لـ (منهج) عياض في التفسير من خلال ما تناوله في «الشفا» ـ وهو عمدتنا في هذه الدراسة ـ من آيات، هي وإن كانت كثيرة العدد إلا أنها ليست تمثل من مجموع آيات المصحف إلا ما يقرب

---

(113) نفسه، 1 : 154.
(114) نفسه، 1 : 163.
(115) نفسه، 1 : 173، 197.
(116) نفسه، 1 : 122.
(117) نفسه، 1 : 123.
(118) نفسه، 1 : 124.
(119) نفسه، 1 : 153.
(120) نفسه، 1 : 167.
(121) نفسه، 1 : 159.
(122) نفسه، 1 : 128.

من عشرها (123) فضلا عن أنها تكاد تكون جميعها مقصورة على موضوع واحد من موضوعات القرآن وهو موضوع النبوة والأنبياء وما يتصل به من المعجزة، والعصمة، وما إلى ذلك، ومن هنا فإن ما سنحاول تقديمه في هذه الفقرة هو أشبه بالخطوط العامة و (التقريبية) منه بالصورة ذات الملامح البينة والجلية لما دعوناه بـ (منهج عياض في التفسير، لكن تلك الخطوط على (عموميتها)، تظل، برأينا، دالة على مجموع ملامح الصورة وتقاسيمها...

ترى، أي منهج كان عياض يصطنع لو أنه كتب تفسيرا لمجموع النص القرآني ؟.

لقد كان عياض (فقيها، حافظا لمسائل المختصر والمدونة، قائما عليها، حاذقا بتخريج الحديث من مفهومها، عاقدا للشروط، بصيرا بالفتيا والأحكام والنوازل) (124) الأمر الذي أهله لتولي القضاء، والتصدر للفتيا، والتأليف في الفقه، وكان من شأن ذلك كله أن يحمله على اصطناع منهج الفقهاء في التفسير، وهو يقوم على استنباط الأحكام من الآيات، وتقرير الأدلة للفروع الفقهية.

وكان عياض (من أئمة وقته في الحديث وفقهه وغريبه ومشكله ومختلفه) (125) متمكنا من صحيحه وسقيمه وعلله، وحفظ رجاله ومتونه، أسمعه طويلا، (126) وألف فيه، ولا شك أن مثل هذه المعرفة الواسعة بالحديث كانت كفيلة بأن تدفع بصاحبها، حين يجلس للتفسير، إلى الإفادة من منهج المحدثين في تفسير القرآن . وهو، كما نلمح في نماذجه التي وصلتنا معزوة لأفراد من جيل الصحابة

---

123) قال أبو عمرو الداني المقرىء : اجمعوا على أن عدد آيات القرآن ستة آلاف آية، ثم اختلفوا فيما زاد على ذلك، فمنهم من لم يزد، ومنهم من قال : ومئتا آية وأربع آيات، وقيل : وأربع عشرة، وقيل : وتسع عشرة، وقيل : وخمس وعشرون، وقيل : وست وثلاثون.

أما عدد الآيات في «الشفا» فهي ثلاث وسبعون وخمسمائة.

124) انظر، التعريف بالقاضي عياض : 4.

125) نفسه : 4.

126) نفسه : 12

والتابعين من أمثال ابن عباس، والحسن البصري، يعتمد القرآن، بالدرجة الأولى، في تفسير القرآن، ثم الحديث، والسيرة التي يكتشف في ضوئها أسباب النزول، وظروف النسخ.

وكان عياض على اطلاع واسع بالتاريخ، (عارفا بأخبار الملوك، وتنقل الدول، وأيام العرب وسيرها وحروبها ومقاتل فرسانها، ذاكرا لأخبار الصالحين وسيرهم وأخبار الصوفية ومذاهبهم) (127)، عني بالتأليف في تاريخ مسقط رأسه، وفي تاريخ الدولة القائمة على عصره، وفي تاريخ شيوخه، وفي تاريخ أعلام مذهبه المالكي، ومثل هذا الشغف بالتاريخ والتعلق به كان قمينا بأن يوجه صاحبه، كلما أراد إلى تفسير القرآن، نحو منهج المؤرخين و (الحكائيين) في التفسير، وهو منهج يشغل فيه أصحابه بالقصص والحكايات، والتوسع في ذكر أخبار الأمم والأنبياء والرسل، صحت أم لم تصح.

وكان عياض (حافظا للغة والاغربة والشعر والمثل) (128)، قيما بوجوه القراءات، عارفا بمعانيها، (نحويا، ريانا من الأدب، شاعرا مجيدا... من أكتب أهل زمانه) (129)، ولقد عكست كثير من مؤلفاته، من مثل «المشارق» و «بغية الرائد»، جوانب من ثقافته هذه، وكان من شأن هذا التمكن في العلوم اللسانية، إلى جانب ماكان عليه الرجل من إحساس مرهف، وما كان يمتلكه من ذوق رفيع، أن يغري صاحبه حين يفسر القرآن باحتذاء منهج اللغويين، والنحويين، والبيانيين في التفسير، وهو منهج يقوم في جانبه اللغوي على توضيح اللفظ القرآني وتبيين مدلوله، وفي جانبه النحوي على درس المعنى في التركيبة اللغوية للجملة القرآنية في ضوء الأوجه الاعرابية، وفي جانبه البياني على استكشاف مافي النص القرآني

---

127) نفسه : 5

128) نفسه : 4

129) نفسه : 5

من روعة في الأداء، وإحكام في التعبير، ودقة في التركيب، مما تتشكل منه الصورة البلاغية المعجزة.

وإذن، فإن هذه المناهج المختلفة في التفسير لم تكن لتستعصي على معارض عياض أو تتأبى على مواهبه. ولكننا مع ذلك نجهل أيا منها كان يؤثر بالاصطناع لو أنه ندب نفسه لإفراد القرآن بتفسير كامل، ومن يدري، فلعله كان ألف بينها، أو بين جلها وجمع على نحو ما سيتراءى لنا من خطوط (منهجه) العامة، و (التقريبية) التي سنجتهد في لمها من صفحات «الشفا».

1 ـ عياض مفسرا نقليا :

لعل أول ما يسترعي النظر في تفسير عياض اعتماده فيه بالدرجة الأولى على النقل أو ما اصطلح على تسميته بـ (التفسير المأثور) ويتجلى ذلك من خلال عنايته بإضاءة النص القرآني بالإشارة إلى :

1 ـ أسباب النزول :

يقدم بها، أحيانا، للآيات التي يريد تفسيرها كقوله في سبب نزول «والضحى والليل إذا سجى» السورة (اختلف في سبب نزول هذه السورة. فقيل : كان ترك النبي صلى الله عليه وسلم قيام الليل لعذر نزل به فتكلمت امرأة في ذلك بكلام، وقيل : بل تكلم به المشركون عند فترة الوحي فنزلت السورة (130).

والقاضي عياض يستقصي في إيراد أسباب النزول مختلف الروايات والأقوال مثلما رأينا في المثال السابق، ومثلما نراه يصنع بشيء من التفصيل في الحديث عن أسباب نزول قوله تعالى : **«قد نعلم أنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لايكذبونك»** (131) (قال علي رضي الله عنه : قال أبو جهل للنبي صلى الله

---

130) انظر، الشفا، 1 : 27 ـ 28.

131) الانعام 33. وتتمتها : «ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون».

عليه وسلم : «انا لانكذبك ولكي نكذب بما جئت به» . فأنزل الله تعالى : «فإنهم لا يكذبونك»، الآية. وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم لما كذبه قومه حزن فجاءه جبريل عليه السلام فقال : مايحزنك ؟ قال : كذبني قومي. فقال : انهم يعلمون أنك صادق. فأنزل الله تعالى الآية) (132).

والغالب على عياض حرصه على إسناد سبب النزول إلى رواته. ففي سبب نزول قوله تعالى : «والله يعصمك من الناس» (133) يقول :

(أخبرنا القاضي الشهيد أبو علي الصدفي بقراءتي عليه والفقيه الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله المعافري، قال : حدثنا أبو الحسن الصيرفي، قال : حدثنا أبو يعلى البغدادي، حدثنا أبو علي السنجي، حدثنا أبو العباس المروزي، حدثنا أبو عيسى الحافظ حدثنا عبد بن حميد، حدثنا مسلم بن ابراهيم، حدثنا الحارث بن عبيد عن سعيد الحريري عن عبد الله بن شقيق عن عائشة رضي الله عنها، قالت : كان النبي صلى الله عليه وسلم يحرس حتى نزلت هذه الآية «والله يعصمك من الناس» فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه من القبة، فقال لهم : ياأيها الناس انصرفوا فقد عصمني ربي عز وجل (134).

لكنه، أحيانا، لا يسند الرواية إلى راوى بعينه، وذلك مثلما رأينا في المثال الأول. ونرى في المثال التالي حيث يتحدث عن سبب نزول قوله تعالى : **«لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا»** (135) (قيل : نزلت الآية في وفد بني تميم، وقيل في غيرهم أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فنادوه :

---

132) انظر، الشفا، 1 : 23.

133) المائدة : 67. ونص الآية : «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالاته والله يعصمك من الناس ان الله لا يهدي القوم الكافرين».

134) انظر، الشفا، 1 : 289 ـ 290.

135) النور، 63. وتتمتها : «قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لو اذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم».

«يامحمد يامحمد اخرج إلينا». فذمهم الله تعالى بالجهل ووصفهم بأن أكثرهم لا يعقلون) (136).

وليس يكتفي عياض في بعض الأحيان بإيراد أسباب نزول هذه الآية أو تلك، بل نجده إلى جانب ذلك يفصل القول فيما كان لها من أثر ووقع في نفوس الصحابة. ونجتزىء من ذلك بهذا المثال : (... وقيل : نزلت الآية الأولى (137) في محاورة كانت (138) بين أبي بكر وعمر بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم، واختلاف جرى بينهما حتى ارتفعت أصواتهما. وقيل نزلت في ثابت بن قيس بن شماس خطيب النبي صلى الله عليه وسلم، في مفاخرة بني تميم وكان في أذنيه صمم فكان يرفع صوته فلما نزلت هذه الآية أقام في منزله وخشي أن يكون حبط عمله. ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال : يانبي الله، لقد خشيت أن أكون هلكت، نهانا الله أن نجهر بالقول وأنا امرؤ جهير الصوت. فقال النبي صلى الله عليه وسلم «ياثابت، أما ترضى أن تعيش حميدا، وتقتل شهيدا، وتدخل الجنة». فقتل يوم اليمامة.

وروي أن أبا بكر لما نزلت هذه الآية، قال : «والله يارسول الله لا أكلمك بعدها إلا كأخي السرار» ، وأن عمر كان إذا حدثه كأخي السرار، ماكان يسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعد هذه الآية حتى يستفهمه، فأنزل الله تعالى فيهم : ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم» (139)، وقيل : نزلت ان الذين ينادونك من وراء الحجرات (140)، في غير بني تميم نادوه باسمه.

---

136) انظر، الشفا، 2 : 35.

137) المراد قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون». الحجرات : 2.

138) في النسخة التي اعتمد (وكانت).

139) الحجرات : 3.

140) تتمة الآية «أكثرهم لا يعقلون». الحجرات : 4.

وروى صفوان بن عسال : بينا النبي صلى الله عليه وسلم في سفر إذ ناداه أعرابي بصوت له جهوري : أيا محمد، أيا محمد، فقلت له : اغضض من صوتك فإنك قد نهيت عن رفع الصوت) (141).

2 ـ تفسير القرآن بالقرآن :

وهذا عنصر رئيسي في التفسير النقلي أو التفسير بالمأثور، وهو يقوم على قاعدة أن القرآن يفسر بعضه بعضا كما يقول الزمخشري، (142) ولما كانت بنية (الشفا) ترتكز على مجموعة من الفصول، يصور المؤلف في كل منها جانبا من شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، أو يتناول موضوعا من موضوعات النبوة والأنبياء بصفة عامة فقد استدعى هذا منه ـ كلما استعان بالقرآن ـ أن يورد في كل فصل الآيات التي تشترك، من هذا النحو أو ذاك، في معالجة موضوعه على ذلك ما نقرأه في تفسيره لقوله تعالى : **«لقد جاءكم رسول من أنفسكم..»** (143)، فبعد أن فسر الآية قال : (ومثله في الآية الأخرى قوله تعالى : **«لقد من الله على المومنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم»** (144) الآية، وفي الآية الأخرى **«هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم»** (145) الآية، وقوله تعالى : **«كما أرسلنا فيكم رسولا منكم»** (146) (147).

---

(141) انظر ، الشفا، 2 : 35 ـ 36.

(142) انظر، الكشاف، 1 : 456.

(143) تتمة الآية «عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم» التوبة : 128.

(144) تتمة الآية «يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين» آل عمران : 164.

(145) تتمة الآية «يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين» الجمعة : 2.

(146) تتمة الآية : «يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون» البقرة : 151.

(147) انظر، الشفا، 1 : 11.

3 ـ تفسير القرآن بالسنة :

وهذا عنصر بالغ الأهمية في التفسير بالمأثور. يقوم على استخلاص مفهومات النص القرآني ودلالاته من الحديث النبوي الشريف. وقد أكثر عياض في تفسيره من الاعتماد على الحديث. وهو أمر بدهي بالنسبة لمفسر أجمع المترجمون به على الإشادة بتمكنه من الحديث وتضلعه في علومه.

وهذه بعض الأمثلة :

في تفسيره لقوله تعالى : **«وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين»** (148)، كان مما أورده من الحديث قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «حياتي خير لكم وموتي خير لكم» وقوله : «إذا أراد الله رحمة بأمة قبض نبيها قبلها فجعله لها فرطا وسلفا». وأضاف ـ عياض : (وحكي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام هل أصابك من هذه الرحمة شيء ؟ قال : نعم، كنت أخشى العاقبة فأمنت لثناء الله عز وجل علي بقوله : **«ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين»** (149) (150).

وفي تفسير قوله تعالى : **«وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون، فإذا مضيت تركت فيكم الاستغفار»** (152).

وفي تفسير قوله تعالى : «خذ العفو وامر بالعرف» (153) الآية وقال (روي أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية سأل جبريل عليه السلام

---

(148) الأنبياء : 107.
(149) التكوير : 20 ـ 21.
(150) انظر، الشفا، 1 : 12 ـ 13.
(151) الانفال : 33.
(152) انظر، الشفا، 1 : 38.
(153) تتمة الآية «واعرض عن الجاهلين». الاعراف : 199.

عن تأويلها فقال له : حتى أسأل العالم. ثم ذهب فأتاه فقال : يامحمد، إن الله يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك...) (154).

4 ـ تفسير القرآن بالمنقول عن الصحابة والتابعين :

هذا عنصر آخر وأخير من التفسير بالمأثور، وهو ما نقل عن الصحابة أو روي عن التابعين من أقوال في التفسير وأسباب النزول وما إليهما. وقد استعان عياض كثيرا في تفسيره بهذا العنصر، فنقل في غير ما موضع عن ابن عباس، والسيدة عائشة، وعلي بن أبي طالب وجعفر الصادق، وكعب الأحبار، وسفيان الثوري، والضحاك، ومجاهد، وابن الكلبي، وسعيد بن جبير، والسدي، وقتادة وعطاء بن رباح، ومالك ابن دينار، على أن أكثر هذه الأسماء ورودا في تفسير عياض هو اسم ابن عباس (155) رضي الله عنهما.

والأمثلة من منقوله عن هؤلاء جميعا مما يطالعنا في مختلف الآي التي تناولها بالتفسير، نكتفي ببعضها في الاستشهاد.

في تفسير قوله تعالى : «**وكان تحته كنزلهما**» (156)، نقل قول ابن عباس (لوح من ذهب فيه مكتوب : عجبا لمن أيقن بالقدر كيف ينصت، عجبا لمن أيقن بالنار كيف يضحك، عجبا لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها. أنا الله لاإله إلا أنا محمدا عبدي ورسولي) (157).

---

154) انظر، الشفا، 1 : 78.

155) انظر، على سبيل التمثيل، الشفا، 1 : 14 ـ 134 ـ 148 ـ 153 ـ 154 ـ 155 ـ 160 ـ 161 ـ 181، 2 : 108 ـ 126 ـ 175 الخ.

156) نص الآية «وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته من أمري ذلك تاويل ما لم تستطع عليه صبرا». الكهف : 82.

157) انظر، الشفا، 1 : 134.

وفي تفسير قوله تعالى : «**وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيناكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتومنن به ولتنصرنه، قال : أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا : أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين**» (158) نقل قول علي بن أبي طالب (لم يبعث الله نبيا من آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد في محمد صلى الله عليه وسلم لئن بعث وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ويأخذ العهد بذلك على قومه) (159).

وفي تفسير قوله تعالى : «**وتقليك في الساجدين**» (160) أورد قول مجاهد (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام في الصلاة يرى من خلفه كما يرى من بين يديه) (161).

وفي تفسير قوله تعالى : «**ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل**» (162) قال (أي هديناه صغيرا. قاله مجاهد وغيره، وقال ابن عطاء : اصطفاه قبل ابداء خلقه) (163).

وقد تلمح شخصية عياض المفسر من خلال اعتماد صاحبها الرواية المأثورة في التفسير، قرآنا كانت أو سنة، وأقوال صحابة كانت أو آراء تابعين، شخصية لا تملك القدرة على تجاوز حدود النقل والرواية بالاجتهاد في إبداء الرأي والادلاء

---

(158) آل عمران : 81.
(159) انظر الشفا، 1 : 135.
(160) الشعراء : 219.
(161) انظر، الشفا، 1 : 54.
(162) تتمة الآية : «وكنا به عالمين» الأنبياء : 51.
(163) انظر، الشفا، 1 : 74.

به، وهذا غير صحيح، فإن عياضا كان يفيد، حقا، من الروا ية المأثورة ماوجد إليها سبيلا، ولكنه لم يكن يكتفي بذلك، بل كان غير مامرة يتعقب الأقوال، ويناقش الآراء، ويرد منها ما يرد، ويقرر ما يقرر، ولسنا نحب أن نستكثر من الأمثلة، ولكننا لانجد مفرا من تقديم بعضها :

من ذلك :

(... فإن قلت : فما معنى قوله : «فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك» (164) الآ يتين، فاحذر ـ ثبت الله قلبك ـ أن يخطر ببالك ماذكر بعض المفسرين عن ابن عباس أو غيره من اثبات شك للنبي صلى الله عليه وسلم فيما أوحي إليه وانه من البشر، فمثل هذا لا يجوز عليه جملة، بل قد قال ابن عباس لم يشك النبي صلى الله عليه وسلم ولم يسأل ونحوه عن ابن جبير والحسن، وحكى قتادة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ما أشك ولا أسأل . وعامة المفسرين على هذا، واختلفوا في معنى الآية، فقيل : المراد، قل يامحمد للشاك : إن كنت في شك ـ الآ ية ـ . قالوا : وفي السورة نفسها مادل على هذا التأويل، قوله : قل ياأيها الناس إن كنتم في شك من ديني» (165) ـ الآ ية، وقيل : المراد بالخطاب العرب وغير النبي صلى الله عليه وسلم كما قال : «لئن أشركت ليحبطن عملك» (166) الآ ية. الخطاب له والمراد غيره، ومثله «فلا تكن

(164) تتمة الآية «لقد جاءكم الحق من ربك، فلا تكونن من الممترين» يونس : 94.

(165) تتمة الآية «فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الذي يتوفاكم وأمرت أن أكون من المومنين» يونس : 104.

(166) نص الآية «ولقد أوحي اليك والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين» الزمر : 65.

في مرية مما يعبد هؤلاء» (167) ونظيره كثير. قال بكر بن العلاء : أتراه يقول : «ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله» (168) الآية. وهو صلى الله عليه وسلم كان المكذب فيما يدعو إليه فكيف يكون ممن كذب به، فهذا كله يدل على أن المراد بالخطاب غيره ومثل هذه الآية قوله : «الرحمان فاسأل به خبيرا» (169) المأمور هاهنا غير النبي والنبي صلى الله عليه وسلم، ليسأل النبي صلى الله عليه وسلم، هو الخبير المسؤول لا المستخبر السائل) (170).

وهو في تعقيباته ومناقشاته ينطلق مما كان عنده من ثقافة واسعة في الحديث، واللغة، والأصول، بل أننا نجده يوظف معرفته، أيا كان مجالها، في تأكيد دلائل النبوة وترسيخ علاماتها في النفوس. فلننظر إليه وهو يتصدى بالرد على منكري معجزة انشقاق القمر لنرى كيف أنه لا يعتمد في هذا الرد على معرفته بالتفسير فحسب ولكنه، إلى جانبهما، يستعين بمعرفته في الفلك.

(قال الله تعالى : **«اقتربت الساعة وانشق القمر وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر»** (171) أخبر تعالى بوقوع انشقاقه بلفظ الماضي واعراض الكفرة عن آياته وأجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه) (172).

وهو بعد أن يضيء جوانب الآية بالأحاديث التي تكشف عن ظروف النزول وملابساته، وتشرح ما أوجزت الآية ذكره، يشرع في التعقيب :

---

(167) تتمة الآية : «ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص». هود : 109.

(168) تتمة الآية : «فتكون من الخاسرين» يونس : 95.

(169) نص الآية : «الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش فأسأل به خبيرا» الفرقان : 59.

(170) انظر، الشفا، 2 : 100 ـ 101.

(171) القمر : 1 ـ 2.

(172) انظر، الشفا، 1 : 234.

(وأكثر طرق هذه الأحاديث صحيحة. والآية مصرحة. ولا يلتفت إلى اعتراض مخذول بأنه لو كان هذا لم يخف على أهل الأرض إذ هو شيء ظاهر لجميعهم إذ لم ينقل لنا عن أهل الأرض أنهم رصدوه تلك الليلة فلم يروه انشق ولو نقل إلينا عمن لا يجوز تمالؤهم لكثرتهم على الكذب لما كانت علينا به حجة. إذ ليس القمر في حد واحد لجميع أهل الأرض. فقد يطلع على قوم قبل أن يطلع على الآخرين. وقد يكون من قوم بضدنا ما هو من مقابلهم من أقطار الأرض. أو يحول بين قوم وبينه سحاب أو جبال. ولهذا نجد الكسوفات في بعض البلاد دون بعض. وفي بعضها جزئية وفي بعضها كلية. وفي بعضها لا يعرفها إلا المدعون لعلمها. ذلك التقدير العزيز العليم. وآية القمر كانت ليلا. والعادة من الناس بالليل الهدوء والسكون وايجاف الأبواب وقطع التصرف. ولا يكاد يعرف من أمور السماء شيئا إلا من رصد ذلك واهتبل به. ولذلك مايكون الكسوف القمري كثيرا في البلاد وأكثرهم لا يعلم به حتى يخبر. وكثيرا مايحدث الثقات بعجائب يشاهدونها من أنوار ونجوم طوالع عظام تظهر في الأحيان بالليل في السماء ولا علم عند أحد منها) (173).

ولنا ان نستشف من اختياراته وترجيحاته نفسها جانبا من مكانة الرأي والاجتهاد عنده.

قلت فما معنى قوله تعالى في قصة زيد : «**وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك**» (174) الآية. فاعلم - أكرمك الله - ولا تثرب في تنزيه النبي صلى الله عليه وسلم. عن هذا الظاهر وأن يأمر زيدا بإمساكها وهو يحب تطليقه إياها كما ذكر عن جماعة من المفسرين . وأصح

---

173) نفسه، 1 : 235 ـ 236.

174) تتمة الآية : «واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق من تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكما لكي لا يكون على المومنين حرج في أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا» الأحزاب : 37.

ما في هذا ما حكاه أهل التفسير عن علي بن حسين أن الله تعالى كان أعلم نبيه أن زينب ستكون من أزواجه. فلما شكاها إليه زيد قال له : «أمسك عليك واتق الله وأخفى منه في نفسه ما أعلمه الله به من أنه سيتزوجها مما الله مبديه ومظهره بتمام التزويج وطلاق زيد لها.

وروى نحوه عمرو بن قائد عن الزهري. قال : نزل جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم. يعلمه أن الله يزوجه زينب بنت جحس . فذلك الذي أخفى في نفسه.

ويصحح هذا قول المفسرين في قوله تعالى بعد هذا : **«وكان أمر الله مفعولا»** (175) أي لا بد لك أن تتزوجها. ويوضح هذا أن الله لم يبد من أمره معها غير زواجه لها. فدل أنه الذي أخفاه صلى الله عليه وسلم مما كان أعلمه به تعالى) (176).

ويختم عياض هذا التعقيب القائم على اختيار الرأي السديد وترجيحه.

(وقال أبو الليث السمرقندي فإن قيل فما الفائدة في أمر النبي صلى الله عليه وسلم. لزيد بإمساكها. فهو ان الله أعلم نبيه انها زوجته فنهاه النبي صلى الله عليه وسلم عن طلاقها إذ لم تكن بينهما ألفة وأخفى في نفسه ما أعلمه الله به. فلما طلقها زيد خشي قول الناس يتزوج امرأة ابنه فأمره الله بزواجها ليباح مثل ذلك لأمته. كما قال تعالى : **«لكيلا يكون على المومنين حرج في أزواج أدعيائهم»** (177) وقد كان أمره لزيد بامساكها قمعا للشهوة وردا للنفس عن هواها. وهذا إذا جوزنا عليه أنه رآها فجأة واستحسنها . ومثل هذا لانكرة فيه لما طبع عليه ابن آدم من استحسانه الحسن. ونظرة الفجاة معفو عنها. ثم قمع نفسه عنها وأمر زيدا بإمساكها. وإنما تنكر تلك الزيادات التي في القصة. والتعويل

---

(175) الأحزاب : 37.

(176) انظر، الشفا، 2 : 205 ـ 206.

(177) الأحزاب : 37.

والأولى ماذكرناه عن علي بن حسين وحكاه السمرقندي وهو قول ابن عطاء واستحسنه القاضي القشيري وعليه عول أبو بكر بن فورك، وقال أنه معنى ذلك عند المحققين من أهل التفسير) (178).

5 ـ ولا بد، ونحن بصدد البحث عن ملامح عياض المفسر النقلي، أن نحاول التعرف على موقفه مما روي عن أهل الكتاب من أحاديث وقصص فصل القول فيها عما سكت عنه القرآن، وسكتت عنه السنة الصحيحة، وهو ما يعرف بـ«الإسرائليات».

ولعل أول ما يتبادر إلى الذهن عن موقف عياض، وهو من عرفنا علمه الواسع بالحديث متنا وسندا، أن يكون موقف رفض لهذه الأحاديث والقصص الإسرائيلية التي تحفل بضروب من الطعن في سلوك الأنبياء والرسل، وقد أكد هو نفسه بأن (ماورد من أخباره ـ أي الرسول صلى الله عليه وسلم ـ وأخبار سائر الأنبياء عليهم السلام في الأحاديث مما في ظاهر اشكال يقتضي أمورا لاتليق بهم بحال وتحتاج إلى تأويل وتردد احتمال فلا يجب أن يتحدث منها إلا بالصحيح ولا يروى منها إلا المعلوم الثابت) (179).

وقد طبق عياض هذا الرأي في وقفاته عند بعض المرويات الإسرائيلية : ينتقدها ويبين زيفها، ويكشف عن بطلانها، ومن ذلك ما كتبه حول قصة داود في قوله تعالى : **«وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب»** (180) (وأما قصة داود عليه السلام فلا يجب أن يلتفت إلى ماسطره فيه الاخباريون عن أهل الكتاب الذين بدلوا وغيروا ونقله بعض المفسرين (181) ولم ينص الله على شيء من ذلك، ولا ورد في حديث صحيح) (182).

---

178) انظر، الشفا، 2 : 207 ـ 208.
179) نفسه، 2 : 270 ـ 271.
180) نص الآية : «قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه وأن كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود أنما فتناه فاستغفر وخر راكعا وأناب».
181) انظر، القصة في جامع البيان في تفسير القرآن للطبري، والدر المنثور للسيوطي.
182) انظر، الشفا، 2 : 177.

ثم مضى يستشهد بأقوال المفسرين والمحدثين في دحض الشبهات التي روجها أهل الكتاب حول قصة داود :

(... فمعنى «فتناه» اختبرناه. و «أواب». قال قتادة : مطيع. وهذا التفسير أولى. قال ابن عباس وابن مسعود : ما زاد داود على أن قال للرجل «انزل لي عن امرأتك واكفلنيها» فعاتبه الله على ذلك ونبهه عليه وأنكر عليه شغله بالدنيا. وهذا الذي ينبغي أن يعول عليه من أمره. وقيل خطبها على خطبته. وقيل بل أحب بقلبه أن يستشهد. وحكى السمرقندي أن ذنبه الذي استغفر منه قوله لأحد الخصمين لقد ظلمك، فظلمه بقول خصمه. وقيل بل لما خشي على نفسه وظن من الفتنة بما بسط له من الملك والدنيا.وإلى نفي ما أضيف في الأخبار إلى داود ذهب أحمد بن نصر وأبو تمام وغيرهما من المحققين. قال الداودي : ليس في قصة داود وأوريا خبر يثبت، ولا يظن بنبي محبة قتل مسلم. وقيل : أن الخصمين الذين اختصما اليه رجلان في نتاج غنم على ظاهر الآية) (183).

وهو في دحضه للمفتريات، التي يتضمنها القصص الإسرائيلي الذي حيك للانتقاص من مكانة الأنبياء، يعتمد، بالدرجة الأولى، الصحيح من الحديث المروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. ففي الآية الكريمة «ولقد فتنا سليمان» فمعناه ابتليناه وابتلاءه ما حكي عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال : «لاطوفن الليلة على مائة امراة أو تسع وتسعين كلهن ياتين بفارس يجاهد في سبيل الله. فقال له صاحبه قل : إن شاء الله. فلم يقل. فلم تحمل منهن إلا إمرأة واحدة جاءت بشق رجل. قال النبي صلى الله عليه وسلم. «والذي نفسي بيده لو قال : إن شاء الله» لجاهدوا في سبيل الله» . قال أصحاب المعاني : والشق هو الجسد الذي ألقي على كرسيه حين عرض عليه وهي عقوبته ومحنه...) (185).

---

(183) نفسه، 2 : 177 ـ 178.

(184) ص : 34.

(185) انظر، الشفا، 2 : 181.

وبعد أن أشار إلى بعض الأقوال التي رويت في سبب محنة سليمان، قال :
(ولا يصح مانقله الاخباريون من تشبه الشيطان به وتسلطه على ملكه وتصرفه في أمته بالجور في حكمه لأن الشياطين لا يسلطون على مثل هذا وقد عصم الله الأنبياء من مثاه) (186).

وكذلك نجده يرد ما تناقله بعض المفسرين من قصص إسرائيلي أريد به إلى الطعن في عصمة الملائكه، معتمدا في ذلك على عدم ورود أثر صحيح في الموضوع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال :
(وما ذكر فيها - أي قصة هاروت وماروت - أهل الاخبار ونقلة المفسرين، وما روي عن علي وابن عباس في خبرهما وابتلائهما فاعلم - أكرمك الله - أن هذه الأخبار لم يرو منها شيء لاسقيم ولا صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم) (187).

وبعد أن أشار إلى اختلاف المفسرين حول ما ورد من ذلك في القرآن الكريم (188) وانكار السلف لما قال بعضهم فيه، حدد مصدر هذا الافتراء، فقال :
(وهذه الأخبار عن كتب اليهود وافترائهم كما نصه الله أول الآيات من افترائهم بذلك على سليمان وتكفيرهم إياه) (189).

ثم توجه إلى (ما يكشف غطاء هذه الاشكالات)، على حد تعبيره، في حديث واف وشاف، هو من عيون كتابات عياض في (الشفا).

وهذا موقف عياض الصارم والمتشدد من الأخبار والروايات الإسرائيلية، وهو موقف لم نكن نتوقع سواه من رجل كان من أعلم الناس بالحديث، وأحفظهم له، وأبصرهم بعلله ورجاله، ومن مؤلف كان هدفه الرئيسية من تأليف كتابه، ونريد

---

(186) نفسه، 2 : 182، وانظر القصة في تفسير : 23 : 100 - 102.
(187) نفسه، 2 : 191 - 192.
(188) انظر، البقرة : 102.
(189) انظر، الشفا، 2 : 192.

به «الشفا»، اثبات دلائل النبوة، وترسيخ حقائقها ـ كما أسلفنا الإشارة ـ من خلال نصوص القرآن والسنة.

غير أنه ينبغي الإشارة هنا إلى أن تشدد عياض في نقد تلك الإسرائليات والكشف عن تهافتها لم يحل دون تسرب شيء منها إلى كتابه، لعله، فيما نحسب، من أثر قراءته في روايات السدي والضحاك واضرابهما من المفسرين الذين عرفوا بنزوعهم إلى الخيال والقول (بغير رواية على غير أساس) في عبارة الجاحظ (190). قال عياض حول ابتلاء يعقوب بابنه يوسف :

(وقد حكى ان ابتلاء يعقوب بيوسف كان سببه التفاته في صلاته إليه ويوسف نائم محبة له. وقيل : بل اجتمع يوما هو وابنه يوسف على أكل حمل مشوي وهما يضحكان، وكان لهم جار يتيم فشم ريحه واشتهاه، وبكي وبكت له جدة له عجوز لبكائه وبينهما جدار ولا علم عند يعقوب وابنه، فعوقب يعقوب بالبكاء أسفا على يوسف إلى ان سالت حدقتاه وابيضت عيناه من الحزن، فلما علم بذلك كان بقية حياته يأمر مناديا ينادي على سطحه «الا من كان مفطرا فليتغذ عند آل يعقوب». وعوقب يوسف بالمحنة التي نص الله عليها) (191).

وقد كانت رواية هذه القصة من طرف عياض في «الشفا» مثار دهشة بعض العلماء، ومنهم الدميري (توفي 808 هـ ـ 1405م) الذي قال : (وقد عجبت من القاضي عياض كيف ذكرها ـ أي حكاية ابتلاء يعقوب بيوسف ـ في كتابه. والذي يجب تنزيهه عن هذه الرذيلة. وان كان الطبراني قد روى في معجمه الأوسط والصغير عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، في حديث طويل شيئا من ذلك . وأن يعقوب كان بعد إذا أراد الغذاء أمر مناديا ينادي : الا من أراد الغذاء فليتغذ مع يعقوب. وإذا كان صائما نادى مناد : الا من

(190) انظر، الحيوان، 1 : 343.
(191) انظر، الشفا، 2 : 224 ـ 225.

كان صائما فليفطر مع يعقوب. فإنما رواه الطبراني عن شيخه محمد بن أحمد الباهلي البصري وهو ضعيف جدا) (192).

11 ـ عياض مفسرا لغويا :

ان المادة اللغوية التي نقع عليها في التفسير المدرج في «الشفا» ليست من الوفرة بالدرجة التي تتيح لنا أن نتبين بوضوح وجلاء ملامح عياض مفسرا لغويا. ولكننا مهما يكن من أمر، سنجتهد في الكشف عن بعض هذه الملامح التي لانشك في أنها ستسهم في تأليف هذه الصورة العامة لعياض المفسر.

ويمكننا أن نرصد الملامح اللغوية في تفسير عياض من خلال التفاته إلى :

1 ـ الشرح اللغوي :

يهتم عياض، شأنه في ذلك غيره من المفسرين على اختلاف نزعاتهم، بمعالجة اللفظ القرآني لغويا، أي شرحه واستخلاص معانيه من موقعه في السياق. فلننظر إليه كيف يتناول لفظة الوحي متتبعا دلالاتها المختلفة في مختلف الآي :

(وأما الوحي فأصله الاسراع. فلما كان النبي صلى الله عليه وسلم، يتلقى ما يأتيه من ربه يجعل سمي وحيا. وسميت أنواع الالهامات وحيا تشبيها بالوحي إلى النبي. وسمي الخط وحيا لسرعة حركة يد كتابه. ووحي الحاجب واللحظ لسرعة إشارتهما. ومنه قوله تعالى : **«فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا»** (193) أي أومأورمز. وقيل : كتب. ومنه قوله : الوحا أي السرعة. وقيل : أصل الوحي السر والاخفاء. ومنه سمي الإلهام وحيا. ومنه قوله تعالى : **«وان**

---

192) ورد هذا النص في مقال الشيخ الرحالي الفاروقي عن (شخصية القاضي عياض ومكانته العلمية والاجتماعية). انظر، مجلة الايمان، العدد : 72 ـ 73 ـ ص 16 ـ 17 (صفر وربيع النبوي 1398 ـ يناير وفبراير 1978).

193) نص الآية : «فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم أن سبحوا بكرة وعشيا» مريم : 11.

الشياطين ليوحون إلى أوليائهم» (194)، أي يوسوسون في صدورهم، ومنه قوله : **«وأوحينا إلى أم موسى»** (195) أي ألقي في قلبها، وقد قيل ذلك في قوله تعالى : **«وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا»** (196) أي ما يلقيه في قلبه دون واسطة).

وهو في شروحه اللغوية يستقي من مصادر يسمي أصحابها ويعزو إليهم (ما ينقل عنهم. فحول مادة (نصح) الواردة في قوله تعالى : **«ولا على الذين لايجدون ماينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم»** (197) يكتب :

(قال الإمام أبو (حاتم) (198) السبتي : النصيحة كلمة يعبر بها عن جملة إرادة الخير للمنصوح له، وليس يمكن أن يعبر عنها بكلمة واحدة تحصرها. ومعناها في اللغة الإخلاص من قولهم : نصحت العسل إذا خاصته من شمعه. وقال أبو بكر بن أبي إسحاق الخفاف النصح فعل الشيء الذي به الصلاح والملاءمة مأخوذ من النصاح وهو الخيط الذي يخاط به الثوب. وقال أبو إسحاق الزجاج نحوه) (199).

وحول مادة (عود) في قوله تعالى : **«وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا»** (200) وقوله : **«قد افترينا**

---

194) نص الآية : «ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وانه لفسق وإن الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم انكم لمشركون» الانعام : 121.

195) تتمة الآية : «ان ارضعيه فاذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين» القصص : 7.

196) تتمة الآية : «أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء إنه عليم حكيم» الشورى : 51.

197) أول الآية : «ليس على الضعفاء ولا على المرضى...» : 91.

198) في المطبوع أبو السبتي والصحيح ما أثبتناه.

199) انظر، الشفا، 2 : 30 ـ 31.

200) تتمة الآية : «فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين» ابراهيم : 13.

على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها» (201). قال :

(فلا تشكل عليك لفظة العود وانها تقتضي أنهم إنما يعودون إلى ماكانوا فيه من ملتهم، فقد تأتي هذه اللفظة في كلام العرب لغير ما ليس له ابتداء بمعنى الصيرورة كما جاء في حديث الجهنميين عادوا جمعا ولم يكونوا قبل كذلك. ومثله قول الشاعر :

تلك المكارم لاقعبان من لبن   شيبا بماء فعادا بعد أبوالا (202)

وبالجملة فإن عياضا يبدو في معالجته للفظ القرآني بالشرح صاحب اطلاع واسع على المعجم العربي، وخبرة جيدة بمعاني الألفاظ ودلالتها التي تكتسبها من سياق الجملة في النص القرآني.

2 ـ النحو والاعراب :

من أجل تجلية المعنى وتوضيحه تلفت عياض، في مواضع معدودة، إلى بعض التعليلات النحوية وأوجه الاعراب، يشير إليها إشارة، ليستدل بها على صحة المدلول الذي استقر عنده للآية. ومن ذلك اشارته إلى أن ضمير (ظنوا) في قوله تعالى : «**حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا**» (203) (عائد على الأتباع والأمم لاعلى الأنبياء والرسل، وهو قول ابن عباس والنخعي وابن جبير وجماعة من العلماء...) (204)، واشارته، وهو بصدد نفي كون إبليس من الملائكة، وهو ما يدل عليه ظاهر الآية : «**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين**» (205)، إلى أن (الاستثناء من غير

---

(201) تتمة الآية : «وما يكون لنا أن نعود فيها الا أن يشاء الله ربنا، وسع ربنا كل شيء علما على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين» الأعراف : 89.

(202) انظر، الشفا، 2 : 116.

(203) تتمة الآية : «جاءهم نصرنا فننجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين» يوسف : 110.

(204) انظر، الشفا، 2 : 103.

(205) البقرة : 34.

الجنس شائع في كلام العرب سائغ. وقد قال الله تعالى : **«ما لهم به من علم إلا اتباع الظن»** (206). (207).

3 ـ القـــــراءات :

كان عياض، كما أشرنا من قبل، متمكنا من علم القراءات كأوسع مايكون التمكن وأبعده. ومن ثم فقد كان من المتوقع أن يفيد كثيرا من هذا التمكن فيما يعرض له بالتفسير من الآي التي تعددت القراءة فيها. ولكنه، على عكس ذلك، لم يلتفت إلى الاختلاف بين القراء فيما فسر من آي إلا لماما. ويعلل صديقنا الدكتور الراجي التهامي الهاشمي ذلك بقوله : (أما لماذا لم يظهر أثر القراءات بشكل واضح في فصول «الشفا» فأمر يرجع، فيما اعتقد، إلى أن أبا الفضل لا يوجه كتابه إلى الخواص الذين لاتقنعهم إلا البراهين المستمدة من علم راسخ في العمق وإلا الحجج المعززة بمقدمات ونتائج تحير أولي الألباب وإنما يوجهه إلى العموم الذين يكفيهم لإقناعهم البرهان البسيط والحجة المعتمدة على عاطفة وشعور ديني. لذا ابتعد ما أمكنه الجهد عن القراءات) (208).

وأيما كانت الحال فإن لنا في الوقفات القليلة التي وقفها عياض عند القراءات القرآنية في تفسيره ما يكفينا للدلالة على هذا الملمح من ملامحه كمفسر لغوي.

وقد بدا لنا من خلال تتبعنا لهذه الوقفات أن عياضا كان يقفها، غالبا، من أجل :

---

206) نص الآية : «وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقينا». النساء : 157.

207) انظر، الشفا، 2 : 194.

208) انظر، د. الراجي التهامي الهاشمي، التعريف بكتاب الشفا للقاضي عياض. مجلة الايمان، العدد : 72 ـ 73. ص 102 (صفر وربيع النبوي 1398 ـ يناير وفبراير 1978).

أ ـ استجلاء وجهين في تفسير الآية. ومن هذا القبيل ماكتبه في تفسير قوله تعالى : «**لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمومنين رؤوف رحيم**» (209). ابتدأ بالإشارة إلى اختلاف القراءة في (أنفسكم)، ونقل عن السمرقندي قوله (وقرأ بعضهم من أنفسكم بفتح الفاء. وقراءة الجمهور بالضم) (210). وفي ضوء قراءة الضم جعل عياض يستجلي الوجه الأول في تفسير الآية، قال :

(أعلم الله تعالى المومنين أو العرب أو أهل مكة أو جميع الناس على اختلاف المفسرين من المواجه بهذا الخطاب أنه بعث فيهم رسولا من أنفسهم يعرفونه ويتحققون مكانه، ويعلمون صدقه وأمانته، فلا يتهمونه بالكذب وترك النصيحة لهم لكونه منهم، وأنه لم تكن في العرب قبيلة إلا ولها على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولادة أو قرابة، وهو عند ابن عباس وغيره معنى قوله تعالى : «**إلا المودة في القربى**» (211). (212).

وفي ضوء قراءة الفتح يستجلي عياض، ولكن في إيجاز بالغ، الوجه الثاني في تفسير الآية :

(وكونه من أشرفهم وأرفعهم وأفضلهم على قراءة الفتح، هذه نهاية المدح). (213) ومن هذا القبيل أيضا استجلاؤه، وجهين في تفسير قوله تعالى : «**فإنهم**

---

(209) التوبة : 128.

(210) انظر، الشفا، 1 : 10.

(211) نص الآية : «ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا أن الله غفور شكور» الشورى : 23.

(212) انظر، الشفا، 1 : 10 ـ 11.

(213) نفسه، 1 : 11.

لايكذبونك» (214) على ضوء اختلاف قراءة (يكذبونك) ما بين التخفيف والتشديد.

1 ـ (فمن قرأ «لا يكذبونك» بالتخفيف فمعناه : لا يجدونك كاذبا. وقال الفراء والكسائي : لا يقولون أنك كاذب. وقيل لا يحتجون على كذبك ولا يثبتونه). (215).

2 ـ (ومن قرأ بالتشديد فمعناه : لا ينسبونك إلى الكذب . وقيل لا يعتقدون كذبك) (216).

ب ـ التنبيه إلى مخالفة القراءة للمصحف، ومثال ذلك :

1 ـ قال في قوله تعالى : **«النبيء أولى بالمومنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم»** (217) (وقد قرأ «هو أب لهم» ولا يقرأ به الآن لمخالفته المصحف) (218).

2 ـ قال في قوله تعالى : **«إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم»** (219) (وهذه قراءة الجمهور. وقد قرأ جماعة «فإنك أنت الغفور الرحيم» وليست من المصحف) (220).

ج ـ التنبيه إلى شذوذ القراءة. ففي قوله تعالى : **«وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت»** (221) ذكر أن الحسن وعبد الرحمن بن أبزى قرآ

---

(214) نص الآية : «قد نعلم أنه ليحزنك الذي يقولون فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون» الأنعام : 33.

(215) انظر، الشفا، 1 : 24.

(216) نفسه، 1 : 24.

(217) تتمة الآية : «وأولو الارحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المومنين والمهاجرين الا أن تفعلوا الى أوليائكم معروفا كان ذلك في الكتاب مسطورا» الأحزاب : 6.

(218) انظر، الشفا، 1 : 44.

(219) المائدة : 118.

(220) انظر ، الشفا، 2 : 142.

(221) البقرة : 102.

«الملكين» بالكسر. وقال (والقراءة بالكسر اللام شاذة) (222). وفي رأي عياض أن (القراءة الشاذة غاية أمرها أن تعلم ولا تجوز بها التلاوة ولا الصلاة ولا الحجة» (223) ولذلك رأيناه يوجه تفسيره في ضوء قراءة (الملكين) بالفتح.

4 ـ البلاغـــة :

أبان عياض في بعض ما كتب عن عمله بأسرار البلاغة. وبصره بمصطلحها. كما أبان عن ذائقته الأدبية الرفيعة. وقدرته البالغة على الفهم. وكل أولئك. فضلا عما كان له من شفافية في الإحساس. ورقة في الشعور. كانت برأينا. مفاتيح في يد عياض يستطيع بها. لو شاء. أن يفتح في التفسير البياني للقرآن الكريم أبوابا يدخلها. ومن معه من القراء. إلى عوالم تمور بروعة الفن وجلاله.

وفي تفسيره المدرج في «الشفا» تطالعنا بعض لفتاته إلى ماضمت عليه هذه الآية أو تلك من أساليب بلاغية. يضع يده عليها. ويسميها. ويشرح أثرها في المعنى. ولننظر إليه من خلال هذه الأمثلة :

أ ـ في إشارته إلى قصة الاسراء. وانتهاء الرسول صلى الله عليه وسلم إلى سدرة المنتهى. وتصديق بصره فيما رأى. قال : (ولما كان ما كاشفه صلى الله عليه وسلم من ذلك الجبروت. وشاهده من عجائب الملكوت لاتحيط به العبارات. ولا تستقل بحمل سماع أدناه العقول. رمز عنه تعالى بالايماء والكناية الدالة على التعظيم. فقال تعالى : **«فأوحى إلى عبده ما أوحى»** (224). وهذا النوع من الكلام يسميه أهل النقد والبلاغة بالوحي والإشارة : وهو عندهم أبلغ أبواب الإيجاز. وقال : **«لقد رأى من آيات ربه الكبرى»** (225) انحسرت الأفهام عن تفصيل ما أوحى. وتاهت الأحلام في تعيين تلك الآيات الكبرى) (226).

---

(222) انظر. الشفا. 2 : 194.
(223) انظر. مشارق الأنوار. 2 : 329.
(224) النجم : 10.
(225) النجم : 18.
(226) انظر. الشفا. 1 : 30.

ب - وفي قوله تعالى : «**يد الله فوق أيديهم**» (227) قال : (يريد عند البيعة. قيل قوة الله، وقيل ثوابه منته، وقيل عقده، وهذه استعارات وتجنيس في الكلام وتأكيد لعقد بيعتهم إياه وعظم شأن المبايع صلى الله عليه وسلم) (228).

ج - وفي قوله تعالى : «**فلم تقتولهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى**» (229). قال : (وقد قيل في هذه الآية الأخرى أنها على المجاز العربي ومقابلة اللفظ ومناسبته، أي ما قتلتموهم وما رميتهم إذ رميت وجوههم بالحصباء والتراب ولكن الله رمى قلوبهم بالجزع، أي منفعة الرمي كانت من فعل الله، فهو القاتل والرامي بالمعنى وأنت بالاسم) (230).

ونسوق، إلى هذه الأمثلة، مثالا آخر، مستقره، هذه المرة، في غير «الشفا» يكشف لنا عن أثر ماكان للرجل من إدراك عقلي، ويقظة وجدانية، وذوق رفيع في فهمه لبيان القرآن وبلاغته، ففي حديثه عن الإرداف والتتبيع، وهو - بعبارته - (من أجى وجوه البلاغة، وأرق أنفاس البديع) (231) يقول :

(ومنه قوله تعالى : «**مدهامتان**» (232) فإنه عبر بهذه اللفظة الواحدة الوجيزة والكلمة المفردة البليغة، عن نعمة هذه الجنة، ونضارة ثمارها، وكثرة ريها، وجمال منظرها وتمام حسن أشجارها، ورونق نباتها، بتابع من توابعها، وهي دهمة خضرتها، التي لاتكون إلا مع تناهبي الري، وشباب النبات، وعدم الآفات، وكذلك قوله تعالى في ذكر المسيح وأمه : «**كانا يأكلان الطعام**» (233)، فعبر عن

---

227) نص الآية : «إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسنوتيه أجرا عظيما» الفتح : 10.

228) انظر، الشفا، 1 : 41.

229) تتمة الآية : «وليبلي المومنين منه بلاء حسنا ان الله سميع عليم» الأنفال : 17.

230) انظر، الشفا، 1 : 42.

231) انظر، بغية الرائد : 206.

232) الرحمن : 64.

233) نص الآية : «ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يوفكون» المائدة : 75.

حدوثهما، وأبان عن حلول العوارض البشرية بهما، بحاجتهما إلى أكل الطعام، وكنى بذلك وأشار إلى أن من يأكل الطعام يكون منه الحدث، وكل هذا مناف لصفات الجلال والإلهية، فتضمنت الآية الإرداف والتتبيع والكناية والوحي والإشارة، فإن تحت قوله : «**يأكلان الطعام**» معاني عظيمة، وفصولا كثيرة).

ومثل هذا التناول لآي القرآن، إن دل، من نحو، على بصر صاحبه بالمصطلح البلاغي، فإنه، من نحو آخر، يدل، بوضوح، على وفرة حظه، من اتقاد القريحة، ويقظة الوجدان، هو ما كان يجعله (داركا للمحة وان لطف شأنها، منتبها على الرمزة وان خفي مكانها) (235) على حد تعبير الزمخشري فيما اشترطه في مفسر القرآن.

ولعله مما يتصل بهذه الفقرة، وينور بعض الخلفيات في صورة عياض المفسر أن تعرف رأيه في إعجاز القرآن، وباعتبار أن هذا الموضوع يمثل جانبا بالغ الخطر والشأن من جوانب الموضوع الرئيسي الذي يتمحور حوله «الشفاء»، وهو إثبات دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وآياتها، فقد خصه عياض بفصل من كتابه ضمنه رأيه حول وجوه الاعجاز القرآني وأنواعه في شيء غير قليل من الاسهاب والإفاضة.

وفي رأي عياض أن القرآن وإن كان ينطوي على وجوه من الاعجاز كثيرة إلا أنه يمكن تحصيلها من جهة أنواعها في أربعة وجوه :

أولها يتمثل في (حسن تأليفه، والتئام كلمه وفصاحته، ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب) (236).

وفي هذا الوجه يصف عياض عجز العرب، وهم الذين كان ((الكلام طوع مرادهم والبلاغة ملك قيادهم، قد حووا فنونها، واستنبطوا عيونها) (237)، عن

---

234) انظر، بغية الرائد : 206 ـ 207.

235) انظر، الزمخشري، الكشاف، 1 : 17.

236) انظر، الشفا، 1 : 212.

237) نفسه، 1 : 213.

معارضة القرآن ومماثلته. وهو يصف في هذا الوجه أيضا مظاهر الجمال والإحكام في الصياغة القرآنية.

أحكمت آياته، وفصلت كلماته، وبهرت بلاغته العقول، وظهرت فصاحته على كل مقول، وتظافر إيجازه واعجازه، وتظاهرت حقيقته ومجازه، وتبارت في الحسن مطالعه ومقاطعه، وحوت كل البيان جوامعه وبدائعه، واعتدل مع إيجازه حسن نظمه، وانطبق على كثرة فوائده مختار لفظه... ثم هو في سرد القصص واخبار القرون السوالف التي يضعف في عادة الفصحاء عندها الكلام، ويذهب ماء البيان آية لمتأمله من ربط الكلام بعضه ببعض، والتئام سرده، وتناصف وجوهه كقصة يوسف على طولها، ثم إذا ترددت قصصه اختلفت العبارات عنها على كثرة حتى تكاد كل واحدة تنسي في البيان صاحبتها، وتناصف في الحسن وجه مقابلتها، ولا نفور للنفوس من ترديدها، ولا معاداة لمعادها (238).

وثاني وجوه الإعجاز القرآني في رأي عياض يتمثل في (صورة نظمه العجيب والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها الذي جاء عليه، ووقفت مقاطع آيه، وانتهت فواصل كلماته إليه، ولم يوجد قبله ولا بعده، نظير له، ولا استطاع أحد مماثله شيء منه بل حارت فيه عقولهم وتدلهت دونه أحلامهم، ولم يهتدوا إلى مثله في جنس كلامهم من نثر أو نظم أو سجع أو رجز أو شعر) (239).

والوجه الثالث للاعجاز القرآني عند عياض هو (ما انطوى عليه من الأخبار بالمغيبات وما لم يكن ولم يقع فوجد كما ورد على الوجه الذي أخبر) (240).

أما الوجه الرابع والأخير فهو (ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة، والأمم البائدة والشرائع الدائرة، مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أحبار أهل الكتاب الذي قطع عمره في تعلم ذلك، فيورد النبي صلى الله عليه وسلم على

238) نفسه، 1 : 213 ـ 414، 217 ـ 218.

239) نفسه، 1 : 218.

وجهه، ويأتي به على نصه، فيعترف العالم بذلك بصحته وصدقه، وأن مثله لم ينله بتعليم، وقد علموا أنه صلى الله عليه وسلم أمي لا يقرأ ولا يكتب ولا اشتغل بمدرسة ولا مثافنة ولم يغب عنهم ولا يجهل حاله أحد منهم...) (241).

والملاحظ أن الوجهين الأولين من هذه الوجوه الأربعة الإعجاز القرآني في نظر عياض يمكن ردهما إلى وجه واحد هو الوجه المتبدي في إعجاز الصورة البيانية للقرآن أو ما اصطلح على تسميته بـ (نظم القرآن).

وقد كان هذا الوجه مدار أبحاث الدارسين للاعجاز القرآني من كتابات الجاحظ (توفي 235 هـ) إلى كتابات معاصري عياض من مثل الزمخشري (توفي 538 هـ) في المشارقة، وابن عطية (توفي 541 هـ) في الأندلسيين.

والحقيقة أن عياضا لم يضف جديدا إلى البحث في هذا الوجه من الاعجاز يمكن أن يتميز به دون غيره من الدارسين له ويتفرد، لكننا لانشك في أنه كان بوسعه، وهو المتفنن في علوم البلاغة، والمتمرس بالأساليب العربية، فضلا عما وهب من استرسال في الطبيعة، ويقظة في الوجدان، أن يجري قلمه في أبحاث تطبيقية حول النظم القرآني، ما كان ليقصر فيها بحال عن شأو المبرزين فيها وخاصة عصريه الزمخشري.

وفضلا عن هذه الوجوه الأربعة للاعجاز القرآني التي وصفها عياض بـ (أنها بينة لانزاع فيها ولا مرية (242)، أورد وجوها أخرى وصفها، أيضا بينة. (243) وقد لاحظنا أن بعضها مما أدرجه غيرها عياض من الدارسين في الاعجاز بالصدق في الاخبار عن الغيب من مثل قوله تعالى : «**قل ان كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين، ولن**

---

240) نفسه، 1 : 221.
241) نفسه، 1 : 223.
242) نفسه، 1 : 225.
243) نفسه، 1 : 225.

يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين» (244). وقوله : **«وإن كنتم في ريب مما أنزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين»** (245) وقد قال عياض نفسه عن هذه الآية الأخيرة بأنها أدخل في باب الاخبار من أولئك الكافارين عن الغيب (245). ومن تلك الوجوه ما تمثله عياض في (الروعة التي تلحق قلوب سامعيه ـ أي القرآن ـ والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته لقوة حاله، وانافة خطره، وهي على المكذبين به أعظم، حتى كانوا يستثقون سماعه «ويزيدهم نفورا» كما قال تعالى : ويودون انقطاعة لكراهيتهم له) (247).

وعلق الأستاذ عبد الكريم الخطيب على رأي عياض بقوله : (وهذا الوجه هو في رأينا عمدة وجوه الاعجاز في القرآن، إن لم يكن وحده وجه اعجاز القرآن فالروعة التي تلحق قلوب سامعيه عند سماعه، والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته هي مناط اعجازه، وهي المعجزة القائمة فيه أبد الدهر... وقد رأيت أن القاضي عياض قد جعل هذا الوجه حاشية في وجوه الاعجاز، وهو الوجه الذي من حقه ـ في رأينا ـ أن يكون وجه الاعجاز وحده) (248).

وختم عياض الفصل الذي عقده في اعجاز القرآن بطائفة من وجوه أخرى للاعجاز قال بأن جماعة من الأئمة ومقلدي الأمة عذرها فيه. (249) في حين أن بعضها معدود باعترافه هو، في فضائله ـ أي القرآن ـ وخواصه (250).

---

(244) البقرة : 94 ـ 95.
(245) البقرة : 23 ـ 24.
(246) الشفا، 1 : 226.
(247) نفسه، 1 : 227.
(248) انظر، عبد الكريم الخطيب، الإعجاز في دراسات السابقين : 318.
(249) انظر، الشفا، 1 : 229.
(250) نفسه، 1 : 223.

وبعد :

فإن تركيب صورة ما من أجزاء لها مبعثرة هنا وهناك ليس بالأمر الهين، الميسور.. ومع ذلك فإن لنا أن نتساءل في ختام هذا العرض.

هل في هذه (الملامح) التي اجتهدنا في جمعها والتأليف بينها ما يسعف في استجلاء (جوانب) من صورة عياض المفسر ؟

ذلك هو الرجاء....

ومن الله نستلهم الهداية والتوفيق.

الملحق الأول

سورة (والضحى)

«بسم الله الرحمان الرحيم، والضحى، والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى وللآخرة خير لك من الأولى، ولسوف يعطيك ربك فترضى، ألم يجدك يتيما فآوى، ووجدك ضالا فهدى، ووجدك عائلا فأغنى، فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر، وأما بنعمة ربك فحدث».

اختلف في سبب نزول هذه السورة فقيل كان ترك النبي صلى الله عليه وسلم قيام الليل لعذر نزل به فتكلمت امرأة في ذلك بكلام. وقيل : بل تكلم به المشركون عند فترة الوحي فنزلت السورة. قال الفقيه القاضي عياض وفقه الله تعالى : تضمنت هذه السورة من كرامة الله تعالى له وتنويهه به وتعظيمه إياه ستة وجوه.

الأول : القسم له عما أخبره به من حاله بقوله تعالى : **«والضحى والليل إذا سجى»** أي ورب الضحى وهذا من أعظم درجات المبرة.

الثاني : بيان مكانته عنده. وحظوته لديه بقوله تعالى : **«ما ودعك ربك وما قلى»** أي ما تركك وما. أبغضك وقيل ما أهملك بعد أن اصطفاك.

الثالث : قوله تعالى : **«وللآخرة خير لك من الأولى»** قال ابن إسحاق أي مآلك في مرجعك عند الله أعظم مما أعطاك من كرامة الدنيا.

(•) انتخبنا من (الشفا) نماذج من كتابات عياض المفسر، ندرج بعضها في هذه الملاحق تتميما للفائدة.

(•) انظر، الشفا، 1 : 27 ـ 29.

وقال سهل أي ما ادخرت لك من الشفاعة والمقام المحمود خير لك مما أعطيتك في الدنيا.

الرابع : قوله تعالى : **«ولسوف يعطيك ربك فترضى»** وهذه آية جامعة لوجوه الكرامة وأنواع السعادة وشتات الانعام في الدارين والزيادة.

قال ابن إسحاق يرضيه بالفلاح في الدنيا والثواب في الآخرة وقيل الحوض والشفاعة.

وروى عن بعض آل النبي صلى الله عليه وسلم. أنه قال ليس آية في القرآن أرجى منها ولا يرضى رسول الله صلى الله عليه وسلم. أن يدخل أحد من أمته النار.

الخامس : ما عده تعالى عليه من نعمه وقرره من آلائه قبله في بقية السورة من هدايته إلى ما هداه له أو هداية الناس به على اختلاف التفاسير ولا مال له فأغناه بما آتاه. أو بما جعله في قلبه من القناعة والغنى. ويتيما فحدب عليه عمه وآواه إليه. وقيل آواه إلى الله. وقيل يتيما لا مثال لك فآواك إليه. وقيل المعنى ألم يجدك فهدى بك ضالا وأغنى بك عائلا وآوى بك يتيما.

ذكره بهذه المنن. وأنه على المعلوم من التفسير لم يهمله في حال صغره وعليته ويتمه وقبل معرفته به ولا ودعه ولا قلاه. فكيف بعد اختصاصه واصطفائه.

السادس : أمره بإظهار نعمته عليه. وشكر ما شرفه به بنشره. واشادة ذكره. بقوله تعالى : **«وأما بنعمة ربك فحدث»** فإن من شكر النعمة التحدث بها. وهذا خاص له عام لأمته.

الملحق الثاني

قصة هاروت وماروت

قصة هاروت وماروت وما ذكر فيها أهل الأخبار ونقله المفسرون. وما روى عن علي وابن عباس في خبرهما وابتلائهما. فاعلم أكرمك الله أن هذه الأخبار لم

(●) انظر، الشفا، 2 : 191 ـ 194.

يرو منها شيء لا سقيم ولا صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس هو شيئا يؤخذ بقياس الذي منه في القرآن اختلف المفسرون في معناه، وأنكر ما قال بعضهم في كثير من السلف كما سنذكر هذه الأخبار من كتب اليهود وافترائهم كما نصه الله أول الآيات من افترائهم بذلك على سليمان وتكفيرهم إياه وقد انطوت القصة على شنع عظيمة، وها نحن نخبر في ذلك ما يكشف غطاء هذه الاشكالات إن شاء الله.

فاختلف أولا في هاروت وما روت هل هما ملكان أو انسييان ؟ وهل هما المراد بالملكين أم لا ؟ وهل القراءة ملكين أو ملكين ؟ وهل ما في قوله وما أنزل، وما يعلمان من أحد نافية أو موجبة ؟ فأكثر المفسرين أن الله تعالى امتحن الناس بالملكين لتعليم السحر وتبينه، وأن عمله كفر فمن تعلمه كفر ومن تركه آمن، قال الله تعالى : **«إنما نحن فتنة فلا تكفر»** وتعليمهما الناس له تعليم إنذار، أي يقولان لمن جاء يطلب تعلمه لاتفعلوا كذا، فانه يفرق بين المرء وزوجه ولا تتخيلوا بكذا فإنه سحر فلا تكفر، فعلى هذا فعل الملكين طاعة تصرفهما فيما أمرا به ليس بمعصية وهي لغيرهما فتنة.

وروى ابن وهب عن خالد بن أبي عمران أنه ذكر عنده هاروت وماروت وأنهما يعلمان السحر فقال نحن ننزههما عن هذا، فقرأ بعضهم وما أنزل على الملكين، فقال خالد : لم ينزل عليهما، فهذا خالد على جلالته وعلمه نزههما عن تعليم السحر الذي قد ذكر غيره انهما مأذون لهما في تعليمه، بشريطة أن يبينا أنه كفر وأنه امتحان من الله وابتلاء، فكيف لا ينزههما عن كبائر المعاصي والكفر المذكورة في تلك الأخبار وقول خالد لم ينزل، يريد أن ما نافية وهو قول ابن عباس، قال مكي : وتقدير الكلام وما كفر سليمان يريد بالسحر الذي افتعلته عليه الشياطين وأتبعهم في ذلك اليهود وما أنزل على الملكين.

قال مكي : هما جبريل وميكائيل ادعى اليهود عليهما المجيء به كما ادعوا على سليمان فأكذبهم الله في ذلك **«ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت»** وقيل هما في ذلك رجلان تعلماه.

قال الحسن «هاروت وماروت علجان من أهل بابل. وقرأ وما أنزل على الملكين بكسر اللام وتكون ما ايجابا على هذا. وكذلك قراءة عبد الرحمن بن ابزى بكسر اللام ولكنه قال الملكان هنا داود وسليمان وتكون ما نفيا على ماتقدم. وقيل ملكين من بني إسرائيل فمسخهما الله حكاه السمرقندي والقراءة بكسر اللام شاذة. فمحمل الآية على تقدير أبي محمد مسكي حسن ينزه الملائكة ويذهب الرجس عنهم ويطهرهم تطهيرا وقد وصفهم الله بأنهم مطهرون. وكرام بررة. ولا يعصون الله ما أمرهم.

الملحق الثالث

في إعجاز القرآن

الوجه الثاني من إعجازه صورة نظمه العجيب والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها الذي جاء عليه. ووقفت مقاطع آيه. وانتهت فواصل كلماته إليه ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له. ولا استطاع أحد مماثله شيء منه بل حارت فيه عقولهم وتدلهت دونه أحلامهم. ولم يهتدوا إلى مثله في جنس كلامهم من نثر أو نظم أو سجع أو رجز أو شعر.

والأخبار في هذا صحيحة كثيرة والاعجاز بكل واحد من النوعين الايجاز والبلاغة بذاتها. والأسلوب الغريب بذاته. كل واحد منها نوع اعجاز على التحقيق لم تقدر العرب على الاتيان. بواحد منهما اذ كل واحد خارج عن قدرتها مبايـن لفصاحتها وكلامها. وإلى هذا ذهب غير واحد من أئمة المحققين وذهب بعض المقتدى بهم إلى أن الاعجاز في مجموع البلاغة والأسلوب وأتي على ذلك بقول تمجه الاسماع وتنفر منه القلوب. والصحيح ما قدمناه والعلم بهذا كله ضرورة وقطعا. ومن تفنن في علوم البلاغة وارهق خاطره ولسانه أدب هذه الصناعة لا (يخف عليه ماقلناه. وقد اختلف أئمة أهل السنة في وجه عجزهم عنه. فأكثرهم

(●) انظر، الشفا، 1 : 218 ـ 219 ـ 221.

يقول انه مما جمع في قوة جزالته ونصاعة ألفاظه وحسن نظمه وإيجازه وبديع تأليفه وأسلوبه. لا يصح أن يكون في مقدور البشر وأنه من باب الخوارق الممتنعة عن أقدار الخلق عليها كإحياء الموتى وقلب العصا وتسبيح الحصا. وذهب الشيخ أبو الحسن إلى أنه مما يمكن أن يدخل مثله تحت مقدور البشر ويقدرهم الله عليه ولكنه لم يكن هذا ولا يكون. فمنعهم الله هذا وعجزهم عنه، وقال به جماعة من أصحابه. وعلى الطريقتين فعجز العرب عنه ثابت وإقامة الحجة عليهم بما يصح أن يكون في مقدور البشر وتحدهم بأن يأتوا بمثله قاطع وهو أبلغ التعجيز. وأخرى بالتقريع والاحتجاج بمجيء بشر مثلهم بشيء ليس من قدرة البشر لازم. وهو أبهر آية وأقمع دلالة وعلى كل حال فما أتوا في ذلك بمقال بل صبروا على الجلاء والقتل وتجرعوا كاسات الصغار ونسوخ الذل. وكانوا من شيوخ الانف واباءة الضيم بحيث لا يؤثرون ذلك اختبارا ولا يرضونه إلا اضطرارا. والا فالمعاوضة لو كانت من قدرهم والشغل بها أهون عليهم. وأسره بالنجح وقطع المذر واقحام الخصم لديهم وهم ممن لهم قدرة على الكلام وقدرة في المعرفة به لجميع الانام. وما منهم إلا من جهد جهده واستنفد ما عنده في اخفاء ظهوره واطفاء نوره. فما خلوا في ذالك. خبيثة من بنات شفاهم ولا أتوا بنطفة من معين مياههم مع طول الأمد وكثرة العدد وتظاهر الولد وما ولد. بل أبلسوا فما نبسوا. ومنعوا فانقطعوا.

المصادر والمراجع

1 ـ القرآن الكريم.

2 ـ أزهار الرياض في أخبار عياض.
شهاب الدين بن محمد المقري التلمساني. ج (1). تحقيق سعيد أحمد أعراب ومحمد بن تاويت. (مطبعة فضالة ـ المحمدية ـ المغرب) (بدون تاريخ).

3 ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب.
أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر. تحقيق محمد علي البجاوي، مكتبة نهضة مصر القاهرة (بدون تاريخ).

4 ـ الاعجاز في دراسات السابقين.
عبد الكريم الخطيب. ط دار المعرفة للطباعة والنشر (بيروت).
5 ـ بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد.
القاضي عياض بن موسى اليحصبي السبتي. تحقيق صلاح الدين بن أحمد الادلبي ومحمد الحسن أجانف، ومحمد عبد السلام الشرقاوي، ط وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (مديرية الشؤون الإسلامية) المملكة المغربية ـ 1393 هـ ـ 1975.
6 ـ تاريخ جامعة القرويين.
د. عبد الهادي التازي. ط . دار الكتاب اللبناني ـ بيروت (بدون تاريخ).
7 ـ تاريخ علماء الأندلس.
عبد الله بن محمد ابن الفرضي ط. الدار المصرية للتأليف والترجمة (1966).
8 ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك. القاضي عياض بن موسى .
ج (1). ط. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. المغرب (بدون تاريخ).

9 ـ التعريف بالقاضي عياض.
لولده أبي عبد الله محمد. تقديم وتحقيق د. محمد بن شريفة. منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة (بدون تاريخ).
10 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن.
محمد بن جرير الطبري . الحلبي (1954).
11 ـ الحيـــــــــوان.
أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. ط الحلبي.
12 ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور.
عبد الرحمن السيوطي . ط. طهران (1377 هـ).
13 ـ الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب.
الطبعة الأولى (1329 هـ).
14 ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفى. جزآن.
القاضي عياض. ط. مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني. القاهرة.
15 ـ صحيح البخاري.
أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري. المطبعة العثمانية ـ مصر 1932م.

16 ـ صحيح مسلم.
أبو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري. مطبعة السعادة. مصر، 1928م.
17 ـ طبقات المفسرين.
عبد الرحمن السيوطي. ط. طهران (1960).
18 ـ طبقات المفسرين.
19 ـ الغنية (فهرسة شيوخ عياض).
القاضي عياض. تحقيق د. محمد بن عبد الكريم، ط الدار العربية للكتاب (ليبيا ـ تونس).
20 ـ فهرسة ابن عطية.
عبد الحق بن عطية المحاربي (مصورة خاصة).
21 ـ الكشاف.
محمد بن عمر الزمخشري. الطبعة الثانية ـ المكتبة التجارية. القاهرة (1953).
22 ـ مشارق الأنوار على صحاح الآثار.
القاضي عياض. ط. المكتبة العتيقة ـ دار التراث.
23 ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.
محمد فؤاد عبد الباقي. دار ومطابع الشعب (بدون تاريخ).
24 ـ معجم المحدثين والمفسرين والقراء بالمغرب الأقصى.
عبد العزيز بنعبد الله (1392هـ ـ 1972م).
25 ـ المقدمة.
عبد الرحمن بن خلدون ط. بيروت (بدون تاريخ).
26 ـ مجلة الإيمان (عدد خاص بالقاضي عياض).
العدد 72 ـ 73. صفر ـ ربيع النبوي 1398 هـ يناير ـ فبراير 1978م).

فهرس الجزء الأول من ندوة القاضي عياض

تم الجزء الأول بحمد الله
ويله الجزء الثاني إن شاء الله

رقم الإيداع القانوني 318 – 1983

مطبعة فضالة ـ المحمدية

1404 هـ ـ 1983 م